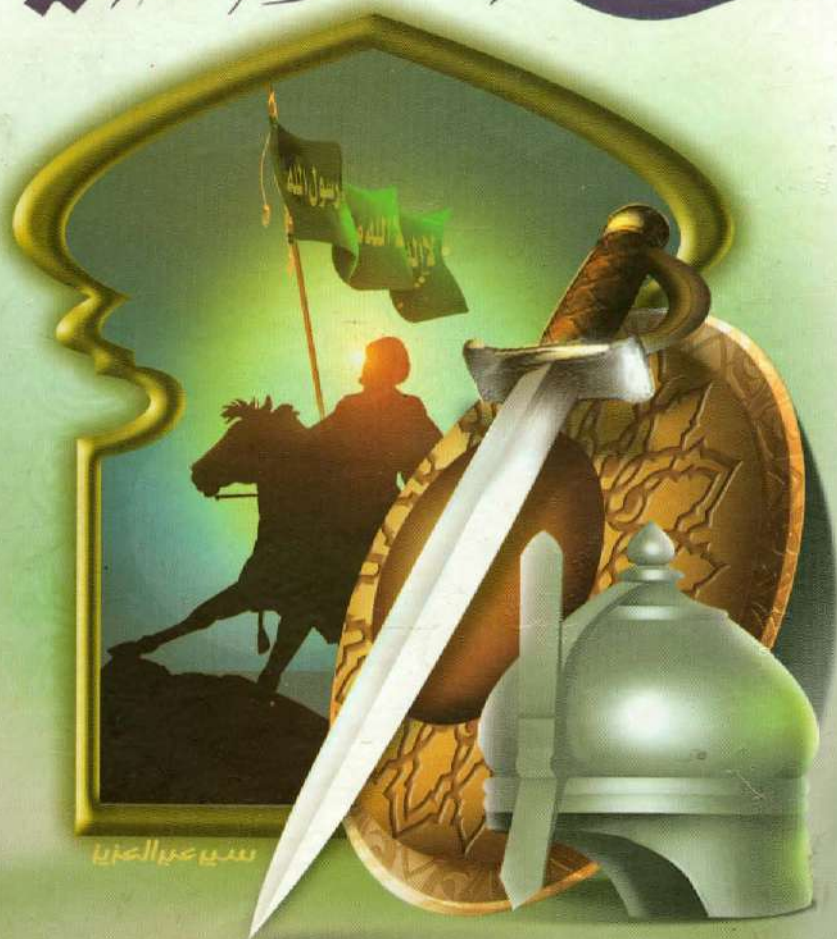


أبطال الفتح الإسلامي



رسالة عبد العزيز

محمد عيسى قطب

رسالة الدعوة

من أبطال الفتح الإسلامي

- | | |
|-------------------------|------------------------------------|
| ١١- حذيفة بن اليمان | ١- النعمان بن مقرن |
| ١٢- محمد بن القاسم | ٢- حسان بن النعمان |
| ١٣- قتيبة بن مسلم | ٣- معاوية بن حديج |
| ١٤- موسى بن نصير | ٤- عقبة بن نافع |
| ١٥- طارق بن زياد | ٥- عبد الله بن سعد بن أبي السرح |
| ١٦- عبد الرحمن الغافقي | ٦- الشهيد نور الدين محمود |
| ١٧- السمح بن مالك | ٧- الناصر صلاح الدين الأيوبي |
| ١٨- عبد الرحمن الناصر | ٨- الملك المظفر (سيف الدين قطز) |
| ١٩- يوسف بن تاشفين | ٩- الملك الظاهر (بيبرس البندقداري) |
| ٢٠- السلطان محمد الفاتح | ١٠- صقر قريش عبد الرحمن الداخل |

محمد علي قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للطبع والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع القانوني، ٢٠٠٦/٢١٩٩

الترقيم الدولي: 1 - 387 - 253 - 977 I.S.B.N.

دار الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

مقدمة

التأمل في سيرة أبطال الفتح الإسلامي يجد عجباً: أنهم ما سقطت لهم راية - ونادراً ما سقطت - إلا في حالين: حال النزاع، وحال الاغترار بقوة الذات وإمكانات البشر، أما بخلاف ذلك فسيرتهم كتاب انتصارات، وتاريخ أمة مؤمنة، سطرت بجهادها وإيمانها أعظم حضارة وأرقى مدنية. فإذا كانت الانتصارات تغرى أصحابها بالجوهر والظلم والطغيان، فإن انتصارات هؤلاء الأبطال كانت نوراً وفتحاً وضياءً لأهل البلاد التي فتحوها، وإنك لتعجب من تحول أهل هذه البلاد، وفي فترات وجيزة للغاية، من محاربين أو كارهين لجيوش المسلمين، إلى جنود منضوين تحت راية الإسلام، يقاتلون - جميعاً - من كفر بالله وآذى رسوله وأوليائه.

إن التمكين للمؤمنين في الأرض له شروطه وقوانينه، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] وبالتالي فلا تظن أن النصر كان حليف هؤلاء الأبطال لعبقرياتهم العسكرية أو لمواهبهم الشخصية، إطلاقاً، نعم كان منهم العباقرة والأفذاذ، لكنهم جميعاً خرجوا من بيئة صحراوية قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وبها من الضلال والزيف والخلافة ما يجعلهم أعجز الناس عن التعامل مع البشر أو تأسيس حضارة.. لكنهم - للحق - كانوا كمن تعرض لصدمة كهربائية عنيفة أفقدته ذاكرته وأنشأت بديلاً عنها ذاكرة إسلامية راشدة، صنعتها يد العناية الإلهية ورعتها وروتها يد النبي الأعظم محمد ﷺ. . فصار التبت زرعاً يانعاً لاشية فيه، بل يعجب الزراع في كل وقت وحين.

إن راية الحق التي حملها هؤلاء الأفذاذ - لقرون عدة - ما زالت ترفرف، ومنذ مئات السنين، فوق أركان الدنيا الأربعة، وإن جهادهم وتضحياتهم هما اللذان أبقيا كلمة التوحيد في كل أنحاء المعمورة حتى الآن - هذا بعد فضل الله - وإنا اليوم في أمس الحاجة إلى دراسة سيرة هؤلاء المؤمنين المخلصين، لم كانت كل هذه التضحيات من جانبهم، وكيف كانت، ولماذا صبر هؤلاء على القتل والعذاب

والآلام، دون تأوه أو ألم، بل إنهم كانوا يستعذبون هذه الآلام... حتى إن أحدهم ليخرج من بيته شاباً لم يكمل العشرين من عمره فلا يعود إليه إلا كهلاً، يقضى هذه السنين جميعاً في جهاد بل انقطاع وقتال بلا هوادة ورباط دائم ومستمر... وهذا مما لا شك فيه قد جبلهم على العطاء والبذل... في انتظار أملين كريمين لا ثالث لهما: إما نصر وإما شهادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١١-١٣]... وهذا سر بذلهم العظيم.

الله أسأل أن يتقبل جهادهم، وأن يجعلنا خير لحلف لخير سلف.

المؤلف

١- النعمان بن مقرن

بيت بنى «مقرن»:

كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يحاصرون «خير» فى أوائل سنة سبع من الهجرة ، فى نهاية شهر «المحرم» وقد لقوا يومئذ جهداً جهيداً فى الحصار وفى القتال .

لكن الله تعالى فتح عليهم فتوحاً عظيمة ، تعددت أشكالها ، وتنوعت صورها ، إذ جاءهم ، وهم فى أوج المعركة ، وفد «مُزينة» مسلماً مؤمناً ، على رأسهم بيت «بنى مقرن» وكانوا عبدة إخوة: «النعمان» و «نعيم» و «سويد» و «عبدالله» . . . ، وقد زاد عدد الوفد على أربعمائة .
فانضموا إلى المسلمين ، وأبلوا يومئذ بلاءً حسناً .

وكانت الضربة القاصمة التى وجهها «على بن أبى طالب» - رضى الله عنه - لفارس اليهود «مرحب» فأوقعت فى قلوب الذين كفروا الرعب ، وبدأت حصونهم تنهارى واحداً يتلو الآخر ، ورجالهم يقعون فى الأسر ، ونساؤهم وذرائعهم فى السبى ، وكنوزهم يحوزها المسلمون .

وأيضاً . . . وُصُول مهاجرى الحبشة - بعد طول غياب - وعلى رأسهم «جعفر ابن أبى طالب» - رضى الله عنه - مما جعل رسول الله ﷺ يقول : (لا أدرى بأيهما أفرح.. بفتح خير.. أم بقدوم «جعفر»..).

وكذلك وصول الأشعرين من اليمن بقيادة «أبى موسى الأشعرى» - عبدالله بن قيس - رضى الله عنه - . وهكذا تنامت فرحة الفتوحات المتعاقبة المتلاحقة يوم «خير» على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين .

ولقد كان ذلك اليوم هو الإطلالة الأولى لبطلنا « النعمان » - رضى الله عنه - على ساحة الإسلام وميدان الإيمان ، فارساً مجلياً ومؤمناً صادق الإيمان ، وصاحب عزيمة لا تقبل .

ومن ثم رافق النبي ﷺ إلى بيت الله الحرام معتمراً عمرة القضاء، وكحل عينيه بأنوار البيت العتيق وتشبعت روحه المتوثبة بالإيمان والإسلام إلى الجهاد فى سبيل الله .

ولما كان يوم الفتح - فتح مكة - ، وقد وقف «العباس بن عبد المطلب» - رضى الله عنه بـ « أبى سفيان » - صخر بن حرب بن أمية - عند « مر الظهران » - حسبما أمره رسول الله ﷺ ليرى قوة جيوش الإسلام المتدفقة كالسيل فيكون ذلك أنكى فى نفسه وأشد تأثيراً، لعله يرجع إلى قومه فى مكة ينذرهم ويحذرهم ويدعوهم إلى السلم .

فى تلك اللحظات ... كان «أبو سفيان» كلما مرت به طائفة من جند المسلمين، فى راياتها وسلاحها يسأل عنها «العباس» فيجيبه، حتى مرت «مزينة» يتقدمها «النعمان»، فقال أبو سفيان :

-.. ومن هؤلاء يا «أبا الفضل» ؟

فأجاب العباس :

-.. هذه «مزينة»!..!

فقال «أبو سفيان» وهو يتجرع الغصص :

-.. مالى ول «مزينة» .. مالى ول «مزينة» ؟!

وتم الفتح العظيم ...

ثم كانت « حنين » و« الطائف » ولقد أبدى « النعمان » وإخوته وقبيلته من صدق المواقف مع الله ورسوله ما شد إليه الأنظار، وبوآء من الصحابة مركزاً مرموقاً، ومكانة محترمة .

ولقد لازم « النعمان » وإخوته ومن معه من قبيلته « المدينة المنورة » وأقاموا بها ، لا يرون بديلاً عن قربهم من رسول الله ﷺ .

لم يكونوا عالة على الناس ، أو ضغثاً على إباله ، بل كانوا طليعة من طلائع الجيش الإسلامى ، إلى جانب الأنصار والمهاجرين ، وعدة يحسب لها ألف حساب ؛ فإذا ما دعا الداعى كانوا فى المقدمة .

الردة ... و « النعمان » و « هزينة » :

وهاك يوم « الردة » مسلمين ثابتين مجاهدين .

لقد كانت الردة من أخطر ما واجه الإسلام فى عفوان شبابه ، وفتوة كيانه ، وإن نسى بعض الناس - أو تناسوا - ما كان لـ « أبى بكر » - رضى الله عنه - من سبق وصحبة ، فلا ينسوا موقفه يوم الردة .

لقد أطلت فتنة الجاهلية بقرونها على ديار الإسلام عقب وفاة رسول الله ﷺ ، فارتدت أكثر القبائل عن الإسلام ... وزعم بعض المهووسين النبوة ، أمثال « مسيلمة » و « طلحة بن خويلد » و « الأسود العنسى » و « سجاح » .

ولم يكتفوا بمواقفهم السلبية فى مواقعهم من ديارهم ، بل جيشوا الجيوش لمهاجمة « المدينة » وبدا الأمر فى غاية الخطورة ، خصوصاً وأن جيش المسلمين بقيادة « أسامة بن زيد » ... رضى الله عنهما - قد انطلق إلى غايته التى حددها له رسول الله ﷺ على حدود الشام وتخومها .

فالدفاع عن المدينة مرهون بالعزائم الصادقة ، ومقاتلة المرتدين يتطلب جنداً كثيفاً وتوجهات مختلفة .

هنا - عزيزى القارئ - يشهد التاريخ لـ « أبى بكر » - رضى الله عنه - شهادة حق وصدق ، بأنه كان على مستوى المسئولية ، وأنه « الصديق » - حقاً - .

ثم يظل علينا بطلنا « النعمان » - رضى الله عنه - إطلالة جديدة ، يضيفها إلى رصيده رغم قصر المدة الزمنية بين إسلامه والامتحان .

«النعمان» ويوم «ذى القصة» :

و« ذى القصة » مكان على بعد أربعة وعشرين ميلاً من المدينة، فى الطريق إلى «نجد»، هناك اجتمعت قبائل «أسد» و«غطفان» و«طى» و«مرة» و«عبس» وناس من «كنانة»، وعلى رأسهم «حبال بن سلمة بن خويلد» - ابن أخى «طلحة» الذى ادعى النبوة، يريدون الإغارة على «المدينة».

وقبل أن يفعلوا ذلك أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة ، فأتوا وجوه الناس ، يتوسطونهم عند «أبى بكر» - رضى الله عنه - ، على أن يقيموا الصلاة ، وعلى أن لا يؤتوا الزكاة .

فكان رد «أبى بكر» - رضى الله عنه - :

والله لو منعونى عقلاً^(١) كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه، ولو أفردت من بينكم .

وعاد الوفد الى أقوامهم ب «ذى القصة» وأخبروهم بما سمعوا ، وحدثوهم عن قلة المسلمين بالمدينة ، وأطمعوهم فيهم .

ولقد توجس « أبو بكر » - رضى الله عنه - شراً منهم ، فأعد العدة لغدرهم ، وجعل على الطرقات المؤدية إلى المدينة نفراً من أبطال المسلمين وشجعانهم منهم: «على بن أبى طالب» و«الزبير بن العوام» و«طلحة بن عبيد الله» و«عبدالله ابن مسعود» - رضى الله عنهم - .

كما جمع - رضى الله عنه - الناس فى المسجد ، وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه :

إن القوم قد رأوا منكم قلة ، وإنكم لا تدرون ألياً تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد (اثنى عشر ميلاً) ، وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد آيينا ذلك عليهم ، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا .

ولم تمض سوى ثلاث ليالٍ حتى شن المرتدون الغارة . . .

(١) العقال : الخبل

وأرسل المراقبون إلى «أبي بكر» يندرونه ، فقال لهم : الزموا أماكنكم ،
وخرج فيمن معه على النواضح^(١) . . . حتى واجه العدو ، فتقهقروا إلى «ذى
حُسا» حيث يعسكر جيشهم .

استعمل المرتدون الحيلة ، فنفخوا قرباً من الجلود ، وربطوها بالحبال ، ثم
ألقوها في وجوه الإبل ، فنفرت منها وارتدت على أذبارها بمن تحمل ، والمسلمون
عاجزون عن كبج جماحها حتى دخلت المدينة . . . لكن من دون خسائر .

وظن المرتدون أن الوهن قد أصاب المسلمين ، إذ قال قائلهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لـ «أبي بكر»
أيورثنا «بكرًا» إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلّا رددتم وفدنا بزمانه؟ وهلا خشيتهم حتى راغبة البكر
وإن النى سألوكم فمنعتم كالتَّمَر أو أحلى من التمر
ثم استعدوا للهجوم العام .

أما «أبو بكر» - رضى الله عنه - فقد بات ليلته يتهيا ، فعبأ الناس ، ثم خرج
بهم وعلى ميمنته «النعمان بن مقرن» وعلى ميسرته «عبدالله بن مقرن» وعلى
الساقة - موخرة الجيش - «سويد بن مقرن» . . . !

فما طلع الفجر إلا والمسلمون والعدو فى صعيد واحد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ،
ثبت فيه أبناء بيت «مقرن» ثبوت الجبال الرواسى . . . وقد كانوا فى الطليعة ،
وأبدوا من ضروب الشجاعة والقتال فتوناً . . . فما ذرَّ قرن الشمس حتى ولى العدو
الأدبار ، وقتل قائد المرتدين «حبال بن سلمة» ، وتبعهم «أبو بكر» والمسلمون
حتى نزلوا بـ «ذى القصّة» . . . ، ثم رجع - رضى الله عنه - إلى المدينة ، فكانت
هذه المعركة أول الفتح فى وجوه المرتدين عامة ، وفى كل الديار .



(١) النواضح : الإبل المسنة التى تستخدم فى القى .

قال الله تعالى: ﴿..سُدُّوْنَ إِلَى قَوْمِ أُولِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُوْنَ﴾ [الفتح ١٦].

واستمر «النعمان» و أبناء بيت «مقرن» جميعاً مع الجيوش التي أعدها الصديق - رضى الله عنه - لقتال المرتدين ، تحت قيادة «خالد بن الوليد» يتنقلون من جبهة إلى جبهة، حتى قضى على الفتنة تماماً .

وحين أعد «الصديق» - رضى الله عنه - العدة لغزو الشام وفتحها، كان «خالد» - رضى الله عنه - ما يزال يعيش في شمال الجزيرة العربية على تخوم العراق ، يمهدها ، ويفتح كورها واحدة بعد الأخرى، ويظهر جيوشها من كل مقاومة ، إلى أن جاءه الأمر من الخليفة «الصديق» بالتوجه سريعاً إلى الشام بنصف الجيش ، وإبقاء النصف الآخر مع «المثنى بن حارثة» - الشيباني - ليكون مدداً لجيوش المسلمين في الشام، الذين اجتمعوا في «اليرموك» ، وقد احتشد لهم الروم فيما يزيد على مائتي ألف .

بقى «المثنى» في العراق، واتخذ من «الحيرة» قاعدة له، ثم كان بين الحين والآخر يناوش قوات الفرس، فلما أحسوا بمدى خطورته عليهم، أرسلوا إليه يتوعدون ويهددون، وبعثوا إليه جنداً كثيفاً، فقاتلهم وهزمهم ، وتبعهم حتى بلغ أبواب «المدائن» عاصمتهم .

ثم كتب إلى الخليفة «الصديق» يخبره بأبناء الفتح ويستمده... ، ولكن طال الرد... ، وخشى «المثنى» من المباغته، فانسحب إلى أدنى أرض من العراق ، واستخلف على الجند قائداً ، وقصد إلى المدينة بنفسه، وحين بلغها كان «الصديق» - رضى الله عنه - قد أشرف على الموت، لكنه استقبله، واستمع إليه، واقتنع بصواب رأيه، ثم قال: على ب «عمر» - وكان قد استخلفه ، فلما حضر قال له :

- اسمع يا «عمر» ما أقول لك، ثم اعمل به، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع «المثنى» وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصَبِّحَنَّ حتى تندب الناس مع «المثنى»... !

وكانت نقطة تحول ...

مات «الصدّيق» - رضى الله عنه وولى الخلافة «عمر بن الخطّاب» - رضى الله عنه ، وانتصر المسلمون على الروم فى اليرموك، وانساحوا فى ديار الشام فى كل الاتجاهات يوطنونها، ويثبتون أقدامهم فوق ربوعها .

وانتجه اهتمام «عمر» إلى العراق، وكانت من ثم شغله الشاغل، فى ليله ونهاره، وقد فعل ما أمره به «أبو بكر» فندب الناس إلى قتال الفرس فى العراق مع «المنثى» .

وتلكأ الناس طوال ثلاثة أيام لما كانوا قد سمعوا عن شراسة قتال الفرس ، فهابوا ذلك ، فقام إليهم «المنثى» فقال :

أيها الناس ، لا يعظمّن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تَبَجَّحْنَا^(١) ريف فارس، وغلبناهم على خير شَقَى السواد^(٢) وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

ثم خطبهم «عمر» وحفزهم ، وما زال حتى تابعوا ، وكان أولهم «أبو عبيد بن مسعود الثقفى» .

وولاه «عمر» على القيادة ، وكان فارساً شجاعاً مقداماً .

فخرج «المنثى» وتبعه «أبو عبيد» بمن معه، وكانوا خمسة آلاف من خيرة الجند .

وما زال «أبو عبيد» ومعه «المنثى» يواجهون جيوش الفرس واحداً بعد الآخر ويهزمونهم، حتى بلغوا «الكوفة» على شاطئ الفرات .

وهناك كانت موقعة شديدة رهبة، كان أول الشهداء فيها «أبو عبيد» - رحمه الله - ، فعلى الرغم من شجاعة الرجل وإقدامه ، فقد كان فيه بعض التهور وسرعة اتخاذ القرار، ثقة منه بنفسه .

(١) تَبَجَّحْنَا: تَمَلَّكْنَا وتوسَّعْنَا.

(٢) السواد : قرى العراق وضياعها.

فلما فصل الجسر على نهر الفرات بين الطرفين، قال قائد الفرس: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم... فأجاب «أبو عبيد» بل نعبر نحن...! ونصحه من معه، لكنه أصر على المواجهة وعبور الجسر، وأمر جنوده بذلك، واغتنمها الفرس فرصة وتركوا جيش المسلمين يمر فوق الجسر، وكانوا قد أعدوا أنفسهم للقاء، وقدموا الفيلة... واحتجز جيش المسلمين في مساحات ضيقة لا مجال فيها للكر والفر...، ووقعت الواقعة... واستشهد العدد العديد من المسلمين. ولولا أن «المنثى» احتوى البقية الباقية لقضى على جند المسلمين عامة.

«سعد بن أبي وقاص» و«النعمان بن مقرن»:

وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى المدينة فتأثر لها أمير المؤمنين «عمر» أيما تأثر، وكذلك عم الحزن أهلها جميعاً. ولقد بلغ به حماس التأثر أن قرر الخروج بنفسه إلى العراق على رأس قوات المسلمين، ومنازلة الفرس، وأعد العدة لذلك، وأيده بعض كبار الصحابة في هذا الاتجاه، كما عارضه آخرون، وكان على رأس المعارضين «عبد الرحمن بن عوف» - رضى الله عنه -، وكان مما قال له: فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم في أنف^(١) الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً.

فقال «عمر» فأشيروا علىّ برجل!!

وكان «سعد بن أبي وقاص» عاملاً لـ «عمر» على صدقات^(٢) هوازن، وكان

(١) أنف الامر : أوله .

(٢) الصدقات : الزكاة .

فيمن كتب إليه « عمر » باختيار ذوى الرأى والنجدة ، ممن كان له سلاح أو فرس ، فجاء كتابه إلى « عمر » وفيه :

- إنى قد انتخبت لك ألف فارس ، كلهم له نجدة ورأى ، وصاحب حيطة ، يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم ، إليهم انتهت أحسابهم ، فشأنك بهم .

ووافق وصول كتاب « سعد » تشاور « عمر » مع أصحابه ، فقال « عبد الرحمن بن عوف » : وجدته ... !

قال « عمر » : من هو ؟

قال « عبد الرحمن بن عوف » : الأسد فى برائه ... « سعد » .
فوافقوه جميعاً .

فبعث إليه « عمر » فاستحضره ، وولاه على قيادة العراق ، ووصاه ...

وصية القيادة السياسية للقيادة العسكرية:

ونحبّ - عزيزى القارئ - أن نذكر وصية « عمر » لـ « سعد » ، فهى من وثائق وصايا القيادة السياسية للقيادة العسكرية (الإسلامية) .

[قال « عمر » : يا « سعد » ، سعد بنى وهيب ... ، لا يغرنك من الله أن قيل : خال^(١) رسول الله ﷺ - وصاحبه ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ... شريفهم ووضعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعاقبة ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين .

- إنى وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر كرهه شديد ، لا

(١) كان « سعد » - رضى الله عنه - من بنى زهرة أخوال النبى ﷺ لأمه « أمنة » وكان من السابقين إلى الإسلام .

يُخَلِّصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقَّ ، فَعُودَ نَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرَ ، وَاسْتَفْتَحْ بِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عِتَادًا ، فَعِتَادَ الْخَيْرِ الصَّبْرُ . . . فَالْصَّبْرُ الصَّبْرُ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ ، تَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ : فِي طَاعَتِهِ وَفِي اجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ يَبْغِضُ الدُّنْيَا وَحُبَّ الْآخِرَةِ ، وَعَصَاهُ مِنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبِغْضِ الْآخِرَةِ ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يَنْشُئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً ، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعِلَانِيَّةُ ، فَأَمَّا الْعِلَانِيَّةُ فَإِنَّ يَكُونُ حَامِدَهُ وَذَامَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَأَمَّا السِّرُّ فَيَعْرِفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَبِمُحِبَّةِ النَّاسِ ، فَلَا تَزْهَدُ فِي التَّجَبُّبِ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مُحِبَّتَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّهِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغْضَهُ ، فَاعْتَبِرْ مَنَزَلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنَزَلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مِمَّنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ .]

وَعَلَى هَذَا الْهَدْيِ التَّوَرَّانِي مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ انْطَلَقَ «سَعْدٌ» - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الْعِرَاقِ .

وَلَكِنْ . . . أَيْنَ مَوْقِعَ بَطْلَانَا «النَّعْمَانُ بْنُ مَقْرَنٍ» فِي كُلِّ هَذَا ؟

خَرَجَ «سَعْدٌ» بِقَوَاتِهِ مِنْ «الْمَدِينَةِ» إِلَى الْعِرَاقِ ، وَكَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَاعِيًا شَدِيدَ الْحَذَرِ ، مُصَغِّيًا إِلَى كُلِّ مَشُورَةٍ وَرَأْيٍ ، غَيْرَ مُنْقَطِعٍ عَنِ الْقَائِدِ الْعَامِ «عُمَرَ» فِي الْمَدِينَةِ ، يَكَاتِبُهُ دَائِمًا وَيُطْلِعُهُ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ . حَتَّى بَلَغَ «الْقَادِسِيَّةَ» ، وَمِنْ هُنَاكَ أَعْلَنَهُ بِأَنَّ أَهْلَ فَارَسٍ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى قِيَادَةِ «رِسْتَمٍ» لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ «عُمَرُ» :

- لَا يَكْرِهَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ «إِلَى رِسْتَمٍ» رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَنْظَرَةِ^(١) وَالرَّأْيِ وَالْجَلْدِ يَدْعُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دَعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ (لَأَهْلِ فَارَسٍ) ، وَفَلَجًا^(٢) عَلَيْهِمْ ، وَابْتَغِ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

(١) الَّذِي يَمُجِّبُ إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ .

(٢) فَلَجًا : نَصْرًا .

وهنا يبرز اسم « النعمان » - رضى الله عنه - ودوره .

فقد جمع « سعد » نفرًا من القادة عليهم نَجَارٌ^(١) ولهم آراء ، ونفرًا آخرين لهم منظر وعليهم مهابة ، أما الذين عليهم نَجَارٌ ولهم آراء واجتهاد فهم : « النعمان بن مقرن » و« بسر بن أبي رهم » و« حملة بن خزيمة الكنانى » و« حنظلة بن الربيع التميمى » و« فرات بن حيان العجلي » و« عدى بن سهيل » و« المغيرة بن زرار » .

وأما من لهم منظر لأجسامهم ، وعليهم مهابة ، ولهم آراء فهم : « عطار بن حاجب » و« الأشعث بن قيس » و« الحارث بن حسان » و« عاصم بن عمرو التميمى » و« عمرو بن معد يكرب الزبيدى » و« المغيرة بن شعبة » و« المعنى بن حارثة »^(٢) .

ثم بعثهم دُعاةً إلى الملك ، وأنفذهم إليه بـ « المدائن » فلما دخلوا على الملك « يزدجرد » ، أمر الترجمان بينه وبينهم ، فقال : سلهم . . ما جاء بكم؟ ما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا ؟ أَمِنْ أَجْلِ أَنَا أَجْمَحُنَاكُمْ^(٣) وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فالتفت « النعمان » - رضى الله عنه - إلى أصحابه وقال لهم : إن شئتم أجبت عنكم ، ومن شاء أثرته . . . ، فقالوا : بل تلکم أنت . . ، ثم قالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا .

وتكلم « النعمان » فقال : - إن الله رحماً فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صارت فرقتين : فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص .

فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وأن يبدأ بهم ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة

(١) أى : فيهم كمال الرجولة .

(٢) أخو « المنى بن حارثة » .

(٣) أَجْمَحُنَاكُمْ : انصرفنا عنكم وأرحناكم .

والضيق، ثم أمر أن يبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف . . ، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن ، وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر، هو أهون من آخر شر منه - الجزء - (١)، فإن أبيتم فالمناجزة (٢).

فإن أجبتم إلى ديننا خلقتنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا أحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

ولا نعوّل - عزيزي القارئ - بالتفصيل والتطويل على ما كان من شأن «يزدجرد» و«رستم» وردودهم وأقوالهم ، فقد انتهى الأمر إلى القتال والمناجزة . وكانت معركة « القادسية » .

وقد استمرت أربعة أيام شداد ، ولقد أطلقوا على كل يوم من تلك الأيام اسماً، فعرف اليوم الأول بيوم «أرُمات» وعلى اليوم الثاني يوم «أغواث» وعلى اليوم الثالث يوم «عماس» أما اليوم الرابع فكان يوم « القادسية» (٣)، وفيه كان الفتح .

يقول « ياقوت » في معجم البلدان : ولا أدري هذه الأسماء مواضع ، أم هي من الرمث والغوث والعمس ؟ .

وكان «النعمان» - رضى الله عنه - قائد ميمنة المسلمين ، بطلاً بكل ما فى كلمة البطولة من معنى، ممّا لفت إليه الأنظار، أكثر فأكثر . . ، رغم ما كان عليه من مكانة ومقام مرموق منذ اليوم الأول الذى هبط فيه مع إخوته الأفاذا أرض «خيبر»، ومعه أيضاً أربعمئة من «مُزينة» كلهم فارس . . ، وكلهم مقاتل . . ، وكلهم مؤمن مجاهد .

(١) الجزء : الجزية.

(٢) المناجزة: الحرب والقتال .

(٣) اسم قرية على الفرات .

انتصر المسلمون على أهل فارس يوم القادسية انتصاراً عظيماً ، ولكنه لم يكن نهائياً ، وخائفاً .

وحملَ « النعمان » إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » أنباء النصر المؤزر ، في المدينة ، فكان البشير ، ثم عاد من حيث أتى إلى مواقع القتال .

وتتابعت الأيام والمعارك ، والفرس في تراجع مستمر ... ، والمسلمون لا يتركون لهم فرصة .. ، يلاحقونهم وينازلونهم ، ويستولون على الديار ، ويحوزون الغنائم ، ويشتون رايات الإسلام ، فوق ربوع فارس ، وداكرها .

* وكان يوم « بابل »^(١) بعد « القادسية » ...

* ثم يوم « بهر سير »^(٢) .

* ثم يوم « المدائن » العاصمة ... ، وعندما دخلها « سعد » وانتهى إلى « إيوان كسرى » أخذ يقرأ قول الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبُوا (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨] وصلى فيه صلاة الصبح .. ، واتخذ مسجداً ... ، وكان أول جمعة بالعراق - في صفر الخير ، ستة ست عشرة .

* ثم كان أيضاً يوم « جلولاء »^(٣) .

* ثم يوم « تكريت » بين « بغداد » و « الموصل »

* ثم يوم « ماسبذان » .

* ثم يوم « قرقيسياء »^(٤) .

(١) مدينة قديمة بناها الكلدانيون على الجانب الآخر من الفرات وحدائقها المعلقة كانت إحدى عجائب الدنيا .

(٢) من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .

(٣) بلدة في طريق خراسان .

(٤) بلدة عند ملتقى نهر « الخبوز » ب « الفرات » .

* ثم يوم «الأهواز» .

* ثم يوم «طاووس» .

وكان «سعد» بعد «المدائن» قد عاد إلى «الكوفة» واتخذها مقراً وقاعدة ، وكان من ثمَّ يبعث البعث والسرايا والجند إلى أن تم أكثر الفتح ، وكان له «هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص» ابن أخى «سعد» دور هام فى أكثر تلك الفتوح ، وكذلك «عتبة بن غزوان» وغيرهما من القادة .

أما «النعمان بن مقرن» فقد لزم «سعداً» فى مقره ، مستشاراً ناصحاً ينتظر دوره الأعظم والأكبر .

يوم «تستر»^(١) وأسر «الهرمزان» :

ولم يزل «يزدجرد» يشير أهل فارس أسفاً على ما خرج من أيديهم - وكان مقيماً بـ «مرو» - ، فكتب إلى أهل فارس يشير فيهم الاحقاد ويؤنبهم على ما كان من تهاونهم ، ويقول : أرضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على «السواد» وما والاه من «الأهواز» ثم لم يرضوا بذلك حتى اقتحموكم فى بلادكم وعقر داركم !!! ؟ .

فحركت حمية أهل فارس وأهل الأهواز ، وتعاهدوا وتعاهدوا ، وتواثقوا على النصر ، وصمموا على متابعة القتال ، وتوحدت راياتهم .

فلما علم أمير المؤمنين «عمر» بذلك ، كتب إلى «سعد» أمير الكوفة : أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع «النعمان بن مقرن» . . وعجل ، وابعث «سويد بن مقرن» و«عبدالله بن ذى السهمين» و«جرير بن عبد الله الحميرى» و«جرير بن عبد الله البجلي» فلينزلوا بإزاء «الهرمزان» حتى تبيينوا أمره .

(١) تستر : أعظم مدن إقليم «خوزستان» .

فانطلق «النعمان» فى أهل «الكوفة» فأخذ طريقه وسط السواد حتى قطع «دجلة» ثم أخذ البرّ إلى «الأهواز» فانتهى إلى نهر «تيرى» فجازه، ثم جاز «مناذر» و«سوق الأهواز» ، ثم سار نحو «الهرمزان» الذى كان يقوم به «رامهرمز» .

وعرف «الهرمزان» بمسير «النعمان» إليه ، فأراد أن يبادره، راجياً أن ينال منه، طامعاً فى نصر أهل فارس الذين أقبلوا من كل مكان وتجمعوا فى «تستر» .

وكان اللقاء عند «أربك» وهى مدينة بالأهواز، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله تعالى هزم الهرمزان ، ففر بفلوله إلى «تستر» .

واستولى «النعمان» على «رامهرمز» وأقام بها ، يعيد تنظيم قواته، ويتتظر الأوامر .

وكان أهل «البصرة» بقيادة «أبى رُهم بن سبرة» قد بلغتهم أنباء النصر الذى حققه «النعمان»، ولجؤوا «الهرمزان» إلى «تستر» ، فساروا إليها، وكتبوا بذلك إلى «عمر» أمير المؤمنين ، فأمدهم به «أبى موسى الأشعرى» على رأس قوات جديدة.

وعند «تستر» التقت جيوش المسلمين ، فحاصروهم . . . ، و«الهرمزان» بها.

وطال أمد الحصار شهراً . . . ، وتزاحف الطرفان إلى بعضهم أكثر من ثمانين رجعاً ، دونما حسم ، أو فصل .

وكان «البراء بن مالك» - رضى الله عنه - قد بارز فى تلك المدة عدداً كبيراً من فرسان الفرس ، بلغوا كما تقول الروايات أكثر من مائة، قتلهم جميعاً . . !

فلما كان آخر رجع ، واشتد القتال وعنف ، قال المسلمون لـ «البراء» :

- يا براء . . أقسم على ربك ليهزمهم ! . . !

- فقال : اللهم اهزمهم لنا . . . ، واستشهدنى .

فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ، ثم اقتحموها عليهم . . ، فلاذوا بمديتهم وتحصنوا بها وبأسوارها .

فبينما هم على ذلك ، وقد ضاقت بهم المدينة ، وطالت الحرب ، خرج إلى «النعمان» رجل فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل يأتون منه المدينة ، ويكون فيه فتحها ، فأمنوه .

فقال لهم : انهضوا من قبل مخرج الماء ، فإنكم ستفتحونها .

فندب « النعمان » أصحابه . . . فنهضوا في بشر كثير إلى ذلك المكان ليلاً ، وكانت قيادة هؤلاء لأخي «النعمان» - «سويد بن مقرن» - رضى الله عنه - فكبر وكبروا ، ثم انطلقوا باسم الله . . . فكانت مقتلة عظيمة ، حتى تم حصر «الهرمزان» وأسرّه ، لكن الثمن كان باهظاً وغالياً ، إذ استشهد عدد كبير من المسلمين ، على رأسهم الصحابي الجليل ، صاحب الدعاء والنداء «البراء بن مالك» - رضى الله عنه - . (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...) .

إلى «نهاد»... وخاتمة المطاف:

كان هروب ملك الفرس «يَزْدَجَرْد» من مكان إلى مكان ، وإثارته للناس ، مدعاة لإطالة أمد الحرب بين المسلمين وأهل فارس ، واستنزاف طاقتهم وقدراتهم ، لكن أمير المؤمنين «عمر» - رضى الله عنه - بما أوتيّه من إيمان وفهم وعلم ويُعدّ نظر . . . كان يأمر بعدم الانسحاب في بلاد «فارس» والتوسع فيها ، خشية على دماء المسلمين وأرواحهم ، وهو يرى في الوقت نفسه تتابع المعارك والحروب .

وقد خطر في باله - وهو المؤمن الصادق - أن هناك خللاً في تطبيقات الفتح وقواعده وأصوله من قبل المسلمين . . . فقال ذات يوم لوفد من « البصرة » :

- لعل المسلمين يُفْضون إلى أهل الذمة بأذى ، وأمور لها ينتقضون بكم ؟؟!

فقالوا : ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكه .

فقال « عمر » : فما بالهم ينتقضون ؟

فسكتوا جميعاً ، إلا « الأحنف بن قيس » - إذا قال :

- يا أمير المؤمنين أخبرك ... إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد ، وأمرتنا بالاقْتِصَار على ما فى أيدينا ، وأن ملك فارس «يَزْدَجَرْد» حى بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ، وإن ملكهم هو الذى يسعهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فتسبح فى بلادهم وتذل ملكهم ، ونخرجه من مملكته وعِزِّ أمته ، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس .

فقال «عمر» - رضى الله عنه - :

صدقنى والله ، وشرحت لى الأمر على حقه .

وتباحث وتشاور «عمر» - رضى الله عنه - مع كبار الصحابة فيمن يوليه هذا الأمر الجلل ، وأبدى كل رأيه ، ثم قالوا :
- أنت أفضلنا رأياً وأحسن تقديرًا ...

فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكوننَّ أوَّلَ الأُسَّةِ إذا لقيها غداً ، فقليل :
من يا أمير المؤمنين ؟

فقال : « النعمان بن مقرن » ...

فقالوا هو لها .

وكتب «عمر» إلى «النعمان» :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله «عمر» أمير المؤمنين إلى «النعمان بن مقرن» سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة ، قد جمعوا لكم بمدينة «نهاوند» ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وينصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا تُوطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة^(١) فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، والسلام عليك) .

(١) الغيضة : مجتمع الشجر فى مفيض الماء .

ثم كتب لأهل الكوفة أن يوافوا «النعمان» وعليهم «حذيفة بن اليمان» .
 وكتب لـ «أبى موسى الأشعري» أن يسير بأهل «البصرة» ، وأرسل إليه
 جموعاً من أهل المدينة فيهم ابنه «عبدالله بن عمر» .
 ثم كتب لـ «النعمان» : إن حدث بك حدث فعلى الناس «حذيفة بن اليمان» ،
 فإن حدث بـ «حذيفة» حدث فعلى الناس «نعيم بن مقرن» .



«عرس الفتى والشهادة»:

تلقى «النعمان» - رضى الله عنه - رسائل أمير المؤمنين، وتوجيهاته، وانطلق
 بقواته إلى «نهاوند» وكان أول ما فعله عند بلوغها إرسال قوات استطلاعية لمعرفة
 أخبار الفرس، حشودهم، أو كمائنهم... وغير ذلك ، فبلغت هذه القوات بقيادة
 «طلحة بن خويلد الأسدي» مشارف «نهاوند» ، ثم عادت وأخبرت القائد العام
 «النعمان» بعدم وجود قوات «فارسية» فى الطريق .

عندئذ تحرك «النعمان» بقواته حتى نزل منزلاً قريباً من حصون «نهاوند» ، وكان
 على ميمنته «الأشعث بن قيس» وعلى ميسرته «المغيرة بن شعبة» .

وهاجم المسلمون حصون المدينة فى يومين متتالين على غير طائل ولا جدوى،
 وخاف قادة الجيش الإسلامى أن يطول أمر الحصار، والتناوش البعيد ، إذ ليس
 ذلك من مصلحتهم ، لأن مصلحتهم تقتضى الضربة الصاعقة السريعة التى تحسم
 الموقف .

فاجتمعوا فى خيمة «النعمان» وعرضوا عليه ما يقلقهم، فقال :

- قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون، من الخنادق والمدائن، وأنهم لا
 يخرجون إلا إذا شاءوا، ولا يقدر المسلمون، على إخراجهم قبل مشيبتهم ، وقد
 ترون الذى فيه المسلمون من التضايق، فما رأى الذى به نستخرجهم إلى المناجزة
 وترك التطويل ؟.

فقال طلحة بن خويلد:

- أرى أن تبعث خيلاً لينشبو القتال، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً^(١).

فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فينا ما أحب.

فاستحسن «النعمان» وياقنى القادة رأى «طلحة» واتفقوا على تفاصيل الخطة وأبعادها، وكان الوقت قد قارب الفجر.

وأرسل «النعمان» أحد قاداته الفرسان الشجعان «الققعاق بن عمرو التميمي»^(٢) على رأس الخيل، حتى دقوا أبواب الحصون، فخرج إليهم خيالة الفرس، ونشب القتال بين الطرفين.

ثم تراجع «الققعاق» أمامهم بمن معه، فظن الأعاجم أن انسحاب العرب كان نتيجة ضعفهم... فقاموا بمطاردتهم واللاحق بهم، وأغرى هذا التصرف آخرين من الفرس لا يزالون في خنادقهم وحصونهم، فخرجوا يتبعون «الققعاق» وخيله...

وكان المسلمون على تعبثهم الكاملة، وقد أمرهم «النعمان» أن يشبوا في أماكنهم، ولا يلتحموا بقتال حتى يأذن لهم.

وأقبل الفرس عليهم يرمونهم بالسهم حتى أثخنوهم بالجراح وانتظر «النعمان» حتى تم خروج الفرس من الحصون... ثم ركب فرسه، وسار بين صفوف جنده يقف عند كل كتيبة وراية، يذكر الناس ويحرضهم على القتال والصبر، ويمنيهم بالظفر، ثم أعلن:

(إني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الأولى فليتهياً من لم يكن قد تهيأ، فإذا كبرت الثانية، فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله، فاحملوا معي...).

(١) أى المهزومين الفارين، وهذه خطة فى قتال العرب.

(٢) كان من ماثور قول «عمر» رضى الله عنه: لا يغلبن جيش فيه الققعاق !!

ودعا ربه فقال :

(اللهم أعز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل «النعمان» أول شهيد اليوم ، على إعزاز دينك ونصر عبدك) .

وهكذا استدرج « النعمان » أعداءه إلى قرب من العراء خارج حصونهم وخنادقهم حتى إذا سنحت الفرصة حمل وحمل معه الناس ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، مما جعل أرض المعركة تمتلئ بالأشلاء والدماء .

ولقد استجاب الله تعالى دعاء ونداء عبده المؤمن «النعمان بن مقرن» - رضى الله عنه - فكان أول شهيد . إذ زلقت فرس «النعمان» فى الدماء فسقط صريعاً . . .

فبادره أخوه «نعيم» فجاه بثوبه ، وأخذ اللواء من يده ، ودفعه إلى «حذيفة بن اليمان» حسب وصية «النعمان» .

وأخفى « نعيم » خبر استشهاد أخيه عن الجند حتى لا يؤثر ذلك فى معنوياتهم ، واستمر المسلمون فى القتال حسب الخطة التى اتفقوا عليها .

وحين أقبل الليل كانت قوات الفرس قد أصيبت بالهزيمة ، وطاردهم المسلمون فى كل ناحية ، فلم ينج منهم إلا الشريد الهارب .

وتساءل الناس بعد انتهاء القتال عن القائد « النعمان » ، فأخبرهم أخوه «معقل بن مقرن» باستشهاده قائلاً :

- هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح . . . وختم له بالشهادة .

ودخل المسلمون « نهاوند » فاتحين . . .

وكان أمير المؤمنين « عمر » فى المدينة يتسقط أنباء جيش المسلمين فى فارس ، ولا يكاد يذوق طعم النوم . . . ، فلما جاء البشير سأله « عمر » :

- ما وراءك ؟

فقال :

- البشرى والفتح ...

فسأله « عمر » :

- وما فعل « النعمان » ؟

قال البشير :

- رلت فرسه فى دماء القوم فصرع .. فاستشهد ..

ففزع « عمر » - رضى الله عنه - للنبا ، وهزته الفاجعة ، ويكى بكاءً شديداً ،
وانتحب كأنما أصيب بأعز إنسان لديه .

* وهكذا ...

تم الفتح ، فتح « نهاوند » ، الذى أطلق عليه المؤرخون بعد ذلك اسم « فتح
الفتوح » ، لأنه كان المؤشر لزوال دولة الأكاسرة فى « فارس » واستيلاء المسلمين
على الديار ، وتحولها إلى أرض إسلامية ، ومنطلق إلى الهند وخراسان الصين .

٢- حسان بن النعمان

«ما أعلم أحداً أكفاً بإفريقية من «حسان بن النعمان الغساني» .

هذه العبارة هي شهادة «عبد الملك بن مروان» في حسان بن النعمان ، وهي عند التحقيق والتأمل جديرة بأن تكون شهادة التاريخ لـ «حسان» .

وذلك يعود لسببين :

أولاً: لأن الوجود الروماني في الشمال الإفريقي كان عميق الجذور، بعيد الأصول، قد امتد عشرات السنين، بل مئاتها إن شئت!!

ومن هنا كانت معاناة قادة الفتح الإسلامي، منذ فتح مصر عام عشرين للهجرة (٢٠) هـ، إلى أن كانت المعركة الحاسمة مع الروم بقيادة «حسان بن النعمان» في آخر العقد الثامن .

ولقد كان المدد الروماني يتدفق طوال تلك العقود عبر البحر، ومن مختلف القواعد والثغور الأوروبية، والجزر التي كانت تخضع لسلطة الروم ، ما إن يهزموا في معركة ، أو موقع ، أو يسلب منهم حصن أو مدينة ، حتى يعاودوا الكرة لاستعادة ما فقدوه .

ثانياً : كانت أكثر قبائل البربر - سكان البلاد الأصليين - في تحالف وثيق مع الروم ، ولم يدخلوا الإسلام بعد .

فالأرضية التي يقاتل فوقها المسلمون عدوهم مضطربة ، قلقلة ... لم تستغ ولم تهضم معنى (الفتح) ، فكانت رافضة له بشدة ، أضف إلى ذلك طبيعة العنصرية القبلية التي كان يحياها البربر والتي تشبه في صورها العامة حياة البدواة العربية الصحراوية ، بكلّ تداعياتها و ألوانها وأنماطها .

وحق لـ «عبد الملك» أن يشهد هذه الشهادة ، لأنه عايش بنفسه مع «معاوية بن حديج» معارك الفتح فى الشمال الإفريقى ، وأدرك بشاقب فكره وبُعد نظره . كل مجسمات القتال ، مع الروم ومع البربر .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان «حسان بن النعمان» من القادة المرموقين ، المقربين من «عبد الملك» ، والموثوق بكفاءتهم وقدراتهم ، ومن الذين ترووا وتشبَّعوا بالروح (الأموية والروانية) ..

قَبْل كل هذا إسلامه الصادق وإيمانه العميق ، فهو من طبقة التابعين الذى تفقَّهوا فى الدين ، فوعوا وحفظوا ، وعملوا ، ورأى عامة الناس فيهم رجالاً كباراً ، وعلماء أفذاذاً .

من هنا حمل «حسان بن النعمان» لقب «الشيخ الأمين» ليس شيخاً فى السن ... ، بل فى العلم والحفظ ، والخلق الرصين ، والقدوة الحسنة والبطولة ... !

والآن - عزيزى القارئ - أدعوك ونفسى لنحيا فى الصفحات التالية مع بطل من أبطال الفتح الإسلامى - فى الشمال الإفريقى - ، فنستروح نسمات الجهاد تهب علينا ، لعلها تحبى فينا ما غفى من المشاعر والأحاسيس ... ، أو مات !!
والله تعالى ولينا جميعاً فى الدنيا والآخرة .

اسمه ونسبه :

هو «حسان بن النعمان» (ابن عدى بن مغيث بن عمرو (مزقياء)) ، بن عامر (ماء السماء) ، (بن الأزد) .

نزع جده الأعلى من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى نحو الشام مع أهله وذويه، فأقاموا هناك، وأسسوا مُلْكًا وحضارة، وعرفوا بـ «الغساسنة» ووالوا الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) التي كانت عاصمتها «القسطنطينية»^(١). فلما كان الفتح الإسلامي للشام تحول أكثرهم من النصرانية إلى الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجًا .

نشأته:

وتفتحت عينا «حسان» على الإسلام ناشراً رأيته في كل الديار الشامية و«فارس»، ومصر... وترعرع في بيت عريق، له ماضٍ مجيد في القيادة والحكم والسلطان.

أتقن العلوم الفقهية وحفظ القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وروى عن سيدنا «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه -، وكان من أعلام التابعين^(٢).

وكان له في ميادين الجهاد بلاء حسن وقيادة لفتت الأنظار . فلما بلغ الخليفة «عبد الملك بن مروان» في دمشق نبأ استشهاد «زهير بن قيس» وأصحابه، اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بـ «زهير» وأصحابه مثل المصيبة بـ «عقبة بن نافع» وأصحابه، فالحسائر فادحة ، والجرح عميق .

وتألب أشراف الناس ورؤوسهم على «عبد الملك» يسألونه إعادة النظر في موضوع الشمال الإفريقي، ليؤمن المسلمين هناك ويحميهم من غدر عدوهم، ويبعث الجيوش التي تكفل ذلك وتضمنه .

فنظر «عبد الملك» في الأمر ملياً ، وبحته بين نفسه وبين المستشارين، ثم وقع الاختيار وقال «عبد الملك»: ما أعلم أحداً أكفاً بـ «إفريقية» من «حسان بن النعمان الغساني» .

(١) القسطنطينية : اسطنبول اليوم .

(٢) وفيات الأعيان (٤٣٩٤) - تهذيب ابن عساكر (١٤٦٤) الاستقصا (١ - ٨٢) .

ووقع ذلك الاختيار من نفوس الناس موقعاً حسناً فارتاحوا لذلك مؤقتاً، ريثما تنجلي الأمور مستقبلاً عن نتائج حاسمة تفرض الهيبة، وتعيد الطمأنينة .

الاستعداد:

وجّهز «عبد الملك» جيشاً كثيفاً ، كثير العدد ، وافر العدة ، واستعمل عليه وعلى ولاية إفريقية «حسان بن النعمان» ونصحته ووعظه، ودعا له بالتوفيق والنصر.

ثم كانت الانطلاقة إلى «مصر» أولاً، هناك دأب «حسان» على إنجاز استحضارات جيشه واستعداداته .

وكان ذلك في نهاية سنة ثلاث وسبعين، وإطالة عام أربعة وسبعين (٧٣ - ٧٤) هـ .

ثم جاءه كتاب من «عبد الملك» يقول فيه : - (إني أطلقت يدك في أموال «مصر» فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس، وأخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه) .



ويحلل لنا اللواء الركن «محمود شيت خطاب» الموقف بقوله :

(كم من الوقت أمضى «حسان» لإنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً؟

إن الوقت الذي يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش : تسليحه وتجهيزه، وتأمين قضاياه الإدارية ... إلخ ، لا يقل عن عام ، أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة على كل حال) .

لذلك سار هذا الجيش لاستعادة فتح (إفريقية) - الشمال الإفريقي - سنة أربع وسبعين للهجرة (٧٤) هـ. فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله (كما يقول ابن الأثير وابن خلدون في تاريخهما)، وكان «حسان» أول من دخل إفريقية من الشام في زمن بني أمية .

وكانت المسافة بين «الفسطاط» فى «مصر» و«القيروان» فى تونس (١٥٣٠) ميلاً^(١) يمكن قطعها بـ (٤٧) مرحلة نظامية فى أوقات السلم، ولقوات قليلة كالمقارز الاستطلاعية، أو موظفى البريد، وبدون استراحة .

أما القوات الجسيمة كجيش «حسان» الذى قدم إفريقية فى عسكر عظيم، لا يمكن أن يقطع هذه المسافة بمثل هذا الوقت، كما أنه لابد له من إعطاء فترات من الاستراحة لجمع شمل القطعات المتحركة، وجرّد موجوداتها، وإدامة تجهيزاتها ونقلتها .

حركة مثل هذه القوات الجسيمة باتجاه العدو لا يكون سيراً سليماً، بل يجب اتخاذ التدابير التعبوية لحمايتها من عنصر المفاجأة، فيكون سيرها مسيراً تعبوياً مما يؤدى إلى تأخير حركتها، فإذا أدخلنا فى حسابنا كل ذلك، وأضفنا إليه، أن كل ستة مراحل تحتاج إلى يوم استراحة للقطعات، وأن كل شهر من المسير يحتاج إلى أسبوع استراحة للقطعات ولنقليتها من الحيوانات، علمنا أن جيش «حسان» هذا، لا يمكن أن يصل من «الفسطاط» فى مصر إلى غايته وهدفه «القيروان» قبل ثلاثة أشهر .



فإذا أضفنا إلى هذه المدة، الفترة التى قضّاها «حسان» فى «القيروان» لتجهيز جيشه وإكمال استعداداته الإدارية للحرب، وإنجاز استطلاعاته الضرورية للحصول على المعلومات عن العدو: قوته وتسليحه، والمنطقة التى سيقاقل عليها، أدركنا أنه قضى سنة أربع وسبعين (هـ) فى تحشيد قواته، وإعدادها للحرب، وأنه خاض معركة «قرطاجنة» سنة خمس وسبعين - أو ست وسبعين (٦٩٥ م) .

لقد أحببت - عزيزى القارئ - أن أفيض فى الحديث على لسان أستاذنا (القائد الحبير)، لنذكر مدى ما كان يعوّل عليه آنذاك من خلال هذا البعث العسكرى الضخم لإنجاز المهمة فى إقرار الشمال الإفريقى نهائياً، بعد أن ظل مضطرباً أكثر

(١) الميل القديم ومقداره، أربعة آلاف ذراع .

من نصف قرن ، وما أفلحت معه الغزوات والفتوحات المتتالية إلا فى حدود قليلة .

فى طرابلس:

ومضى «حسان» فى جيشه الكبير الضخم حتى نزل أولاً «طرابلس» - الغرب- ، فاجتمع إليه من كان بها .

فأرسل مقدمة جيشه طليعةً وعليها «محمد بن أبى بكر» و«هلال بن ثروان»^(١) - اللواتى - و «زهير بن قيس البلوى» ، ففتح بعض البلاد وأصاب مغانم كثيرة .

وهذا يدل على أنه اجتاز «برقة» و «طرابلس» دون أن يلقى مقاومة ، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به ، وأنه لاقى مقاومات خفيفة فى طريقه من «طرابلس» إلى «القيروان» ، من الحاميات الرومية المتفرقة فى المدن الواقعة على طريق جيش «حسان» .

قرطاجنة:

وما كاد «حسان» ينجز استحضاراته حتى سأل :- من أعظم الملوك قدراً فى هذه الناحية ؟

فقالوا : صاحب «قرطاجنة» دار ملك إفريقية - (العاصمة) .

و«قرطاجنة» هى المدينة العظمى ، قرية «روما» وضررتها ، وإحدى عجائب الدنيا .

وكان بها يومئذ جموع من الروم لا تحصى ، ولم يكن المسلمون قط حاربوها - أو فتحوها - بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالا ، أوبلاذاً مجاورة كجزيرة «شريك» ، ويتركونها إلى أهداف أخرى .

(١) «هلال بن ثروان» أول اسم من أسماء البربر يظهر على ساحة القيادة ، فهو من قبيلة «لواتة» ، إحدى أكبر وأعظم قبائل البربر فى الشمال الإفريقى .

فتح قرطاجنة:

لما وصل «حسان» إلى «قرطاجنة» رأى بها من الروم والبربر - حلفائهم - ما لا يحصى كثرة، فقاتلهم، وحاصرهم، وقتل كثيراً منهم، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب...، فركبوا سفنهم ومراكبهم، وسار بعضهم إلى «صقلية» وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة...، فسبأها، وغنم ما فيها، وأرسل إلى ما حولها من العمران، فاجتمعوا إليه مسرعين، فأمرهم بهدم «قرطاجنة» وقطع القناة عنها.

يريد بذلك أن يعطل وجودها، وقطع آمال الروم في العودة إليها. وانصرف «حسان» مرتدًا إلى «القيروان».

وهنا حدثت مفاجأة...، إذ عاد إلى «قرطاجنة» أهل الدساكر والمقاطعات التي حولها، وحاولوا أن يبعثوا فيها الحياة من جديد، فعاد «حسان» إليهم على جناح السرعة، وحاصرهم حصاراً شديداً، حتى دخلها بالسيف، فقتل المقاتلة قتلاً ذريعاً، وسبأهم ونهبهم، ثم أرسل لمن بقى حواليها، فاجتمعوا إليه مسارعين، خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بالإجهاز على تخريب «قرطاجنة» وهدمها نهائياً فخربوها حتى صارت كأمس الدابر^(١).



لكنه في فتحها ثانية حاول أن يخرب أكثر ما يمكن من مرافقها الحيوية، كي يحرم الروم وغيرهم - كما أسلفنا - من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً.

لكنه لم ينجح في تدمير مرافقها الحيوية كلها، لأن الأحداث المقبلة سوف تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات. وهذا ما يشير إليه «النويري» بقوله: «فَهْدَمَ المسلمون ما أمكن منها»^(٢).



(١) البيان المغرب (١ - ٢٤)

(٢) نهاية الأرب (ص: ٧٤)

حسان والروم:

وتنبه «حسان» بعد هذا الحادث (الفتح الثاني لـ «قرطاجنة»). إلى أن الروم ما زالوا على شيء من القوة والكثرة، في المناطق الكثيرة المحيطة بـ «قرطاجنة»، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها، بعد أن انقطع رجاؤهم من «قرطاجنة» نفسها.

فقد بلغه أن الروم - والبربر - قد اجتمعوا له في بلدة «صفطورة» وفي «بنزرت» وهما مدينتان لهما أهميتهما ومكانتهما.

فسار إليهم وقاتلهم، ولقى منهم شدة وقوة، لكن المسلمين صبروا لهم، فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم، فاستولى المسلمون على بلادهم، ولم يترك «حسان» موضعاً من بلادهم إلا وطئه، وخافه أهل «إفريقية» خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة «باجة» وتحصن البربر بمدينة «بونة» الواقعة على الساحل.

فعاد «حسان» إلى «القيروان» لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا، وكان قراره هذا صائبا، ومن ثم أصبح جيشه جاهزاً وحاضراً للقتال والتزال مرة أخرى.

«حسان» و«الكاهنة»!!

وسأل «حسان» أهل «القيروان» عمن بقى من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه، فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل «أوراس»^(١) تدعى: «الكاهنة»، وجميع من بـ «إفريقية» من الروم والبربر يخافونها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك فيه مضاه ولا مُعاند.

وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب، ولهذا سميت الكاهنة، وكانت بربرية وقد اجتمع إليها البربر قاطبة، وهي إذ ذاك ملكة «جرافة» من قبائل البربر الكبيرة، بل ملكة البربر كلهم من دون منازع.

(١) في الجزائر.

وكان لهذه الكاهنة ثلاثة أبناء ورثوا رئاسة قومهم عن آبائهم وجدودهم ،
وتربوا في حجرها فاستبدت عليهم ، واعتزت في قومها بهم ، وبما كان لها من
المكانة ، فانتهدت إليها الزعامة .

يوم البلاء:

عزم «حسان» على قصدها، فخرج إليها بجيوشه، فلما بلغ موضعاً يقال له:
«مجانة» - بينها وبين «القيروان» خمس مراحل نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح من
قبل، فتحصن بها الروم . فمضى «حسان» وتركهم .

وبلغ الكاهنة أمره ، فزحفت من جبل «أوراس» في عدد لا يحصى فتزلت في
مدينة «باغاية» - وهى مدينة كبيرة تقع بين «مجانة» و «قسنطينة» - فهاجمتها
وأخرجت من بها وهدمتها ، إذ ظنت أن «حسان» يريد حصنها ليتحصن به منها .

وأقبل «حسان» حين بلغه الخبر إلى وادى «مكناسة» - فى المغرب - فقبل له:
إنها قد أقبلت فى عدد لا يحصى ، فقال لهم : دلونى على ماء يسع العسكر
الذى أنا فيه ، فمالوا إلى نهر «ننى» - وهو نهر مشهور - فتزل عليه .

وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر ونزلت عليه ، فكان «حسان»
يشرب هو وأصحابه من أعلاه ، وتشرب الكاهنة ومن معها من أسفله .

ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى «حسان» أن يقاتلها فى آخر النهار، كما أبى
أن يقاتلها بالليل، وبات الفريقان على مصافهم ، فلما أصبحوا زحف بعضهم
على بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعظم البلاء، وظن المسلمون أنه الفناء... ،
فانهزم «حسان» بعد بلاء عظيم، وقتل من العرب خلق كثير، فسمى ذلك اليوم
«يوم البلاء» وسمى النهر الذى التقوا عليه «نهر البلاء» .

فاتبعته «الكاهنة» بمن معها حتى خرج من حد «قابس»^(١)، فأسلم إفريقية،
ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً، منهم «خالد بن يزيد
العيسى» ، وكان رجلاً مذكوراً، فيه وسامة وجمال وشجاعة .

(١) خليج قابس : بين طرابلس و«صفاقس»

فأحسنت «الكاهنة» معاملة الأسرى، وميزت «خالدًا» عنهم، فحبسته عندها، ثم أمرت بدقيق من شعير مَقْلُوًّا قُلْتُ^(١) بالزيت، والبربر تسمى ذلك «البيسة»، وقالت لـ «خالد».

- ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدى .

فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوث بالزيت، وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت :

- كلا معه على ثديي ... ففعلا ، وفعل .

فقالت : لقد صرتم إخوة ... (٢).

لماذا كانت الهزيمة؟

(لعل من أهم أسباب فشل المسلمين هذه المرة ، أنهم قاتلوا بدوًا مثلهم، يجيدون التزال في الميدان قد طال عهدهم بتزال الروم «البيزنطيين»، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم ، فاستهانوا بعدوهم ، فلم يبذلوا قصارى جهدهم في القتال، احتقروا البربر، واحتقروا قيادتهم المتمثلة بالكاهنة، وهى امرأة !!! ، فظنوا أن الانتصار على البربر - وهم فى كثرة كاثرة ، وعدة كاملة - سهل ميسور ، وأن نتائج هذه المعركة مضمونة، فوقعوا فى نفس الخطر الذى وقع فيه جيش المسلمين «يوم حنين»، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً... (٣).

الكثرة ... والحيلة:

وأخذ «حسان» يتمهل فى سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به، وذلك بعد انسحابه من معركة «نهر نينى»، مما يدل على أن المسلمين الذين

(١) لت : خلط بالزيت.

(٢) البيان المغرب (١ - ٢٧).

(٣) قادة فتح المغرب (ص : ١٨٥).

استقروا فى «القيروان» كانوا غير محاربين ، أى كانوا سكانًا مدنيين ، لا يطمع أن يكونوا جنودًا محاربين .

فلما فصل عن «قابس» : كتب إلى الخليفة أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان» يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة وأتباعها من البربر ، فكتب إليه «عبد الملك» : قد بلغنى أمرك وما لقيت وما لقى المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابى هذا ، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمرى .

وكان كتاب «عبد الملك» قد وصله بمكان يقال له اليوم «قصور حسان» وكان «حسان» قد بنى هناك قصرًا ونزل قصورًا من حيز «برقة» ، فسميت «قصور حسان» ، وكانت «أنطابلس»^(١) و«لوبيه»^(٢) و«مراقية»^(٣) إلى حدود «أجدابية»^(٤) ، منطقة نفوذ لـ «حسان» فأقام هناك خمس سنوات .

وتوافد على «حسان» - أثناء تلك السنين - فرسان العرب - ورجالها من قبل أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان» .

ويبدو أن «حسانًا» يبعد نظره ، وثاقب فكره قد اعتبر الزمن جزءًا من خطته فى الخلاص من الكاهنة ، ولسوف نرى ذلك واضحًا فى تدبيره .

دعا «حسان» رجلاً من أهل ثقته ، فيه فروسية وذكاء وشجاعة ، وبعثه إلى «خالد بن يزيد» ، الأسير الذى تبنته الكاهنة ، فقال له : إن «حسان» يقول لك ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟ .

وبعث «حسان» مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من «خالد» الأمور . . .

يريد أن يقف على عورات الكاهنة ، ومكامن ضعفها ، وهل ما زالت تتمتع بتأييد كل قبائل البربر لها ؟ ! .

(١) مدينة بناحية «برقة» .

(٢) لوبيا : ليبيا

(٣) مراقية : معروفة اليوم .

(٤) بين برقة وطرابلس .

فكتب «خالد» فى ظهر كتاب «حسان»^(١).

- (إن البربر متفرقون ، لا نظام لهم ، ولا رأى عندهم ، فاطو المراحل وجد فى السير).

وجعل الكتاب فى رغيغ ، وجعله زاداً للرجل ووجهه إلى «حسان» وكان «خالد» قد أنضج الرغيغ فاحترق الكتاب بالنار .

فلما كسر «حسان» الرغيغ وقرأ الكتاب الذى كتبه إليه «خالد» وجده قد أفسدته النار ، فقال له «حسان» ارجع إليه .

وعاد الرجل إلى «خالد» ، فكتب إلى «حسان» بما كتب أولاً ، وأودعه قربوس السرج ، حفره ووضع الكتاب فيه ، وأطبق عليه حتى استوى وخفى مكانه^(٢).

وهنا - عزيزى القارئ - يجدر بنا أن نتوقف قليلاً ، فقد بذل «حسان» قصارى جهده لاستطلاع أمر الكاهنة ، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر ، فلا نظام لهم ، ولا رأى عندهم .

كما أن تدابير الكتمان التى اتخذها «خالد» بلغت حد الروعة والاتقان ، سواء فى وضع الكتاب داخل الرغيغ ، أو فى وضعه فى قربوس الفرس ... ولن يستطيع ضابط استخبارات محترف ، فى الوقت الحاضر ، أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق كتماناً مما فعله «خالد» .

ترى ما حقيقة ما كان يجرى فى الطرف الآخر عند الكاهنة وأتباعها من البربر؟ يقول ابن الأثير : (ملك الكاهنة «إفريقية» كلها ، وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتمهم وظلمتهم) .

أى أن الاضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التى تغيب فيها «حسان» ... وذلك طبعاً لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ، فلما حاولت

(١) البيان المغرب (١ - ٢٨) ابن الأثير (٤ - ١٤٣) - رياض النفوس (١ - ٣٤) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٣٧٥) ابن الأثير (٤ - ١٤٣) .

الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء العرب ، عارضها نفر منهم ، فاضطرت إلى اصطناع الشدة معهم . . . فشاروا بها . . . ونفروا منها ، فانتشرت الاضطرابات فى البلاد ، بل فكر بعضهم فى الاستنجاد بالعرب واستدعائهم - كما سئى - .

لما رأت الكاهنة إبطاء العرب عنها خمس سنوات، قالت للبربر : إن العرب يريدون فى إفريقية المدائن والذهب والنفقة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى . . . ، فلا أرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها ، حتى يئأس العرب منها ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر .

فوجهت - قومها - إلى كل ناحية يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون . . . فذكروا - أى المؤرخون - أن إفريقية كانت ظلاً واحداً ، من «طرابلس» إلى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة، حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب ، الشمال الإفريقى كله، مسيرة ألفى ميل فى مثلها ، طولاً وعرضاً ، فخربت الكاهنة ذلك كله .

وخرج يومئذ من النصارى، والأفارقة خلق كثير، مستغيثين مما نزل لهم من الكاهنة ففترقوا على «الأندلس» والجزائر البحرية^(١) .

هكذا تضعف سلطان الكاهنة فى بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

أما الروم . . . فإنهم قد وجدوا فى خروج «حسان» فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطان نفوذهم عليها من جديد .

وكان الإمبراطور الجديد «ليونثيوس» الذى خلف «جوستينيان» - الثانى - (٦٩٥م - ٧٤هـ) قد أهمه سقوط «قرطاجنة» فى أيدي العرب ، وتخريب «حسان» لها .

(١) البيان المغرب (١ - ٢٦)

فلم تكذب أخبار هزيمة «حسان» على نهر «نينى» تَرَدُّ إليه، حتى عجل بالعمل، فقد أعد حملة كبيرة، واهتم بالإعداد لها اهتماماً فائقاً، وتخير لقادتها قائداً من أشهر قواد الدولة الرومانية وأقدرهم هو «البطريق يوحنا» (Patricius jean) وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند.

وظهر الأسطول الرومى - البيزنطى - فى مياه «قرطاجنة» سنة (٦٩٧م - ٧٨هـ) وتمكن من الاستيلاء على المدينة بيسر وسهولة، وطرده المسلمين الذى كانوا فيها، واشتد فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين أشد قسوة، حتى إنه ليقتل بيده!!.

فلما تم له ذلك اكتفى به، وأقام للراحة فى «قرطاجنة» طيلة فصل الشتاء، دون أن يضع فى حسابه محاولة عودة المسلمين إليها!! ولم يقم بأى استعداد لذلك..

وعلم «حسان» بما فعل الروم بالمسلمين فى «قرطاجنة»، فأرسل أربعين رجلاً من أشرف الناس إلى الخليفة «عبد الملك بن مروان» وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام «حسان» مرابطاً ينتظر رد «عبد الملك بن مروان» ورأيه.

بهاتين الحركتين، حركة الكاهنة، وحركة «البطريق يوحنا» ثم انتقاض الشمال الإفريقى على العرب، وخرج من يدهم جملة، ولم يبق فى طاعتهم شبر واحد مما يلى «قابس» غرباً.

وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه، فقد أقامت هى فى الجنوب، فى السهل الداخلى، بينما اهتم البطريق أن يعيد الرباط الساحلى، الذى يمتد من «سوسة» إلى «شقبناية» - ما بين تونس والجزائر - .

وطالت إقامة «حسان» على وضعه الحالى خمس سنوات كما قدمنا ..

صحيح أنه كان يعتمد على عامل الزمن ، وانتظار الفرصة المؤاتية للانقضاء ،
لكن هذا الوقت قد طال أكثر مما يلزم . .

والسبب في ذلك الفتن الداخلية التي واجهت «عبد الملك» ، وقد كانت كثيرة
وعنيفة ، حتى استطاع إخمادها .

وفي أواخر سنة إحدى وثمانين (٨١)هـ، وبعد أن اطمأن «عبد الملك» إلى
الوضع الداخلي تمامًا ، سیر إلى «حسان» الجنود والأموال، وتوافد عليه فرسان
العرب ورجالها، حتى إذا أكمل استحضارات القتال وتهيئة جيشه ماديًا ومعنويًا،
أمره «عبد الملك» بالتحرك وقتال الكاهنة .

أما الكاهنة فإنها لما علمت بذلك، رحلت من جبل «أوراس» في خلق
عظيم . . فلما كان الليل قالت لابنها : إنى مقتولة . . ! وأعلمتهم أنها رأت
رأسها مقطوعة ، موضوعة بين يدي ملك العرب الأعظم «الخليفة» الذي بعث
«حسانًا» .

فقال لها «خالد بن يزيد» : فارحلى بنا واخلى له عن البلاد .

فامتعت، ورأته عارًا لقومها، فقال لها «خالد» وأولادها: فما نحن صانعون
بعدك ؟

فقالت: أما أنست يا خالد فتدرك ملكًا عظيمًا عند الملك الأعظم . . ، وأما
أولادى فيدركون سلطانًا مع هذا الرجل الذى يقتلنى، ويعقدون للبربر عزًا .
ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه .

فركب «خالد» وأولادها فى الليل، وتوجهوا إلى «حسان» فأخبره «خالد»
بخيرها، وأنها علمت قتلها، وقد وجهت إليك أولادها .

فوكل بهما من يحفظهما ، وقدم «خالدًا» على أعنة الخيل .

المواجهة:

وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها ، فقالت : انظروا ما دهمكم فإنى مقتولة . . .
ثم التحم القتال ، واشتد الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة فأتبعها «حسان»
حتى قتلها^(١) فى مكان لا يزال يعرف بـ «بئر الكاهنة» .

وكانت هذه المعركة بين المسلمين والكاهنة ، سنة اثنين وثمانين للهجرة
(٨٢هـ)، ويعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الدعة ، واطمأنت النفوس ، ودخل
أكثرهم فى الإسلام .

وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهل البلاد لردهم ، إذ كانت
الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتذى وراءه أهل البلاد فلما سقطت انتهت كل
مقاومة .



الاستعداد للروم:

عاد «حسان» إلى «القيروان» بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك فى
شهر رمضان عام اثنين وثمانين (٨٢ هـ)، ليريح جيشه ، وليكمل نواقص قواته
الإدارية ، فلما استراح جيشه وأنجز استحضاراته ، اتجه إلى شمال «القيروان»
حيث لا زالت هناك جيوب يحكمها الروم ، وقلاع يسيطر عليها البربر .

وكانت جبال «زغوان»^(٢) فى شمال «القيروان» وفى جنوب «قرطاجنة» لا تزال
موطنًا لمقاومة البربر والروم ، ولعل قربها من «قرطاجنة» جعلها الخط الدفاعى
الأول عن تلك المدينة ، فأرسل إليها «حسان» مولاة «أبا صالح» فتأزلها ثلاثة أيام
دون جدوى ، فأسرع إليها «حسان» بنفسه ، ثم فتحها صلحًا .

ولم يبق على «حسان» إلا استعادة فتح «قرطاجنة» وكان «البطريق يوحنا»
ورجاله من الروم قد حصنوها ، وأعادوا ما تهدم من أسوارها . . . وكانوا يرقبون
تحركات «حسان» .

(١) البيان المغرب (١ - ٢٨ - ٢٩)

(٢) بالقرب من تونس العاصمة .

فسار إليهم .. ، فتحصنوا بها ، وحاصروهم «حسان» ، فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين ، انهزم فيها «يوحنا» هزيمة ساحقة .
 كما انهزم الأسطول البيزنطى فى موقعة كبيرة ، سقطت بعدها «قرطاجنة» فى يد «حسان» فأدرك اليأس «البطريق يوحنا» ، فجمع أجناده ورحل إلى «بيزنطة» .
 وكانت هذه آخر معارك المسلمين مع الروم فى الشمال الإفريقى .
 ثم أرسل «حسان» أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها ، ووطد الأمن فيها ، وترك فيها حاميات من المسلمين .

مأثرة وأثر:

كان «حسان» من القادة العظام ، ذوى الكفاية العسكرية والإدارية ، وفتحاً من الطراز الأول ، ولقد أدرك أن استعادة «قرطاجنة» لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً ، وفتحها ، لذا عول على إنشاء ميناء جديد يكون قاعدة حربية بحرية للأسطول الإسلامى .
 وأخذ يبحث عن مكان مناسب ، فوجد إلى جنوب «قرطاجنة» بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، فاسترعى هذا الموضع انتباهه .

كان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة تدعى «ترشيش» ، وهى على سفح جبل ، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعى هو كالحصن لها والسور الذى يمنع الأعداء عنها . وفى شرقيها بحيرة جميلة تلطف جوها وتزيدها سحراً وجمالاً ، وتحيط بها سهول زراعية .

وكان على «حسان» أن يبدأ بحفر البرزخ الذى يفصل البحيرة عن البحر ، وأن يحفر فى ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر ، وتصبح «تونس» ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من

أمواج البحر ، ثم يعقب ذلك بإنشاء (دار صناعة) ، ترسو فيها السفن وتقلع منها بأمان ؛ وفعل ذلك ، وبذل جهداً عظيماً ، واستغرق وقتاً .

وأصبحت « تونس » رباطاً يحمى « القيروان » ، ومحرساً بحرباً وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام « قرطاجنة » .

فأقام « حسان » لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد ، وبسط سلطان الإسلام على كل ربوع الشمال الإفريقي ، وأصبح الفتح الإسلامى هناك فتحاً مستداماً .

صفاته وحياته الشخصية:

قدمنا صورة واضحة مفصلة عن حياة « حسان » العامة وجهاده وبلائه ، ولكن ما هى الصفات الخاصة التى كان يتمتع بها ؟ .

كان « حساناً » - رحمه الله - رجلاً عاقلاً رزيناً ، مخلصاً وفياً ، صادقاً تقياً ورعاً ، وكان أميناً ، وقد عرف كما سبق وقلنا بلقب « الشيخ الأمين » .

بعد عزله عن إفريقية ، أيام « عبد العزيز بن مروان » - والى مصر - ، عاد إلى الشام ، وقال لمن معه فى حضرة الخليفة « الوليد بن عبد الملك » :

- اتنوني بقرب الماء ..

ففرغ منها ما جاء به من الفضة والذهب والجوهر .

فقال له « الوليد بن عبد الملك » : جزاك الله خيراً يا « حسان » .

فقال : يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً فى سبيل الله ، وليس مثلى يخون الله ولا الخليفة .

فقال « الوليد بن عبد الملك » : أنا أردك إلى عملك ، وأحسن إليك ، وأتوّه

بك ... !

فحلف « حسان » : لا ألى لبنى أمة أبداً .. !!

قال ذلك بأساً واقتناعاً ...

يَأْسًا مِنَ الْعُقُوقِ^(١) الَّذِي قَبِلَ بِهِ عَمَلُهُ وَجِهَادُهُ . . . ، وَاقْتِنَاعًا بِأَجْرِهِ عَلَى اللَّهِ -
تَعَالَى .

الشهيد:

وَأَقَامَ «حَسَن» فِي الشَّامِ شَهْرًا فِي عَامِ سِتَّةِ وَثَمَانِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَ الْجَيْشِ
الْإِسْلَامِيِّ الذَّاهِبِ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ فِي آسِيَا الصُّغْرَى «الْأَنَاضُول» ، بِقِيَادَةِ «مُسْلِمَةَ
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ» ، وَهَنَّاكَ سَقَطَ «حَسَن» شَهِيدًا .
رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ فَقَدْ كَانَ تَابِعِيًّا جَلِيلًا ، وَسِيَاسِيًّا مُحَنِّكًَا ، وَإِدَارِيًّا
حَازِمًا ، وَدَاعِيَةً حَصِيْفًا^(٢) ، وَبَطْلًا شَجَاعًا وَمُفَكِّرًا فَذًا ، وَقَائِدًا فَاتِحًا .

(١) الْعُقُوقُ : التَّكْرَرُ

(٢) حَصِيْفًا : ذُو رَأْيٍ صَانِبٍ .

٣ - معاوية بن حديج

روى معاوية بن حديج^(١) السكوني - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال :
(سمعت رسول الله ﷺ يقول : غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)^(٢).

ولقد تأثر «معاوية بن حديج» بما سمعه من رسول الله ﷺ فى فضل الجهاد فى سبيل الله وعظيم أجره ، حتى خالط مشاشة عظمه .
والذى يتبع قصة «معاوية» بإمعان وتمحيص ، يجد أنه كان يهوى الجهاد . . .
ويفضل دائماً أن يكون غازياً فى ساحات الحروب ، والمعارك على أن يكون والياً فى ردهات القصور وباحاتها ، مستمتعاً بنعيمها وزخرفها .
فصهوة الفرس عنده أعظم وأشرف من كرسى السلطة وسرير الملك .
كما أن المتبع لحياته يراه دائماً فى مركز «القيادة» والمسئولية العسكرية ، وقل ما كان تابعاً .

ويراه أيضاً - ظافراً ناجحاً متصراً ، لم يهزم فى معركة قط .
ولقد وصفه صاحب كتاب «الولاة والقضاة» بأنه : (كان من أسود العرب) .

والآن - عزيزى القارئ - هيا نستعرض معاً صفحات حياة وجهاد هذا الصحابى البطل ، مستلهمين العبرة والعظة ، والقدوة الحسنة .

(١) جاء فى كتاب «الإصابة» أن اسم والد «معاوية» هو «خديج» بالخاء .
(٢) رواه «البغوى» كما أخرج له أبو داود والنسائى حديثاً فى السهو فى الصلاة ، وأخرج له أيضاً الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً فى دفن الميت . (الغدوة : الخروج باكراً والروحة العودة مساء)

اسمه ونسبه ونشأته:

هو: «معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية ابن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون» - السكونى - . يكنى بـ «أبى نعيم» وهو الأشهر ، وقيل: «أبى عبد الرحمن»^(١).

وأمه: «كبشة بنت معدى كرب» وهى شاعرة من شواعر العرب المشهورين^(٢).

وكانت نشأته فى «اليمن» حيث تقيم قبيلته «كنده» وقد اشتهرت تلك القبيلة اليمنية - بمختلف بطونها - بالشجاعة والفروسية وشدة البأس، وعلى هذا النسق تربي «معاوية» وعلى هذا المنهج سار ومضى.

إسلامه:

أسلم «معاوية» فتى يافعاً، حين وفد إلى «المدينة» على رسول الله ﷺ، وصحبه، ولا يذكر التاريخ سنة إسلامه ووفوده، والأرجح أنها كانت «عام الوفود» فى السنة التاسعة من الهجرة، لذا كانت صحبته لرسول الله ﷺ قصيرة، لكنه سمع وحفظ وتأثر، وحسن إسلامه .

ومما أغفله التاريخ أيضاً سنة ميلاده .

وبعد انتقال الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، واستخلاف «أبى بكر الصديق» - رضى الله عنه -، ونشوب فتنة الردة، فى أكثر من صقع من ديار العرب، واستعلان بعض القبائل بها، ثبتت قبيلة «معاوية» على الإسلام والإيمان، ثم جاءوا المدينة من «اليمن»، فرسانهم وشجعانهم، يعلنون الولاء التام، وينضوون تحت لواء القادة الذين جاهدوا المرتدين، ويبلون أحسن البلاء.

(١) جمهرة : أنساب العرب - الإصابة - تهذيب التهذيب - الاستيعاب - معالم الإيمان .

(٢) أعلام النساء - (عمر رضا كحالة) .

جهاده - رضى الله عنه - :

ومنذ يومئذ بدأت رحلة جهاد «معاوية بن حديج» فى سبيل الله ، واضعاً نصب عينيه ما استقر فى أذنيه ، وصميم فؤاده ، من حديث رسول الله ﷺ :
(غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)

وبدأ يترقى... ويعلو... ويظهر نجمه ، ويتأطر اسمه فى لائحة القادة

وحق لـ «الذهبي»^(١) أن يلقبه بقوله : «الأمير الصحابي قائد الكتاب» .

فى جيش «عمرو بن العاص» :

وتوجه «معاوية» إلى الشام مع جيوش الفتح التى سيرها الخليفة «الصديق» - رضى الله عنه - ، وكانت أربعة: جيش «أبى عبيدة بن الجراح» ، وجيش «عمرو بن العاص» وجيش «يزيد بن أبى سفيان» ، وجيش «شرحبيل بن حسنة» - رضى الله عنهم أجمعين - .

ولما تم النصر للمسلمين على الروم فى معركة اليرموك ، اتجهت قوات جيش «عمرو» إلى «فلسطين» ، جنوباً ، كما اتجهت بقية الجيوش الثلاثة شمالاً ، تحت قيادة موحدة ، هى قيادة «أبى عبيدة عامر بن الجراح» - رضى الله عنه - تتابع الفتح فى «الأردن» و «سوريا» و «لبنان» .

وخاض «عمرو» عدة معارك مع فلول الروم فى أرض «فلسطين» حتى تجاوزها إلى شبه جزيرة «سیناء» .

ولقد أدرك - وهو القائد الحبير - بأن الوجود الرومانى فى «مصر» سيظل مصدر خطر وقلق على الجيوش الإسلامية ، فى ديار الشام كلها ، فعقد العزم على فتحها ، واستشار أمير المؤمنين «القاروق» - رضى الله عنه - فى ذلك ، واستمدّه بالجند ، فباركهُ وأمده ، ونصحه ، وكان بطلنا «معاوية بن حديج» قد أظهر فى كل

(١) ميزان الاعتدال .

المعارك مقدرة فائقة ، وشجاعة بالغة وحسن رأي وبلاء ، مما لَقَّتْ إليه نظر القائد - « عمرو » فقربه منه وأدناه ، وجعله من أركان حربه ، ومعاونيه ومستشاريه .

البشير إلى أمير المؤمنين:

وتم فتح مصر . . . ، ولكن بعد معارك شرسة ، وحروب طاحنة ، ضد الرومان ، ولقد استعصت « الإسكندرية » بعض الوقت ، لكنها سقطت أخيراً في أيدي المسلمين .

وبهذا تكون أكثر البقاع المصرية قد تطهرت من رجس الروم الذين كانوا يستبدون بأهلها ، ويستزفون ما بأيديهم من أموال وأقوات .

واختار « عمرو » « معاوية بن حديج » ليكون رسوله إلى أمير المؤمنين « الفاروق » في « المدينة » يشره بفتح « الإسكندرية » .

وهنا - عزيزى القارئ - نترك الكلام لـ « معاوية » نفسه ، يحدثنا بلسانه عن سفارته إلى « عمر » - رضى الله عنه - .

يقول « معاوية » : (بعثنى «عمر بن العاص» إلى «عمر بن الخطاب» بفتح «الإسكندرية» فقدمت «المدينة» فى الظهيرة ، فأنخت راحلتى بباب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل «عمر بن الخطاب» فرأيتى شاحباً^(١) ، على ثياب السفر ، فأتتنى وقالت :- من أنت ؟ قلت :- أنا «معاوية بن حديج» رسول «عمر بن العاص» . . !

فانصرف عنى ، ثم أقبلت تشدد^(٢) ، أسمع حفيف إزارها على ساقها ، حتى دنت منى ، فقالت : قم فأجب . ! أمير المؤمنين يدعوك . فتبعته ، فلما دخلت فإذا به «عمر بن الخطاب» يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى^(٣) ، فقال :

(١) شاحباً : مصفراً بسبب الضعف والإرهاق .

(٢) تشدد : تسرع فى مشيتها .

(٣) كناية عن الاستعجال والاهتمام .

- ماعندك ؟

قلت : - خير يا أمير المؤمنين... ، فتح الله « الإسكندرية » ...

فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : - أذن في الناس « الصلاة جامعة » .

فاجتمع الناس ، ثم قال لي : - قم فأخبر أصحابك .

فقممت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم

جلس ، فقال :

- يا جارية ... ! هل من طعام ؟

فأتت بخبز وزيت ، فقال :

- كل ...

فأكلت على حياء .

ثم قال :

- يا جارية ... ! هل من تمر ؟

فأتت بتمر في طبق ، فقال :

- كل ...

فأكلت على حياء ...

ثم قال : - ماذا قلت يا « معاوية » حين أتيت المسجد ؟

فقلت : - قلت أمير المؤمنين قاتل^(١) ... !

فقال : - لبس ما قلت - أو : لبس ما ظننت - ، إن نمت النهار - لأضيغن

الرعية ، وإن نمت الليل لأضيغن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا « معاوية » ؟

يقول أستاذنا اللواء الركن «محمود شيت خطاب» :

(١) قاتل : من القيلولة ، وهي إغفائه ما بعد الظهر .

(إن إيفاد «معاوية» بشيراً بالفتح، دليل على ثقة «عمرو» به، واعتماده عليه، وأنه كان شخصية لامعة في جيش المسلمين الذي فتح مصر، في جهاده وعقله ومنطقه وتصرفه.

كما أنه دليل على أنه كان مقبولاً من «عمر بن الخطاب» إذ لا يمكن أن يبعثه «عمرو» دون أن يكون موضع ثقة «عمر» وتقديره (١. هـ).

غزو الشمال الإفريقي:

بعد هزيمة الروم في «مصر» وانسحابهم منها، توغلوا في الشمال الإفريقي الذي كان خاضعاً لسيطرتهم أيضاً، وحاولوا أن يثبتوا وجودهم هناك، ولعلمهم كانوا يريدون الكرة على «مصر» منه، لاستردادها.

ولقد أدرك هذا الخطر القائد الخبير «عمرو بن العاص»، وتيقن من ضرورة حماية «مصر» من خطر الروم أولاً ثم الانسحاب في الشمال الإفريقي ونشر الإسلام، ثانياً...، فالخروج الإسلامى من الجزيرة العربية لم يكن بقصد (الغزو) إنما كان من أجل (الفتح) !!

فكان «عمرو» يرسل الطلائع والجيوش متتابعة إلى «ليبيا» و«تونس»، وينازل الروم، فيهزمهم ويتنصر عليهم...، ويمهد للوجود الإسلامى فى تلك الديار.

فلما كانت خلافة «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - ولّى على «مصر» «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» بدلاً من «عمرو بن العاص»، الذى اختلف معه.

ومنذ ذلك الحين بدأت تطورات جديدة فى حياة «معاوية بن حديج»، أبرزها على الصعيد العسكرى غزواته المتتابعة للشمال الإفريقي، بقيادته... وظفره وانتصاره.

وسام فى « النوبة »:

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن قيادة « معاوية » وغزواته الخالدة فى الشمال الإفريقى، نريد أن نسجل موقفًا له .

لقد كان أهل « النوبة » - وعلى الخصوص « دنقلة » - من أمهر الرماة بالسهم، وكيف أنهم أصابوا عددًا من المسلمين فى عيونهم . . ولقد كان « معاوية بن حديج » فى جيش « عبد الله » حين غزوه لبلاد « النوبة » سنة إحدى وثلاثين، (٣١هـ)، وحمل « معاوية » يومئذ وسامًا، يشهد له عند الله تعالى وعند الناس بصدق الإيمان وحسن البلاء، إذ عاد من تلك المعركة فاقداً لإحدى عينيه . . ؟!

ولنتحدث الآن عن غزواته فى شمالى إفريقيا، علماً بأنها كثيرة، ولكن المؤرخين ركزوا على ثلاث منها اعتبروها الأهم، مع اختلاف وتتابع القائمين على شئون الخلافة، من « عثمان » إلى « على » إلى « معاوية بن أبى سفيان » - رضى الله عنهم - .

• غزواته فى الشمال الإفريقى:

الغزوة الأولى

كانت الغزوة الأولى سنة أربع وثلاثين للهجرة النبوية (٣٤) هـ . فى زمن خلافة « عثمان بن عفان » - رضى الله عنه، وحين كان « عبدالله بن سعد بن أبى السرح » واليًا على « مصر » بعد « عمرو بن العاص » .

وكان مع « معاوية بن حديج » فى حملته تلك جماعة من المهاجرين والأنصار، من صحابة رسول الله ﷺ . ففتح مناطق شاسعة، وغنم غنائم عظيمة، وبنى مساكن وبيوتًا عند « القيروان » - وكانت تعرف يومئذ بـ « القرن » - ، وأقام هناك مدة .

الغزوة الثانية

وفى سنة إحدى وأربعين للهجرة (٤١هـ)، كانت غزوته الثانية للشمال الإفريقى، وقد توغل فيها حتى بلغ «تونس»، وكان من أشهر أعماله فى تلك الغزوة فتح «بنزرت»، وهى ميناء بحرى مشهور لا يزال قائماً إلى يومنا هذا، ويعرف باسم «خليج بنزرت».

ومما هو جدير بالذكر فى هذه الغزوة أنه كان مع «معاوية بن حديج» فى جيشه «عبد الملك بن مروان بن الحكم» - الذى أصبح من بعد خليفة .

الغزوة الثالثة

لما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لـ «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» ولد «معاوية بن حديج» أجبروا البربر فى الشمال الإفريقى على أن يعطوهم مثل ذلك، فاعتذروا لأن ذلك ليس فى طاقتهم ومقدورهم...، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم .

فوقع القتال بين خليفة^(١) «جرجير» - ملك إفريقية الرومانى - وبين قائده، لاختلافهما على السلطة، وعلى طريقة وأسلوب التعامل مع البربر .

فهزم القائد خليفة «جرجير»...، ففر إلى الشام، وهناك اتصل بـ «معاوية بن أبى سفيان»، وكان قد أصبح خليفة...، وزين له الاستمرار فى فتح بقية الشمال الإفريقى واصفاً له خيراتها وثرائها، وعهد له بالتعاون معه، كما دله على عورات الروم...! فبعث «معاوية بن حديج» لفتحها، فغزاها سنة خمس وأربعين للهجرة (٤٥هـ) .

وقد وجه «معاوية» فى جيش كثيف تعدادة عشرة آلاف رجل، فيهم «عبد الله ابن عمر بن الخطاب» و «عبد الملك بن مروان» - كما سبق وذكرنا -، وجماعة من الصحابة والتابعين .

(١) خلفته : نائبه .

ومضى «معاوية بن حديج» فى سيره وتوغله، وكانت البلاد تضطرم ناراً بالخلافات بين الروم أنفسهم، وبينهم وبين البربر. فنزل بجيشه على مدينة تسمى «قَمُونِيَّة» وهى «قيروان» إفريقية^(١)، وكان عامل «جرجير» هو ملك «سيبلة»^(٢) ومعه ثلاثون ألف مقاتل، قد وجههم إليه من «القسطنطينية» فى البحر، مدداً . . . للدافعة المسلمين وصددهم عن الزحف .

فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت . . . ، إذ التقاهم «معاوية بن حديج» بجند الله عند حصن يدعى : «حصن الأجم» وكان مركزاً حربياً هاماً للروم، فقاتلهم حتى هزمهم ، وفتح الله عليه وعلى من معه .

ثم بث السرايا . . .

إذ أرسل «عبدالله بن الزبير بن العوام» على رأس قوات إلى «سوسة» ففتحها .
كما بعث «رويفع بن ثابت الأنصارى» بحراً إلى جزيرة «جربة» فى خليج قابس» التونسى، ففتحها أيضاً ، وأزال حاميتها ، ثم ارتد إلى «طرابلس» التى كان والياً عليها .

وبعث - أيضاً - «عبد الملك بن مروان» إلى «جلولاء» ففتحها .

وهذا الجيش - عزيزى القارئ - يسمى «جيش العبادلة» ، لوجود أكثر من صحابى وتابعى فيه تبدأ أسماءهم بـ «عبد» كـ «عبد الله بن عمر بن الخطاب» و«عبد الله بن الزبير» و «عبد الملك بن مروان» وغيرهم .

آثاره هناك:

واستقر «معاوية بن حديج» فى جبل «القرن» - يعرف اليوم بجبل «وصلات» - ، وجعله مقراً له وأقام هناك ثلاثة أعوام .

(١) مدينة كانت موضع القيروان - (معجم البلدان) (٧ - ١٦٢) .

(٢) بين (القيروان) و (ففصة) - فى تونس - .

وبنى هناك - بناحية القرن - مساكن سماها : «قيروان»^(١) ، ومن أجل الحاجة - إلى الماء احتفر آباراً تسمى «آبار حديج» ما تزال معروفة إلى اليوم ، تقع خارج باب مدينة «تونس» - العاصمة - تنحرف إلى الشرق عند مكان يعرف بـ «مضلى الجنائز» .

ومن المشهور المعروف أنه هو الذى أرسل «عقبة بن نافع» سنة خمسين لتابعة الغزو والفتح فى الشمال الإفريقى ، وهذا من مآثره فى حسن التقدير والاختيار ، والصدق مع الله تعالى .

«معاوية بن حديج» و جزيرة «صقلية»

وكان «معاوية» - وهو فى مقامه فى «القرن» - قد تناهت إليه أنباء عن استعدادات «رومية» جديدة لغزو الشمال الإفريقى ، فأراد أن ييث فى قلوبهم الرعب ويفاجئهم ، فجهز مائتى سفينة ، حشد لها بالجند والذخيرة ، والمؤن ، وأمر عليهم «عبدالله بن قيس» أحد القادة الشجعان ، وسيرهم فى البحر إلى جزيرة «صقلية» .

وكانت غارة غير متوقعة ، فما أسهل ما هزم «عبد الله» حامية الجزيرة ، وسبى من أهلها وغنم ، وكان ممن أصابه أصناماً من ذهب خالص ومن فضة مكلفة بالجواهر الثمين .

ولم تطل إقامته بجنده هناك ، إذ عاد سريعاً إلى قاعدته فى الشمال الإفريقى ، فقد كان يكفيه أن يقوم بهذه (الغارة) إيذاناً وإنذاراً للروم بمقدرة المسلمين على المبادأة^(٢) .

المرحلة الثانية

تلك - عزيزى القارئ - كانت المرحلة الأولى من حياة «معاوية بن حديج» .
تبدى فيها أعماله العسكرية وفتوحاته ، وجهاده .

(١) كما جاء فى «معالم الإيمان» (١ - ١١٤) .

(٢) البيان المغرب (١ - ١٣)

ولكن هناك مرحلة ثانية اختلط فيها العمل السياسى ، بالعمل العسكرى ، فرضتها عليه الظروف والأحداث ، ولم يكن له مفر من المشاركة فيها .

وهذه المرحلة تبدأ مع ظهور فتنة «ابن سبأ» والثورة على الخليفة الثالث ، «عثمان ابن عفان» - ذى النورين - رضى الله عنه - واستشهاده . . !

وفى هذه المرحلة تضطرب المواقف وتختلط ، من خلال الموالات والتحالفات . فبعض الصحابة والمستولين من الولاة يقفون من الخليفة الشرعى موقف المؤيد ، والبعض الآخر تجرفه الفتنة العمياء ، ويخبط خبط عشواء ، ولا يكفى بإعلان الرأى ، بل يسل السيف وينضم إلى زمرة المقاتلين .



وكانت «مصر» مع الأسف بؤرة هذه الصراعات ، ومصدر التآمر على الخليفة «عثمان» - رضى الله عنه - .

وهذه جزئية هامة من التاريخ ، القريب العهد من رسول الله ﷺ لابد أن نلقى عليها الأضواء لتكون جلية أمام عينيك ، ولتدرك من خلالها أن أشد ما يفتك بهذه الأمة - فى أى عصر- هو التكالب على الدنيا ، والرغبة فيها .



لقد استدعى «عثمان» - رضى الله عنه - ولاته وعماله من مختلف الأقاليم ليشاورهم فى شئون المسلمين ، ويستنصحهم فيما يراه من زلزلة تكاد تعصف بالأمة .

وكان «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» - والى مصر - من أول المستجيبين لدعوة الخليفة ، فما أن خرج من «مصر» حتى وثب «محمد بن أبى حذيفة» على السلطة وأعلن نفسه والياً على مصر ، وكان «محمد» هذا من أشد الشائرين على «عثمان» .



كما أن زمرة الثائرين خرج أكثرهم من «مصر» إلى المدينة بقيادة «محمد بن أبى بكر»، ليس بقصد النصح والتشاور، ولكن بقصد فرض الرأى على «عثمان».

ورضى «عثمان» - رضى الله عنه - لمطالبهم ، استرضاءً لهم، ووأداً للفتنة، وأعطى «محمد بن أبى بكر» كتاباً يوليه فيه على «مصر» .

وفى طريق عودتهم إلى «مصر» تبين لهم الغدر بهم ، فقد كان الكتاب يحمل أوامر إلى والى «عبدالله بن سعد» أن يضرب أعناقهم جميعاً !! تخلصاً منهم .

فارتدوا على أدبارهم إلى «المدينة» وهم فى أعلى درجات الغليان والثورة، وحاصروا «عثمان» فى داره ، رغم تبرُّئه من مضمون الكتاب، وأنه قد زوّر عليه.

وما هى إلا أيام حتى دخلوا على «عثمان» فى داره وذبحوه، وهو يتلو كتاب الله تعالى . . ووقعت الواقعة، وتم لابن السوداء - عبدالله بن سبأ - ما كان يرسم له ويخطط من تمزق وحدة المسلمين، واستحلال بعضهم لدم البعض الآخر.

ونرجع إلى «معاوية بن حديج» . . .

فقد ثبت على ولاته لـ «عثمان» ، ولم يشارك، لا فى الرأى ولا فى الثورة عليه، ولقد اضطرته هذه المواقف أن يتناصب «محمد بن أبى حذيفة» العداء، وقد التف حوله جنده، وغيرهم أيضاً . . ! خصوصاً بعد مقتل «عثمان» - رضى الله عنه - !

وحتى لا يقع بينه وبين «محمد بن أبى حذيفة» قتال، خرج بمن معه إلى الصعيد، والتف غرباً حتى بلغ «برقة» ثم ساحل الطريق حتى انتهى به المطاف إلى كورة قريبة من الإسكندرية تدعى «خربتا»، فأقام بها، ومعه أصحابه وبعض الذين انضموا إليه.

تطورات جديدة:

وبويح لـ «على بن أبى طالب» - رضى الله عنه - بالخلافة، فعين «قيس بن سعد بن عبادة» واليًا على مصر .

غير أن والى دمشق والشام «معاوية بن أبى سفيان» رفض البيعة لـ «على» وطالبه بالاقتصاص من قَتْلَةِ «عثمان» . . .

وظهر التفسخ والتمزق واضحًا فى صفوف الأمة، بين رجالاتها وماداتها وأقطارها .



وكان تعداد الجيش الذى يقيم فى «خربت» يزيد على عشرة آلاف من الجند، فيهم بالإضافة إلى «معاوية بن حديج» القائد، أسود من أبطال المسلمين أمثال «بسر بن أبى أرطاة» و «مسلمة بن مخلد» .

ولقد رأى والى مصر الجديد «قيس بن سعد» بحكم بُعد نظره ووعيه، ودهائه أن لا يقاتلهم، بل يستميلهم إليه، فبعث إليهم يقول: (إنى لا أكرهكم على البيعة «لعلى»، وإنى كافٌ عنكم .

فهأذنهم بهذا العهد والوعد، وجبى الخراج من أهل مصر عامة، ليس أحد ينازعه .

كما كان يصلهم، ويجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم، ويحسن إلى كل من يأتيه منهم .

هذا الموقف من قيس تجاه «معاوية بن حديج» ومن معه، لم يرض «عليًا»، فقد كان يريد أن لا تكون هذه القوة مصدر خطر عليه، سواء فى مصر، أو خارجها إذا ما تحركت . فطلب من «قيس» أن يقصرهم على الطاعة والبيعة . . . !

فكتب إليه «قيس» يقول: (إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ، وقد رضوا منى بأن يؤمن سربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت بأن

هواهم مع «معاوية» - ابن أبي سفيان - ، فليست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم ، وهم أسود العرب ، منهم : «بسر بن أبي أرطاة» و«مسلمة بن مخلد» و«معاوية بن حديج» .

ويظهر لك - عزيزي القارئ - أن «قيسًا» - رضى الله عنه - كان فى منتهى الحكمة ، حيث يجمّد هذه القوة الفاعلة بحسن التواصل ، بدلاً من أن تكون عليه حرباً .

لكن «عليًا» - رضى الله عنه - أبى على «قيس» هذا التصرف ، وطلب إليه قتالهم ، فرفض «قيس» وكتب إلى «علي» يقول : - (إن كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى)^(١)

وبالفعل ، فقد عزل «علي» «قيسًا» عن ولاية مصر وعين بدلاً منه «محمد بن أبى بكر» ومن هنا كانت قاصمة الظهر .

نصح «قيس» «محمدًا» قائلاً له : (دع «معاوية بن حديج» و«مسلمة بن مخلد» و«بسر بن أبي أرطاة» ومن ضوى إليهم على ما هم عليه ، تكشفهم عن رأيهم فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا فلا تطلبهم . .)

لكن «محمدًا» رفض نصيحة «قيس» وعمل بخلافها .

فكتب إلى «معاوية بن حديج» ، والخارجة معه يدعوهم إلى البيعة ، فلم يجيبوه ، فبعث رجالاً هدموا دور مؤيديهم ونهبوا أموالهم وسجنوا ذراريهم ، فبلغهم ذلك ، فنصبوا له الحرب ، وهموا بالنهوض إليه . . . !

فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ، وهادنهم ، فكفوا عنه .

(١) الولاية والقضاء (٢١) الطبرى (٣ - ٥٥١ ، ٥٥٣) ابن الأثير (٣ - ١٠٧)

نرجو ثواب ربنا !!

بعد معركة «صفين» بين «على» و«معاوية»، أرسل «معاوية بن أبي سفيان» إلى «مسلمة بن مخلد» و«معاوية بن حديج» يستحثهما على المطالبة بدم «عثمان» - رضى الله عنه - . . . ويعدهما المواساة فى سلطانه !!!

فلما بلغهما كتاب «معاوية»، أجاباه : (أما بعد، فإن الأمر الذى بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله تعالى ، أمر نرجو به ثواب ربنا، والنصر على من خالفنا ، وتعجيل النعمة على من سعى على إمامنا).

وأما ما ذكرت من المواساة فى سلطانتك فإن ذلك أمر ماله نهضنا ، ولا إياه أردنا، فعجل إلينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائنين، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك، والسلام.

وتوالى الأحداث:

عندئذ أمر «معاوية» «عمرو بن العاص» أن يتجهز إلى مصر ، ويبحث معه بسة آلاف من جند الشام .

فسار «عمرو» حتى نزل أذنى أرض إلى مصر، فانضم إليه «معاوية بن حديج» ومن معه، فلما قابلتهم قوات «محمد بن أبى بكر» أحاطوا بها، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم «ابن أبى بكر» ودخل «عمرو» بقواته «الفسطاط» (١).

وانطلق «معاوية بن حديج» يتبع «محمد بن أبى بكر»، حتى ظفر به وقتله (٢).

الوالى على مصر:

وفى سنة أربع وأربعين للهجرة (٤٤) هـ، ولأه «معاوية بن أبى سفيان» على مصر فأحسن الإدارة ، واضطلع بأعباء القيادة، وسجل صفحات خالديات .

(١) الولاية والقضاء (٢٨) .

(٢) البيان المغرب (١-١٨) ابن الأثير (٣-٣٨٤) الاستيعاب (٣-١٤١٤) .

فقد سألت السيدة «عائشة» - رضى الله عنها - يوماً بعض رجاله، فقالت: -
كيف كان أميركم فى غزاتكم؟ (تعنى «معاوية بن حديج»).

فقالوا: ما نقمنا عليه شيئاً . . .

وأثنوا عليه خيراً .

وقالوا: إن هلك بعير، أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبى^(١)
خادم أخلف خادمًا .

فقالت: أستغفر الله . . . إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخى «محمد بن أبى
بكر»، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم من رفق بأمى فارق به، ومن شق
عليهم فاشقق عليه).

العزل:

وفى سنة خمسين للهجرة (٥٠هـ)، عزل «معاوية بن أبى سفيان» «معاوية بن
حديج» عن الشمال الإفريقى، وولاه لـ «عقبة بن نافع الفهري»، وأبقاه على ولاية
مصر .

وبعد مضى عام واحد عزله عن ولاية مصر أيضاً .

الوفاة:

كانت «مصر» من أحب البلاد إلى قلب «معاوية بن حديج» فقد أمضى فيها
زهرة شبابه وعنفوان رجولته، منذ أن دخلها مع «عمرو بن العاص» أيام الفتح،
ولم يغادرها إلا غازیًا باتجاه الشمال الإفريقى للجهاد والفتح أيضاً.

(١) أبى: هرب .

وكانت له فى إدارة شئونها أيام ولايته عليها محامد عظيمة، حتى إن شعبها أحبه حباً عظيماً .

فلما عزله « معاوية بن أبى سفيان » عنها سنة إحدى وخمسين، أثر أن يقيم فيها وأن يستقر .

لكنه - كما يبدو - كان متألماً حزيناً، فقد كان ما يزال قادراً على العطاء، والبذل والجهاد فى سبيل الله، فارتد حزنه على نفسه انهياراً، ثم مال به أن توفاه الله تعالى سنة اثنتين وخمسين، ودفن فيها .

٤- عقبة بن نافع

هل تسمع بمدينة «القيروان» في تونس ؟

إنها المدينة التي اختطها وأنشأها «عقبة بن نافع» - رضى الله عنه - ، ومن ثم جعلها خط الدفاع الأول، وحصن المسلمين في الشمال الأفريقي، وما تزال إلى اليوم قائمة تحمل في مضامين أحيائها القديمة نفحاً من روح وعزم هذا القائد البطل .

نسبه وولادته ونشأته:

ولنعد إلى «عقبة» نسير معه مراحل ولادته ونشأته .

هو: «عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر» - القرشي - ؛ فهو يلتقى مع رسول الله ﷺ عند جده الأعلى «فهر» .

أما أبوه «نافع» فكان من جملة المشركين الذين ناووا الإسلام وحاربوه، واشتدوا على أهله، ونفروا عن الهدى والنور، حتى أذن الله تعالى لبعضهم أن يسلموا ويحسن إسلامهم، ومنهم «نافع» الذي أسلم بعد فتح «مكة» - كما جاء في بعض الروايات^(١) - .

ولقد آذى «نافع» والد «عقبة» مع شخص آخر اسمه «هبار بن الأسود» ذات يوم «زينب» بنت رسول الله ﷺ إذ نخس^(٢) - مع غيرهما جملها وهي في طريقها مهاجرة، وكانت حاملاً، فرؤعت وأسقطت - رضى الله عنها - .

هذا - نسب «عقبة» من ناحية أبيه، وهو ثابت على هذه الصورة.

(١) الإصابة : (٣ - ٥١٦) .

(٢) نخس : وخز الجمل بالرمح ، فاضطرب وهاج .

لكن اختلف نسبه من ناحية الأم، ف قيل هي سَيِّة من «عَتَرَه» اسمها «النابعة» وعليه فهو أخو «عمرو بن العاص» لأمه^(١).

وفى رواية أنه ابن خالة «عمرو بن العاص»^(٢)، وفى رواية أن «عمرو بن العاص» خاله^(٣)، وفى رواية أيضاً أنه ابن أخى «العاص بن وائل السهمي» لأمه^(٤).

وعلى كل فإن قرابة «عقبة» من «عمرو بن العاص» ثابتة، وإن اختلفت فى طرقها .

أما مولده - رضى الله عنه - فقد كان قبل الهجرة بسنة^(٥).

وهناك رواية تقول بأنه ولد قبل وفاة النبى ﷺ بسنة^(٦). ولا صحة لها ، وهى مردودة، لأن «عقبة» شهد فتح مصر مع «عمرو بن العاص» واختط بها^(٧).

وكان فتح «مصر» سنة عشرين للهجرة (٢٠هـ)، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين فى فتح «زويلة» فى «ليبيا» سنة إحدى وعشرين!! فليس من المعقول أن يشهد «عقبة» غمار الحروب والمعارك وعمره عشر سنين!!؟؟ أو أن يتولى قيادة جيش وله من العمر إحدى عشرة سنة.؟؟!!.

النشأة:

لقد نشأ «عقبة» فى بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكري بحت، فحمل سلاحه مجاهداً فى العصر الذهبى للفتوحات الإسلامية وبرز فى ساحات القتال متحملاً قسطه الأول فى الجهاد، بحرص واندفاع، وتجرد وإقدام.

(١) جمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٢) المغرب فى حلى المغرب (١ - ١٩).

(٣) الإصابة : (٥ - ٨١).

(٤) سير أعلام النبلاء : (٣ - ٣٤٩).

(٥) الخلاصة النقية (٥).

(٦) البيان المغرب (١ - ٣).

(٧) اختط بها : بنى وسكن . ولعل حى «ميت عقبة» فى ضواحي القاهرة ينسب إليه - والله أعلم .

نشأ - كما سبق وقلنا - فى بيئة إسلامية خالصة، فقد ولد على عهد رسول الله - ﷺ، ولم تصح له صحبة، ويقال: له صحبة وهو رأى لا دليل عليه، وعلى كل فهو صحابى بالمولد، وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة^(١).

كما أنه تولى منصب القيادة فى أيام الفاروق «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه - وكانوا لا يؤمرون فى الفتوح غير الصحابة^(٢)، وكان «عمر» لا يولّى إلا الصحابة، ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابى تحت قيادة غير صحابى.

ونشأ «عقبة» - أيضاً - فى بيئة ذات طابع عسكرى بحت، فأهله «بنو فهر» لهم ماضٍ معروف فى الحروب أيام الجاهلية، ولهم حاضِر مشرف فى الفتح الإسلامى، وأقرباؤه - وعلى رأسهم «عمرو بن العاص» - هم أبرز قادة الفتح.

لقد تهيأ لـ «عقبة» الجو المناسب والظروف المناسبة، وكذلك البيئة المناسبة، فاجتمع فى تكوين شخصيته: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامى على الإطلاق، خاصة فى الشمال الإفريقى كله، من حدود مصر إلى أقصى المغرب.



جهاده:

انضم «عقبة» إلى جيش «عمرو بن العاص» الذى فتح فلسطين، ثم شهد معه وإلى جانبه فتح «مصر» واختط بها - كما أسلفنا القول - فاكسب - رضى الله عنه - من معارك فتح «مصر» ومن أساليب «عمرو» فى إدارة القتال وخططه خبرة عملية - وبرزت مواهبه القتالية والقيادية بصورة مبكرة ولافتة، مما جعله يتقدم الصفوف ويتولى عن كفاءة القيادة.

ففى سنة إحدى وعشرين للهجرة (٢١هـ)، بعثه «عمرو» على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة»، فافتتحها صلحاً، وكانت تقع فى أقصى الجنوب من «ليبيا»

(١) الاستقصا: (١ - ٦٩).

(٢) الإصابة: (٢ - ١٩٤).

وصار ما بين «برقة» على الساحل إلى «زويلة» سلمًا للمسلمين، قد أصبحت خالية من كل وجود روماني .

وكان «عمرو» قد كتب إلى الخليفة «الفاروق» - رضى الله عنه - يعلمه :
- (أنه قد ولى «عقبة بن نافع الفهري» على المغرب، فبلغ «زويلة» وأن ما بين «زويلة» و«برقة» سلم كلهم، حسنة طاعتهم قد أدى مُسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية) .

وأنه (قد وضع على أهل «زويلة» ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطبقونه وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة^(١) من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم) .

من الجنوب إلى الجنوب .. !

وحيث إن «عقبة» - رضى الله عنه - قد نجح نجاحاً عظيماً فى تأمين الحدود الغربية لـ «مصر» رأى «عمرو» أن يستخدمه فى تأمين الحدود الجنوبية، ما بين «النوبة» إلى السودان .

فاستقدمه إليه، وأقره على رأس جيش من المسلمين، وطلب إليه قصد «النوبة» وهناك لقي «عقبة» ومن معه قتالاً شديداً، فانصرف عنها بناءً على توجيهات القيادة العامة فى «مصر» قيادة «عمرو بن العاص»، راجياً أن تتاح الفرصة الأفضل فيما بعد. وبهذا يكون «عقبة» أول من مهد لفتح «النوبة»، على يد «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» .

ولم يكن «عمرو» ليرك الحدود الغربية من غير حماية . . . فلقد قام بنفسه إلى «ليبيا» حين كان «عقبة» فى «النوبة»، خشية الانتفاض، أو الإغارة .

(١) الصدقة : الزكاة .

فى برقة ثانية، والياً عليها:

عاد «عقبة» إلى برقة التى اتخذ منها قاعدةً لأية انطلاقٍ نظراً مستقبلاً فى عمق الشمال الإفريقى... وأضحت من ثم أشبه بـ «الولاية».

ويعد أن توفى «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - مستشهداً، تولى «عثمان ابن عفان» الخلافة بناءً على اختيار أعضاء الشورى الستة له؛

وحدث بين «عمر» و«عثمان» خلافات، فحضر «عمر» إلى «المدينة» ورفض العودة إلى الولاية على «مصر»، فولى «عثمان» «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» مكانه؛ وقد كان من قبل والياً على «الصعيد» وحده.

وأقر «عبد الله بن سعد» - «عقبة» على قيادة حامية «برقة».

مع «ابن أبى السرح»:

سار «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» من مصر إلى الشمال الإفريقى، على رأس جيش ضخم، تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين للهجرة (٢٦) هـ، فلما وصلوا إلى «برقة» لقيهم «عقبة» فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية لـ «برقة» وانضم بعضهم إلى بعض، وقصدوا إلى «طرابلس - الغرب»، وهناك قاتلوا الروم، وانتصروا عليهم، وغنموا ما عندهم^(١).

وشهد «عقبة» فتوحات «ابن السرح» كلها فى الشمال الإفريقى، وأبلى فى جهاده أعظم البلاء.

وبرز اسم «عقبة» أكثر فأكثر...

ولم يغادر «برقة»، بل ظل فيها على رأس حاميته، يحمى - كما قدمنا - الحدود الغربية لـ «مصر» فلا يدع الروم يهاجمون «مصر» من اتجاه «ليبيا»، وقد

(١) ابن الأثير : (٣ - ٣٤)

حافظ على تلك المنطقة محافظة بالغة، حتى فى أصعب الظروف وأخطر الأحوال .

فى البحر:

ومرت سنوات على «عقبة» - رضى الله عنه - تبدلت فيها رؤوس الحكم والسلطان، فقد استشهد «على» - رضى الله عنه -، وثبتت الخلافة لـ «معاوية بن أبى سفيان» بعد تنازل «الحسن بن على» - رضى الله عنه - عن المطالبة بها .
كما تغيرت القيادة على «مصر» فعُين على ولايتها «معاوية بن حديج السكونى» وظل «عقبة» - رضى الله عنه - فوق متن فرسه، وسيفه بيده، لا يهدأ ولا يكل عن الجهاد وتوطيد أركان الإسلام فى البلاد .
حتى إنه غزا الروم فى البحر مرتين إحداهما فى سنة تسع وثلاثين للهجرة (٣٩هـ)، والأخرى فى سنة تسع وأربعين .

عمرو بن العاص والياً على مصر للمرة الثانية:

وكافأ «معاوية بن أبى سفيان» صديقه وحليفه «عمرو بن العاص» على مواقفه معه و مؤازرته له فى خلافه مع «على» - رضى الله عنه - فولاه على «مصر» للمرة الثانية بعد أن عزله عنها «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - .

انطلاقة الفتح:

كان «عقبة» كما سبق وعرفنا - يقيم فى «برقة» الخط الدفاعى الأول عن «مصر» ومعه حامية من المسلمين، لا يترك فرصة للروم أن يغيروا على مصر لاستردادها أو التفكير فى ذلك .

وكان نعم الأمير والقائد المسئول .

فلما عاد «عمرو بن العاص» إلى ولاية «مصر» استعمل «عقبة» على الشمال الإفريقي كله، وأطلق يده فى الفتح، وجهزه بالقوات والعتاد، وأمدّه بالجند على التوالي.

وبدأت مسيرة «عقبة» العظيمة . . !

انتهى أولاً إلى «لواتة» وهم قبيلة من أكبر وأشدّ قبائل البربر، وكانوا قد صولحوا من قبل، وظلّوا على عهدهم حتى نقضوه أيام خلافة «معاوية بن أبى سفيان» فغزاهم «عقبة»، فاتجهوا فارين إلى «طرابلس» فتبعهم وقتلهم هناك حتى هزمهم، فطلبوا منه الأمان، وأن يصالحهم ويعاهدهم من جديد، لكن «عقبة» بخبرته معهم جعلته يتوقف فى ذلك، ثم أبى عليهم، وقال لهم: (إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول فى كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧] ولكن أبايعكم على أنكم توفون ذمتى، إن شئنا أقرناكم وإن شئنا بئناكم).

كما عقد «عمرو» لـ «عقبة» على «هواره» وهى أيضاً من قبائل البربر، شديدة المراس، كثيرة العدد، قوية الشكيمة فراوغوا، هم و«لواتة» وأظهروا الطاعة والقبول، ثم كفروا . . ، فغزاهم «عقبة» سنة (٤١) هـ، فقتل وسبى.

وفى سنة اثنتين وأربعين (٤٢) هـ، افتتح «عقبة» «غدامس» - على الحدود الليبية الجزائرية - فى قلب الصحراء وقتل وسبى . .

وفى سنة ثلاث وأربعين (٤٣) هـ، افتتح كورا من كور السودان^(١)، وافتتح «ودّان» ثانية وهى من توابع إقليم «برقة».

وفى سنة ست وأربعين (٤٦) هـ، خرج حتى نزل «مغداش» بلدة قريبة من «سرت» على الساحل الليبى، وكانت «ودّان» قد نقضت عهدها الذى عاهدته من قبل سنة ثلاث وعشرين (٢٣) هـ، فترك «عقبة» جيشه فى «مغداش» واستخلف عليهم اثنين من قادته المعاوين «عمر بن على القرشى» و «زهير بن قيس البلوى». وسار هو إلى «ودّان» فى أربع مائة فارس، وأربع مائة جمل، وحمل على كل جمل قربتين من الماء.

(١) ليس المقصود (السودان) الحالى ، ولكن قلب القارة الأفريقية من ناحية ليبيا والجزائر.

فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة، فحاربهم «عقبة» حتى أخضع البلاد بلبداً.. بلبداً. وقبض على ملكهم فجذع أذنه، فقال: لم فعلت هذا بى؟ فقال «عقبة»: فعلت هذا بك أدباً لك، إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب!!.

واستخرج منهم ما كان قد فرض عليهم من قبل: ثلاثمائة رأس، وستين رأساً من العبيد.

هل من ورائكم من أحد؟

ولما استتب الأمر لـ «عقبة» فى بلاد «ودان» سأل «عقبة» أهلها.

- هل من ورائكم من أحد؟ فقليل له «جرمه»^(١).

فسار إليها فى ثمانى ليال من «ودان»، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام، فأجابوا فتزل قريباً منها على ستة أميال.

وخرج ملكهم يريد «عقبة» فى موكب من الخيل والحرس، فأرسل «عقبة» إليه خيلاً حالت بينه وبين الموكب، ثم أمشوه راجلاً حتى أتى «عقبة» وهو فى غاية التعب والنصب... فراح يبصق الدم... وقال لـ «عقبة»: لم فعلت هذا بى وقد جئت طائعاً؟ فأجابه «عقبة»: أدباً لك...، إذا ذكرته لم تحارب العرب، ولم تفكر فى الانتفاض عليهم!! وفرض عليهم ثلاثمائة رأس وستين عبداً.

ومضى «عقبة» من فوره لإنجاز فتح بلاد «فران» حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام فى ربوعها، وهذه كانت أول مرة، يدخل فيها جيش من المسلمين إلى تلك المناطق فاتحين.

(١) هى عاصمة ولاية «فران».

(٢) تقع فى جنوبى «فران»، وهى من أكبر المدن هناك.

وسأل «عقبة» أهل «فزان»: هل من ورائكم أحد؟ فقالوا: أهل خاور^(٢)، وهو قصر عظيم على رأس المفازة^(١)، فى وعورة على ظهر جبل...، فسار إليها «عقبة» فترة خمس عشرة ليلة، فلما وصلها دعا أهلها إلى الإسلام فأبوا، وطلب منهم الجزية، فامتنعوا فى حصنهم، فحاربهم وأقام على حصارهم مدة شهر دون جدوى.

ثم تقدم يفتح بقية بلاد الإقليم، ففتحها واحدة بعد الأخرى، ثم قبض على ملكهم وقطع إصبعة...، فقال: ولم فعلت هذا بى؟ فقال «عقبة» أدباً لك، إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب!!، ثم فرض عليهم ثلاثمائة رأس وستين عبداً.

«عقبة» والصحراء:

وكان فى نية «عقبة» أن يمضى قدماً فى مجاهل الصحراء، فسأل أهل تلك المناطق: هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل: ليس عندى بذلك معرفة ولا دلالة!!

فانصرف «عقبة» راجعاً ..

فمر بقصر «خاور» الذى تركه من قبل، فلم يعرض له...، ثم سار ثلاثة أيام، مما جعل أهل الحصن يطمنون، ففتحوا الأبواب...!

ماء فرس:

وأقام «عقبة» بمكان يدعى اليوم «ماء فرس»... ولم يكن به يومئذ ولا قطرة ماء، فأصابهم عطش شديد أشفى بهم على الهلاك...، وصلى «عقبة» - رضى الله عنه - ركعتين ودعا الله تعالى...!

فراح فرس «عقبة» يبحث بقوائمه فى الأرض حتى كشف صفاة^(٢)، فانفجر الماء منها، فجعل الفرس يمص ذلك الماء...، وأبصره «عقبة» فنادى فى الناس: أن

(١) أول الصحراء الإفريقية.

(٢) الصفاة: الصخرة الملأى.

احتفروا...، فاحتفروا سبعين حياً^١، فشرّبوا واستقوا، وسمى ذلك المكان «ماء فرس».

ثم ارتد «عقبة» برجاله إلى حصن «خاور» في طريق آخر، غير الذي سلكه إليه من قبل فلم يشعر به أهل الحصن إلا وقد طرقتهم ليلاً... فوجدتهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم، فانقض عليهم، وأعمل فيهم السيف، واستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم، وقتل المقاتلة منهم.

لقد كانت عودة «عقبة» إلى «خاور» حركة بارعة طبق بها مبدأ المباغتة، إذ أطبق على أهل الحصن في وقت لم يتوقعوه أبداً...، و«الحرب خدعة» - كما قال رسول الله ﷺ، من غير غدر ولا ظلم ولا فحش.

وكانت فترة غياب «عقبة» عن جيشه الأساسي في «زويلة» خمسة أشهر، جال خلالها وصال، واستطاع أن يمهد للسلطان في تلك الأنحاء على أحسن وجه وبأقل الخسائر وأعظم النتائج.

يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» في تعليقه على هذه الحركة من «عقبة»: (لقد أقدم «عقبة» على التغلغل في الصحراء بقوات خفيفة، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة، لِقِلَّةِ المياه فيها، ولأنه قدر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو...، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه، والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام «عقبة» غير قوات سكان الصحراء الأصليين، وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل «عقبة»^١ هـ.

(١) مفردتها: حبة، وهي الحفرة القريبة العمق

بأنجاه المغرب...!

ثم انطلق «عقبة» بقواته غرباً، وسلك طريقاً غير مأهول، متجهاً إلى أرض قبيلة «هواره» فافتتح كل حصن فيها...، ومضى بعدها إلى مدينة «صفر» - تعرف اليوم باسم «صفر» - وهي إحدى مدن شمال المغرب، في قلب جبال أطلس الوسطى.

ثم بعث خيلاً إلى «غدامس» فافتتحها ثانية بعد أن انتقضت، ثم توجه إلى «قفصة» - إحدى مدن تونس المشهورة -، فافتتحها، ثم افتتح «قسطيلية» في الشمال التونسي، وبعدها عاد إلى «القيروان».

«القيروان» من أعظم إنجازات «عقبة» - رضي الله عنه -

والمقصود بقولنا: عاد إلى «القيروان»، عودته إلى «قمونية»، إذ لم تكن «القيروان» قد اختطت بعد، أو أنشئت. وكانت «قمونية» منذ أيام «ابن السرح» متزلاً لجيوش المسلمين، لأنها في بسيط من الأرض، كثير المراعى، خصب التربة، كثير المياه.

لكنه لا يصلح من الناحية العسكرية، فيكون قاعدة أمينة، لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنونه مع المسلمين، وقد يكون بعض هؤلاء (طابوراً خامساً)، وعيناً تتجسس على المسلمين، وفي هذا خطر شديد على المسلمين الذين دأبوا على الفتح والحركة في كل اتجاه، توطئة لنشر الإسلام، في كل ربوع الشمال الأفريقي.

قال «عقبة» لرجاله: (إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر).

فقال بعض أصحاب «عقبة»:

- قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين ..

فقال لهم: إنى أخاف أن يطرقها صاحب «القسطنطينية» فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً...، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير^(١) فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر وميتهم في الجنة. فاتفق رأيهم على ذلك.

فقال: قربوها من السبخة...

فقالوا: نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف... فقال: لا بد لى من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل، وهى التى تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازى والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا فى مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى.

فركب إلى موضع «القيروان» اليوم...، وكان غيضة كثيرة الأشجار، مأوى للوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه. وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليهم من أسلم من البربر فأمر ببناء القيروان^(٢)، سنة خمسين للهجرة (٥٠هـ) وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم، يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوى جنان من هناك من الجنود وأمنوا واطمأنوا، وثبت الإسلام فيهم.



(١) أى مسافة قصر الصلاة.

(٢) القيروان معناه فى اللغة: مدينة أو معسكر وهو فارسى معرب، أصله كروان أو: كريان، ومعناه: قافلة، أو مزاج القوافل.

إلى شاطئ المحيط:

وفي سنة خمس وخمسين هجرية (٥٥) هـ استعمل «معاوية بن أبي سفيان» على مصر وإفريقية «مسلمة بن مخلد الأنصاري» وعزل «عقبة» عن إفريقية، وعين «مسلمة» بدلاً من «عقبة» مولى له اسمه «أبو المهاجر دينار».

وأساء هذا الأخير معاملة «عقبة» فسجنه وقيده بالحديد، ولبت القائد في السجن بضعة شهور، حتى جاء كتاب «معاوية» بإخلاء سبيله، وإشخاصه إليه في دمشق.

فلما بلغها كان معاوية قد توفى^(١)، وتولى «يزيد بن معاوية» الخلافة، فاستسمح «عقبة» مما أنزل به، وأعادته إلى عمله على الولاية، وأطلق يده.

عاد «عقبة» من الشام إلى إفريقية، حتى بلغ «القيروان» ومعه عشرة آلاف مقاتل، فلم يلبث بها سوى أيام، ثم تركها وفيها حامية كثيفة من الجند على رأسهم «زهير بن قيس البلوي» أحد قاداته المشهورين.

وقبل الخروج دعا أولاده ووصاهم قائلاً: (إني قد بعثت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله^(٢) يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال، فاحفظوها ولا تضيعوها:

(أ) إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به الليب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه.

(ب) وأوصيكم ألا تدابنوا ولو لبستم العباء، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل.

(ج) ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا.

(١) ابن الأثير (٤ - ٤٢).

(٢) رياض النفوس (١ - ٢٢).

وعليكم سلام الله، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا.

اللَّهُمَّ تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك^(١).

وانطلق «عقبة» فى أكبر وأطول سياحة من مسيرة جهاده..

سار «عقبة» فى عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة «باغاية»، لا يدافعه أحد، والروم يهربون فى طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها، فقاتلهم قتالاً شديداً^(٢).

فانهزموا عنه، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتفى المنتهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل «عقبة» فنزل على «تلمسان» - فى الجزائر - وهى من أعظم مدنها، فانضم إليها من حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه فى جيش ضخم لجب، والتحم القتال، حتى ظن المسلمون أنه الفناء ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألقواهم إلى حصونهم فقاتلوهم حتى أبوابها، وأصابوا منهم مغنم كثيرة.

وسار «عقبة» إلى بلاد «الزاب» فسأل عن أعظم مدينة فى بلاد الزاب، ف قيل له: «أربة» وهى دار ملكهم - العاصمة -، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية، كلها عامرة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل «عقبة» إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم فقام «عقبة» فى الناس خطيباً:

(أيها الناس، إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان^(٣)، على من كفر بالله إلى يوم القيامة،

(١) رياض النفوس (١١ - ٢٢).

(٢) ابن الأثير (٤ - ٤٢).

(٣) يوم الحديبية.

وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجمته - بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاء وإعزازاً لدينه، فأبشروا، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وريكم - عز وجل - لا يسلمكم...، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين).

ويكفى - عزيزي القارئ - أن تعيد قراءة كلمة «عقبة» مرة ثانية لتتأكد من سمو الروح الإيماني الذي كان متغلغلاً في كيان «عقبة».

... والتقى المسلمون بأعدائهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً...، فانهزم الروم والبربر، وأخذهم السيف، وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار «عقبة» حتى نزل على «طنجة» فلقية بطريق من الروم اسمه «يليان»^(١) فأهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه.

وأراد «عقبة» فتح الأندلس...!

فقال له «يليان»: أترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد؟

فقال «عقبة»: وأين كفار البربر؟

فأجابه «يليان»: في بلاد «السوس» وهم أهل نجدة وبأس.

(١) تحريف لـ «جوليان».

فقال «عقبة»: وما دينهم؟

قال «يليان» ليس لهم دين، ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم..
(وكانوا على دين المجوسية يومئذ).

فتوجه «عقبة» فنزل على مدينة «وليلي» بالقرب من «طنجة» بإزاء جبل
«زرهون» - بالقرب من «فاس»، وهي يومئذ أكبر مدن المغرب، فيما بين النهرين
العظيمين «سبو» و«ورغة»، وهذه المدينة المسماة اليوم على لسان العامة «قصر
فرعون» فافتتحها «عقبة» وغنم وسبى.

وانتهى «عقبة» في غزوه إلى «السوس الأدنى» - وهو مغرب «طنجة» - فقاتل
جموع البربر الكثيرة، وقتل منهم قتلاً ذريعاً، وبعث خيله في كل مكان هربوا
إليه.

ثم سار حتى وصل إلى «السوس الأقصى» وقد اجتمع له البربر في عدد لا
يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم.

وسار «عقبة» زاحفاً حتى بلغ «مالبان» في أقصى بلاد المغرب عند شاطئ المحيط
الأطلسي، ورأى البحر المحيط، الذي كان يسميه العرب «بحر الظلمات»..

واندفع - كما تقول بعض روايات التاريخ - بفرسه في مياه البحر حتى بلغ الماء
قوائم الفرس، ثم قال قولته الشهيرة، التي ما تزال تتردد في الأسماع إلى اليوم،
شاهدة على صدق جهاد «عقبة» وبطولته وفروسيته، قال «عقبة»: (يا رب...
لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك)^(١) ثم قال: (اللهم اشهد أنني
قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا
يُعبد أحد من دونك).

(١) ابن الأثير (٢ - ٤٢ ، ٤٣).

رجع «عقبة» باتجاه «القيروان» قاعدته الأمانة الحصينة، الحبيبة إلى نفسه... ، فلما بلغ «طنجة» أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويتقدموا إلى «القيروان» فوجاً فوجاً، للتخفّف والراحة، ثقة منه بما نال من العدو، وثقة منه بنفسه، وأنه لم يبق أحد يخشاه.

ومال «عقبة» بخيل يسيرة يريد «تهوذه»، وهم قبيلة من البربر يقيمون في أرض تعرف باسمهم، وكان معه حوالى ثلاثمائة فارس... ، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشموه، وهو يدعوهم إلى الإسلام، ولم يقبلوا منه^(١).

وبعث الروم سرّاً إلى رجل زعيم من البربر في قوات «عقبة» يدعى «كسيلة» كان قد حارب المسلمين من قبل ووقع أسيراً، ثم أظهر الإسلام... ، فدعوه إلى الانتفاض على «عقبة» والتحالف معهم، فأظهر ما كان يضمر من الغدر، ثم جمع أهله وبنى عمه، وقصد «عقبة».

فقال له «عقبة» أحد رجاله: (عاجله قبل أن يقوى جمعه!).

وهذا الرجل هو «أبو المهاجر دينار» الذى تولى على إفريقية حين عزل «معاوية ابن أبى سفيان» «عقبة» عنها وهو الذى حبس «عقبة» وعذّبه قبل إرساله إلى «دمشق».

وكان مع «عقبة» فى قواته مقيداً بالسلاسل، استمناً من غدره، يطوف مع «عقبة» فى كل تنقلاته وزخوفه.

استمع «عقبة» إلى نصيحة «أبى المهاجر» فزحف على «كسيلة»، لكن «كسيلة» لم يواجهه، بل تنحى عنه، انتظاراً لوصول الأمداد إليه من قبيلته وأتباعه.

(١) ابن الأثير (٤ - ٤٣)

فلما رأى «أبو المهاجر» هذه الحركة العسكرية، وكان فارساً بطلاً، مجرباً في القيادة، تمثل بقول «أبي محجن الثقفي» - يوم القادسية - . إذ حبه «سعد بن أبي وقاص» لشربه الخمر، وكان هو الآخر من الفرسان الأشداء:

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المنايا
فبلغ «عقبة» مقالة «أبي المهاجر» فأطلقه من قيوده وقال له: الحق بالمسلمين، وقم بأمرهم - أي الذين قصدوا «القيروان» -، وأنا أغتم الشهادة!!!

فلم يفعل ذلك «أبو المهاجر»، بل قال: (وأنا أيضاً أريد الشهادة).

وكسر «عقبة» والذين معه أجفان^(١) سيوفهم - كناية عن الاستماتة، والقتال حتى الشهادة - وتقدموا إلى البربر وقتلهم فقتل المسلمون جميعاً. . ومعهم «عقبة» - رضى الله عنه - ورحمهم، وكانوا قرابة ثلاثمائة، من كبار الصحابة والتابعين.

استشهد «عقبة» - رضى الله عنه - سنة ثلاث وستين هجرية (٦٣هـ)، في معركة «تهوذة» من أرض «الزاب» بـ «المغرب». وكان مولده - كما عرفنا - قبل الهجرة بسنة واحدة.

وقبره يزار بـ «الزاب»^(٢)، كما أن أحداث الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض «الزاب»، يزارون حتى يومنا هذا، وقد جعل على قبورهم أسنة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف بـ «مسجد عقبة»^(٣).

رضى الله عن البطل المجاهد، والفاتح العظيم «عقبة بن نافع الفهري» وأكرم نزلته ومشواه.

(١) أجفان السيوف : أغمارها

(٢) الخلاصة النقية (٥).

(٣) الاستغصا (١ - ٧٤).

٥- عبد الله بن سعد بن أبي السرح

كلمة لابن منها .. !

كى لا تلبس عليك شخصية «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» - رضى الله عنه - بين فترتين من حياته، فتأرجح الرؤيا عندك، وتتحير فى تحديد معالم تلك الشخصية، ثم يزيغ بك الرأى إلى هضم الرجل حقه، أريد أن أقدم لك مطالعة هامة، هى خلاصة رأى لرجل من رجالات الإسلام المعاصرين - اللواء الركن محمود شيت خطاب -، الذى صرف أكثر عمره وفكره، وخلاصة تجربته فى إبراز عدد جَمٍّ من قادة الفتح الإسلامى، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وغاص فى بطون التاريخ مدققاً باحثاً ليقدم لنا تلك النماذج، صافية نقية بما لها وما عليها .

يقول اللواء الركن :

(ينبغى أن نجعل حداً فاصلاً بين «عبد الله بن سعد» فى إسلامه الأول و«عبدالله ابن سعد» فى إسلامه الثانى، لأن الوقائع تبين أن الرجل يختلف كثيراً فى الدور الأول عنه فى الدور الثانى، فـ«عبدالله» الأول (كان) فتى يافعاً لا يكاد يحسن فهم الأشياء، فيستهين بشقة الرسول ﷺ، وتؤثر فيه دعايات قريش، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبى ﷺ، فلا يلبث أن يفتن^(١) ويرتد إلى الشرك ويلقى بنفسه فى أحضان قريش، ويقول فى نزق :

(كان يُملئ علىّ : «عزيز» حكيم، فأقول: أو« عليم حكيم»، فيقول : كلّ صواب » (٢) . . !

فلا يبالى أن يفترى الكذب على رسول الله ﷺ «مجاراة» لـ«قريش» فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام .

(١) طبقات «ابن سعد» (٧ - ٤٦٩) .

(٢) أسد الغابة (٣ - ١٧٣) .

أما عبد الله الثاني . . . فجندى باسل، وقائد ممتاز، وإدارى حازم، وهو فوق ذلك وثيق الإيمان، كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعااته، حسن إسلامه ولم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك^(١)، وحسن حاله، يأمر بقراءة القرآن ويأمر بالصبر في المعارك^(٢).

ويعتزل الفتنة الكبرى (بين علي ومعاوية) ورعاً، وهو أحد العقلاء النجباء، من قريش، وفارس «بنى عامر بن لؤى» والمقدم فيهم .
ولما ولي «مصر» أحسن السيرة في الرعية، وكان جواداً كريماً^(٣)، وكان محموداً في ولايته .
له مواقف محموددة في الفتوح .

وقد أخطأ بعض المؤرخين في الحكم عليه لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى، وهي ارتداده عن الإسلام، فأنكروا عليه كثيراً من فضله ومزاياه قائداً وإدارياً وإنساناً) ا.هـ.

بعد هذه التوطئة، أو الكلمة التي كان لابد منها، أدعوك عزيزي القارئ إلى مطالعة سيرة وحياة «عبدالله بن سعد بن أبي السرح»، وأسأل الله تعالى - لى ولك - أن لا نكون من المفتونين الضالين، أو الظالمين . . . والله يتولى الصالحين .

النسب والنشأة:

هو: «عبدالله بن سعد بن أبي سرح، أو (السَّرح) بن حبيب بن جذيمة بن حسل بن عامر بن لؤى - القرشى العامرى . . . وكنيته : أبو يحيى .

(١) الاستيعاب - أمد الغاية.

(٢) تاريخ الطبرى (٣ - ٣٤١).

(٣) النجوم الزاهرة [٧٩١].

وكان اسم جده «أبى سرح» : «الحسام»، وكان من كبار المنافقين المشركين، وعدواً لدوداً للإسلام والمسلمين .

أما أم «عبد الله» فهي أشعرية، من أشاعرة اليمن، اسمها «مهابة بنت جابر الأشعرى» وقيل هو اسم جدته لأمه .

أرضعت «مهابة» «عثمان بن عفان» فنشأ هو و«عبد الله» أخوين من الرضاع، وكانت بينهما علاقات الأخوة، فى التواد والتعاون والتآزر والتراحم .

كما نشأ «عبد الله» فى مكة نشأة الفروسية حتى عُد من فرسان قریش المشهورين، فيه شجاعة وإقدام وبطولة .

إسلامه وارتداده !!

أسلم «عبد الله» قبل فتح «مكة» وهاجر إلى المدينة، وقد اختاره رسول الله ﷺ كاتباً من كتاب الوحي وقربه وأدناه .

لكن «عبد الله» افتتن . . . !

حدثه شيطانه، ووسوس له، وزين له . . . ، فارتد عن الإسلام، وخرج ذات يوم من المدينة، فاراً إلى «مكة» . . . ، إلى قواعده الأولى .

ويبدو أن «عبد الله» كان يومئذ وهو فى عنفوان الشباب ميالاً إلى حب الظهور، وقد استأثر به الغرور، فأراد أن يخالف ليعرف ويشتهر، أكثر وأكثر . . . ، فراح يشيع بين الناس أنه حرّف فى القرآن الكريم - حاش لله وكتابه - فصدقه بعض الناس من المشركين، واستطابوا قوله وادعاه .

وفى هذا الصدد نزل قول الله تعالى - فى سورة الأعراف: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وكذلك قوله فى سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

لكن هذه القرية وأمثالها، من «عبد الله» فى طَيْبِهِ وغروره، ومن غيره ممن دأبوا على الكفر والبهتان، تسفعهم فى نواصيهم، وتدحض أكاذيبهم، الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولا نريد - عزيزى القارئ - أن نسهب الكلام فى هذا المضمار، أو نعطيهِ أكثر مما يستحق من الاهتمام مساحة .

إلى الإسلام من جديد:

هذه الواقعة السيئة من «عبد الله» جعلت رسول الله ﷺ يهدر دمه يوم فتح مكة، فقد عهد ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار - أربعة رجال وامرأتين -، هم «عكرمة بن أبى جهل» و«ابن خطل» و«مقيس بن صبابه» و«عبد الله بن سعد»، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، لاندبوا بها، بعد أن أمن جميع الناس، لما كان لهؤلاء النفر من شدة، وافتراء وظلم . ماذا يفعل «عبدالله» وقد أحس - فعلاً - مدى الظلم الذى ارتكبه، وأنه مقتول لا محالة ؟ لجأ إلى «عثمان بن عفان» أخيه

من الرضاع، واحتسبى به، وأعلن توبته، ورجاه أن يشفع له عند رسول الله ﷺ .
وكان «عثمان» - رضى الله عنه - حياً ستيراً . . . ، وقد وصفه رسول الله ﷺ
بأنه رجل تستحى منه الملائكة .

فحن لـ «عبد الله» ورقاً له . . . وظن فيه الصدق والخير . . . ، فغيبه عنده وأخفاه
عن العيون، ولما اطمأن الناس والمقام برسول الله ﷺ فى «مكة» جاء «عثمان» -
رضى الله عنه - ومن ورائه «عبد الله» إلى رسول الله ﷺ ليشفع له ويستأمن
عليه .

وقال : يا رسول الله . . هذا «عبد الله بن أبى السرح» قد جاء تائباً آتياً،
فبايعه . . ! فسكت رسول ﷺ ولم يجب، فكرر «عثمان» ذلك ثلاث مرات،
ورسول الله ﷺ لا ينطق بحرف، بل ينظر فى وجوه أصحابه من حوله .
ومن ثم قال رسول الله ﷺ «نعم» :

فانصرف «عبد الله» وهو لا يظن أنه قد نجا من الموت المحقق، وأدرك أنه قد
أخزى نفسه زمناً فى استجابته لوسوسة شيطانه، وأنه لابد أن يكفر على ما كان
منه إزاء عفو النبى ﷺ عنه، وهو القادر عليه .

من هنا - عزيزى القارئ - بينى كثير من العلماء والمؤرخين آراءهم على حسن
إسلام «عبد الله» بعد افتتانه، ويؤيدون رأيهم هذا بما كان فى سيرته - رضى الله
عنه وغفر له - بعد ذلك، إلى أن فارق الحياة الدنيا .

وبعد انصراف «عبد الله» و«عثمان» من حضرة النبى ﷺ قال ﷺ لمن حوله :
(لقد صَمْتُ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه .. !)

فقال رجل من الأنصار - وكان قد أقسم ليقتلن «عبد الله» : - فهلاً أوُمأت إلى يا
رسول الله !! فقال ﷺ : (إن النبى لا يقتل بالإشارة) (١) .

(١) يعنى «غمزاً» أو «إيماء» .

الإسلام يجب ما قبله:

ولم يقف الأمر مع «عبد الله» عند حد العفو .. بل بايعة رسول الله ﷺ على الإسلام، وكان مما قاله له : (الإسلام يجب ما قبله) ^(١).

ويروى: أن «عبد الله» كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه، خجلاً منه، وقد ذكر ذلك «عثمان» - رضى الله عنه - لرسول الله ﷺ، فقال: «الإسلام يجب ما قبله» فكان «عبد الله» بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلم عليه ^(٢).

ويقول صاحب «الروض الأنف»: أسلم «عبد الله» وحسن إسلامه، وعُرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان، كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته .

فى سبيل الله :

بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولى: «الصدّيق» - رضى الله عنه - الخلافة، ظهرت فتنة الردة، كأخطر قضية واجهت الإسلام الفتى ..

فنبت «عبد الله» على ما عاهد عليه الله ورسوله، وهذه ظاهرة تؤكد حسن إسلامه وصدق إيمانه، ونقاء توبته .

ولم يكتف بهذا الثبات وحده، بل انضم راضياً إلى صفوف المسلمين الذين جاهدوا أهل الردة فى كل مكان .

وبعد أن قُضى على الفتنة قضاءً تاماً، جهز «الصدّيق» - رضى الله عنه - الجيوش لغزو الشام، بناءً على وصاية من رسول الله ﷺ؛ وكانت أربعة، أحدها بقيادة «أبى عبيدة» والثانى بقيادة «شرحبيل بن حسنة» والثالث بقيادة «عمرو بن العاص» والرابع بقيادة «يزيد بن أبى سفيان»، أما القيادة العامة فكانت لـ «أبى عبيدة» - رضى الله عنهم أجمعين .

(١) الطبقات (ابن سعد) (٧ - ٤٩٧) والعبارة الشريفة ذاتها كانت قد قيلت لـ «عمرو بن العاص» يوم إسلامه .

(٢) تهذيب ابن عساکر (٧ - ٤٣٤) .

وخرج «عبد الله بن سعد» فى جيش «عمرو بن العاص» وكان قائد الميمنة، - باتجاه فلسطين، فلما كان اجتماع الروم فى «اليرموك»، وراسل القادة الخليفة فى المدينة يخبرونه ويستمدونه ويستشيرونه، أمرهم بالتجمع، وأرسل إلى «خالد» فى العراق يأمره بالتوجه إلى الشام مدداً لإخوانه . . .

ثم كان اللقاء الحاسم، والمعركة الفاصلة التى غيرت وجه التاريخ ومساره .
ولا نتحدث عن جهاد «عبد الله»، فقد كان واحداً من فرسان المسلمين الذين بايعوا «خالدًا» على الموت . . . ، وقلبوا باندفاعهم فى قلب جيش العدو ميزان النصر لجانب جند الله .

إلى فلسطين، ثم إلى مصر :

وظل «عبد الله» على ميمنة «عمرو» طوال أيام الفتح لمدن وقرى فلسطين، وتطهير أرضها من رجس الرومان، ولقد أبلى فى كل معركة بلاءً حسنًا، مما تشهد له كتب التاريخ، ومما قدمه على غيره من القادة والرؤساء والعرفاء .

وتقدم الجيش الإسلامى من بعد إلى حدود مصر، وكان الوجود الرومانى فيها مصدر خطر عظيم على المسلمين فى بلاد الشام، وكان لابد من غزوها . . . وقد بين ذلك «عمرو بن العاص» للخليفة «الفاروق» - رضى الله عنه -، فلما أذن له وأمده، اندفع باسم الله وعلى بركة الله، ويتوفيق منه إلى الديار المصرية .

وكان «عمرو» - رضى الله عنه - يعتمد اعتماداً كبيراً وبعيداً على كفاءة «عبد الله» ومقدرته، وبطولته وفروسيته . . . ، فكان يرسله على رأس قوات خفيفة إلى أطراف مصر جنوباً ليقضى على فلول الرومان، وليثبت أقدام الإسلام فى مصر بعد أن تم فتحها، من القسطنطينية حتى الإسكندرية .

وكانت أكثر غزواته باتجاه الشمال الإفريقى - ليبيا وتونس . . . ، وكان يعود على الدوام غانماً ظافراً .

ثم اتجهت همة «عمرو» إلى الصعيد وبلاد النوبة، فأرسل «عبد الله» على رأس قوات إلى تلك المناطق، وأمدّه بالرجال والسلاح، واستطاع «عبد الله» - رضى الله عنه - أن يوطئ تلك الأماكن ويطهرها ويحميها .

ومن ثم جاءت الولاية له على صعيد مصر من قبل الخليفة «الفاروق» - رضى الله عنه - ويقدر ما كان «عبد الله» قائداً عسكرياً ناجحاً، قلّ أن يهزم فى معركة، كان أيضاً حاكماً إدارياً ناجحاً، فاستطاع خلال ولايته على «الصعيد» أن يضبط الأمور العامة وينظم الشئون، وينشر الإسلام، ويوثق الصلة مع الناس، دونما إجحاف أو ظلم، فأحبوه . . . وتعاونوا معه، ولم يتنقضوا عليه .

الوالى على مصر كلها :

وهذا دور جديد، وعظيم، فى حياة «عبد الله» . . !

فقد حدث بعد استشهاد الخليفة «الفاروق» - رضى الله عنه - وتولى «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - الخلافة أن حضر «عمرو بن العاص» من مصر إلى «المدينة» مبيعاً بنفسه، وحاملاً بيعة من وراءه وطلب إلى الخليفة «عثمان بن عفان» عزل «عبد الله» عن ولاية الصعيد، وضمها إليه هو على أن يكون «عبد الله» تابعاً . . ، فرفض «عثمان» ذلك وقال له «عمرو» :

- ولاء «عمر بن الخطاب» الصعيد، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، وقد علمت أنه أخى فى الرضاة، فكيف أعزله عما ولاء غيرى ؟ ! .

فغضب «عمرو» وقال : لست راجعاً إلى عملى ذلك !!، فكتب «عثمان» إلى «عبد الله» يؤمره على مصر كلها، وقبل استقالته «عمرو» ووصّله كتاب الولاية وهو فى «القيوم» .

وحين ولى «عبد الله» على مصر، بعث البعث والسرايا وجرائد^(١) الخيل باتجاه الشمال الإفريقى (ليبيا وتونس) فأصابوا وغنموا وأثبتوا وجودهم .

(١) جرائد الخيل : القوات الخيالة فقط ، ليس فيهم مشاة .

فكتب «عبد الله» إلى «عثمان» - أمير المؤمنين - يشرح له ذلك، ويخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين، واستأذنه فى غزوها، وبسط السلطان فوق ربوعها .
وقبل اتخاذ أى قرار، استشار «عثمان» - رضى الله عنه - من عنده من كبار الصحابة فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية .

فجهز «عثمان» العساكر من «المدينة»، وأمد «عبد الله» بجيش عظيم، وخرج فى هذه الغزاة من حول «المدينة» خلق كثير ^(١)، وكان فى الجيش: «عبد الله بن عباس» و«عبد الله بن عمر بن الخطاب» و«عبد الله بن عمرو بن العاص» و«عبد الله بن الزبير» و«عبد الله بن جعفر» و«الحسن» و«الحسين» . . . لذلك سمى هذا الجيش «جيش العبادلة» .

القائد الفاتح:

وسار «عبد الله» بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفا من الجند، ستة ست وعشرين هجرية (٢٦) هـ إلى الشمال الإفريقى، فلما وصلوا إلى «برقة» ^(٢) لقيهم «عقبة بن نافع الفهري» فى مَنْ معه من المسلمين - ولقد كان «عقبة» ومن معه حامية هناك - فساروا جميعاً إلى «طرابلس» - الغرب -، فقاتلوا من عندها من الروم، وانتصروا عليهم، وأسروا ونهبوا منهم .

ثم تقدم «عبد الله» بجيشه نحو الحدود التونسية، مُعمِّقاً فى الشمال الإفريقى، ثم بث السرايا فى كل اتجاه .

وكان ملك الروم وقائدهم هناك يدعى «جرجيرىوس» ويمتد سلطانه من «طرابلس» إلى «طنجة» . فى أقصى المغرب، أما عاصمة ملكه فقد كانت «قرطاجنة» فى تونس، وتعرف اليوم باسم «قرطاج»، وأما ولايته على هذا الشمال

(١) فتوح البلدان (البلاذرى) (٢ - ٢٢٨)

(٢) برقة : إحدى مدن ليبيا الآن .

الإفريقي فقد كانت من قبل «هرقل» - قبصر الروم وملكهم -، وله عليهم الخراج في كل سنة والطاعة .

ثم التقى جيش المسلمين بقيادة «عبد الله بن أبي السرح» بجيش الروم بقيادة «جرجير يوس» عند موقع يسمى «عقوبة» وكان عدد الروم يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجند .

فراسل «عبد الله» ملك الروم يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع . . وتكبر عن قبول أحدهما .

ومن ثم نشب القتال بين الطرفين في معارك حامية شديدة، واستمرت الحرب أياماً، ووصل إلى المسلمين مدد بقيادة «عبد الله بن الزبير» . . !

رؤية خبير ونصيحة عارف:

ورأى «عبد الله بن الزبير» أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر، فإذا ما أذن لصلاة الظهر، عاد كل فريق إلى خيامه ومعسكره .

كما أنه افتقد في اليوم التالي «عبد الله بن سعد» في المعركة . . ، فسأل عنه، ف قيل له : إنه سمع منادى «جرجير يوس» يقول : من قتل «عبد الله بن سعد» فله مائة ألف دينار - وأزوجه ابنتي . . . وهو - أي «عبد الله» - يخاف^(١) !! فأتاه «ابن الزبير» في خيمته وأشار عليه بأن يأمر منادياً بنادى : من أثناني برأس «جرجير يوس» فله مائة ألف دينار وزوجته ابنته واستعملته على بلاده .

ف فعل ذلك «عبد الله»، فصار «جرجير يوس» يخاف أكثر وأشد من «عبد الله». وقال «ابن الزبير» لـ «عبد الله» :

(إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في إمداد متصل، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال

(١) ليس المقصود خوف الجبانة بل خشية المغامرة.

المسلمين فى خيامهم متاهبين، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة...، فلعل الله ينصرنا عليهم).

فقبل «عبد الله» النصيحة والمشورة، واستحسنها...، ثم أحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم...، فوافقوا على ذلك.

وفى اليوم التالى فعل «ابن سعد» ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة، وحضر الباقون، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن للظهر، هم الروم بالانصراف كالعادة، فلم يمكنهم «عبد الله بن الزبير» وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم وأرهقهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، وألقى كل من الطرفين سلاحه.

وكان التعب قد بلغ من الروم أقصاه...، ثم خرج «ابن الزبير» بمن كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم...، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم.

وحملوا حملة رجل واحد... وكبروا الله تعالى...، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيه المسلمون فى قلب معسكرهم...، وقُتل «جرجيريوس» قتله «ابن الزبير»...، وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك «جرجيريوس» سبية.

وحاصر «عبد الله» مدينة «سيطة»^(١)، ورأى فيها من الأموال مالم يكن فى غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار.

التوغل :

ويبعث «عبد الله» جيوشه فى البلاد، فبلغت «قفصة»^(٢) فسبوا وغنموا، كما

(١، ٢) فى تونس.

سير جيشًا إلى حصن يدعى «الأجم»، احتفى به أهل تلك البلاد، فحاصروه، ثم فتحه بالأمان .

وصالحه أهل تلك البلاد على مليونين وخمسمائة ألف دينار، يدفعونها سنويًا جزية .

وحمل بشائر هذا النصر كله «عبدالله بن الزبير» إلى الخليفة «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - ثم عاد «ابن سعد» إلى «مصر» بعد أن أمضى فى حملته تلك سنة وثلاثة أشهر .

وفى البحر ايضاً !!

فى سنة ثمان وعشرين للهجرة استجاب «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - لإلحاح «معاوية بن أبى سفيان» - والى الشام - فى غزو «قبرص» وكان ممّا قاله له بعد موافقته :

- (لا تتخب الناس ولا تفرع بينهم ... ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه) .

فسار المسلمون من الشام إلى «قبرص»، فى أول غزوة بحرية ... ، كما ركب إليها ايضاً «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» من مصر، فاجتمعوا عليها، وتم الفتح، وصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة .

فى النوبة :

وكان «عمرو بن العاص» أثناء ولايته على مصر، قد حاول أكثر من مرة فتح بلاد «النوبة»^(١)، على يد «عقبة بن نافع الفهري» ولقد لقى المسلمون هناك قتالاً مريعاً، إذ كان أهلها ماهرين برمى السهام، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا عنها بجراحات كثيرة، خاصة فى حُدُق أعينهم .

(١) بلاد واسعة عريضة فى جنوب مصر. أول بلادهم بعد أسوان، معجم البلدان (٨-٣٢٣).

ولم يصالحهم «عمرو»، ولم يزل يهاجمهم المرة تلو المرة.. حتى كان عزله عن ولاية «مصر»، وتولى «عبد الله بن سعد» مكانه. و«عبد الله» - كما سبق وعرفنا - كان والياً على الصعيد، وهو أقرب إلى بلاد «النوبة» وأدرى بها.

فلما ولى غزاهم سنة إحدى وثلاثين بنفسه، فقاتله الأشاوس من أهل «النوبة» قتالاً شديداً وأصيب يومئذ عيون كثير من جند المسلمين.

ولقد قال أحد الشعراء فى ذلك :

لم تر عيني مثل يوم «دنقلة» والخيل تعدو بالدروع مشقلة
وعلى الرغم من هذه الشدة، لم يكف عنهم، فسأله أهل «النوبة» الهدنة، فهادنهم وصالحهم على أنهم لا يغزونه ولا يغزوهم، وأن يؤدوا كل سنة إلى المسلمين عدداً من السبي، ويؤدى إليهم المسلمون كمية من (القمح والعدس) وغيرها من البقول.

كما عقد لأهل «مقرة» إحدى مدنها - بعد دخول جيش المسلمين «دنقلة»، عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان والأمان حتى حدودهم الجنوبية، وتكون «النوبة» مفتوحة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق يكونون فى خدمة الدولة الإسلامية.

وقد اختلط عدد من العرب بأهل «النوبة»، مما كان سبباً هاماً من أسباب انتشار الإسلام فى أهلها.



إلى إفريقيا ثانية :

إن المتبع لمسيرة الفتح الإسلامى فى الشمال الإفريقى سوف يلحظ كثرة الانتفاض أولاً، وطول المدة الزمنية التى استغرقتها المسيرة ثانياً، بداية من انطلاقه «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» حتى «موسى بن نصير».

وسوف يلاحظ المتبع أيضاً أن الشمال الإفريقي لم تهدأ ثائرته إلا بدخول قبائل البربر - السكان الأصليين - حوزة الإسلام .

أما الوجود الروماني فقد كان يراهن على كل هذا مجتمعاً، فلما انخرطت قبائل «البربر» في الدين الخفيف، وهضمت عقيده وسلوكها، انتهت المراهنة . . ، وانزاح عن البلاد ظل الاستعمار الروماني، الذي كان همه الأوحـد امتصاص جهد الناس وأموالهم واستنزاف خيرات البلاد .

أما الإسلام . . فقد حملهم بروحه السمحة على أن يكونوا عدته في غزو الأندلس وفتحها، وتركيز الوجود الإسلامي فيها، وإشراق حضارتها، على مدى قرون طوال .

عزيزى القارئ : كان لأبد من هذه الكلمة تمهيداً للعودة إلى «عبد الله» فى انطلاقة الثانية إلى الشمال الإفريقي، رغم وجود حامية إسلامية فيها بقيادة «عقبة ابن نافع الفهري» .

تقول مجريات الأحداث : وفى سنة ثلاث وثلاثين هجرية أعاد «عبد الله» الكرة على إفريقية، حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم، وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام والجزية .

ويعلق بعض الخبراء العسكريين^(١) على هذا فيقول :

لقد كان فتح «إفريقية» فتحاً «مستداماً» بدون شك، ولم يكن «غارة» من الغارات .

أى ليس غزواً يقصد منه السلب والنهب والغنيمة، بل تركيز وتثبيت الوجود العقائدى والسلوك الدينى، والنظام العام، وهذا مفهوم (الفتح الإسلامى) بكل معانيه وأبعاده .

(١) اللواء الركن (محمود شيت خطاب).

ذات الصواري:

تعتبر معركة «ذات الصواري» من أعظم وأشهر المعارك البحرية في التاريخ القديم، ولقد أفاض المؤرخون في الحديث عنها إفاضةً كثيرةً واسعة، كما خصها بعضهم بالحديث .

ففي سنة أربع وثلاثين هجرية غزا «عبد الله بن سعد» غزوة «ذات الصواري» في البحر من ناحية «الإسكندرية»^(١) .

إذ خرج «قسطنطين بن هرقل» في جمع من السفن لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فقد خرجوا في خمسمائة مركب (أو ستمائة)^(٢)، يريدون العودة وبقوة إلى الشمال الإفريقي فلقبهم «عبد الله» في البحر بماتى مركب .

ومن هنا - عزيزي القارئ - سميت الغزوة بـ «ذات الصواري» لكثرة الصواري التي احتشدت، والسفن التي تراجعت، والجند التي كانت تحمل .

* * *

فحين علم «عبد الله» بخبر خروج الروم وقدمهم بحراً بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهراني الناس خطيباً، فقال :

- بلغني أن «ابن هرقل» قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا عليَّ !!
فما كلمه رجل من المسلمين .

ثم جلس «عبد الله» قليلاً لترجع إلى سامعيه أفئدتهم، ويستوعبوا مطمئنين إلى كلامه، ثم قام الثانية فكلّمهم ... ، فما كلمه أحد ... ، فجلس ... ، ثم قام الثالثة فقال :

- (إنه لم يبق شيء ... ، فأشيروا عليَّ !!)

فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع «عبد الله بن سعد» فقال :

(١) النجوم الزاهرة (١-٨) .

(٢) الطبرى وابن الأثير أما صاحب النجوم الزاهرة فيقول بأنها كانت ألف مركب .

- (أيها الأمير !! إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذُنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

عندئذ أعطى «عبد الله» أوامره بالركوب، والانطلاق قائلاً :

- (اركبوا باسم الله ..) فركبوا، وكان عدد مراكب المسلمين مائتى مركب .

كما قدم أهل الشام فى مراكبهم أيضاً بقيادة «معاوية بن أبى سفيان» مدداً، وظلت القيادة العامة لـ «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» .

وكان اتجاه الريح لغير صالح المسلمين حين واجهوا الروم... ، فأمر «عبد الله»، بإرساء السفن ولمْ الأشرعة، وكذلك فعل الروم، وقال للروم : الأمان بيننا وبينكم، فرضوا، وبات المسلمون ليلتهم يقرءون القرآن، ويصلون، ويتهجّدون، داعين الله تعالى أن ينصرهم على عدوهم، ويمدّهم بمدد من عنده بالصبر والثبات وحسن المآب .

وأصبحوا جميعاً ... وقد أجمع الروم أن يقاتلوا فقبضوا سفنهم ... ، وقرب المسلمون سفنهم ... ، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف «عبد الله بن سعد» المسلمين على نواحي^(١) السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر .

واقْتَتَلَ الطرفان بالسيوف والخنجر، فقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يصبروا مثله فى موطن قط، فجرح «قسطنطين» ملك الروم وقائدهم فى هذه المعركة، وانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد^(٢) .

كما تعرضت حياة «عبد الله بن سعد» فى هذه المعركة إلى خطر داهم، كاد يودى به، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجرد

(١) نواحي السفن: أطرافها .

(٢) الطبرى (٣- ٣٤٠ ، ٣٤١) .

مركب «عبد الله» إليهم، لولا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط بين المركبين بالسيف فقطعها، وبذلك نجا «عبد الله» من الموت أو الأسر^(١)!!
ولقد أظهر «عبد الله» في معركة «ذات الصواري» بطولة فائقة، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم - بعد اندحارهم - عن مصر وبلاد الشام^(٢).

الفتنة :

عاد «عبد الله» إلى «مصر» بعد معركة «ذات الصواري» سنة خمس وثلاثين للهجرة (٣٥هـ)، وكانت المؤامرة التي نسج خيوطها وحبك فصولها «عبد الله بن سبأ» - اليهودي - . . . ، قد استفحلت، وثار عدد لا يستهان به من وجوه الناس على «عثمان» - رضى الله عنه - واضطربت بعض الولايات، فاستقدم «عثمان» ولاته إلى المدينة يستشيرهم ويستنصحهم .

فلما اجتمعوا عنده قال لهم: (إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم !!) .

وكان «عبد الله بن سعد» أقرب الولاة إليه، وكذلك «معاوية بن أبي سفيان» فاتفق رأيهما، مع غيرهما على مبدأ وسياسة، وقالوا لـ «عثمان»: (إن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم . . .!!)^(٣)

لكن التآمرين الثائرين، وعلى رأسهم «ابن سبأ»^(٤). كانوا في اتجاه آخر لا يرغبون مالا ولا منصباً، بل كانوا يهدفون إلى قتل «عثمان» - رضى الله عنه - وإغراق المسلمين في بحر من الفتن والدماء .

(١) فتح مصر والمغرب (ص - ٢٥٧).

(٢) النجوم الزاهرة (١ - ٨٠).

(٣) ابن الأثير (٣ - ٥٧) الطبرى (٣ - ٣٧٣).

(٤) ويعرف أيضاً بـ (ابن اليهودية)، وأيضاً بـ (ابن السوداء).

فما هي إلا أيام معدودات حتى أحبط بـ «عثمان» - رضى الله عنه - في داره، ومنع عنه الماء والطعام، وحوصر حصاراً شديداً . . . ، وهو يرفض أن يستنجد بأى جند من المسلمين، سواء من الشام أو من مصر أو أية جهة أخرى، منتظراً قضاء الله تعالى .

ثم قُتل - رضى الله عنه - شهيداً وهو يتلو القرآن . . !

ولقد همَّ «عبد الله بن سعد» أن ينجده في الحصار، من غير أن يطلب منه ذلك، وغادر «مصر» على رأس قوات من جنده باتجاه الحجاز، غير أنه حين علم بنبا الفاجعة ارتد إلى «مصر»

عزل «عبد الله بن سعد»:

ونمت البيعة لـ «على» - رضى الله عنه - فكان أول ما فعله هو عزل «عبد الله» عن ولاية مصر وتعيين «قيس بن سعد بن عبادة» مكانه، راغباً في أن تهدأ نفوس الثائرين، وتسكن الفتنة، التي كان مصدرها وأهم أسبابها في مصر . . !

وقد تتساءل - عزيزى القارئ - : ما الذى جعل «عبد الله بن سعد» يغفل عن المتآمرين والثائرين وهو الوالى على «مصر» . . . ، وله من الصلة بـ «عثمان»، وحسن الدراية، والحزم ما يؤهله لقمعها ووأدها ؟ .

لقد كان «عبد الله» - كما سبق وعرفت - مندفعاً إلى جهاد العدو الرومانى على امتداد الشمال الإفريقى كله، طوال سنوات ولايته، وكان قليلاً ما يقيم فى «مصر» .

وكان - رحمه الله وغفر له - مشغولاً بتوطيد أركان الوجود الإسلامى فى تلك الأنحاء، أما الآخرون فكانوا مشغولين بفتنة «ابن سبأ»، والتآمر . . !

إلى المنفى:

خرج «عبد الله» من «مصر» بعد عزله، وفي قلبه غصة، وفي نفسه حنين إلى أرض كانت أول مسرح وميدان لجهاده .. إلى «فلسطين».

وأقام في «عسقلان» وهي إحدى المدن الساحلية تقع قريباً من «غزة» معزلاً، بعيداً عن الصراع الذي دار بين «على» - رضى الله عنه - وبين «معاوية بن أبى سفيان» حتى إنه لم يبايع لأحدهما، ولم ينصر فريقاً على فريق .. !

وهذه - ولاشك - محطة هامة وعلامة مميزة، تؤكد صدق «عبد الله» مع ربه، واستخلاصه لذاته من بين برائن الهوى والغرض .

الوفاة:

ولم يمض على إقامته في «عسقلان» أكثر من عام .. ، وقد تفاعل الأسى في كيانه وبين جوارحه .. ، وكان يدعو ربه: (اللهم اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح) .

فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ ثم صلى الصبح، فقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب و(العاديات)، والثانية بأم القرآن وسورة .. ، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه سنة ست وثلاثين هجرية (٣٦هـ)^(١).

ودفن بموضع معروف يقال له «مقابر قريش» بـ «عسقلان» .

رحمه الله وغفر له، وأبدله من بعد خوفٍ أمناً.

(١) معالم الإيمان (١-١١٢) الروض الأنف (٢-٢٧٤) النجوم الزاهرة (١-٣٨) تهذيب الاسماء واللغات

(١-٢٧٠) شذرات الذهب (١-٤٤) الاستيعاب (٣-٩٢٠).

٦- نور الدين محمود

على مقربة من الجامع الأموى فى دمشق الشام، وعلى بعد خطوات منه، يرقد جثمان البطل «نور الدين محمود - آل زنكى» - رحمه الله -، فى مقام متواضع...، ورمس متواضع...، قد جلل بستارة خضراء، يطل عليه الزائر من نافذة حديدية إلى جانبها سبيل ماء^(١).

زقاق ضيق قد انتشرت على جوانبه حوانيت باعة المنسوجات القطنية . أقف عند النافذة وأقرأ الفاتحة، وأترحم على البطل، ثم أستذكر التاريخ، ولو للحظات قليلة .

أفعل ذلك كلما زرت دمشق العريقة - وكثيراً ما أزورها -، ذلك أنى بينى وبين نفسى لا أشعر بتمام الزيارة إلا إذا قمت بهذا الواجب !!!

فـ «سوق الحميدية» و «الجامع الأموى» و «قبر الشهيد نور الدين» و «سوق البزورية» و «قبر الناصر صلاح الدين» كلها وغيرها فى إطار مكانى متقارب، له عقب التاريخ... ومجده العظيم... ومنازته التى يطل منها...، ويتراءى لى كإنسان شامخ الرأس، مرفوع الهامة، يفرك يديه، ويعض على شفتيه، وتدمع عيناه، حسرة وحزناً على واقعنا المرير، ويقول بأسى: أليس فيكم رجل رشيد؟

إن من يستعرض الواقع التاريخى الذى كانت عليه أمة الإسلام، وديارها، من المشرق إلى المغرب، وعلى اتساع رقعة الأرض، فى الوقت الذى برز فيه «نور الدين»، وانبثق من ضمير الغيب، يدرك أنه - رحمه الله - كان كالفجر المضىء أو كالصبح السافر بعد ليل طويل دامس .

كانت أمة الإسلام أشلاءً ممزقة، ودويلات مبعثرة، ومؤامرات وفتن ودسائس، تغلب فيها العنصر غير العربى على السلطة، وتحكم فى مجريات الأمور، ولو أنه

(١) هو جزء من المدرسة (النورية) التى بناها « نور الدين »

تأصلت فيه روح الإسلام والإيمان وأضاءت جوانب نفسه، ليهان الخطب وزال -
الخطر، لكنه - أى هذا العنصر - كانت تحكمه شهوة السلطة والاستبداد، رقيق
الدين، ضعيف الإيمان ، قليل الالتزام .

ومن ثم أضحى الخليفة فى «بغداد» رمزاً . . ، فاقداً لأهلية الحكم ، ليس له
من الأمر شىء، قد كثرت من حوله (العصابات) . . ! فى «الموصل» وفى «حلب»
وفى «فارس» الممزقة، و«خراسان» ، و«دمشق» . . ، وغيرها ، وغيرها .

والأنكى من ذلك وجود خلافة «فاطمية» فى مصر ، قد استغرقتها المذهبية ،
والاستتار بالسلطة ، وحب الشهوات .

ووجود خلافة «أموية» فى «الأندلس» تناثرت رقعتها قطعاً بين «قرطبة»
و«أشبيلية» و«غرناطة» و«طليطلة» ، تغترف من لذائد الدنيا ومتعها بلا حساب .

أما المغرب العربى فحدث عنه ولا حرج إذ تعصف به رياح الأثرة ، وجنون
الحكم، وكرسى السلطة، من غير مراعاة لدين، أو خلق، أو ضمير .

ومن ثم - أيضاً - جاء الموج الصاخب من كل مكان فى «أوروبا» ، يغزو
ديار الإسلام ، تحت شعار الصليب ، فاستمكن من الأرض والناس، واغترف
من الثروات، وأسس ممالكه الأربعة، من أقصى شمال الديار الشامية حتى
عمق جنوبها على الحدود المصرية ، سهلاً وساحلاً وجبلاً، من «الرها»
و«أنطاكية» على تخوم آسيا الصغرى، إلى «القدس الشريف» و«عكا»
و«الكرك» . . !

من هذا الخضم المتلاطم، انبثق «نور الدين»، وطفأ على السطح، رباناً جديراً
بقيادة السفينة إلى شاطئ الأمان والسلامة، وعاش سنين حياته كلها فى جهاد

متواصل على جبهتين: فى الداخل والخارج، يوحد ويحرر، لا يهدأ ولا يستكين حتى يحقق الأمل المنشود .

ولعل شخصية البطل «صلاح الدين» - رحمه الله - قد نمت وترعرت ، ثم أزهرت وأثمرت ، وأعطت أكلها ، بفضل من الله تعالى أولاً وأخيراً ، ثم بقسط من شخصية «نور الدين» ، أو على حسابها ! .

فمن الإنصاف للتاريخ وحقيقته أن لا تطوى شخصية «المعلم» على حساب التلميذ فلكل دوره، ولكل نصيبه، ولكل حقه .

ونحن لا نغشط الحقيقة التاريخية سطوعها إذا ما قلنا بأن «نور الدين» قد وضع الأساس، وأن «صلاح الدين» قد رفع البناء، فى عملية تكاملية .

«نور الدين» - رحمه الله - شخصية نادرة، فى عمق الإيمان، فى الفقه والعلم، فى الحفظ والرواية، فى الزهد والورع، فى الإدارة والحكم فى بُعد النظر السياسى، فى القيادة العسكرية الفذة ! .

والآن ، هيا - عزيزى القارئ - نتصفح معاً سيرة حياة البطل «نور الدين محمود آل زنكى» ففيها العظة والعبرة والقُدوة والأسوة .

الولادة والنسب والنشأة:

هو: محمود بن زنكى «نور الدين بن عماد الدين» بن آق سنقر. كان جده «آق سنقر» من موالى «السلجوقيين»، وهم عنصر زكى الأصل، كان لهم - بعد إسلامهم - باع طويل فى خدمة الإسلام ، وظهور سياسى وسلطان، ونفوذ قوى، استطاعوا من خلاله أن يؤسسوا ملكاً عريضاً ما بين «فارس» و«العراق» وشمال الشام ، على الرغم من وجود الخلافة العباسية التى أفل نجمها مع بزوغ وسطوع العناصر غير العربية، فى الإدارة والقيادة .

أما والده «زنكى» - الذى تلقب بـ «عماد الدين» - فقد تقلب فى ظروف حياتية متباينة كانت العامل الأساسى فى بناء شخصيته الفذة الرائدة .

كان فى العاشرة من عمره عندما قتل أبوه «آق سنقر» ، فضمه إليه قوام الدولة «كربوقا» وقال : « هو ابن أخى وأنا أولى بتربيته » ، وضم ممالكه إلى جنده ، وأقطعهم الإقطاعات .

ثم توفى «كربوقا» سنة ٤٩٦هـ ، فدخل «زنكى» فى خدمة «شمس الدين جكرمش» - صاحب الموصل - ، وبقي معه إلى أن قُتل سنة ٥٠٠ هـ ، وكان فى مرحلتى الطفولة والفتوة يتلقى مختلف فنون العلم ، درساً وحفظاً ، ويتدرب على الفروسية والقتال ومقارعة الأبطال ، وتتأصل فى ذاته أساليب الإدارة والحكم ، كما أن نزعة الجهاد ضد الصليبيين ، الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ، كانت تتعاضد فى أعماقه يوماً بعد يوم .

ظل مقيماً فى « الموصل » يعمل مع أمرائها حتى صار فى عداد فرسان شرف الدولة « مودود » السلجوقي ، ومن رجاله الذى يعهد إليهم فى عظام أموره .
وإلى صحبته الطويلة لـ «مودود» يرجع إيمان «زنكى» - «عماد الدين» - بقضية توحيد الديار وجهاد الصليبيين وطردهم .

وكانت الشام نصب عينيه وفى صميم قلبه لا يفتأ يذكرها ، سواء ما كان منها فى أيدي الصليبيين أو بأيدي حكام من المسلمين الذين لاهم لهم سوى السلطان على حساب أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، حتى إن جنده وأتباعه لقبوه بـ «زنكى الشام» قبل أن يصل إلى الولاية بزمان بعيد .

وبقى «عماد الدين» طيلة عقدين من السنين ركناً من أركان الدولة السلجوقية يتقلب بين أمرائها ، مخلصاً ناصحاً وفياً ، لكنه فى آخر الأمر نازعته نفسه الأبية إلى أن يقول :

«قد ضجرنا بما نحن فيه ، كل يوم قد ملكَ البلاد أمير ، ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة وتارة بالشام » .

وفى عام (٥٢١هـ)، ولأه السلطان «محمود السلجوقى» إمارة الموصل، وكانت منها البداية . . !

فأخذ يرتب أمور الموصل ويضم بلادها وأطرافها ويوطد الأمن فيها وينظم شئونها، وحين تهيأت له الظروف والأسباب عبر إلى «حلب» عام (٥٢٤م)، فاستولى عليها واستقر فيها ، وكانت أولى محطاته إلى الديار الشامية .

وفى نفس الوقت كان «عماد الدين» يشاغل الصليبيين من حين لآخر ، إظهاراً للباس والقوة، خاصة فى «أنطاكية» ، تلك المملكة التى كانت تعتبر مع مملكة «الرها» البوابة الرئيسية لجند الصليبيين القادمين أفواجاً متتابعة من أوروبا .

لكن عينيه كانتا دوماً على «دمشق»، إذ لم يكن من الميسور توحيد الجبهة الإسلامية فى وجه الصليبيين إلا إذا دخلت دمشق - وما بينها حتى «بانياس» جنوباً - فى سلطانه وتحت يده، ولقد حاول محاولات كثيرة فى هذا الصدد فما ترك قلعة ولا حصناً ولا بلداً إلا هاجمه، ومهد للوصول إلى «دمشق» .

وكان القضاء على مملكة «الرها» - الصليبية - أعظم إنجازات «عماد الدين» ، وقد تم له ذلك عام ٥٣٩هـ، (وقد طربت شعوب العرب والإسلام للنبا العظيم، وجرت به البشرى من بلد لبلد، فارتفعت الهامات وطابت النفوس واشرابت إلى الجهاد) .

وقد ساء ذلك الفتح العظيم بعض النفوس الضعيفة ، فراحوا يكيدون لـ«عماد الدين» ويتوَجَّسون من إخلاصه وجهاده سرّاً.

ومن ثم مضى «عماد الدين» غير عابئ بما يحاك له إلى محاصرة قلعة «جعبر»، وهناك كانت تنتظره الشهادة، فبينما هو نائم فى خيمته ذات ليلة إذ دخل عليه جماعة من غلمانه، أوغرهم عليه خصومه ، فوثبوا عليه، وطعنه كبيرهم طعنة قاتلة، توفى على أثرها فى اليوم التالى، وكان ذلك فى السادس من ربيع الثانى سنة (٥٤١هـ) واختفى البطل من الميدان ليقوم بطل آخر، هو صاحب ترجمتنا «محمود نور الدين بن عماد الدين» ، ويكمل المسيرة.

«نور الدين» - محمود - عضد أبيه:

كان «نور الدين» - محمود - قد أتم الثلاثين من عمره يوم استشهاد أبيه «عماد الدين» وكان ساعده الأيمن في معاركه ، منذ أن كان فتياً قد أتقن فنون القتال والفروسية ، وأبلى في الميادين بأحسن البلاء .

كما كان أقرب إخوته الثلاثة إلى قلب أبيه ، وهم «سيف الدين» - غازى - و«قطب الدين» - مودود - و«نصرة الدين» - محمد - ، لأنه تشيع بصفات أبيه كلها ، فى بُعد النظر السياسى ، وحسن القيادة للجند ، والتقوى والمواظبة على الفرائض ، والعدل فى الحكم ، والشجاعة والإقدام .

وبعد استشهاد «عماد الدين» عند قلعة «جعبر» ، تفرق الأبناء ، كل بقواته وجنده إلى الجهة التى كان والياً عليها من قبل أبيه ، فعاد «سيف الدين» - غازى - إلى «الموصل» ، كما مضى «نور الدين» - محمود - إلى «حلب» واستقر فيها ، وكان فى جملة جنوده «أسد الدين» - شيركوه - و«نجم الدين» - أيوب - والد «صلاح الدين» والأول عمه ، وهذان الرجلان البطلان سيكون لهما الأثر البالغ واليد الطولى فى استتباب الأمر لـ «نور الدين» ، واتساع ملكه ، ويسط سلطانه ، وزعزعة ملك الصليبيين ، والقضاء على وجودهم فى ديار المسلمين .



وأقام «نور الدين» فى «حلب» يوطد الأمن والنظام فى البلاد ، ويحصنها تحصيناً شديداً وقوياً ، ولقد أحبه الناس فى كل المقاطعات وأخلصوا له ، إذ وجدوا فيه الصورة المتجددة من والده «عماد الدين» .

ثم بدأ انطلاقه فى كل اتجاه ، يقض مضاجع الصليبيين ، ودون هواده ، وكانوا قد أحسوا بالأخطار تتفاقم وتتعاظم ، خصوصاً بعد زوال مملكة «الرها» .

فلجأوا إلى تدبيرين يحاولون من خلالهما تقوية وجودهم وتثبيت أركان ممالكهم ، فأرسلوا إلى «البابا» فى روما والملوك فى أوروبا يستنجدون بهم ويستحثونهم ، فراحت تندفق على المشرق الإسلامى من جديد حملات الطامعين

والمغامرين والحاquدين، كما أكثر الصليبيون من إقامة القلاع والحصون فى ممالكهم ، فكان هذان الأمران من أسباب اشتعال الحروب، فى تواصل دائم لا ينقطع، ولقد عانى المسلمون المجاهدون أشد المعاناة من حرب القلاع، لأنها تستنفد وقتًا وتستنزف مالا كثيرا، وكانت خطة «نور الدين» - القائد الخبير - أن يستنزفهم إلى الميادين .

ولقد قدر لـ «سيف الدين» - غازى - أن يرث مع القسم الشرقى من المملكة (الموصل)، مشاكلها ومتاعبها، مثل مطامع السلطان السلجوقى، وتطلعات الخليفة فى بغداد، وكذلك حماية الحدود الشرقية من غارات أصحاب الأمر فى فارس، وأيضًا الثغور الشمالية من عدوان أتراك آسيا الصغرى، والبيزنطيين ... ، فاستطاع بما حباه الله تعالى من صفات ومواهب أن يقوم بكل تلك المهام الصعبة وينجح فيها .

كما قدر لـ «نور الدين» - محمود - الذى استقر فى «حلب» أن يواجه وحده أخطر ما تعرضت له الدولة الإسلامية وبلادها وأقطارها ، ألا وهو الخطر الصليبي .

ولقد ظن بعض المهووسين وأصحاب المطامع أن هذا الانقسام بين الأخوين «سيف الدين» و«نور الدين» لا بد أن يؤدى إلى الاختلاف ، ثم الحرب ... ، لكن الرجلين خبيا ظن أولئك جميعًا .

وكان «أنر» صاحب «دمشق» الخبيث اللعين ، الذى باع دينه بديناه، وهادن الصليبيين وتحالف معهم ، أول من سعى إلى الاستفادة من هذا الانقسام . إذ أسرع واستولى على «بعلبك»، وأرغم صاحب «حماء» على أن يدخل فى طاعته، وكانت تابعة لـ «حلب» .

كما أن الصليبيين أنفسهم راودتهم تلك الظنون، فتقدم «رايموند» ، صاحب «أنطاكية» واكتسح بلاد «نور الدين» حتى بلغ أسوار «حلب» نفسها .

ولقد ظن «جوسلين» صاحب «الرها» سابقاً أن الفرصة مواتية لاسترداد مملكته الضائعة، فجمع جنده وسار بهم إليها، وتواطأ معه نفر من أهلها الأرمن، فتمكن من دخولها، ولكنه عجز عن اقتحام قلعتها. !

وكان «نور الدين» غازياً في نواحي «أنطاكية» فارتد على عقبه مسرعاً إلى «الرها» فدخلها، وفر «جوسلين»...، فتبعه المسلمون وأوقعوا به هزيمة منكرة، قتل فيها نفر من قاداته وحلفائه، وجرح هو في رقبته، فُلجأ إلى «سميساط» وتحصن بها.

«نور الدين» و«دمشق» و«بيت المقدس»:

وواتت الفرصة لـ «نور الدين» أن يدخل «دمشق» وينازل جيش مملكة «بيت المقدس» في أرض «حوران».

إذ إن «أنر» صاحب «دمشق» كان قد ولي على «بصرى» و«صرخة» من أعمال «حوران» رجلاً أرمنياً دخل في الإسلام حديثاً، لكن هذا الأرمني حاول أن يستقل بما ولاه عليه «أنر»، وأرسل إلى «مليزاند» ملكة بيت المقدس يعرض عليها تسليمها ما بيده على أن يكون أمير المنطقة، فاستجابت له وأرسلت جيشاً كثيفاً طمعاً في الاستيلاء على «حوران» كلها.

عندئذ أرسل «أنر» إلى «نور الدين» يطلب مساعدته، ويعرض التحالف معه، وما أسرع ما لبى «نور الدين» الطلب، وترك منازلته لبعض حصون «أنطاكية»، وزحف على جناح السرعة إلى «دمشق».

ولم يكن يريد الاستيلاء عليها... إلا إذا تنازل له «أنر»...، فقد كان في طبع «نور الدين» أن لا ينازع حاكماً مسلماً، ولا يدخل في حرب معه، ضناً بأرواح الناس، وتمشياً مع تقواه وتدينه.

ثم زحف مع «أنر» إلى «حوران» فاسترد «بصرى» و«صلخد» ودخل في حرب تعددت معاركها مع جيش «بيت المقدس» الذي انهزم جنده وفر أكثرهم لا يلوون على شيء، ولم يدركوا «بيت المقدس» إلا بعد هلاك أكثرهم.

وتأبى النفس الخبيثة إلا أن تسيء لمن أحسن إليها ، فما أن شعر «أنر» بالاستقرار حتى عاود الاتصال بملكة «بيت المقدس» عارضاً التحالف معهم ومهادنتهم سرّاً ، لكن «نور الدين» علم بذلك ، ثم تجاهله ، وعاد إلى «حلب» ليجهز نفسه وجيشه لمعاودة مقارعة حصون «أنطاكية» التي لم يكن ليكف عنها أبداً ، ساعياً إلى إزالتها واقتلاعها ، كما فعل والده ، بـ«الرها» .

الحملة الصليبية الثانية:

قاد الحملة الصليبية الثانية «كونراد» ملك ألمانيا و«لويس السابع» ملك فرنسا ، وقد احتشدت معهما جموع كثيرة من مختلف دول أوروبا ، وساروا في طريقين ، فقد سار «كونراد» براً ولقى من الأهوال والشدائد الشيء الكثير ، سواءً من البيزنطيين أو من مسلمي السلاجقة في آسيا الصغرى ، حتى استقر في أنطاكية ، كما سار «لويس السابع» بحراً في سفن حملته وجنده ، ثم نزلوا على سواحل «أنطاكية» وهناك انضم بعضهم إلى بعض .

وأغرثهم كثرتهم على مناوشة «نور الدين» ، تمهيداً للاستيلاء على «حلب» ، والقضاء على دولة «نور الدين» ، واستعادة السلطان كاملاً على الديار الشامية ، فجهازا حملة من أجل ذلك ، لكنها أريدت واضطر هؤلاء إلى مراجعة حساباتهم ، ثم قرروا أن يضربوا ضربتهم في «دمشق» بدلاً من «حلب» ، فالتقارير تقول بأن حاميتها وصاحبها «أنر» أضعف من أن يقفوا في وجه جيوشهم . فساروا إليها . . . عاقدين العزم على فتحها .

ولقد تجلّت نزعة الجهاد وروح الإسلام الوثابة كأروع ما يكون ، فعلى مدى خمسة أيام من المعارك الطاحنة ، أبرز فيها المدافعون والمجاهدون عن المدينة غاية ما يطبقون من الصبر والمصابرة والاندفاع والاستشهاد . . . فلم تستطع الجيوش الصليبية أن تحقق أى ظفر أو نصر .

حتى إن موقف «أنر» صاحب المدينة تغير وتبدل ، فكان مجاهداً حق الجهاد ، يبحث على القتال ويباشره أحياناً بنفسه ، مما شهد له به المؤرخون ، وإن كان في

نفسه ما يزال يخاف على سلطانه ، إذ لم يستجد بـ «نور الدين» بل استغاث بأخيه «سيف الدين» صاحب «الموصل» .

لكن «نور الدين» زحف من غير طلب حتى بلغ «حمص» ، ثمهيداً للوصول إلى «دمشق» والدفاع عنها .

ومع مضي الأيام الخمسة كانت قد أصبحت قوى الصليبيين فى غاية السوء ، فانسحبوا باتجاه «بيت المقدس» مخلفين وراءهم الفشل الذريع ، والقتلى والأسرى .

وما كادوا يبلغون «بيت المقدس» حتى عزموا على العودة من حيث أتوا ، فرحلوا عن طريق البحر إلى أوروبا . . . وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية من قبل أن تحقق لنفسها سلطاناً ، أو تبلغ هدفاً .

«نور الدين» صاحب «دمشق»:

كيف ؟ ومتى ؟.. إن من يتتبع مراحل جهاد «نور الدين» فى مختلف الميادين ، يدرك أن هذا القائد العظيم والبطل الملهم كان يسعى إلى وحدة بلاد المسلمين وانصهار شعوبها فى بوتقة العقيدة والشريعة واستنهاض هممهم لدفع الصليبيين عن أرضهم المغتصبة ، ويدرك أيضاً أن الرجل كان ذا همة عالية ، ونفس أبية ، وشجاعة نادرة ، ومصابرة لا حد لها ، تفوق التصور والخيال .

يقول الدكتور «حسين مؤنس» نقلاً عن مؤرخى العصر:

[لم يكف «نور الدين» شهراً عن الخروج للغزو ، كان أمن البلاد إذ ذاك معقوداً بنشاط الحاكم ، فإذا توقف عن التجوال فى نواحي بلاده ، والإمام بالعواصم والمعاقل لم يأمن أن يخرج عليه بعض ولايتها ، ولو كانوا أقرب الناس إلى الأمير ، وكذلك الحدود . . . كانت سلامتها رهينة باستمرار المراقبة فيها وموالة الغزوات منها فى أرض الأعداء ، لا هدنة تدوم ، ولا محالفة تقعد العدو عن افتراس بلد حليف إذا انس منه تراخياً عن الدفاع .

ثم إن أعداد جيوش « نور الدين » كانت تتزايد كل يوم ، وكل رجالها راغبون في الحرب ، ناظرون إلى ما فيها من ثواب ومغانم ، ولم يكن يستطيع أن يدع هذه الجموع خالية من العمل فترة من الفترات ، فما هو إلا أن يعود من غزوة حتى ينهض بالتي تليها ، حتى أنهك هذا النشاط المتصل بدنه ، وسار به نحو المشيب قبل أوانه .

وينبغي أن نذكر أن حملات هذه العصور كانت طويلة تستغرق الواحدة منها الشهر والشهرين ، ينقضى معظمها على صهوات الخيل ، أما الراحة فلا تصاب إلا لماماً ، ساعة هنا وساعة هناك ، بالليل أو بالنهار ، وأما النوم فكان في خيام جافية ، مفتحة الجوانب ، يحوم حولها الجند والفرسان والخيل والحرس والخدم ، محدثين من الضوضاء ما يحول دون النوم المريح الذي يتطلبه البدن ، وقد كان « نور الدين » زاهداً في النعم ، قلما يسترىح إلى فراش وثير ، وكان مهماً استأخر به النوم لا يأذن لجنبه أن يمس الفراش إلا إذا صلى .. فأطال الصلاة ، فقلت ساعات نومه ، وزاد جسده جهداً ، ثم إنه كان زاهداً في الطعام فلا يصيب منه ما يكفيه إذ كان كغيره من أصحاب الرسالات يعيش بإيمانه وقوة روحه لا بجسده وقواه .. ، فلا عجب أن بدأت صحته تضعف ، حتى بدا وهو فوق الأربعين بقليل وكأنه شيخ في الستين^(١) .

ومع اقتراب مواعده مع القدر في ضم « دمشق » إلى الديار المحررة ، كانت هناك عوامل تعيقه بعض الشيء منها :

١- ظهور القلاقل والاضطرابات في مملكته ، هنا وهناك ، سواء من بعض العاملين عليها ، أو من محاولات الصليبيين في « أنطاكية » وبقايا « الرها » و« مملكة بيت المقدس » في التوسع واستعادة النفوذ .

٢- استمرار صاحب « دمشق » « أنر » في المراوغة والخداع ، والتعاون مع الصليبيين كلما رأى نفسه ونفوذه في بلاده بحاجة إلى ذلك ، ولو على حساب الدين والأمة .

(١) كتاب « نور الدين زنكي » للدكتور « حين مؤنس » (ص : ٢٥٨ - ٢٥٩) .

٣- ظهور فئة (الباطنية) من الإسماعيلية وغيرهم، الذين كانوا من أخطر العناصر في الجبهة الداخلية .

٤- سقوط ثغر «عسقلان» في أيدي الصليبيين، وزوال سلطان الفاطميين عنه، وكان هذا الثغر العظيم من أهم الموانئ الإسلامية وأحصنها على الساحل الجنوبي من فلسطين.



إزاء هذا كله كان «نور الدين» مع اهتمامه بموقع «دمشق» على الخريطة الشامية يتأنى ويستعد، ويتنظر الفرصة المناسبة .

وفي أثناء تلك الفترة توفي «سيف الدين» - غازي - صاحب «الموصل» ، وهو الأخ الأكبر لـ «نور الدين»، فبادر «قطب الدين» - مودود - الأخ الثالث، ليضع يده على البلاد ويتولاها، كما أسرع «نور الدين» إلى «الموصل» أيضاً ، ليس طمعاً في إرث، ولا حباً بسلطان ، ولكن توخياً لوحدة البلاد والعباد .

ولم يدخل «نور الدين» في نزاع مع أخيه «قطب الدين»، إنما سعى إلى المصالحة فتنازل له عن حكم البلاد مباشرة، وعينه أميراً عليها ، بشرط أن تكون الخطبة له، فاستقر وهدأت النفوس .



كما أنه في أثناء ذلك - أيضاً - مات «أنر» صاحب «دمشق» الذي كان كالشوكة في حلق «نور الدين» أو العقبة الكتود في الطريق إلى مملكة «بيت المقدس» !!! وتولى بدلاً عن «أنر» رجل مغامر أكثر سفاهة وخسة ، يدعى «مجد الدين» - آبق - ، في عصبية من أشباه الرجال ، لاهم لهم سوى السلطان ولو على حساب الدماء والأرواح ، واستغلال البلاد، واستعباد العباد .

ولم يكن وصولهم إلى السلطة بالأمر الهين والمحسوم ، فقد نازعهم في ذلك طوائف أخرى ، هم أشد منهم نزوعاً إلى السوقية، فكثرت المؤامرات، وسالت الدماء، وتخطف الموت رؤوساً كثيرة ، وما زالت «دمشق» تغلي وتغور .

وعلى الرغم من هذه النزاعات، فإنهم جميعاً كانوا على أفجر ما يكون من
الفجور، يتنازعون أمرهم بينهم، ويتسابقون فى التنافس على موالاة الأعداء، أعداء
الدين والملة، ولكنهم كانوا يتحدثون إذا ما ظهر فى الأفق (خطر) «نور الدين» !!! .

هذه الصورة كانت واضحة فى ذهن « نور الدين » ، فأتبع فى معالجتها منتهى
الحكمة والذكاء .

واستعدَّ «نور الدين» لـ «دمشق»، وأعد قواته وخطته، ثم زحف، وكان همه
الأكبر أن يكسب رأى العام إلى جانبه، ليكون عوناً له على الخلاص من الطغمة
الحاكمة، وعصابة المرتزقة، وبدلاً من أن يتوجه إلى « دمشق » نفسها قصد إلى
جنوبها ، إلى «حوران» لملاقاة الصليبيين .

ذلك أن قوات مملكة «بيت المقدس» كانت قد توغلت فى أرض « حوران » ،
فأسرع البطل ليدفعهم عنها ويردهم ، وكان ذلك فى أواخر سنة (٥٤٥) هـ .

ومن أجل إحكام خطته فى تاليب رأى العام فى «دمشق» على حكامها
الغاضبين ، أرسل إليهم وهو فى الطريق أن يمدّه بألف فارس مع قائد يعتمد
عليه، وكان «نور الدين» يعلم تماماً أنهم لن يستجيبوا له .. وكان أيضاً بغنى عن
هذه القوة ، فلديه من القوات والجنود والعدة ما يكفى ويزيد ! .

فأساءوا الرد وأغلظوا فى الكلام، وبهذا التصرف الحكيم أظهرهم للناس على
حقيقتهم، ولم تكن خافية، ولكنها زادت فى اتساع الخرق بين الشعب وحكامه .
واستمر فى طريقه إلى «حوران»، فلما أحس الصليبيون بقدومه وجرأته،
تراجعوا وانسحبوا، من غير مواجهة ولا قتال .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن أحوال الممالك الصليبية قد ساء كثيراً بعد فشل
الحملة الثانية، التى رحلت بخفى حنين عن البلاد، وتضعضت أمور تلك
الممالك، سواء من الناحية الأمنية، أو السلطوية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية .

ثم كر راجعاً إلى «دمشق» فلما اقترب منها أصدر أوامره إلى جنده أن لا يمساوا شجرة، أو يفسدوا زرعاً، وأغدق على الفلاحين المحيطين بتلك المنطقة الأقوات والأموال، للتخفيف عنهم، ورفع معنوياتهم، وكسب ودهم، فنهفت إليه القلوب ولهجت الألسنة بالدعاء .

ومن المصادفات العجيبة أن المطر الذي كان قد انحس عن تلك المنطقة زمناً نزل مدراراً مع قدوم «نور الدين»، فكان فالاً حسناً على البلاد والعباد .

وكان نزول «نور الدين» بقواته في مكان يُدعى «منازل العسكر» على بعد أربعة أميال من «دمشق» المدينة، ومن هناك كتب إلى «مجير الدين» - أبى - وأصحابه كتاباً قال فيه:

(إننى ما أردت بنزولى هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منارلتكم، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل «حوران» والعريان (البدو) بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسُبِّتَ نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعى - مع ما أعطانى الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال - أن أقعد عنهم، ولا أنتصر لهم، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم ومقاطعاتكم والذب عنها، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحداً من المسلمين ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر «عسقلان» و«غزة» .

وكان الرد منهم :

(ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا) .

مما دعا «نور الدين» إلى الإصرار على الخلاص منهم والتعجيل بذلك ، مهما غلت التضحيات .



وإزاء هذا الإصرار رأى «مجير الدين» - آبق - ورجاله أن يكتبوا إلى «نور الدين» طالبين الاجتماع به والتفاوض معهم ، وكانوا بذلك يريدون كسب الوقت من ناحية ، والغدر من ناحية أخرى .

ولم يكن «نور الدين» من الذين تغرهم المؤامرات والدسائس ، أو تفوت عليه مثل هذه المكائد والحيل ، فرحب بهم ، واجتمع إليهم ، وكان طلبهم الوحيد : أن يدخلوا في طاعته بشرط أن يمكثوا حكماً على البلد . . .!! فوافق من حيث المبدأ .

وكان أهل المدينة قد اغتتموا الفرصة فخرجوا جماعات غفيرة ليلقوا «نور الدين» ، ويشرفوا بطلعته . . . ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم ، واختص طلبة العلم وقراء القرآن الكريم وضعفاء الناس بعطفه وإحسانه ، ولم يكن منه هذا تزلزلاً وإنما طبعاً أصيلاً في أعماق ذاته وإيمانه وحسن خلقه .

وما كاد «نور الدين» يعلن نفي الرحيل عن «دمشق» حتى عاود «مجير الدين» - آبق - وزمرته - الاتصال بالصليبيين ، يمدّون لهم يد المودة ، ويدفعون الأموال ، ويأذنون لهم بدخول البلد . . !

فعاد «نور الدين» من حيث وصل ، ولم يكن قد ابتعد كثيراً ، وأقام معسكره ، وبعث إلى «مجير الدين» - آبق - وعصابته يقول : (أنا ما أوتر إلا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين ، وخلاص ما في أيديهم من الأسارى ، فإن ظهرت معي في عسكر «دمشق» وتعاضدنا على الجهاد ، فذلك هو المراد) .

فردوا بالرفض ، ومضوا يبعثون جماعات من جندهم تفسد الزروع المحيطة بالبلد ، حتى لا يستعدى بها «نور الدين» - على حد زعمهم وسوء نواياهم - ، كما استجدوا بالصليبيين ، فأسرعوا إليهم .

وقد استطاع ملك «بيت المقدس» «أمورى» أن يدخل «دمشق» مع نفر قليل من فرسانه، ويجتمع مع الطغمة الحاكمة للتشاور والتعاون .

لكن «نور الدين» بادر فأرسل فرقة من جيشه قوامها أربعة آلاف فارس ليردوا عسكر «بيت المقدس»، فأوقفوهم عند «بصرى» وردوهم .

ثم اقترب «نور الدين» بباقي قواته من المدينة أكثر من ذى قبل، وهو يحاول تجنب قتال المسلمين، وطال مقامه خارج الأسوار حتى سنة (٥٤٩) هـ .

وساءت الأحوال داخل المدينة إلى حد ينذر بالثورة، وما زاد في تأججها أن «مجير الدين» - أبى - قد أذن لرجال الصليبيين بالبحث عن أسراهم داخل البلد، فمن أحب المقام منهم تركوه، ومن أراد العودة إليهم أخذوه... هكذا... وبمتهنى امتهان كرامة الشعب المسلم، وتضحياته، وأرواح شهدائه!؟.

عندئذ انفجر الموقف، وثار الناس على «مجير الدين» - أبى -، فحاصروه فى القلعة مع رجل من مؤيديه، يدعى «مؤيد الدين بن الصوفى» .

فكتب إليه «نور الدين» يلومه ويؤكد له أن رحمته ما زالت تتسع للعضو عنه وإكرامه إذا هو أسلم البلد .

وقد عرض عليه مواقف أصحابه الذين يرأسونه سرًا، ويدون استعدادهم للانقلاب عليه، ومعاونة «نور الدين» .

فماذا كان من شأن هذا الطاغية ؟

كان يلقي القبض عليهم واحدًا بعد الآخر، ثم يقتلهم ، حتى لم يبق حوله أحد .

الضربة القاصمة:

ومن ثم أقدم «نور الدين» على خطوته الأخيرة ، والنهائية ، فأمر رجاله أن يتصلوا بمؤيديه وأنصاره داخل «دمشق» ليقوموا بالوثبة الأخيرة، فثار أهل المدينة ثورة رجل واحد .

وتقدم القائد «أسد الدين» - شيركوه - (عم صلاح الدين)، نحو سور البلد من الناحية الشرقية، فأدلى الناس لجنده الحبال والسلالم، فصعدوا وعلوا السور ونادوا: (نور الدين يا منصور)...، ثم كسر الجند الباب، وتدفق عسكر «شيركوه» إلى الداخل .

وفتح «باب توما» ودخل منه «نور الدين» وخاصة قاداته وجنده، فاستقبله الدمشقيون استقبال الفاتح المخلص .

ثم استقدم كبار الناس من القضاة والفقهاء والتجار، وخاطبهم بما ملأ صدورهم وقلوبهم غبطة وأنساً، ورجاهم الاجتهاد فى إصلاح ما وهن من أمور البلد، كما ألغى الضرائب التى كان «مجير الدين» قد فرضها على الفواكه والخضر ومياه الرى والسقيا . . !

فزاد حب الناس له، واستبشارهم بمقدمه، وولى على المدينة «أسد الدين» - شيركوه-، وكان ذلك فى شهر محرم الحرام سنة (٥٤٩) هـ .

إلى «مصر»:

وكما كانت «دمشق» فى قلب «نور الدين» وفى عينيه، كانت مصر ، كذلك، فإن خلاصها من أيدي الفاطميين الذين عبثوا بعقيدة أهلها زمناً ، وامتصوا خيراتها ومقداريتها ، ثم كانوا حرباً مسمومة على وحدة الأمة والبلاد عشرات السنين ، وها هم أخيراً يتنازلون للصليبيين فيعطونهم من أنفسهم ذلاً ، ومن أموال بيت المال عشرات الألوف من الدنانير سنوياً . . ، هؤلاء الحكام المتطفلين على بيت النبوة الكريم زوراً وبهتاناً ، كان لابد من الخلاص منهم والقضاء عليهم .

أضف إلى ذلك موقع «مصر» من قلب العالم الإسلامى ، ومكانتها التاريخية والحضارية، وموقعها الاستراتيجى بالنسبة لأعداء الإسلام، كل ذلك جعل «نور الدين» لا يغفل لحظة عما يدور فى مصر، ويتحين الفرصة المناسبة للمشروع الخطير، وهو ضم جناحى الأمة، ثم إزالة الوجود الصليبي الذى جثم على قلب

البلاد والعباد عقوداً طويلة من السنين فأرهقها ومزق شملها وجعل منها أشلاء -
متناثرة .

ولم يكن «نور الدين» بالمغامر الذى تستخفه الأحداث العارضة أو البسيطة، بل
كان ذكياً أريباً متأنياً، يحسب لكل خطوة حسابها، ويدرس كل جزئيات الموقف،
ثم يتخذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، وبهذا كان فعلاً بطل العصر ورجله
بلا منازع، وتضاءل أمام اسمه وشخصيته كل الأسماء والأشخاص .

وها هو قد تجاوز الأربعين من عمره بقليل، لكن استمرارية الجهاد الذى نذر
نفسه له، قد أوهن جسمه وبدنه، فكلَّ وتعب، ولولا روحه الوثابة بإيمانها العميق
لما استطاع أن يكمل المسيرة، فقد كان يستمد عزمه ونشاطه من قلبه لتحقيق ما
يصبو إليه ويتطلع.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

زلزال « حماه » :

ها نحن الآن فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وعلى التحديد عام
(٥٥٢هـ)، وها هى الديار الشامية كلها ، من أقصاها إلى أقصاها، تتعرض
لأعنف الزلازل، وأشدّها قسوة وتدميراً ولم تغادر بلداً إلا وخلفت فيه أضراراً
جسيمة ، من تهديم للدور والمباني ، وخراب للزروع ، وهجرة عطلت
العمل . . . ، ولقد استمرت هذه الزلازل وتوابعها على مدى عامين، لا تهدأ حيناً
حتى تثور أحياناً ، كما كانت « حماه » أكثر المدن الشامية تضرراً وأذى ، ويقول
بعض المؤرخين : إنها كانت فزالت !..

هذه الكارثة شغلت « نور الدين » وأهمته ، وملكّت عليه كل فكره ووجدانه ،
فكان - رحمه الله - يتنقل من بلد إلى بلد ليواسى أهله ، ويمدّ لهم يد العون ،
ويبذل كل ما يستطيع لإعادة الإعمار والبناء ، واستمرار دوران دولاب الحياة .

وعلى أثر ذلك كانت واقعة مرضه الأولى ، التى كادت تقضى عليه لولا لطف الله تعالى وتقديره .

وحملت رسائل الحمام الزاجل أنباء خروج الملك «بلدوين» -ملك «بيت المقدس» - فى جند كثيف للإغارة على إقليم «حوران» ، وأنه قد أقام معسكره عند الركن الشمالى لبحيرة «الحولة» ، بين «طبرية» و«بانياس» . . فبادره «نور الدين» على الفور . . .

فلما أطلت رايات جيش «نور الدين» نهياً «بلدوين» للحرب ، وقسم جيشه أربع فرق ، فأدرك «نور الدين» وهو الخبير المحنك - أنها خطة رسموها ، وأنهم بيتوا أمراً عظيماً فترجل «نور الدين» عن فرسه استعداداً لخوض المعركة ، وقد جرد سيفه فى يده . . ، وكان لتصرفه هذا فعل السحر فى رجاله الأشداء الشجعان ، ففعلوا مثله ، خاصة كبرائهم والمقدمون فيهم .

والتحم الجند من الطرفين فى قتال رهيب ، وأخذ رماة جيش «نور الدين» يصبون وإبلاً من السهام على العدو ، وتقدم حملة الرماح يطعنون فرسان الصليبيين المدرعين بدروع الحديد السابعة ، فيلقون بهم من فوق متون خيولهم .

كانت الاندفاع قوية كالصاعقة زلزلت قوات الصليبيين زلزالاً شديداً ، وأعمل المسلمون فيهم سيوفهم ، فسقط الكثيرون منهم صرعى ، واستأسر المئات ، وفر بضع عشرات ، وكان «بلدوين» أول القارين .

وعاد «نور الدين» بالأسرى والغنائم إلى «دمشق» وخرجت المدينة بكل طوائفها فى مهرجان عظيم ترحب بمقدم البطل الظافر وجيشه المنصور ، وكان يوماً مشهوداً .

وعكة جديدة ... شديدة:

وكان الجهد قد بلغ بـ «نور الدين» مداه ، وكان لزاماً عليه أن يستريح ليستعيد بعض عافيته ، لكنه لم يفعل بل اتجه من فوره إلى «أنطاكية» ، واستعد للهجوم عليها . .

وبينما هو كذلك أحس ديب المرض يسرى إلى جسده المرهق، ودفعة واحدة -
دهمته العلة واشتدت به الحمى ، وبات طريق الفراش ، حتى أُرْجَت بعض الناس
بدنو أجله .

وأرسل «نور الدين» إلى أخيه «نصرة الدين» وقائده «أسد الدين» - شيركوه -
يستدعيهما ، ثم أوصى إليهما ، على أن يكون أخوه فى «حلب» - يعنى سلطاناً
من بعده - وينوب عنه «أسد الدين» فى دمشق . . وطلب أن يرفع من مكانه الذى
فيه وينقل إلى «حلب» على محفّ، فتم له ما أراد ، ووقد فى قلعة «حلب»
يتمرض ويعالج .

وترددت أنباء مرضه هذا وتطاييرت فى كل جهة ، فانتهزها الطامعون والحاقدون
والصليبيون فرصة ، فجاشت البلاد واضطربت ، وبدأت الغارات تشن هنا وهناك .
حتى إن «مجد الدين بن الداية» أحد قادة «نور الدين» المقربين ، منع «نصرة
الدين» من دخول «حلب» ، معتذراً بخوفه على السلطان ، فنشب القتال ،
واستمرت الفتنة بضعة أيام .

وفجأة أبل البطل من مرضه رحمة من الله تعالى ، وتعافى وعاود مباشرة
المهام ، ففرح الناس لذلك أيما فرح ، ثم استدعى إليه قائده «أسد الدين»
وشكره على وفائه وإخلاصه ، كما أنه التمس العذر لقائده «مجد الدين بن الداية»
وأرضى أخاه «نصرة الدين» وولاه على إقليم «حوران» .

وأنت ترى - عزيزى القارئ - كم كان بطلنا «نور الدين» إلى جانب قيادته
العسكرية فى ميادين القتال والفروسية ، وإحكام الخطط الحربية ، أنه فى نفس
الوقت كان سياسياً حكيماً بارعاً واسع الذكاء ، أريباً فى حسم الفتن ، ميالاً إلى
التضامن والوئام ، حفاظاً على وحدة القاعدة الشعبية العريضة التى كانت توازره
وتقف من خلفه وتدعمه .

ونحن لا نقول هذا الكلام من فراغ . . وإليك دليل آخر . .

لقد عاود المرض « نور الدين » مرة أخرى سنة (٥٥٤هـ) ، ولكنه كان وعكة عارضة ، لم تطل زمناً . . ، ومع قصر مدتها ، فقد عاين في أثنائها خيانة من بعض رجاله ، إذ اتصلوا بأخيه « نصرة الدين » في « حوران » ودعوه أن يسرع إلى « دمشق » ليسلموا له البلد ، ويأيعوه سلطاناً .

فماذا فعل « نور الدين » ؟

لم يزد على أن اعتقل هؤلاء النفر ، وحبسهم ، ولم يرق نقطة دم واحدة من دمائهم ، كما صرف أخاه إلى عمله في « حوران » ولم يمسه بأذى ، واكتفى بالتأنيب ، لكنه غير رأيه في وصيته ، بأن يكون خليفته من بعده أخاه « قطب الدين » - مودود - ، صاحب « الموصل » ، وأسر بها إلى بعض خواصه « المقربين » .

الطريق إلى « مصر » :

الطريق إلى « مصر » طويل بعيد ، وغير آمن ، لكن لا بد منها . . ، لأنها جناح الأمة ، ولأن أهلها خير أجناد أهل الأرض ، وهم في رباط دائم ، هكذا كان التصور الذي استقر في قلب « نور الدين » وعقله ، وإيمانه ووجدانه ، ولقد عالج كل ذلك بحكمة وروية وخطة مدروسة ، مع ما كان يشغله في الشام والعراق ، أو يشاغل به « أنطاكية » التي هي بمثابة الشوكة في الحلق .

كانت الأمور في « مصر » قد تدهورت بشكل خطير وسريع ، وأصبح الفاطميون بعد سقوط « عسقلان » وتهديدات « بلدوين » ملك مملكة « بيت المقدس » رهينة في يده ، يدفعون له في كل عام مائة وستين ألفاً من الدنانير ، ليكف أذاه عنهم .

تسلم الخلافة فيها طفل لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، سنة (٥٥٥هـ)، ولقب بـ «العاقد»^(١)، وكان الوزير الأول «طلائع بن رزيك»، وهو من أصل أرمني، طاغية مستبدًا، شرهًا إلى المال، يبيع الولايات لمن يدفع الثمن الأكبر، وقد تلقب بالملك الصالح !!

لكن عمّة الخليفة دست عليه من قتله تخلصًا من شروره وآثامه، وخلا منصب الوزير الأول، أو السلطان، فاستجار الخليفة برجل كان يتولى أمور الصعيد، اسمه «شاور» فبادر هذا إلى «القاهرة» وقضى على «طلائع بن رزيك» وعصبته، ثم خلاص الأمر إليه .

وتولى مملكة «بيت المقدس» «أمورى» بدلًا من «بلدوين» الذى مات، وكان فى «أمورى» روح المغامرة، شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره، يمتلئ حيوية وحماسًا، ورغبة فى الانتقام، وميلًا شديدًا إلى الشر .

ومرت سنة لم يدفع فيها الفاطميون الضريبة، فاغتنمها «أمورى» فرصة للالتقاط على «مصر» والاستيلاء عليها، فجهز جيشًا قويًا كثيفًا سار به جنوبًا باتجاه مصر، وكان ذلك عام (٥٥٨) هـ، فحاصروا «الفرما» . . !

لكنه لم يتقدم خطوة بعد ذلك، والسبب أن الفلاحين والمجاهدين، قاموا بكسر السدود وفتح الجسور، وكان الموسم موسم فيضان، فانساحت الماء فى الأرض الزراعية على مساحات شاسعة، عطلت تقدم «أمورى» وجيشه فعاد أدراجه من حيث أتى، وفى نفسه غصة وحرقة، وفى قلبه عزم على تكرار الحملة حين تسنح الظروف .

هذه الحركة من «أمورى» لم تكن لتغيب عن علم «نور الدين» وعن عينه الساهرة، ومن أجل أن يشغل «أمورى» حالًا ومستقبلًا عن مثل هذه المغامرة، لجأ إلى خطة يحول بها أنظار «أمورى» عن «مصر» .

(١) كان «العاقد» آخر خلفائهم، وترتيبه فى سلسلتهم : الرابع عشر، خلفه «صلاح الدين» عام (٥٦٦هـ).

فسار فى جيش كثيف شمالاً غرباً ، مخترقاً أرض «طرابلس - الشام» ، ثم حاصر «حصن الأكراد» - الكرك - الذى تشرف على إقليم «البقاع» من ناحية ، وعلى سهل «عكا» من ناحية ثانية ، وكاد يستولى عليه .

غير أن مجموعة من الحجاج كانوا فى طريق عودتهم من «بيت المقدس» وفيهم مجموعة من الفرسان المشهورين ، فانضموا إلى قوات «رايموند» صاحب «طرابلس - الشام» ، الذى خرج للدفاع عن «حصن الأكراد» ، كما استنجد هؤلاء بقوات «أنطاكية» فجاؤوهم على عجل .

ولم يكن «نور الدين» ليتصور أن يتكاكأ عليه الصليبيون بهذه الجموع ، وفوجئ بحصار معسكره : ففزع الجند وأسرعوا فى الهرب ، ويقال بأن موقع «نور الدين» نفسه تعرض للهجوم المباغت ، فأسرع بامتطاء جواده وانفلت من بين عسكر الصليبيين ، وجنوده يتلاحقون من خلفه ، حتى إذا بلغ مكاناً آمناً ، توقف وأعاد ترتيب جنده ، وتعبئة جيشه استعداداً للقتال ، إذا ما لحق به الأعداء .

لكن بعض جنده رجوه أن يسرع بالعودة إلى «حمص» اتقاءً لشر الهزيمة المحققة ، فقال لهم : (إذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى بهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الإسلام !!!) .

ثم أرسل الرسل إلى «دمشق» ، فجاءه المدد من العتاد والأموال ، خيلاً وسلاحاً ومالاً ، فأعطى جنده ما عوضهم ، فطابت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم .

ولقد أدرك الصليبيون أنهم غير قادرين على مواجهة «نور الدين» بعد هذا الاستعداد ، فتوقفوا عن المتابعة ، وهم يعرفون أنهم لولا عنصر المفاجأة لما تحقق لهم فك الحصار عن «حصن الأكراد» .

«شاور» يستنجد بـ «نور الدين» :

بعد أن سار «شاور» سيرته السيئة فى «مصر» ، فحكم واستبد وطفى ، أحس الخليفة «الفاطمى» - «العاصد» - بوطأة «شاور» عليه ، فاستغاث بحاكم الصعيد «ضرغام بن ثعلبة» ، فأنجده وأزاح «شاور» الذى نجا من الموت ، فهرب إلى الشام

يستغيث بـ «نور الدين» وعرض عليه أن يكون نائبه في مصر، وأن يؤدي له ثلث - دخل بيت المال «الفاطمي» كل سنة ، ويدفع له رواتب جنده .

كان العرض سخياً مغرياً، ولكنه لا يستخف الحليم مثل «نور الدين»، فوعده خيراً ، وفي نفس الوقت بدأ يعد العدة ، ويرسم الخطة ، ويهيئ الظروف، ذلك أنه يواجه أكثر من خطر...

فـ «أموري» في «بيت المقدس» طامع في «مصر»، يريد السبق إليها، حتى لا تشكل جبهة جنوبية، إن أطبقت عليه مع جبهة الشمال، انتهى أمره .
والطريق إلى «مصر» من «دمشق» محفوف بالمخاطر، فما أكثر الحصون والقلاع الصليبية على امتداد الطريق .

و«سيناء» صحراء شاسعة، لا تؤمن مخاطرها . . !

وجند الفاطميين كثيف ، وعدتهم وافرة ، ومصر بلد مترامى الأطراف !!

كل أولئك جعل «نور الدين» - كما قال المؤرخ «أبو شامة» عنه ^(١) :

[كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد «شاور» وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الإفرنج فيه] .

فلما اكتملت له عناصر الخطة قرر إرسال جيش إلى مصر بقيادة أنجب قواده وأعظمهم ، وأشجعهم وأفرسهم «أسد الدين» - شيركوه - ، وفي الجيش «صلاح الدين» - يوسف بن أيوب - ، وكان ما يزال شاباً في أول فروسيته وخوض معام القتال ، ولكنه أظهر في هذه السن المبكرة بطولة وإقداماً لفتا إليه الأنظار .

وقام «نور الدين» - رحمه الله - بإشغال «أموري» - ملك «بيت المقدس» عن جيش «أسد الدين» ، فجهز جيشاً وقصد إلى «بانياس» .

(١) في كتابه «الروشتين في أخبار الدولتين» .

«ضرغام» بعد «شاور» :

وكما أسرع « شاور » فى الاستنجاد بـ «نور الدين» بادر «ضرغام» إلى الاستعانة بـ «أمورى» ملك «بيت المقدس» ووعدته بالطاعة ودفع جزية سنوية له .

ولم يكن «أمورى» بحاجة إلى مثل هذا الطلب لأنه جزع جزعاً شديداً عندما علم أن « نور الدين » قد أرسل جيشاً إلى «مصر» بقيادة «أسد الدين»، فَتَحَفَّزَ للوثوب، وزادته الرغبة فى المال تحفزاً، فجَهَّزَ جيشاً ومضى فى الطريق إلى «مصر». غير أن «أسد الدين» كان قد سبقه ، إذ انطلق بجيشه من «دمشق» مسرعاً لا يعول على راحة أو محطة، إلا فيما ندر .

دخل «أسد الدين» «مصر» وكان أول لقاء له وقاتل عند «محلة بسطا» قرب «الزقازيق»، مع جيش للفاطميين يقوده «نصر الدين» أخو «ضرغام»، ففضى عليه وكان ذلك فى سنة (٥٥٩هـ).



مقتل «ضرغام» :

ووصل « ضرغام » إلى القاهرة قادماً من الصعيد ، ينتظر قدوم جيش حلفائه الصليبيين ، فأخذ يمهد لذلك ، ويستحث عامة الناس على تأييده ومحاربة « أسد الدين » ، لكن الناس الذين قهرهم وأذلهم ، واستعان بالصليبيين عليهم ، خذلوه واجتمعوا عليه فقتلوه عند مشهد السيدة « نفيسة » - رضى الله عنها - .



المواجهة :

كان وصول الجيش «النورى» إلى القاهرة حدثاً تاريخياً، له ما بعده، إذ كان بداية تنفيذ خطة «نور الدين» بضم جبهة مصر إلى جبهة الشام، والعراق، للقضاء على أعظم ممالك الصليبيين - مملكة «بيت المقدس»، وتطهير ديار الإسلام من أولئك الذين دنسوها باسم الصليب .

يقول المؤرخون :

ثم إن «أسد الدين» وابن أخيه «صلاح الدين» اتصلا بهذا القطر العظيم - مصر - اتصلاً مباشراً واسعاً، واطلعا على ما فيه من أسباب القوة والثروة، وتعلق قلباهما بالاستقرار فيه، وكان «شيركوه» قد طالت خدمته لـ «نور الدين»، وأبدى من الإخلاص للسلطين ما جعله رأس قواده وأمراء جنده، فتأقت نفسه إلى أن يكون نائباً لـ «نور الدين» على مصر، ولم يكن لهذا العمل سواء، فهو خير من يستطيع تنفيذ الحملة التي كانت ترمى إلى حصر مملكة «بيت المقدس» بين شقى الرحى - كما قدمنا - .



وأحس «شاور» كأن أرض مصر تتزلزل من تحت قدميه ، وندم على ما كان منه في استنصار «نور الدين» ، فتنكر لـ «أسد الدين» ، ونقض ما كان بينهما من عهود ومواثيق وهدده بالحرب إن لم يرحل فوراً عن مصر . . !
كما عاود الاتصال بـ «أمورى» الذى كان فى الطريق إلى مصر .



لم تكن قدم «شيركوه» قد استقرت فى مصر بعد ، وما هو إلا قائد جيش صغير ، فى بلد بعيد ، تفصل بينه وبين الشام تجمعات الصليبيين ، ويعرف من غدر الفاطميين ومؤامراتهم فى الاغتيال الشئ الكثير . . . فماذا يفعل ؟



نصيحة «صلاح الدين» :

وكان «صلاح الدين» بالنسبة إلى عمه «أسد الدين» كالوزير والمشير ، لا يقطع أمراً بدون استشارته والوقوف على وجه الصواب عنده، فأشار «صلاح الدين» بالارتداد عن القاهرة إلى بلد يتحصن فيه ، وسيطر عليه ، ويأمن غدرات الفاطميين ، واستقر رأى على «بليس» فانتقلوا بجندهم إليها، وجددا فى

أسوارها الضعيفة، واستمدوا «نور الدين» بالجند، والمال، مع إطلاعه على الموقف بكل أبعاده وتفصيله، وانتظروا ما تجذب به الأيام .

وتباطأ «أمورى» بعض الشيء وهو فى الطريق، فزاد «شاور» من إغرائه بالمال ، ووعد أنه يدفع له سبعة وعشرين ألف دينار عن كل مرحلة بين «بيت المقدس» و«القاهرة» ويقوم بتقديم ما يلزم من علوفة الخيل . . !

إلى هذه الدرجة من الهوان والخسة بلغ الأمر بـ «شاور»، إذ لم يكن همه الإسلام وأهله وبلاده، بقدر ما كان يهتم بالمنصب والمال ولهو الحياة الدنيا .

وعند «فاقوس» التقى جيش «شاور» بجيش «أمورى»، ثم تقدموا إلى «بليس» فحاصروها، وكان ذلك فى «رمضان» من عام (٥٥٩) هـ.

وطال أمد الحصار ثلاثة شهور، لم يستطيعوا خلالها أن يقتحموا المدينة ، أو يفتحوا ثغرة فى أسوارها .

الانسحاب:

فى تلك الأثناء وصلت إلى «أمورى» أنباء روعته، وجعلته يسرع فى العودة إلى «بيت المقدس»، فقد قام «نور الدين» بالسير إلى «أنطاكية» فى جيش كثيف يريد الاستيلاء عليها . . . ، وكان غرضه إشغال «أمورى» عن «مصر» وعن جيش «أسد الدين» .

وقد وفق «نور الدين» فى حملته هذه توفيقاً عظيماً، فقد نازل الصليبيين والبيزنطيين فى أكثر من موقعة وهزمهم، وأسر عدداً من قادتهم وعظمائهم، ولكنه لم يتابع طريقه إلى «أنطاكية»، حتى لا تكون هناك حملة صليبية ثالثة، تتدفق من أوروبا متحدة مع بيزنطية للدفاع عن «أنطاكية»، وليس ذلك أوانها، وقد

اكتفى «نور الدين» بالاستيلاء على حصن «حارم»، وهو من أمنع وأعظم حصون الصليبيين، ويقع فى منتصف الطريق بين «حلب» و«أنطاكية» .

واتفق «أمورى» مع «أسد الدين» على أن يكون خروجهما من مصر فى وقت واحد ، وكان ذلك بموافقة «نور الدين» ، مكتفياً بما حققته حملته هذه على مصر .
ومن أعجب ما ذكر فى هذا الصدد أن الجيشين سارا فى طريق واحد ، أحدهما بإزاء الآخر ، مخترقين شبه جزيرة سيناء !

الصلح بين «نور الدين» و«أمورى» :

أسرع «أمورى» إلى «أنطاكية» ليتدارك أمرها، ثم بعث الرسل إلى «نور الدين» يطلب إليه الصلح ، فوجد عنده قبولاً ، فقد كان «نور الدين» يريد أن يتفرغ للأمر العظيم - فتح مصر - ، ورضى «نور الدين» أن يطلق سراح كبار الأسرى لقاء فدية كبيرة، ورفض أن يطلق سراح «رايموند» - صاحب طرابلس - و«رينودى شاتيون» .

ومن ثم راح يعد العدة لإعادة الحملة على مصر بقيادة «أسد الدين» أيضاً ومعه «صلاح الدين» .

ولإشغال الصليبيين عما يفعل ، قرر أن يوجه للصليبيين فى الشام ضربة قوية ، تلقى فى نفوسهم الرعب ، وتلزمهم خطط الدفاع دون الهجوم .

فعبا جيشاً قوياً ، وأشاع أنه يقصد «طبرية» ، فبادر الصليبيون إلى التجمع عندها وحولها ، ثم قصد إلى «بانياس» التى كانت باباً هاماً من أبواب الطريق إلى مصر ، وحصناً شامخاً . . . وظن الصليبيون أنها تصمد طويلاً . . . لكنها وقعت بسهولة ويسر فى يد «نور الدين» ، فدخلها وحصنها وملأها ذخيرة وعتاداً ، وجعل فيها حامية قوية من رجاله وفرسانه الأشداء ، وقد تم له ذلك فى شهر محرم الحرام سنة (٥٦٢) هـ .

وبيعث «أسد الدين» إلى «بغداد» للحصول على موافقة الخليفة العباسى لفتح مصر ، باعتبار ذلك العمل جهاداً فى سبيل الله وقتالاً لعدوِّين من أعداء الدين هما : الفاطميين والصليبيين . ورجع «أسد الدين» وهو يحمل الفتوى من الخليفة ، وأمرًا بتعيينه واليًا على مصر إن تم له الفتح .

وفى الوقت نفسه الذى كان فيه «نور الدين» يحاصر «بانياس» كان «أسد الدين» - شيركوه - قد بدأ حملته الثانية على مصر ، وفى رفقته وزيره ومشيره ابن أخيه «صلاح الدين» .

واستنجد «شاور» كعادته «أمورى» الذى كان مشغولاً بموضوع «بانياس» فعقد مجلساً حريياً لكبار رجاله وقادته وحلفائه ، وبينما هم فى أخذ وردّ جاءت الأنباء بأن «أسد الدين» يجتاز صحراء «سيناء» بقواته .

ولقد هبت ريح عاتية على جيش «أسد الدين» ، كادت تطمره ورجالاه وجنده تحت الرمال ، ولكن العزائم كانت قوية ، والروح المعنوية عالية ، فصمدوا للعاصفة حتى تجاوزوها بسلام ، ودون أدنى خسارة ، اللهم إلا ما بذلوه من جهد وما عانوه من مشقة .

وصل «أسد الدين» بقواته إلى «أطفيح» على بعد أربعين ميلاً جنوب القاهرة ، ومن هناك اجتاز النيل إلى الضفة الغربية ، ثم سار شمالاً حتى نزل «الجيزة» وعسكر عندها مقابل «الفسطاط» .

ثم وصل «أمورى» فضرب معسكره عند أسوار القاهرة ، ولم يدخل فى قتال مع «أسد الدين» ، بانتظار استنزاف «شاور» ، والتأكد من صدق تحالفه .

وراح يساومه ، فتعهد له «شاور» بدفع مبلغ أربعمائة ألف دينار «بيزنطى» ، نصفها مسجّل ، والنصف الآخر مؤجل ، فرضى «أمورى» ولكنه أراد أيضاً أن

يستوثق من تأييد الخليفة الفاطمى... ، فأجيب إلى طلبه، وتم الاتصال وأخذ موافقة الخليفة !!! .

المعركة:

ظل الجيشان فى مواقعهما ينتظر أحدهما الآخر فى بدء الهجوم، وكان «أسد الدين» غير متعجل، وهو يعلم أن «أمورى» سوف يقلق، خصوصاً وأن موضوع محاصرة «نور الدين» لـ «بانياس» وارد فى الاعتبار والتقدير .

وفعلاً حدث ما توقعه «أسد الدين» فقام «أمورى» بالبدء فى الهجوم .

تقدم وعبر النيل عند رأس جزيرة «وراق الخضراء»، وترك حامية تؤمن عسكره يقودها «شجاع بن شاور» و«هيوى إيلين» - أحد قادته - ولم تطلق هذه الحامية البقاء فى المعسكر، فأذن لها شجاع بدخول البلد، وكان ذلك نكبة عليهم ، إذ اندفع الفرسان الصليبيون يجوسون هنا وهناك، فارتاع الناس، وازدادوا نفوراً من «شاور» وابنه الخسيس «شجاع» .

كانت قوات الصليبيين والفاطميين تفوق قوات «أسد الدين» من ناحية العدد، تفوقاً ملحوظاً ، لكن قوات «أسد الدين» كانت من ناحية الفرسان والخيالة أشد وأصلب وأوفر .

تراجع «أسد الدين» أمام «أمورى» فلما وصل إلى «الأشمونين» تريض واستعد للمعركة عند «البابين» وقد رسم «أسد الدين» خطته للقتال على أن يقف «صلاح الدين» فى القلب، ويتقهقر به إذا هجم العدو ليستوعبه... ، فلما تراجع «صلاح الدين» ظن «أمورى» أنها هزيمة دارت على خصمه، فاندفع بمن معه وراءه، عندئذ أطبق «أسد الدين» بجناحي جيشه عليه وعلى من معه، فأسرع هو و«شاور» باتجاه الشمال وعبرا النيل فى فلول قليلة من نجا، ولم يطمئنا إلا عندما وصلا إلى الحامية التى تركاها عند أسوار القاهرة، ولقد وقع مئآت الفرسان

الصليبيين فى الأسر، وكان فيهم صاحب قيسارية «قيصرية»، وكانت تلك الموقعة فى الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٦٢ هـ.



إلى الإسكندرية:

لم يتبع «أسد الدين» المنهزمين، اعتقاداً منه بأن «أمورى» لن يلبث فى مصر، أولاً بسبب انشغاله بموضوع «بانياس» وثانياً بسبب الهزيمة النكراء التى حلت به ويجنده .

فاتجه «أسد الدين» إلى «الفيوم»، ومنها اخترق مديرية البحيرة حتى بلغ الإسكندرية، ففتحت له المدينة، ورحبت به، واستقبله أهلها أعظم استقبال .

ويبدو أن «أسد الدين» كان يرغب التحصن فى مدينة كبيرة، لأنه غير متعجل العودة إلى الشام حتى يرفع لواء «نور الدين» فى مصر، ولعل من أسباب هذا التحصن ما عاينه «أسد الدين» من تفوق عدوه عليه بالعدد والعدة، فهو مقيم فى تحصنه إلى أن يأتيه مدد من الشام .

وجمع قاداته فى مجلس وشاورهم فى الأمر الذى اعتزمه ، فوجد أكثرهم يميل إلى العودة للشام ، لا هروباً من المواجهة ، ولكن لإعادة الترتيب والاستعداد ، أما أقلهم فقد وافقوه على رأيه فى البقاء فى مصر ، ومواصلة القتال إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وكان لـ «أسد الدين» فى هذا اللقاء كلمة ماثورة ألهمت حماسهم جميعاً وشدت من عزائمهم، وبعثت فيهم الحمية، لقد قال: (إن من يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته ..!!) .



بين «أسد الدين» و«شاور» :

وظن «أسد الدين» أن نفسية «شاور» قد تغيرت بعض الشيء بعد هذه المعركة ، أو أدرك ما غاب عنه زمناً وهو خطأ الاستعانة بعدو الله ، أو لعل فيه بقية من دين

وضمير ، فأرسل إليه رسولا يحمل كتاباً يذكره فيه ويعظه ويوعده إن هو تعاون معه .
على الصليبيين أن لا يقيم في مصر أبداً ، ويتركها له .

لكن «شاور» اللثيم ، الذى فقد كل ذرة من إيمان وذین وخلق أبى أن يستجيب ، بل فعل أسوأ من ذلك ، إذ قتل رسول «أسد الدين»!! ، كما أطلع حلفاء الصليبيين على مضمون هذه الرسالة ، ليؤكد لهم إخلاصه فى خيانة أمته .

حصار «الإسكندرية» :

وكان هذا الموقف من «شاور» مدعاة زيادة تعاون من «أمورى» ، فقرر البقاء فى مصر ، وخرج بما بقى من قواته ومعه «شاور» فى جيشه نحو الإسكندرية ، فحاصروها وأقاما على هذا الحصار ، يضيّقان ويشدّدان ، وأراد «أسد الدين» أن يَفُكَّ هذا الحصار الذى ليس فى صالحه ولا صالح قواته ، فخرج فى كتلة من جيشه ، واتجه نحو الصعيد ، وترك فى الإسكندرية «صلاح الدين» ومعه ألف فارس .

وأراد «أمورى» تتبع «أسد الدين» ، لكن «شاور» نصحه بالبقاء فى حصار الإسكندرية ، فنزل عند رأى «شاور» ولقد واجه «صلاح الدين» هذا الموقف الصعب بكل حزم وعزم ، مع اشتداد وطأة الحصار ، كما بعث إلى عمه «أسد الدين» يستنجد .

ولقد تحدث المؤرخون على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، سواء كانوا من مؤرخى المسلمين ، أو الصليبيين عن بطولة «صلاح الدين» وفروسيته ، بإعجاب وإكبار وتقدير ، إذ استطاع بألف فارس فقط أن يصمد فى وجه ألوف مؤلفة من العدو ، ولا يمكنه من فتح ثغرة ، أو التسلل إلى «الإسكندرية» .

الانسحاب :

عاد «أسد الدين» إلى «الإسكندرية» متجهاً لنجدة ابن أخيه البطل الهمام «صلاح الدين» ، فلما أصبح قاب قوسين أو أدنى منها ، أطلق سراح أسير فارس

من الصليبيين، وحمله رسالة إلى «أمورى» يعرض فيها أنه مستعد للانسحاب من مصر إذا وافق الصليبيون على الخروج منها أيضاً، فوافق «أمورى» من غير تردد، وخرج «صلاح الدين» بحاميته من «الإسكندرية» معزراً مكرماً لم يمسه سوء، وكان ذلك فى شهر «شوال» سنة (٥٦٢) هـ.

وغادر الجانبان مصر:

ولقد استاء «نور الدين» كثيراً من نتائج هذه الحملة، لكنه كظم غيظه فى نفسه ثقة منه بقائده البطل «أسد الدين» لأنه يعلم مدى إخلاصه وتفانيه، وارتاحت نفسه أكثر عندما واجه القائد وعلم منه أموراً كثيرة تتعلق بمصر، كما هنأه على كسر شوكة الصليبيين فى مصر وهزيمتهم الشنعاء.

الحملة الثالثة:

ومع مطلع عام (٥٦٤) هـ، بدأ «نور الدين» يعد للحملة الثالثة على «مصر»، ولكن يتمهل وروية، حتى لا تتكرر مأساة الخروج منها كما حدث فى المرتين السابقتين.

وكان «أسد الدين» خلال ذلك يستحث سيده، ويدعوه إلى الإسراع، لا لشيء إلا لأن قلبه قد تعلق بهذا البلد، وخوفاً من سبق «أمورى» إليه.

وكانت الأوضاع فى مصر تسير من سيئ إلى أسوأ، وتتدهور فى كل المجالات، ولا أدل على ذلك من الخلاف الذى استشرى بين «شاور» وابنه «شجاع».

وكان «شاور» قد طلب من «أمورى» إرسال حامية «صليبية» تعاونه على ضبط الأوضاع وتثبيت السلطان، ويقوم هو بكل تكاليفها، بالإضافة إلى الجزية السنوية التى يدفعها، فوافقه «أمورى» بشرط أن تكون هذه الحامية مطلقة اليد فى كل تصرفاتها، ولا سلطان لأحد عليها.

وفى نفس الوقت كان « شجاع بن شاور » قد رأى أنه أحق بالأمر من أبيه ، فأخذ يرسل « نور الدين » ويدعوه إلى مصر ، وتعهد له بالتعاون التام ، رغبة منه فى أن يكون له من الأمر شئ .

وهذه المراسلات عرف بها « آمورى » ولكنه لم يعطها بالاً ، وكانت الحامية التى طلبها « شاور » قد وصلت ، وتسلمت زمام الأمور ، وأمكنت فى الفساد والإفساد ، والإضرار بمصالح العباد .

المفاجأة:

اطمأن « شاور » بعض الشئ . . . ، لكن سوء تصرف الحامية أهاج الناس إلى درجة كبيرة ، وأخذت طلائع ثورة الشعب على السلطة الباغية تلوح فى الأفق ، مما دعا قائد حامية الصليبيين إلى إرسال كتاب إلى « آمورى » يستعجله فيه العودة إلى مصر ، وأن الظروف ملائمة جداً لاحتلالها وإزالة « شاور » و « شجاع » والخلاص منهما إلى الأبد .

فاستشار « آمورى » قاداته وحلفاءه ، فرأوا التعجيل ، فأعد العدة وخرج إلى مصر فى السادس عشر من شهر محرم الحرام سنة (٤٥٦) هـ ، معلناً أنه يقصد « حمص » فى الشمال . . . ، ثم انكشف الأمر . . . ، فعجل « نور الدين » بإرسال قائده « أسد الدين » ، ومعه « صلاح الدين » فى إثر « آمورى » (ربيع الأول : ٥٦٤) هـ .

وصل « آمورى » إلى « بليس » ، فاستولى عليها ، وقد أعانه على ذلك نفر من أعداء « شاور » وقد فوجئ « شاور » بهذه الحملة وتصرفاتها ، وأوجس فى نفسه خيفة من سوء نوايا « آمورى » حليف الأمس واليوم .

وأخذ يبعث الرسل إلى « آمورى » يذكره بالعهود والمواثيق التى بينهما ، فلم يأبه لذلك ، بل طلب من « شاور » مليونين من الدينائير ثمناً لانصرافه ، فتحقق « شاور »

من الغدر، وشعر بأنه أمام أكثر من عدو... كل ذلك - ولا - شك - نتيجة طبيعية لخيانته هو ، وغدره هو ، وتذبذبه هو ... !

وكان «أمورى» قد نظم خطته ، بحيث يطبق على مصر براً وبحراً ، فبينما هو فى «بلبيس» كانت سفنه البحرية تنزل عند شاطئ بحيرة «المنزلة» ، واستولى جنودها على بلدة «تنيس» وارتكبوا فيها مجزرة هائلة، مما ألهب شعور الناس وعامة الشعب، فهبوا وقاموا فى وجه الغزاة قومة رجل واحد، مسلمين وأقباطاً للدفاع عن أرضهم ووجودهم ..

حرق الفسطاط :

(أكبر جريمة ارتكبتها «شاور»، وأضافها إلى سجله بالخزى والعار)، فحين وصل «أمورى» إلى «القاهرة» فى العاشر من محرم (٥٦٤هـ)، نزل قبالة «الفسطاط»، فلم يجد «شاور» وسيلة يدفع بها عن مصالحه وتسلطه سوى أن يحرق «الفسطاط» ، التى ظلت مشتعلة بالنار طوال أربعة وخمسين يوماً، وأتت على دورها وكنوزها وأثارها .

ثم أرسل إلى «أمورى» يتهدده بحرق القاهرة نفسها إذا لم يرتد هو ورجاله عنها.

وكان «أمورى» ينتظر قدوم رجال الحملة البحرية ليستعين بهم ، غير أن الثورة الشعبية التى قامت فى وجههم بعدما ارتكبوه من فظائع ومنكرات ، جعلتهم فى مهب الريح ، لقد أحرق الناس أكثر سفنهم ، ووضعوا السدود فى طريق الباقي من هذه السفن ، فحيل بينهم وبين الحركة ، وباتوا كالمحاصرين .

وأدرك «أمورى» بأن أمله فى الاستيلاء على مصر قد تلاشى، وتبدد، فالثورة الشعبية فى مختلف أنحاء القطر أهمته وجعلت أحلامه تذروها الرياح ... ثم إنه ساوم «شاور» على الانسحاب لقاء مالٍ معلوم ، فبعث إليه «شاور» بمائة ألف دينار

وقام «أمورى» بالتحرك إلى ناحية «المطرية» ووصلته وهو فى معسكره هذا أنباء قدوم «أسد الدين» فى جيش كثيف قوامه ثمانية آلاف فارس، غير المشاء، وأدرك أنه لا طاقة له اليوم بـ«أسد الدين» وقرر العودة من حيث أتى، وأمر باقى قواته البحرية بالتحرك إلى «عكا».

انقلاب السحر على الساحر !..

ودخل «أسد الدين» إلى مصر من غير قتال ولا دماء هذه المرة، ووجد أبوابها مفتوحة أمامه، ودخل القاهرة من ناحية «باب اللوق»، ثم قصد دار الخلافة، والتقى «العاصد» الذى رجب به، وقدم له المال، وتعهد مئونة الجيش، وكان «شاور» حاضراً، يظهر السرور ويبطن الحسرة، بيدى الصداقة ويخفى الحقد والتآمر.

وبلغت البشرى «نور الدين» فى الشام، فطابت نفسه، وبعث رسله ينشرونها فى كل مكان، واعتبر دخول قائده المظفر «أسد الدين» القاهرة، فتحاً أكرمه الله به خدمة للإسلام، وتأكد بينه وبين نفسه أن ساعة القضاء على الوجود الصليبي قد دنت وحانت، وهذا ما نذر له حياته وجهاده.

هل يسكت الخائن «شاور» على كل ما يرى ويشاهد...؟ كلا... فإنه لا يعرف أى جانب من جوانب الخير، ولا أى معنى من معانيه، وليس فى قلبه ذرة من إسلام وإيمان.

فأخذ يحيك خيوط مؤامرة يتخلص بها من «أسد الدين» ومعظم قادته الأبطال الأفاضل، وأطلع ابنه «شجاعاً» عليها، حيث بولم لـ «أسد الدين» ورجاله فى مصر، ثم يفتك بهم، فرفض ابنه مشاركته الجريمة النكراء، ليس تعقلاً ولكن تعقلاً. وجرت بين الاثنين ملاحاة فى الكلام، وأصر كل منهما على موقفه.

واكتشف «صلاح الدين» المؤامرة، فقد علمته الأيام التى قضاها فى مصر، أن الغدر والخيانة والاعتقال أسلوب لا يحيد عنه الفاطميون وأعوانهم ، فكان له عيون من خواصه ترقب فى سرية تامة ، تحركات «شاور» العدو اللدود !!

فلما استيقن من ذلك، أحاط به ذات يوم مع نفر من أتباعه، وطرحوه أرضاً عند ضريح «الإمام الشافعى» - رضى الله عنه -، ثم أسروه وأبلغوا «أسد الدين» بالتفاصيل .

وعندما علم الخليفة الفاطمى «العاضد» بذلك أبى إلا أن يحظى برأسه تخلصاً من شروره وآثامه ، ووافق «أسد الدين» ، وتم قتل «شاور» فى مطلع شهر ربيع الثانى سنة (٥٦٤هـ)، وتخلصت مصر من هذا الطاغية الخائن الذى لعب بمقدراتها ردحاً من الزمن .

وفاة «أسد الدين»

ولم يمهل القدر «أسد الدين» - شيركوه - لينعم بخيرات الفتح ، إذ لم يمض عليه سوى شهرين فى تولى الوزارة حتى توفاه الله تعالى، وكان ذلك يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٦٤هـ) .

وبوفاته - رحمه الله - اختفى من الميدان رجل يعد فى الظليعة من قادة المسلمين فى العصور الوسطى، ويتمتع بكفاءة عالية فى الإدارة والسياسة والتبوغ العسكرى .

خير خلف لخير سلف

كان «صلاح الدين» - يوسف بن أيوب - منذ تفتحت عيناه على الحياة، الرفيق الدائم لعمه «أسد الدين» - شيركوه - ، سواء كان ذلك فى حروبهم تحت قيادة «نور الدين»، فى الديار الشامية، أو خلال حملاتهم على مصر، وبالإضافة إلى هذه المصاحبة كان «صلاح الدين» من الشجاعة والإقدام ويعد النظر ، ما جعل عمه يختصه بمشورته وأخذ رأيه .

فما أن توفي «أسد الدين» حتى برز اسم «صلاح الدين» كخليفة لعمه فى الوزارة، وأيد ذلك الخليفة الفاطمى «العاقد» وأصدر مرسومه بتعيينه، كما جاءته البراءة من السلطان «نور الدين» فى التثبيت، وقام «صلاح الدين» بالمهمة خير قيام، وسوف نرى ذلك مفصلاً - بإذن الله - عندما نكتب فى سيرة بطل «حطين».

وحاول «صلاح الدين» أن يهادن الخلافة الفاطمية فى مصر، بانتظار ما سوف تسفر عنه مؤامرات الصليبيين، الذين لم يكفوا عن شن حملات متتابعة على مصر، بغرض القضاء على «صلاح الدين» وجنده، واستخلاص البلد إلى أيديهم، البلد التى ما زالوا يطمعون فيها، حماية لمملكتهم فى بيت المقدس، وكسباً لخيرات مصر الوفيرة يتقوون بها وينعمون .

لكن هذه الحملات التى استمرت طوال عام (٥٦٥) هـ ، برأً وبحراً، ردها كلها «صلاح الدين» وأوقع بها الهزيمة تلو الهزيمة .

كما أنه اكتشف أكثر من مرة نوايا القصر الفاطمى، وضبط أكثر من رسالة سرية بعث بها الخليفة إلى الصليبيين، فقبض على من كان يدعى «مؤمن الخلافة»، وهو عبد خصى أسود، ثم قتله... ، فثار أصحابه من السودان، وكانوا بضعة آلاف، ففضى عليهم وأطفا نيران ثورتهم .

ثم إنه عين عددًا من أتباعه فى القصر، وفى وظائف حساسة، يمسكون بزمام الأمور، ويضبطون الشئون، وينقلون إليه كل كبيرة وصغيرة .

يبين «نور الدين» و«صلاح الدين» :

أقام «صلاح الدين» فى مصر ينظم شئونها، ويدافع عنها، ويؤكد سلطان «نور الدين» عليها، ولم تنقطع المراسلات والإرساليات بينهما، وقد طابت مصر لـ «صلاح الدين» فلا يريد التحول عنها إلى بلد آخر، وهو مازال يجاهد أعداء الله،

سواء كان هؤلاء من الصليبيين أو الفاطميين ، وقد استدعى إليها والده «نجيم الدين» وعدداً كبيراً من الأيوبيين .

وكان قد بيت فى نفسه الخلاص من الخلافة الفاطمية فى مصر ، وما خلفته من آثار مذهبية وعقيدية فى نفوس الناس ، ويحتاج ذلك منه إلى زمن ومناسبة .

كما أن «نور الدين» كان من ناحيته يتابع أنباء عامله على «مصر» فيقره عليها ، وفى نفس الوقت لا يكف عن مطاردة الصليبيين هنا وهناك ، يضرب ضرباته ، ويؤكد سلطانه ، كما كان يقوم بقمع الفتن التى قد تظهر على الساحة من وقت لآخر فى مختلف أنحاء مملكته التى اتسعت كثيراً وامتدت شرقاً وغرباً .

الضربة المنتظرة :

كانت مملكة «بيت المقدس» هدفاً رئيسياً لـ «نور الدين» ، وقد تم له الآن ضم جناح مصر إلى الشام والعراق ، وبهذا يمكن الإطباق على مملكة «بيت المقدس» والخلاص منها .

ولقد مضت أربعة أعوام على فتح مصر ، وتثبيت سلطان «نور الدين» - أو «صلاح الدين» - فيها ، وقد آن الأوان وحان الحين للضربة المنتظرة .

وهنا - عزيزى القارئ - تبدو أحداث التاريخ على شىء من الغموض ، بحيث خاض العديد من المؤرخين فى تصوير خلاف نشأ بين السلطان «نور الدين» وواليه على مصر «صلاح الدين» بعضهم يلوم «صلاح الدين» فى عدم التجاوب مع رغبة السلطان ، ويزعم أن «صلاح الدين» قد رغب نفسه فى الاستقلال بمصر .

حتى إنه فى آخر مرة اتفق فيها بين الطرفين على القيام بهذه الضربة الفاصلة ، وكان ذلك فى عام (٥٦٩هـ) ، وقد خرج «نور الدين» من «دمشق» حتى بلغ «الرقيم» ، وخرج «صلاح الدين» من مصر . . . ولم يبق على لقاءهما غير يوم واحد ، تغير الموقف . . . وذلك تحت ضغط نفر من قادة «صلاح الدين» وأقربائه

الأيوبيين الذين أساءوا القول أكثر من مرة بحق «نور الدين» ، فخافوا لقاءه وامتنعوا عن المسير ، مما اضطر «صلاح الدين» إلى التعلل والاعتذار والعودة ، وضاعت الفرصة .

وعاد «نور الدين» إلى دمشق أسقًا ، وطوى حزنه في صدره ، وقال لرسول «صلاح الدين» : (حفظ مصر أهم عندنا من غيرها) .

وفاة «نور الدين» :

كان «نور الدين» على رأس السنة التاسعة والخمسين من عمره ، يبدو أنشط ما يكون وأكثر انصرافًا إلى الجهاد مما كان عليه أيام شبابه ، وقد حنكته السنون وصهرته التجارب وعلت هيئته ، وامتد سلطانه حتى خطب له في الموصل والجزيرة وأربل وخلاط (شرقى آسيا الصغرى) ، وبلاد سلاجقة آسيا الصغرى ، وديار مصر والحجاز واليمن وعدن ، وأصبح بذلك أوسع رجال زمانه سلطانًا في الشرق والغرب ، وكان قاب قوسين أو أدنى من القضاء على ما بقى للصليبيين في الشام .

وقد أهل عليه عيد الفطر من عام (٥٦٩) هـ وهو في تمام العافية ، واحتفل بختان ولده وولى عهده «إسماعيل» - الملقب بالملك الصالح - ، وعاد من صلاة العيد وقد شعر بضيق في صدره وآلم في حلقه وحنجرته ، فاعتكف قليلاً .

ثم خرج في اليوم التالي يترىض مع بعض أصحابه . . . ، ثم عاد وقد اشتد عليه الألم ، وما زال التهاب لوزتيه يتفاعل حتى اختنق وأسلم الروح لبارئها ، وكان ذلك يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر شوال سنة (٥٦٩) هـ .

كلمة أخيرة:

من يظن أو يتصور أن حياة «نور الدين» من خلال عرض سيرته ، كان الجهاد هو الجانب المشرق منها وحده يكون مخطئًا وبعيدًا عن الصواب ، فعلى الرغم من

أنه - رحمه الله - كان لا يفتر يوماً عن ركوب الخيل وقيادة الجند ومحاربة أعداء الله ، فإنه كان أيضاً من العباد الزهاد .

يقول المؤرخون عن صلاته : (كان حريصاً على الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها ، وكانت له أوراد وتسابيح بالليل والنهار ، حتى كان لا ينام إلا منتصف الليل ، ثم ينهض فيتوضأ ويقبل على الصلاة والدعاء والأوراد حتى يقبل الصباح فيصلي ، ثم يأخذ في شئون دولته) .

ومن هذا الإيمان العميق والشعور بالمسئولية ، أمام الله والناس ، نبعت سياسته الإنشائية التي جاوزت كل حد مألوف ، ذلك أنه كان يعتقد أن المدارس والمساجد هي قاعدة الدين ، فمضى ينشئها في كل بلد دخلها تحت سلطانه حتى بلغت مدارسه ومساجده المئات ، وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها واجتهد في اختيار شيوخها ، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة .

كما كان سبيله إلى ازدهار التجارة والصناعة في بلاده بسط سلطان الأمان ، وعدم إرهاب الناس بالضرائب والمكوس ، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الدخول وتميز المملكة النورية عن غيرها .

وأكد على هذا الأمان بإنشاء محطات في الطرق التي تصل البلاد بعضها ببعض ، وتدير ما يلزم المسافرين إذا نزل في خان من الخانات .

إلى غير ذلك من الأعمال الإصلاحية في مختلف القطاعات ، والتي يذكرها المؤرخون لعهدده بالفخر والإعزاز .

رحم الله « نور الدين » - محمود - وأجزل له المثوبة ، وأكرم نزله ، وهياً للامة الإسلامية أمثاله من القادة العظام .

٧- الناصر صلاح الدين

بين يدي الناصر «صلاح الدين»:

بكل تواضع الذات والقلم والقرطاس نسطر هذه الصفحات ، ليس استجراراً للذكرى ، ولا بكاءً على الأطلال ، ولكن حفزاً للنفوس التى أوشكت ذبالة إيمانها أن تنطفئ ، وبعثاً للهمم التى سلبتها ترابية الأرض أشواقها العليا ، وأهدافها السامية .

«صلاح الدين» ومن قبله «نور الدين» ، و«خالد»^(١) و«أبو عبيدة» و«سعد» و«أبو موسى» و«النعمان» و«عمرو» و«عقبة» و«موسى» و«طارق» و«محمد بن القاسم» و«قتيبة» ...

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم . . . إذا جمعتنا يا «جرير» المجامع
«صلاح الدين»: و«بيت المقدس» مع «حطين» صنوان لا يفترقان، وتوأمين
ضمهما رحم الأمة، وغذاهما لبن الإسلام، فكان بروزهما إلى الوجود،
وولائهما، إيذاناً لفجر جديد مضى، بعد أن ران الظلام والظلم على قلب العالم
الإسلامى ردحاً من الزمن فغشى على بصره وبصيرته .

(١) خالد بن الوليد ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، سعد بن أبى وقاص ، أبو موسى الأشعرى ، النعمان بن مقرن ، عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع ، موسى بن نصير ، طارق بن زياد ، محمد بن القاسم الثقفى ، قتيبة بن مسلم الباهلى .

«بيت المقدس» أولى القبلتين، ومسرى ومعراج النبی «محمد ﷺ» وإلى
مسجدها تُشدُّ الرحال، ولكن أين الرجال؟؟

تتلاعب بمصيرها أيدٌ تَدَنَّستْ، بدماء الأنبياء، وتتجاذبها أيدٌ سفلى ونفوس
دنيا، رخصت وهانت، وبيعت في أسواق نخاسة النظام العالمى الجديد... وليس
فيها رجل رشيد؟! .

قد قيل: لقد فتحها «عمر» وحررها «صلاح الدين» فمن لها اليوم؟ يكفكف
دمعها، ويمسح عبرتها، ويجلو عن وجهها قنار الهوان..!

«صلاح الدين»، ليس هذا اسمه، بل هو لقبه، في عصر كثرت فيه الألقاب
وزادت وطمت، وكلها معلق بـ «الدين» (بدر الدين، شمس الدين، قطب الدين،
مجير الدين...) سلسلة لا تنتهى .. !

فقط .. أسماء قليلة تجابو الحس فيها، وأدركت معنى الربط بين الاسم
والمسمى، فعاشت به وله، وقامت أو استشهدت في سبيله .

فكان «يوسف بن أيوب» - رحمه الله - صلاحاً للدين فعلاً، وصلاحاً للدنيا
حقيقة، فكان إلى جانب مقامه السلطاني (الإدارى والعسكرى) عالماً حافظاً
محدثاً أديباً طبيباً، كيميائياً (صيدلانياً)، جمع فأوعى، وتجاوب فأدى .

عزيزى القارئ:

في الصفحات التالية نجد إن شاء الله تعالى - سيرة البطل «صلاح الدين» -
رحمه الله - وأجزل مثوبته، قد تخيرت لك فصولها وأبوابها، في محاولة
متواضعة أن أضيف إلى ما كُتب عنه بعض الذى غاب، سائلاً المولى عز وجل أن
ينفع بها، ويجعلها في ميزان حسناتى يوم القيامة .

إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين .

الولادة والنسب والنشأة:

هو «يوسف بن أيوب بن شاذى»، يتنسب إلى قرية فى شرقى «أذربيجان» اسمها «دوين»، وهم - أى أهله وعائلته - من «الروادية» من قبيلة «الهدانية»، وهى قبيلة «كردية»، دخلت الإسلام منذ أيام الفتح .

ثم نزلت من ديارها فى «أذربيجان» ونزلت فى «تكريت»، وهى إحدى مدن شمال العراق، من أعمال «الموصل»، وفيها ولد «صلاح الدين» - يوسف بن أيوب - ونشأ نشأته الأولى .

وكانت هذه الأسرة العريقة ذات تطلعات، وفيها مؤهلات، وبعد وفاة الجد «شاذى» سعى «أيوب» - نجم الدين - إلى الدخول فى خدمة «آل زنكى» الذين بدأ ظهورهم على الساحة السياسية والعسكرية فى ظل الخلافة العباسية .

وتنقل «أيوب» بين «بغداد» و«الموصل» و«دمشق» وتقلب فى المناصب العليا، مما جعل الفتى الناشئ «صلاح الدين» يعيش أوساط المجتمع الحاكم، صاحب السلطة، ويقتبس منه الكثير من أساليب الإدارة والسياسة، كما أن جو المعارك والحروب حفّزه إلى الفروسية وإتقان فنون القتال .

وكان إلى جانب ذلك قد أتقن العربية، وحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وألمَّ ببعض جوانب الفقه، وحفظ كثيراً من أشعار العرب، حتى قيل إنه حفظ «ديوان الحماسة»، وما من شك أنه تأثر بأسلوبه ومعانيه وأغراضه .

ظل والده «أيوب» عاملاً فى خدمة «نور الدين» آل زنكى، ولكن فى النطاق الإدارى، أما عمّه «أسد الدين» - شيركوه - فقد مال إلى الفروسية، والقتال، وأظهر فى حروبه مع «نور الدين» براعة فائقة، وإقداماً وشجاعة، مما جعل «نور الدين» يقدمه على غيره من قواده، ويعتبره عضده الأيمن لذا لزم «صلاح الدين» عمه «أسد الدين»، وكان لا يزال فى دور الفتوة، فلما بلغ مبلغ الشباب، وكان

ذلك في «دمشق» أعجب به «نور الدين» أيما إعجاب، وأحبه وقربه، وكان يخاطبه بلقب «الإسفهلار» - أي الأمير الفارس - وتركه في رفقة وملازمة عمه «أسد الدين» يؤديان الخدمات وأعظمها للدولة «النورية».

عود على بدء:

ومن أعظم ما قام به «أسد الدين» و«صلاح الدين» من إنجاز في المجال العسكري هو دخول «مصر»، ويسط سلطان «نور الدين» عليها، ورفع علمه، وإزالة كل المعوقات التي كانت تقف في طريق ذلك، بدءاً من عام (٥٥٩هـ)، وانتهاء بعام (٥٦٤هـ)، في ثلاث حملات متتالية^(١).

ويهمنا هنا أن نذكر أن «صلاح الدين» - رحمه الله - كان الرجل الثاني بعد عمه «أسد الدين» في تلك الحملات، وأن حنكته وشجاعته وإقدامه كانت من العوامل الرئيسية في الفتح ويسط السلطان.

ويبدو من خلال تصرفاته وأعماله في مصر أنه قد عشق البلد وأحب أهلها واستطاب جوها، وألف وجوده فيها كأنه واحد من أهلها، وقد بادلته الناس هذا الحب العظيم بحب أعظم، وطاعة لاحد لها، سوف تترك بصماتها مستقبلاً على جهاده وفتوحه.

وكما كان «نور الدين» يرى في مصر جناح الأمة الثاني - بعد الشام والعراق -، لا تنهض إلا به، ولا تحلق إلا من خلاله، كذلك كان «صلاح الدين»، فقد آمن إيماناً مطلقاً بتوحيد القطرين (مصر والشام) تمهيداً للإطباق على الوجود الصليبي في ديار المسلمين والقضاء عليه.

وتلك - ولاشك - نظرية تتصل جذورها بأعماق القلب المؤمن، ثم تتجاوب مع ما أوتيته الرجل من عبقرية عسكرية في القيادة والتخطيط والقتال.

(١) راجع كتابنا عن «نور الدين» فيه التفصيل الكافي عن تلك الحملات.

لماذا اختلف «نور الدين» و «صلاح الدين»؟

بعد وفاة «أسد الدين» اختار «العاقد» الخليفة الفاطمي «صلاح الدين» ليتولى الوزارة، بدلاً من عمه، فقام بمهامها أحسن قيام، وضبط الأمور، وأعاد الأمن إلى أهلها في مختلف نَجوعهم وربوعهم، وخفف عن كاهل الناس أعباء ما كان يُجَبى منهم من ضرائب ومكوس، فانشروا صدورهم، وأقبلوا على العمل بنشاط وهممة، سواء كانوا فلاحين أو تجاراً، فازدهرت الأمور في أيامه وعهده .



وكان «نور الدين» في «دمشق» يخطب للخليفة العباسي، وحيث إن حملاته إلى مصر كانت تستهدف القضاء على الخلافة الفاطمية، إذ لا يجوز شرعاً أن يخطب لخليفتين في بلاد الإسلام في آن واحد، فقد كان يطلب ويلح في الطلب من «صلاح الدين» أن ينهي مهزلة ما يسمى بالخلافة الفاطمية!!

لكن «صلاح الدين» كان يتمهل في ذلك ويتأنى، وقد ظن بعض المؤرخين أن هذا التردد من «صلاح الدين» مرجعه إلى نواياه في التفرد بمصر، والاستئثار بها ، دون سيده «نور الدين» .

كما أن بعض أصحاب الفتنة من الحاقدين والحاسدين كان يصور ذلك لـ «نور الدين» لينقلب على قائده الهمام، لكن، نور الدين «ظل مقيماً على حسن الظن بـ«صلاح الدين» يحترمه ويتودد إليه .



والواقع أن «صلاح الدين» - رحمه الله - كان قد عاش بضع سنوات في مصر وتأقلم بجوها العام، وأدرك مدى عمق المذهبية (الفاطمية) فيها طيلة قرون من الزمن، فليس من الحكمة استعلاء الناس...، واقتلاع ما في نفوسهم بجرة قلم، وقد وظف الوقت لخدمة فكرته .

فما أن توفي «العاقد» آخر الخلفاء الفاطميين حتى بدأت عملية استعادة مصر إلى حضن أهل السنة والجماعة، في إصلاحات جذرية، فأسست المدارس، وانتشر

شيوخ وفقهاء المذاهب الأربعة يعيدون إلى القلوب والعقول ما غاب عنها، ثم كانت الخطبة للخليفة العباسي في «بغداد».

وهناك أثر آخر ...

فقد قيل على لسان بعض المؤرخين إن «صلاح الدين» كان أيضاً يتوانى في الرد على «نور الدين» بالإطباق على الصليبيين، وفتح جبهتين، إحداهما من قبل مصر والأخرى من قبل الشام، وقد تكرر ذلك ثلاث مرات، وعزا هؤلاء المؤرخون هذا التباطؤ إلى خوف «صلاح الدين» من «نور الدين» .. ! ولماذا يخافه؟.



والسبب الحقيقي هو أن نفرًا من قواد «صلاح الدين» هم الذين كانوا يخافون لقاء «نور الدين»، لأنهم بدرت منهم عبارات في حقه تدل على خسة ونكران للجميل وتستوجب العقاب، من أجل ذلك خافوا لقاءه، بل ذهب بعضهم إلى تحريض «صلاح الدين» بالخروج عن طاعة «نور الدين» .. ، فماذا كان قوله لهم؟.

قال: (كان بلغنا عن «نور الدين» أنه قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة من أصحابنا يشيرون بأن نكاشف، ونخالف ونشق عصا الطاعة، ونلقى عسكره بمصاف ترده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك).

ثم إن أقارب «صلاح الدين» كانوا كثيرين حوله، وكانوا جماعة من الطامعين، لا ينظرون إلا إلى الإفادة من هذه الفرصة التي أتاحت لهم، من غير جهد بذلوه، أو جدارة يستحقون عليها شيئاً، وقد شقى بهم «صلاح الدين» في حياته، كما شقى بهم المسلمون بعد وفاته وهؤلاء الأذئاب هم الذي حفزهم الخوف على أنفسهم وعلى ما في أيديهم على ضرورة الإسراع بالعودة إلى مصر!

وكان قد تم التفاهم بين «نور الدين» و«صلاح الدين» على ضرورة القيام بحملة من كلا الجبهتين في آن واحد، وإنزال الضربة بالصليبيين، وخرج كلاهما بجيوشه، حتى لم يعد يفصل بين لقاء البطلين سوى يوم واحد..!

وضاعت الفرصة التاريخية .. !

بعد وفاة «نور الدين»:

كان لوفاة «نور الدين» - رحمه الله - ردود فعل واسعة شملت العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه، وكان طابعها العام الحزن العميق لرحيل رجل كان من أعظم الرجال خلقاً وديناً وسماحة، وجراً وشجاعة وقيادة وتصديقاً لأعداء الله والإسلام .

لكن فترة الحزن هذه لم تطل كثيراً، خصوصاً بعد أن أطلت الأفاعى برؤوسها من جحورها تنفث سمومها .

لقد أجمع القادة فى «دمشق» على تولى «إسماعيل» ابن «نور الدين» مقاليد السلطة بعد أبيه، وكان فى الحادية عشرة من عمره، طفلاً صغيراً، قد أهمه الحزن على أبيه، وليس بيده من الأمر شىء، وأقسم هؤلاء القادة على الإخلاص والتفانى فى خدمة «الملك الصالح إسماعيل»، والحذو على نهج أبيه .

وأرسلوا إلى «صلاح الدين» بالخبر، فجاءهم رده بالعزاء والأسى، والتعهد بالطاعة، كما أرسل إلى «الملك الصالح إسماعيل» بعضاً من الدنانير قد ضرب عليها «اسمه»، وأن الدعاء له على المنابر، وأنه فى خدمته وطوع أمره.



لكن الأحوال فى الشام أخذت فى التدهور والاضطراب الشديد، فقد غزا «سيف الدين» - زنكى - بلاد الجزيرة، وقارب اجتياز «الفرات»، وضم كل ما استحوذ عليه إلى «الموصل»، وقام بعض الجيوش الصليبية فى تهديد أطراف الدولة «النورية» ..

ونزلت حملة صليبية ضخمة ميناء الإسكندرية، حملتها السفن من مختلف البلاد الأوروبية، محملة بالفرسان والمشاة، وآلات الحرب من مجانيق ودبابات، وذخيرة وأطعمة، وقدر - لهذه الحملة - رغم قوتها وكثافة عددها - أن تبوء بإثمها، وتندحر ولا تبلغ غايتها، فقد هب المصريون للدفاع عن أرضهم وعرضهم ودينهم، وألحقوا بالعساكر الصليبية هزيمة شنعاء، قلّ الناجون منهم، ووقع أكثرهم قتلى وأسرى.

وهذه الحملة قد أخرجت «صلاح الدين» بعض الشيء عن قصد دمشق، وإعادة الأمور إلى نصابها .

صلاح الدين فى «دمشق»:

كانت رسائل المقدمين والأمراء تتوالى على «صلاح الدين» فى مصر، تشرح له الموقف فى الديار الشامية، وتستحثه فى الحضور ليمسك بزمام الأمور، ويضبط الأوضاع الشاذة، ويعيد الحق إلى نصابه والسيف إلى قرايه .

فلما فرغ من موضوع الحملة الصليبية - الأنفة الذكر - استعد للقدوم إلى «دمشق» تلبية لدعوة الداعين، ورغبة فى ضم الشام إلى جبهة القتال مع الصليبيين .

نفس الإحساس والمسعى الذى كان يراود «نور الدين» - رحمه الله - بالنسبة إلى مصر .

وكان مروره بعساكره على «بصرى» و«صلخد» فاستسلمتا إليه وانضمتا إلى سلطانه، ثم تابع سيره إلى دمشق، فدخلها من غير قتال ولا نزال، ولا طعن ولا إراقة دماء .

وكان أول ما فعله أن دخل دار «العقيقى» - مسكن أبيه من قبل - وتوافد عليه كبار المسئولين يعلنون الطاعة والولاء، عدا القائم بـ «القلعة» - «جمال الدين ربحان» -، فراسله السلطان واستماله وأجزل له عطاءه ونواله حتى استنزله، ودخل السلطان القلعة .

ثم أقام أيامًا شغل فيها نفسه برد المظالم ، ورفع كابوس الاستبداد ، ومنع المكوس والضرائب التى كانت تؤخذ قسراً ، فانشرحت لذلك صدور العامة من التجار والفلاحين وغيرهم ، وأتوه وفودًا طائعين مغلنين الولاء .

وتمحقق للسلطان «صلاح الدين» أول هدف مرحلى من أهداف هذه الحملة، ولم يبق سوى أن يضم «حلب» ليكتمل العقد، وتنتهى الفرصة للضربة الكبرى.

ومن أجل بلوغ «حلب» لابد من المرور بـ «حمص» و«حماء» وتأمينهما، ثم إن كلا المدينتين بقلعتيهما وجندهما وقيادتهما، قد دخلتا سلمًا فى طاعة السلطان، فاشتد أزره وحمى ظهره، ثم انتفض إلى «حلب».

وقد كان الملك الصالح «إسماعيل بن نور الدين» قد انتقل إليها، وأقام فيها، لمخطط به طائفة من أصحاب المطامع، فلا يصدر إلا عن رأيهم، ولا يتحرك حركة إلا بأمرهم وحسب رغبتهم.

هؤلاء... راسلوا «صلاح الدين» وهو فى الطريق إلى «حلب»، يتهددون، ويتوعدون، وينذرون بالحرب الضروس، وكان - رحمه الله - يستقبل رسلهم بكل حفاوة وترحيب، ولا يبدى انزعاجًا، ثم يرد على هذه الطغمة بأدب جم، وأسلوب مهذب، ويعلن لهم أنه لم يأت غازيًا أو طامعًا، إنما غرضه يتمثل فى رعاية «الملك الصالح» أولاً، ثم وحدة البلاد الإسلامية ثانيًا، والخلاص من الفرنجة ثالثًا!

حصار «حلب»:

ووصل السلطان بجيشه إلى «حلب» وعسكر قبالتها، ثم حاصرها، ولم يحدث بين الطرفين أدنى قتال.

إلا أن عصاة الحكم فى داخل المدينة، راسلوا ابن عم «الملك الصالح» - حاكم «الموصل» وصاحبها - واستعدوه على السلطان «صلاح الدين»، وما زالوا يفعلون حتى استجاب لهم وتنبأ للخروج من «الموصل» إلى «حلب» لنجدتهم.

وفى نفس الوقت راسلوا طائفة «الحشاشين» من الإسماعيلية، وكانت بينهم وبينهم موافقات مذهبية، وكلا الطرفين فيهما تشيع وباطنية، لكن «الإسماعيلية» كانوا أكثر رفضًا وتشددًا وغلوًا، ولهم آراء غاية فى البعد عن الدين الحنيف، وقد

ظهرت فيهم طائفة «الحشاشين» الذين اختطوا لأنفسهم خطة الاغتيال لكل من يقف في طريقهم من القيادات في مختلف البقاع والأقطاع، من أقصى الشمال الشرقي إلى أدنى الجنوب الغربي، من ديار الإسلام، فأرعبوا وأرهبوا.

وكان الخلاص من السلطان «صلاح الدين» أحد أهدافهم الأساسية، لأنه الذي أنهى الوجود «الفاطمي» في مصر، وقضى على كل مظاهره الدينية المذهبية وانحرافاتة عن أهل السنة والجماعة.

وهم - أي الإسماعيليون - بذرت الأولى في «سلمية» وبزرتة التي باضوا فيها وأفرخوا .

النجاة:

تجهزت مجموعة من الحشاشين ، في سرية تامة ، وكانوا فتاكين غدرة ، واندسوا ذات ليلة في معسكر السلطان ، وما رجع الناس ، من حرس وقادة ، إلا والخناجر المسمومة تعمل في بعضهم وتقضى عليه ، حتى بلغ هؤلاء الغدرة ، خيمة السلطان ، ولكن الله تعالى سلم وأنقذ وحى ، فألقى القبض عليهم ، ونالوا جزاء ما قدمت أيديهم .

الاستنجاد بالفرنجة:

وحيث إن السهم لم يبلغ هدفه ، ولا أصاب صاحبه ، فكرت طغمة الحكم في «حلب» تفكيراً آخر ، فاستجدوا بصاحب «طرابلس الشام» وبذلوا له كل ما يريد من مال ومؤن إن هو أنجدهم وفك الحصار عنهم ، وكان صاحب «طرابلس» له ثأر على «نور الدين» - رحمه الله - وعلى المسلمين عامة ، فوجد لها فرصة لرد الاعتبار ، فأرسل يتهدد صلاح الدين ، وينذر بالحرب ، فكان جواب السلطان: لست بمن يرهب بتألب الفرنج وها أنا سائر إليهم.

ثم بعث فرقة من جيشه إلى «أنطاكية»، فأصابوا منها، وعادوا ظافرين غانمين .
ولم يواجه صاحب «طرابلس» جيش السلطان، بل قصد إلى «حمص» مما
اضطر السلطان أن يفك الحصار عن «حلب» ويعود إلى «حمص» لمواجهة هذا
اللعين، لكن صاحب «طرابلس» ارتد على عقبه، وقد اكتفى من المناورة،
والمراوغة أن يرحل «صلاح الدين» عن «حلب» . . . وقد تم ذلك .

العودة إلى «حمص»:

دخل السلطان «حمص» للمرة الثانية، وتسلم قلعتها ورتب فيها وعليها والياً
من قبَله، ونظم شئونها وأمورها، وترك حامية حتى لا تكون مطمعاً للطامعين .
ثم قصد «بعلبك» . . . فأرسل إليها يستجد بمن في «حلب» لما رأى من كثرة
عسكر السلطان وجنده وأنه لا طاقة له بقتالهم . . . فلم يردوا عليه، وتركوه
لقدره، فطلب الأمان من السلطان، فأمنه، وتسلم السلطان «بعلبك» .

أهل «الموصل» و أهل «حلب» إلب على السلطان:

كل هذا التحرك للسلطان «صلاح الدين» أثار حفيظة «سيف الدين» صاحب
الموصل، واعتقد أنه إن تركه على ما هو عليه من التوسع استفحل أمره، ولم يعد
لأحد قدرة، أو طاقة على الوقوف بوجهه، وزاده إلى اقتناعه هذا ما جاءه من أهل
«حلب» من قبل يطلب النجدة، حين حاصروهم السلطان .

فجهز «سيف الدين» جيشاً كثيفاً، عدة وعدداً، ثم خرج إلى «حلب»، فانضم
إليه من فيها من الجنود والقادة، وتوجهوا جميعاً لقتال السلطان «صلاح الدين» .
والتقوا جميعاً عند «حماه»، فتراسلوا وتفاوضوا، وأظهر السلطان كثيراً من
المرونة والتنازلات، مما أطمعهم في غيرها، وتشددوا .

وما كان غرض السلطان «صلاح الدين» وأهل «حلب» إلا استفاد الوقت،
ليصل إليه المدد الذي طلبه من مصر، وقد وصلت طلائعه فعلاً .

وإزاء تشدد أهل «الموصل» وأهل «حلب» رفض السلطان كل مطالبهم، فأزمعوا الحرب وأنشبوا القتال ودارت رحى المعارك، وما هي إلاّ جولات، حتى وقعت بهم الهزيمة فمات أكثرهم، وفر من الميدان بعضهم، وأسر عدد من كبارهم ورءوسهم، فمن عليهم السلطان المظفر وأطلق سراحهم، وعادوا إلى منازلهم ومواقعهم من ديارهم، وترك السلطان موضوع «حلب» إلى أن يحين الوقت المناسب، وعاد إلى دمشق.



نحن الآن على أعتاب سنة (٥٧١) هـ، وقد بلغ السلطان «صلاح الدين» من العمر واحداً وأربعين عاماً، وقد دانت له أكثر بلاد الشام، ولم يبق إلا القليل، رغم أنه لم يدخلها قادماً من مصر إلا منذ عام واحد فقط.

وها هي الأيام تأخذ دورة جديدة، كلها في صالح السلطان، فقد كان الرجل جديراً بحق أن يتولى القيادتين العسكرية والسياسية، إذ أوتى الخبرة في كليهما، أضف إلى ذلك ما تربى عليه من دين وتقوى والتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه.



الهدنة:

بينما كان السلطان نازلاً بمرج الصفر، خارج «دمشق» جاءته رسل الفرنجة يطلبون الهدنة، فوافقهم، وكانت لمدة عشر سنوات، إلا أنه اشترط عليهم شروطاً التزموا بها، وتعهدوا بالوفاء بينها.

وقد وافقت تلك الهدنة خطته، فلا بد من «حلب» وحتى «الموصل»، ولا بد من إقرار الأمن والأمان فيها، وتوحيدها، تحت راية الدولة الصلاحية، وهذه الهدنة تهئ له الظروف المناسبة للتحرك شمالاً وشرقاً دونما خطر صليبي يتهدهه من الجنوب.

وفى ذلك العام (٥٧١هـ) أصاب البلاد الشامية جَدْبٌ وقحطٌ، فقلت الموارد-
وارتفعت الأسعار، فبعث «صلاح الدين»، بجند إلى مصر، ليقيموا فيها ريشما تتحسن
الأوضاع، ثم يعودوا حين الطلب، وأوصاهم بحمل ما يستطيعون من المؤن والزاد .

عند «إعزاز» وإعزاز من أعمال «حلب»:

وكان نزول السلطان عند «إعزاز» بسبب اغتنام فرصة الهدنة لترتيب الوضع
الداخلى للديار الشامية، وسد الثغرات، وتنقية الجبهة الداخلية من كل الشوائب .
وكانت «إعزاز» حصناً منيعاً، فحاصرها وشدد عليها، وأقام على ذلك أياماً،
وفى ليلة الحادى عشر من شهر ذى القعدة تعرض السلطان للاغتيال على أيدي
الحشاشين للمرة الثانية، وكانت هذه المرة قاسية مريرة .

يقول صاحب كتاب «الروضتين»:

(قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد وهو نازل على «عزاز» ، وكان للأمير
«جاولى الأسدى» خيمة قرية من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم
لمشاهدة الآلات، وترتيب المهمات، وحض الرجال، والحث على القتال، وهو بار
يبث أياديه قار على الدهر بكف عواده، الحشيشية فى رى الأجناد وقوف،
والرجال عنده صفوف، إذ نفر واحد منهم فضرب رأسه بسكينة، فعاقته صفائح
الحديد المدفونة فى لثته عن تمكينه، ولفحت المديّة خده فخدشته، فقوى السلطان
قلبه، وحاش رأس الحشيشى إليه وجذبه ووقع عليه وركبه، وأدركه «سيف الدين
بازكوج» فأخذ حشاشة الحشيشى وبضعه وقطعه . . وجاء آخر فاعترضه الأمير
«داود ابن منكلان» فمنعه، وجرحه الحشيشى فى جنبه، فمات بعد أيام، وجاء
آخر فعانقه الأمير «على بن أبى الفوارس» وضمه من تحت إبطيه، وبقيت يد
الحشيشى من ورائه لا يتمكن من الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من
الكرب، فنادى: اقتلونى معه، فقد قتلنى وأذهب قوتى وأذهلنى . . فطعنه «ناصر
الدين - شيركوه» بسيفه ، وخرج آخر من الخيمة منهزماً وعلى الفتك بمن يعارضه
مقدماً، فثار عليه أهل السوق فقطعوه .

وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه، وقد جزعه الحادث وفزعه الكارث، وصوته جهورى، وزئيره قسورى، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوقه «كراغنده» بتلك الضربة مفكوك، ونهج سلامته مسلوک .

ثم يستطرد صاحب «الروضتين» فى وصف ما أصاب السلطان وقواده ومخيمه من بلبلة ورعب، ولم يتزحزح السلطان عن موقفه فى حصار «إعزاز» حتى فتحها، ثم إنه قصد «حلب» والسبب فى ذلك أن الطغمة الحاكمة فيها هم الذين دبروا مؤامرة الحشاشين، من الإسماعيلية «الباطنيين» لاغتيال السلطان، وأحضروا لهم زىَّ جند السلطان، ورسموا معهم خطة المؤامرة .

وأحاط بحلب من كل مكان وشدد الحصار عليها تشديداً لم تعهده من قبل، فأرسل إليه أصحابها، وعلى رأسهم «الملك الصالح إسماعيل» يطلبون الصلح، ويتذللون ويتعطفون، ويدون غاية الخضوع، فرق لهم وكف عن حصارهم، وعقد الصلح معهم، وأبقى الملك الصالح قائماً بالأمر عليها وكان ذلك مع مطلع سنة (٥٧٢) هـ .

العودة إلى مصر:

خرج السلطان من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول، بعد أن استتب له الأمر فى الشام، واستمكن، وكان وصوله إلى القاهرة بعد اثنى عشر يوماً من رحلته، وكان صحبه فى شوق زائد إلى مصر، لا يوصف ولا يقدر .

وبعد أن أقام أياماً للراحة واستطلاع أحوال القطر خلال غيابه، استدرك أموراً لا بد من عملها وعلى الفور:

أولاً: الحركة العلمية، إذ أقام سوقاً فى القصر لبيع الكتب، يومان فى الأسبوع، فأخرجت المخطوطات من الخزائن وقد تراكم فوقها التراب، ونشطت حركة البيع والشراء وأقبل العلماء على الاقتناء والدرس والبحث والسرّح .

ثم عول على إنشاء المدارس، هنا وهناك، وامتلأت، بل اكتظت بطلاب العلم والمعرفة، وازدهرت حركة الثقافة .

ثانيًا : الرعاية الصحية، فقد أنشأ السلطان عددًا من المستشفيات، وكانت تعرف آنذاك بـ «البيمارستان» - جند لها عددًا وافرًا من الأطباء في مختلف الاختصاصات.

ثالثًا : القلعة، والتي لا تزال إلى يومنا هذا شاهدًا حيًا على روح البطولة العسكرية والفروسية التي كان يتمتع بها السلطان الناصر «صلاح الدين الأيوبي» - رحمه الله -.

يقول صاحب كتاب «الروضتين»:

(وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد «سعد الدولة» على جبل «المقطم»، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقطم، وانتهى إلى أعلى مصر بيروج وصلها بالبرج الأعظم... وبنى القلعة على الجبل وأعطاهما حقها من إحكام العمل وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه).

إلى الإسكندرية:

ول «الإسكندرية» في نفس السلطان ووجدانه مقام عظيم، ومنزلة عالية، فهو لا ينسى على الإطلاق يوم حصاره فيها، وما لقيه من تأييد شعبها وتضامنهم معه، وصد الأعداء عنها.

أضف إلى ذلك موقفها كثر عظيم في حوض البحر الأبيض المتوسط، لا يعادله ثغر آخر، لذا حركه الشوق إليها، وفاءً منه لها، واستطلاعًا لأحوالها وأوضاعها، وما هي بحاجة إليه، سواء على صعيد الأمن، أو على صعيد العمران.

فقصدها في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة (٥٧٢) هـ، وجعل طريقه على دمياط ثانی أشهر الثغور، وكان أيضًا معقلًا من معاقل الشاطئ الشمالي

للقطر المصرى، فاطلع السلطان على حاله وما يلزمه، وأمر بما يجب، ثم تابع طريقه إلى «الإسكندرية».

فلما أتاها نوى الإقامة فيها طيلة شهر رمضان، يوزع وقته بين العبادة والاطلاع على أحوالها، وكان أهم مالفت نظره الأسطول...! فأمر بتجديده وإعداده وتزويده وأشرف بنفسه على كل ذلك، وجعله على أتم الاستعداد للقيام بأية مهمة توكل إليه.

وقبل عيد الفطر بأيام عاد السلطان إلى القاهرة، فأتى بها صومه.

يقول صاحب كتاب «الروختين»:

(...) والسلطان متوفر ليله ونهاره على نشر العدل وإنشاره، وإفاضة الجود وإغزازه، وسماع أحاديث رسول الله ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإفناء إعلام الباطل وإنكاره^(١).

إلى غزة و «عسقلان»:

وكانتا من أمنع الثغور على الشاطئ الفلسطيني، التابع لمملكة بيت المقدس، وحيث إن الفرجة قد نقضوا عهد الهدنة الذى طلبوه من السلطان ووافقهم عليه، فإنهم بعملهم هذا قد آذنوا بالحرب واستمرارها، فقصده السلطان هذين الثغرين بجند كثيف وعدة كاملة، ولما أتاها عاث فيها وخرب، وسبى وغنم، وقتل وأسر.

ثم أوغل فى البلاد هنا وهناك، يغير على الحصون والقلاع، ويضرب ضرباته الموفقة، حتى بلغ «الرملة»، وهى على بعد أميال من «بيت المقدس»، وهناك حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد تجمع له فرسان «الداوية»^(٢) من الصليبيين فى

(١) يقصد الكاتب: طمس معالم المذهب الإسماعيلى الذى كان يدين به الفاطميون.

(٢) فرقة من متشددى الصليبيين، أضحى لهم شأن كبير ونفوذ واسع، ولا يتفنون مملكة معينة من الممالك، ومثلهم مثل «الاستارية» أيضاً.

كمين، فلما أراد السلطان اجتياز نهر اعترضه، وقد توسط جنوده بآلاتهم الحربية ومعداتهم وزادهم وخيولهم ماء النهر، خرج عليهم الكمين الصليبي من كل مكان، وأوقع بقوات السلطان..

وقد استشهد العدد العديد منهم، وقتلوا وهم في دفاعهم عن أنفسهم أضعاف من راح منهم...، وما نجا من المسلمين إلا القليل، وقد استطاع السلطان أن ينقذ بعض فرسانه وجنده، ويتفهمهم بهم.

وكانت هذه الهزيمة عند «الرملة» من أقسى ما واجه السلطان في تاريخ حروبه مع الصليبيين، حيث لم يهزم له جيش ولم تسقط له راية.

وعاد «السلطان» إلى القاهرة بمن معه، وتتابع من بعده من استطاع النجاة، وكانت وقعة «الرملة» (٥٧٣هـ).



عشر سنوات من المناوشات:

ومنذ عام (٥٧٣هـ) حتى عام (٥٨٣هـ)، والسلطان يعمل على أكثر من جبهة؛ انشغل بإصلاح البلاد في مصر والشام، بالعمارة ورتق الفتوق، وإعادة من شذ إلى الأصول وتحصين الحصون، والإغارة على الصليبيين، وتأمين طريق الحج للمسلمين وكان من أهم الإنجازات هدم «بيت الأحزان» على رؤوس أصحابه من الفرنجة.

ذلك أن فرسان «الداوية» أقاموا حصنًا منيعًا في الطريق التي كان يسلكها السلطان بين الشام ومصر، وقريةً من «صفد» و «طبرية»، وبذلك ضيقوا على المسلمين حركتهم، فأرسل إليهم السلطان طالبًا هدمه وإزالته، لكنهم تمسكوا به وحاولوا استنزاف الأموال من السلطان، متذرعين بتكاليفه الكثيرة، وعرض عليهم ستين ألفًا من الدنانير، لكنهم رفضوا ذلك، فلم يعد يفكر فيه إلى أن يحين الوقت المناسب، ليجعله ركامًا على رؤوس أصحابه.



(وهى بلدة لبنانية الآن، تقع تحت سفح «جبل الشيخ»، وتكتب: «مرجعيون».)
فقد ظن فرسان «الدواية» أصحاب حصن «بيت الأحزان» وعدد غير قليل من قادة الصليبيين، أن السلطان فى تراخيه عن موضوع «بيت الأحزان» إنما هو ضعف منه، وكانوا يعلمون انشغاله الكثير فى الشام وغيرها، على مدى اتساع الديار التى انضوت تحت سلطانه وحكمه، فجهزوا حملة كبيرة وقصدوا الشام.

وكان السلطان «صلاح الدين» آنذاك متنقلاً بين «بعلبك» و«دمشق» وغيرهما، حتى بلغ «بانياس» و«تل القاضى»، يغير بفرسانه على بعض نواحي السواحل فيخرب زروعها ويجمع غلاتها، ويعود بالأسرى.

ثم أجمع رأيه مع بقية القادة على أن يقتحموا على الصليبيين ديارهم، ويستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد، ثم يرجعوا.

فرحلوا صوب «البقاع»، وفى صبيحة اليوم التالى (ثانى المحرم) سنة (٥٧٥هـ)، جاء الخبر بأن القرنجة قد خرجوا - كما قدمنا -.

فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وقد قتل من أمراء وقادة الصليبيين عدد كبير، وأسر من زعمائهم ما زاد على مائتين وسبعين.

إلى «القاهرة»:

ورجع السلطان الناصر «صلاح الدين» إلى مصر، وأقام فيها حتى سنة ٥٧٧هـ، وفى تلك الأثناء مات صاحب «الموصل» ثم تبعه صاحب «حلب»، وقد انضمتا من بعد إلى المملكة الصلاحية، وأضحت الديار الشامية بتمامها وكمالها، وشمال العراق، تخضع لنفوذ «صلاح الدين» مما جعل مسئوليته أكبر وأشد وطأً.

وأقام فى الديار المصرية طوال عام ٥٧٧هـ، يحجب البلاد شرقاً وغرباً، يوطد الحكم ويعزز السلطان بالأعمال العمرانية، والزراعية والتجارية والعسكرية.

ولما أهلت سنة ٥٧٨هـ، خرج من مصر إلى الشام، مستصحباً العسكر، وقد أبقى النصف الآخر لحماية الأمن، والدفاع عن الثغور.

وكان هذا الخروج آخر عهده بمصر . . !

ألا ترى - عزيزي القارئ - كم كان السلطان الناصر «صلاح الدين» قائداً هماماً مهتماً، لا يستكين لحظة ولا يهدأ دقيقة، دائم التنقل والترحال، والانشغال، رافعاً راية الجهاد مستمسكاً على جواده، كأنه يقضى فوقه ليله ونهاره!! .

وقد صدق الشاعر إذ قال:

يومًا بجيٍّ ويومًا في دمشق وبالف سطاط يومًا، ويومًا بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصَّبَّ ماخُلِقا إلا لِيَقْتَسِمَا بالشوقِ واليَّينِ

قلعة « صلاح الدين » :

وهي غير قلعة جبل « المقطم ».

إنها تقوم في الطرف الشرقي من شبه جزيرة «سيناء» فما الداعي إلى وجودها هناك؟ ومتى أقيمت؟

كان صاحب حصن «الكرك» في جنوبي «الأردن» كثير التعرض للحجاج المسلمين، القاصدين بيت الله الحرام لأداء الفريضة، وقد اضطر أكثرهم إلى استخدام البحر الأحمر وسيلة إلى بلوغ الساحل الحجازي، تجنباً للخطر.

لكن هذا اللعين بنى أسطولاً أنزله ميناء «العقبة» عند «أَيْلَه» ثم أخذ يتعرض من جديد للسفن التي تقل حجاج المسلمين إلى الديار المقدسة.

عندئذ أمر السلطان ببناء أسطول أيضاً للدفاع عن حرمان هؤلاء المسلمين المؤمنين، وتأمين سلامتهم في طريقهم إلى الحجاز.

وبنى القلعة في ذلك المكان النائي، وأصبح الطريق سالكا آمناً، وكان السلطان قد أقسم يميناً إن تمكن يوماً من صاحب «الكرك» ليقْتَلُهُ بيده.

وقد وفى السلطان بقسمه هذا بعد فترة من الزمن، حين وقع صاحب «الكرك» فى أيدي المسلمين، بعد معركة «حطين» و«فتح بيت المقدس».

معركة «حطين»:

تعتبر معركة «حطين» بالمقاييس العسكرية فى حينها أعظم إنجاز للسلطان الناصر «صلاح الدين» فى التخطيط لها، وإدارة المعركة، وروح الفروسية التى تجلت لدى أبطالها، سواء من استشهد منهم وقضى نحبه، أو من بقى منهم ينتظر (وما بدلوا تبديلاً).

و«حطين» قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين بحيرة طبريا (الحولة)، وبين مدينة «عكا» على الساحل، وهى أقرب إلى «طبريا» منها إلى «عكا».

دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، ولولا المعركة الحاسمة الشرسية التى جرت عندها لبقيت هماً لا يذكر، وهكذا قدر لها أن تبرز وأن تظهر، وأن يرتبط اسمها باسم «الناصر صلاح الدين» والقضاء على جيوش الصليبيين، وتكون إرهاصاً بفتح «بيت المقدس»، وتضاؤل الوجود الصليبي فى البلاد الإسلامية بعد أن أقاموا فى البلاد عقوداً من السنين قاربت القرنين من الزمان.

وقبل الحديث عن المعركة وتفصيلاتها والتى يتحدث عنها المؤرخون الذين عاصروها والذين أتوا من بعدهم، بشئ كثير من الإسهاب، حتى أدق دقائقها، وجزئيات تفصيلها، وكأنك تشاهدها بأمر العين، قبل ذلك كله أقدم للقارئ العزيز أبياتاً من قصيدة نظمها «أبو الحسن على بن الساعاتى»:

جلت عزماتك الفتح المبينا	فقد قرت عيون المؤمنين
وهان بك الصليب وكان قدماً	يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء	وأنت تقاتل الأعداء دينا

وما طبرية إلا هدى	ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء	وسل عنها الليالى والسنينا
فَضَضَتْ ختامها قسرا ومن ذا لقد	يصد الليث أن يلج العرينا
أنكحَتْها صُمَّ العوالى قضيت	فكان نتاجها الحرب الزبونا
فريضة الإسلام منها	وصدقت الأمانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجاً	وترضى عنك مكة والحجونا

وهى قصيدة طويلة تبلغ (٣٧) بيتاً .

وهنا - عزيزى القارئ - أترك « ابن شداد » - أحد مؤرخى عصر الدولتين -
النورية والصلاحية - يتحدث بلسانه وأسلوبه عن مجريات المعركة .

يقول : « ابن شداد » :

(لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين، عزم السلطان على قصد «الكرك»، فسير
إلى «حلب» من سيحضر العسكر - وبرز من «دمشق» فى منتصف المحرم، فسار
حتى نزل بأرض «الكرك» منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر
المتواصلة إليه بشن الغارة على من فى طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك .

وأقام - رحمه الله - بأرض «الكرك» حتى وصل الحج الشامى إلى الشام،
وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر ومعه بنت الملك المظفر وما كان له بالديار
المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض «أنطاكية»
وبلاد «ابن لاون»، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه «لاون» بالملك،
وكان الملك المظفر بـ «حماة»، وبلغ الخبر السلطان، فأمر بالدخول إلى بلاد العدو،
وإخماد ثائرتة، فوصل «تقى الدين» إلى «حلب» ونزل بدارة العفيف «بن زريق»،
وانتقل إلى دار «طمان» .

وفى تاسع صفر خرج بعسكر «حلب» إلى «حارم» ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهم.

وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بـ «عشتر» سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده «الأفضل» و«مظفر الدين» وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبى مع الفرنج ليتفرغ البال مع العدو فى جانب واحد، فصالحهم، وتوجه إلى «حماة» يطلب خدمة السلطان للغزاة.

فسار العساكر الشرقية فى خدمته وهم عسكر «الموصل» يتقدمهم «سعود بن الزعفرانى»، وعسكر مافاردين... إلى أنأتوا «عشتر» فلقبهم السلطان وأكرمهم.

ثم عرض السلطان العساكر متصف ربيع الأول على تل يعرف بتل «تسيل» ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو فى وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمع، لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فرما كانت أقرب إلى الإجابة.

وبلغه أن الفرنج اجتمعوا إلى مرج «صفورية» بأرض «عكا» فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة «طبرية» عند قرية تسمى «الصبرة»، ورحل من هناك ونزل غربى طبرية، على سطح الجبل لتعبية الحرب، منتظراً أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصده، فلم يتحركوا من منزلهم، فتزل جريدة^(١)، على طبرية، وترك الاطلاب^(٢) على حالها قبالة وجه العدو، ونازل «طبرية»، وزحف عليها، فهجمها وأخذها فى ساعة من نهار، وامتدت الأيدى إليها بالنهب والاسر والحريق والقتل، وامتنت القلعة وحدها.

فرحل الفرنج وقصدوا «طبرية» للدفاع عنها، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسير إلى السلطان من عرفه ذلك، فترك على «طبرية» من يحفظ قلعتها، ولقى العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل «طبرية»، الغربى منها، وحال الليل بين الفستين، فباتا على مصاف، شاكيتين فى السلاح

(١) الجريدة : فرقة من الخيالة .

(٢) الاطلاب : فرق الجيش المواجهة للعدو فى تعبئتها الكاملة.

إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى «اللوبيا»، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهما الظلام.

وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمر الجسيمة ما لم يحك عمن تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي يورك فيه، فطلب كل من الفشتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس.

وتحقق المسلمون أن من ورائهم «الأردن»^(١) ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم إلا الله، وكان الله تعالى قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ما قدره، فحملت الأطلاب الإسلامية في الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين).

وكان «القمص» ذكى القوم وألعيهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مجاسنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو «صور»^(٢)، وتبعه جماعة من المسلمين، فنجا وحده، وأمن الإسلام كيده.

واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة، تتبعها أبطال المسلمين، فلم ينج منها واحدة واعتصمت الطائفة الأخرى بتل «حطين»، وهى قرية عنده، وعندها قبر النبی «شعيب» - عليه السلام -.

فضايقهم المسلمون على التل، واشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأمر مقدّموهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه.

(١) أى : نهر الأردن .

(٢) على الساحل الجنوبي للبنان .

ولقد قيل فى عدد القتلى والأسرى مقالة تدل على الكثرة، التى لا تعد ولا تحصى، إذ قال أحد الذين حضروا المعركة وباشروا القتال: (إذا نظرت إلى جثث القتلى ظننت أنه لم يكن هناك أسير، وإذا نظرت إلى عدد الأسرى ظننت أنه لم يكن هناك قتلى).

ونعود إلى متابعة حديث «ابن شداد» فى وصف المعركة، فيقول: (ولقد حكى لى من أتق به أنه لقي بـ «حوران» شخصاً واحداً ومعه طناب^(١) خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرحهم وحده!! بخذلانٍ وقع عليهم.

وأما «القمص» الذى هرب فإنه وصل إلى طرابلس وأصابه «ذات الجنب» فأهلكه الله بها، وأما مقدمو «الاستتارية» و«الداوية» فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما «البرنس أرناط»^(٢) فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله - وقد مر ذلك بنا -، وذلك أنه كان عبر به فى «الشويك» قفل من الديار المصرية فى حالة الصلاح (أيام الهدنة) فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله الصلح الذى بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ وقال: قولوا لـ «محمدكم» يخلصكم...» وبلغ ذلك السلطان فحملة الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر، جلس فى دهليز الخيمة - فإنها لم تكن قد نُصبت - والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك «جفرى»^(٣) وناول الملك شربة من جلاب مثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها «البرنس أرناط» فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذى تسقيه... وإلا أنا ما سقيته.

وكان على جميل عادة العرب، وكريم أخلاقها، أن الأسير إذا أكل وشرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بذلك الجرى على مكارم الأخلاق.

(١) طناب الخيمة: عامودها فى وسطها الذى يرفعها.

(٢) البرنس الأمير، صاحب حصن «الكرك».

(٣) جفرى «جودى فروان».

ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً، ثم عادوا واستحضروهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك فى الدهليز، واستحضر «البرنس أرناط»، وأوقفه على ما قال...، وقال: ها أنا أنتصر «المحمد»، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، ثم سل السلطان سلاحه وضربه به، فحل كتفه^(١)، وتم عليه من حضر، وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة.

فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك فى أنه يشئ به.
فاستحضره السلطان وطيب قلبه وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك،
وأما هذا (أى: البرنس أرناط) فإنه جاوز حده، فجرى ما جرى.

وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حُبور، ترتفع أصواتهم
بالحمد لله والشكر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح فى يوم الأحد، فنزل
(السلطان) - رحمه الله -، على «طبرية»، وتسلم فى بقية ذلك اليوم قلعتهما، وأقام
بها إلى يوم الثلاثاء.

إلى «عكا»:

ثم رحل السلطان طالباً «عكا» وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر،
وقاتلها بكرة الخميس مُستهل جمادى الأولى، فأخذها، واستنقذ من كان فيها من
أسرى المسلمين، وكانوا زهاء أربعة آلاف، واستولى على ما فيها من الأموال
والذخائر والمؤن.

ومنها إلى «نابلس»:

وأقام السلطان أياماً بعد فتح «عكا» على التل مخيماً، وقد انتوى فتح بلاد
الساحل كلها، وكتب إلى أخيه «العاذل» فى مصر بما فتحه الله عليه، وطلب إليه

(١) أى أصابه فى كتفه.

أن يقدم عليه بعسكره، فجاءه على جناح السرعة، وفتح في طريقه حصن «مجدل بابا» ومدينة «يافا» عنوة، ثم أمره السلطان أن يقيم مكانه بانتظار أوامره.

ثم وجه السلطان عدة من الأمراء والجنود إلى «الناصر» و«قيسارية» والبلاد المجاورة لـ «عكا» و«طبرية»، فعادوا بالغنائم والظفر المبين.

ثم توجه إلى «نابلس» فافتحها وعين عليها واليًا هو ابن أخته «حسام الدين عمر بن محمد بن لاشين».

وظل السلطان - رحمه الله - عاملاً دائماً في فتح المدن والقللاع والحصون، حتى أصغر القرى، ساحلاً وجبلاً، امتداداً من «جبيل» و«بيروت» شمالاً إلى أقصى الجنوب عند «يافا» ومن «عكا» إلى «نابلس» وما يحيط بهما، وكأنه يُطهر الأرض المحيطة ببيت المقدس، تمهيداً لفتحها وتخليصها من أيدي الصليبيين.

الهدف الأزسى:

قال «العماد»: (نزل السلطان على غربي القدس من يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في «القدس»، حيثئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة منا بميتين، ودون «العمامة»^(١). تقوم القيامة، ويحب سلامتها تقل السلامة.

وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجلد، وأبصر في شماليه أرضاً راضيها للحصار، متسعة المجال للأسماع والأبصار، ممكنة للدنو منه للثقب إن صار من حيز الانصار.

(١) كبة القيامة.

فانتقل إلى المنزل الشمالى يوم الجمعة، العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات - قد نصبت بلا نصب قدام القتال والنزال، وفرسانهم فى كل يوم يباشرون دون الباشورة أمام جموعهم المحصورة المحشورة، ويبرزون ويبرزون، ويطاعنون ويحاجزون، المطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم ينهلون ويتهلون، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [البقرة: ١٩١].

ومن استشهد مبارزاً الأمير، «عز الدين عيسى بن فلك»، كان أبوه صاحب قلعة «جعبر»، فاغتنم المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المهج، فركبوا أكتاف الرهج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه، وبددوا جمع العدو وفرقوه، والتصقوا بالسور فنقبوه، وحشوه وأحرقوه وصدقوا وعد الله فى القتال لأعدائه وصدقوه.

ولما غضت الحرب، ووقع السور واتسع النقب، فصعب على العدو الهين، وهان للمسلمين الصعب. عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة، وقالوا: ما لنا إلا الاستثمان، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان.

وأخرجوا كبراءهم ليأخذوا لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال - رحمه الله -: لا أخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين، منذ إحدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل...، فأنا أفنى رجالهم قتلاً، وأحوى نساءهم سبياً.

فبرز ابن بارزان - ليأمن السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمتع السلطان، وتسامى فى سومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نديم لكم الهوان، ونأخذ مملكتكم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدما، ونسلط على الذرية والنساء السبا، وأبى فى تأمينهم إلا الإبا. فتعرضوا للتضرع، وخوفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم وخبنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإننا نستقل فتقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم،

ونلقى أنفسنا على النار بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبة^(١)، ونترك عليكم في سبينا السُّبة، ونقلع الصخرة^(٢)، ونوجدكم عليها الحسرة، والمصانع نخسفها، والمطامع نكسفها، وعتدنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنى وفقير، وكبير وصغير، فبدأ بقتلهم وشت شملهم، وأما الأموال فإننا نعطيها ولا نعطيها، وأما الذراري فإننا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولا يقبل لكم سعى، ولا يسلم عمرو ولا عمارة، ولا نصار ولا نصارة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأى فائدة لكم فى هذا الشح، وكل خسر لكم فى هذا الربح، ورب خيبة جاءت من رجاء النجاح، ولا يصلح السوء سوى الصلح.

فشاور السلطان أصحابه، فقليل له: الصواب أن نحسبهم أسارى فتبعتهم نفوسهم، ونعم لصغار الجزية رءوسهم، ويدخل فى القطيعة مرءوسهم ورئيسهم. واستقر الحال بعد مراودات، ومعاودات ومفاوضات، وتفويضات، وصراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الخوطة، اشتروا بها أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق، وثبت فى تملكه الحق، وهو عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغير أو صغيرة ديناران، الذكر والأنثى فيهما سيان.

ودخل «ابن بارزان» و«البطريق» ومقدمو «الداوية» و«الاستبارية» فى هذا الضمان، وبذل «ابن بارزان» ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم والغضب لا الوديعه، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم من

(١) قبة المسجد الأقصى.

(٢) الصخرة : مربوط براق النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

الدواب، ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير، يحصر الخارجين، ويخسر الواجحين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حتى حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حفظه، لكن تم التفریط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخففاً في الرحال، ومنهم من غير لبسته فخرج مخفياً بزى الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم تقابل بالرد، والثقة الأكابر استتابوا أصاغر فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر.

وادعى «مظفر الدين كوكبرى» أن منهم جماعة من أرمن «الرها» وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها.

وكذلك صاحب «البيرة» ادعى ما عدته الكثيرة، زهاء خمسمائة أرمنى، ذكر أنهم من بلده، وإن الواصل منهم إلى «القدس» لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلعها وحصل له مرفقها.

ثم تولى الملك «العادل» استخراجهم، وقوم على الأداء منهاجهم.

وسهل على «السلطان» لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سماحة الابتهاج.

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، في كل ديوان منها عدة من النواب المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاباً بالأداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطة على من بالباب من الأمناء والوكلاء.

وكانت بـ «القدس» ملكة رومية متعبدة مترهبة، في عبادة الصليب متصلة، وعلى مصابها متلهية، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدره تنحدر القطرات من الحزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشباع وأتباع، فاستعازت بالسلطان فأعازها، ومن عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل ما لها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من

مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها ، وأسفاطها^(١)، وأعدالها، الصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها .

وكذلك خرجت الملكة ابنة الملك «أمورى» وكانت مقيمة فى جوار «القدس» ، مع مالها من الخول والخدم والجوارى، فاستأذنت فى الإلام بزوجها الأسير، وكان بَقِيدِهِ مقيمًا فى برج «نابلس» موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها، فخلصت هى ومن تبعها، وأقامت عند زوجها .

وكذلك خرجت «البرنسيصة - أم هنرى»، محاطة بنوابها، وجاءت بولدها العانى، فوعدت إن سمحت بحصنها سمح بولدها، ثم أعفيت وأطلقت، وعصمت على أن يستحضر ابنها «هنرى ابن هنرى» من دمشق إليها، فقرت برؤيته عينيها، وسار معهما من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعامل .



عزيزى القارئ:

لقد أحبيت أن أنقل لك الصورة بأسلوب من كتبها من مؤرخى تلك الفترة الزمنية، وعلى لسانهم، وبعباراتهم نفسها - مع قليل من التصرف - لتكون عندك أوقع وأوثق، ومع التاريخ أصدق .

ولقد رأيت - عزيزى - القارئ - من أريحية السلطان «الناصر صلاح الدين» وشهامته ودينه وخلقه، ما سجله له التاريخ بأحرف من نور، وما زال يشع على مدى الأزمان وعرف له ذلك العدو قبل الصديق .

وما تزال سيرته العظيمة تملأ قلوب كل الناس .



(١) الأسفاط : البسط والسجاد .

دخول الملك الناصر «بيت المقدس»:

كان الفتح يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب وكان مصادفة كريمة طيبة أن يكون ذلك اليوم يوم ذكرى «الإسراء والمعراج» ولله تعالى فى تدبيره وتقديره شئون.

وقد ذكرنا أن تدفق الناس للخروج من «بيت المقدس» قد استمر أياماً.

فلما كانت الجمعة التالية، وقد تطهر بيت المقدس من دنسوه، وآذوه، دخل السلطان «الناصر صلاح الدين» تحف به القيادات والعلماء والكبراء، وتتقدمه الرايات والبُنُود، حتى بلغ المسجد الأقصى، وكانت يد الكفار الصليبيين قد عبَّثَ به، وغيرت كثيراً من معالمة وأحدثت فيه من التشويهات والأذى مالم يكن يخطر على بال.

لقد طمسوا معالم المحراب والمنبر، وألصقوا بهما مبنين أحدهما يكون أهراء للغلال، وآخر مراحيف لقضاء الخوائج، فأمر السلطان العُمَال على الفور بإزالة هذه المنكرات، وإبراز معالم المنبر والمحراب الشريفين، وسد الشغرات، وعُلِّقَت القناديل، وفُرِشَت الأرض بالسجاد بعد تطهيرها وغسلها، وارتفع الأذان يجلجل ويدوى، وترددت كلمات التكبير والتهليل فى أرجاء المسجد الشريف.

وحضرت الصلاة، فأداها السلطان مع جموع المسلمين مؤتمين بالقاضى «محمى الدين أبى المعالى محمد بن على القرشى الزكى بن الزكى»، وكان قد خطب فيهم خطبة بليغة، مست القلوب، وأنعشت الأرواح، وجلَّتْ صدأ النفوس. (ولولا الإطالة لكنت سردتها بتمامها).

وكان السلطان - رحمه الله - قد أمر أيضاً بإزالة كل المباني التى أُلصقت بالمسجد من كل ناحية حتى بات منفرداً متميزاً، طاهراً مطهراً.

ولم يكتف السلطان بما فعل، بل أمر من بعد بتجديد المحراب، وتسويته بالرخام وزخرفته بالآيات، وإقامة منبر جديد لائق غير الذى كان قائماً؛ ثم تذكر السلطان شيئاً !

لقد كان الملك العادل «نور الدين» - رحمه الله - قد أنشأ منبراً لبيت المقدس، قبل الفتح بعشرين سنة، وهياًه لليوم الموعود، فأرسل السلطان إلى «حلب» فى الطلب، فحمل منها إلى «بيت المقدس» ووضع مكان المحراب القديم، فكان تحفة فنية راقية قل نظيرها.

ولا ننسى - عزيزى القارئ - هذه اللقطة الكريمة من الملك «الناصر صلاح الدين» التى تحمل أسمى معانى الوفاء والحب، والذكرى الجميلة، لمن وضع أسس الجهاد ضد الفرنجة، وفجر الحروب الصليبية، وقضى شطراً كبيراً من عمره يجهدهم ويضيق عليهم، ويحضرهم، حتى حمل الراية من بعده البطل «صلاح الدين» فأتى الرسالة وأكمل المهمة.

«الصخرة» وقبتها:

و«الصخرة» الشريفة - عزيزى القارئ - هى التى توقف عندها البراق ... حين أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام - فى مكة - إلى المسجد الأقصى - فى بيت المقدس - ، وعندها صلى رسول الله ﷺ إماماً بإخوانه الأنبياء ... ، ومنها كانت رحلته التاريخية العظيمة إلى السماوات العلى مع «جبريل» عليه السلام.

هذه الصخرة الشريفة لها فى قلب كل مسلم مؤمن منزلة ومكانة، فلا يفرط فيها، ولا يستهان بها .. !!

ويقول المؤرخون المعاصرون لفتح «بيت المقدس»: (أما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا - قد بنوا عليها كنيسة وأعادوا رسومها القديمة، وستروها بالآبنية، وعوجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هى أشنع من التعرية، وملئوها بتصاريف التصاوير إلخ .. إلخ).

فتولاها بناءً على أمر السلطان القاضى «ضياء الدين عيسى» فصانها بشبايك من حديد وثبت أركانها وأزال ما كان عليها وحولها، وأعادها صافية نقية كما كانت،

ووقف عليها السلطان داراً وأرضاً ويستأنناً، وخصص لها إماماً وقرأء، فلا تنقطع فيها الصلاة، ولا تسكت الآيات، وتتردد في جنباتها آناء الليل وأطراف النهار.

تطهير البلاد:

كان لوقعة «حطين» وفتح «بيت المقدس» دوى كبير فى مختلف الأنحاء وأثره البالغ على نفوس الناس، فقد اشتدت العزائم، وقويت الرغبة فى إزالة كل المظالم.

وأخذ السلطان الناصر «صلاح الدين» - على مدى ثلاثة أعوام، من عام (٥٨٣) إلى عام (٥٨٥)هـ، لا يهدأ ولا يكل، فما ترك حصناً ولا قلعة ولا مدينة ولا ثغراً إلا نزل به، وحاصره، وقضى عليه، من ساحل البحر المتوسط إلى أقصى بادية الشام شرقاً، ومن الديار الشامية، حتى عمق الساحل عند البحر الأحمر.

ولم يبق للصليبيين، سوى فلول بسيطة لا تقوى على مناهضة، ولا تقوم إلى قتال .

الصليبيون فى «عكا»:

وغلّت مراجل الحقد فى كل أنحاء أوروبا، وجاش التعصب فى نفوسهم، خاصة بين الملوك والأمراء، والقساوسة، فعادوا ينفخون فى النار حتى اشتعلت وتوقدت، وتطايرت شرراً، وقصدوا فى جيوش متحالفة إلى الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، عبر سفن كثيرة وفيها جنود غفيرة، وعتاد وذخيرة، ومؤن وفيرة.

وقصدوا إلى «عكا» .. لسبيين، أولهما: أنها الطريق إلى «بيت المقدس»، وثانيهما لضعف حاميتها، ومناعة حصونها من ناحية البر.

واستطاعوا مع عام (٥٨٦)هـ أن يحطوا الرحال على شواطئها، ثم يقتحموها من ناحية البحر، ويستولوا عليها،

وكانت هذه بداية معاناة شديدة للسلطان الناصر «صلاح الدين»، فلقد أنفق وقتاً طويلاً، ومالاً جزيلاً، وجنوداً كثيراً دون أن يحقق الفوز والنصر على فرنجية عكا. فقد كانت إمداداتهم من ناحية البحر تتوالى.

وبعد لأي، صرف السلطان النظر عن فتحها، جراء ما لقي هو وجنده من العنت والمشقة، وعاد إلى «دمشق» وفي النفس غصة وفي القلب حرق. ثم جاءت الأنبياء بعزم الفرنجية على الخروج من «عكا» إلى «بيت المقدس» لاستعادته، فهب على الفور في جنده وخيله، واتجه إلى «بيت المقدس» وأقام فيها يزيد في تحصيناتها، وأسوارها، ثم توجه نزولاً إلى الساحل، ماراً بمختلف الحصون والقلاع، يزيد مناعتها وقوتها للدفاع عن أرض الإسلام.

فلما علم الصليبيون ذلك، توقفوا عن متابعة خطتهم، واكتفوا بما حققوه على طول الساحل من «عكا» إلى عسقلان من بسط نفوذ وسلطان، وهم يعلمون تمام العلم أن لا قدرة لهم على منازلة السلطان في معركة مكشوفة، ولولا أنهم وراء الأسوار المنيعة العالية في «عكا» لما صمدوا واستمروا.

والواقع - عزيزي القارئ - أن موضوع «عكا» قد شغل حيزاً كبيراً من جهود السلطان، وأغنى فيه وقتاً، واستشهد من جنوده العدد العديد، ولكن الله تعالى لم يأذن بالفتح.

وبقيت «عكا» شوكة في جنب الجسم الشامي تؤرقه وتوله.

ولقد أسهب المؤرخون في وصف وقائعها المتعددة المتكررة إسهاباً كبيراً ومطولاً، لأنها في النهاية سوف تسقط ويتهى أمرها ولكن على يد بطل آخر، تسلم الراية بعد «صلاح الدين»، ومن بعد عصره، ذلكم هو «الظاهر بيبرس البندقدارى»، وفي ظروف - أخرى.

الصلح مع «ديكاردوس» الملقب بـ «قلب الأسد»:

وحيث إن الفرنجة قد أقاموا لأنفسهم فى «عكا» رأس جسر، توالى حملاتهم من أوروبا إلى شرقى حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت كلها تنزل فى «عكا»، أو على السواحل القريبة منها، ولكن رأس هذا الجسر كان مقطوعاً..، لا يستطيعون أن يجتازوه، فقد كانت لهم العساكر الإسلامية بالمرصاد، رغم تردى الأحوال بين الطرفين، وكثرة الوقائع، وفناء العدد الذى لا يحصى من الجند.

ثم كثرت المفاوضات والرسل بين ملوك الفرنجة، وعلى رأسهم «ريكاردوس» - قلب الأسد - وبين السلطان، حتى عُقد الصلح بين الطرفين، وبقيت «عكا» فى أيدى الصليبيين، وسُمح لمن أراد منهم الحج إلى «بيت المقدس» على أن يكون فى حماية المسلمين.

«صلاح الدين الطبيب»:

عزبى القارى: هناك ظاهرة فى شخصية السلطان «الناصر صلاح الدين» قل أن تعرض لها المؤرخون، فقد شغلهم الحديث بجهاده وبطولاته، وحكمه وإدارته، وقيادته السياسية..، عن الحديث فى علو كعبه العلمى، وخاصة فى الطب. لقد كان «صلاح الدين» - رحمه الله - من حفظة القرآن الكريم، ومن حفظة حديث النبى ﷺ وله باع فى الأدب، خصوصاً فى الشعر، إذ حفظ - وهو لا يزال فتى صغيراً «ديوان الحماسة» للشاعر أبى تمام، وقيل أيضاً إنه كان على علم بالفلك والنجوم وحركاتها.

ولكن الأهم من هذا كله (غير حفظ القرآن والحديث) إتقانه للطب، فى حدود ما تعارف عليه العصر، وكان مقدماً فى ذلك.

مرض «ريكاردوس» مرة، فأرسل إلى السلطان، فى أيام الصلح، يستسغه فى إرسال طبيب ليعالجه، وكان العرب متقدمون على الفرنجة فى هذا المضمار، وهم يعلمون.

ولقد قيل بأن «صلاح الدين» بدلاً من أن يرسل طبيباً إلى «ريكاردوس» قصده بنفسه مع مرافق له متخفياً، ثم عالجته بالعقاقير والأدوية اللازمة، حضرها بنفسه - أيضاً-، ثم شفى «ريكاردوس» وما علم بحقيقة الواقعة إلا بعد شفائه، فأكبر ذلك وعظمه.

ونحن لا تهمنا الواقعة إلا بحدودها الزمنية وظروفها الموضوعية، ولكن الذى يهمنا هو إلقاء الضوء على شخصية «صلاح الدين» - الطبيب... والصيدلى...، أين تعلم هذا؟ وعلى يد من؟ ومتى؟ وما مدى الممارسة؟.

كلها أسئلة لا يجيب أى مرجع عنها، ولا أى مؤرخ، فيبقى هذا الجانب الهام من شخصية «الناصر صلاح الدين» فى ضمير التاريخ.

الوفاة:

وما أطلت سنة (٥٨٩هـ)، حتى كانت شمس السلطان قد آذنت بالمغيب... كان مقيماً فى دمشق، يرعى شئونها وشئون الولايات والأمصار، والأقطار، وقد أشرف بنفسه يوماً على وصول موكب الحجيج، وقد دمعت عيناه، لأنه لم يؤد هذه الفريضة واستطلعهم عن أحوالهم وأحوال الحجاج، وأبدى اهتماماً كبيراً.



وفى ذات يوم خرج إلى الصيد، وكان يحبه، وحمل معه زاداً لخمسة عشر يوماً وما عاد منه إلا وهو فى حالة من الضعف، والكلل.



ولزم داره، وقد ثقل بدنه، وزادته الصفراء ألماً. وفى ليلة السبت السادس عشر من شهر صفر بلغ منه المرض غايته، وقد غشيته الحمى الصفراوية، وكانت فى باطنه أكثر منها فى ظاهره.

وفى اليوم التاسع من مرضه غشيته غيبوبة، وامتنع عن تناول أى شراب، وأصابته رعشة شديدة، وتناقل الناس خبر مرضه هذا، فى حُزن ظاهر، وغم عظيم.

وفى اليوم العاشر من مرضه، عاودته بعض العافية، ففرح الناس لذلك أيما فرح وظنوا أنها حالة من الحالات التى كانت تلم به، فما يلبث أن يعود إليه نشاطه، ويخرج من فراشه، ويتوسط دست مجلس سلطانه .

ولكنه كان ظن فى غير محله، فما أتى اليوم الثانى عشر من مرضه حتى انتكس انتكاسة شديدة، وغاب عن الوعى كلياً .

ثم اختاره الله تعالى إلى جواره، وكان ذلك صبح ليلة الأربعاء الثانى والعشرين من شهر صفر، سنة (٥٨٩هـ)، - رحمه الله تعالى - وأنزله منازل الشهداء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقا .

وكان يوم الجنازة يوماً مشهوداً، لم تعرف دمشق له مثيلاً، فما بقى فى البيوت والمنازل إنسان إلا وخرج يشيع البطل إلى مشواه الأخير، وصلى عليه الناس، أرسالا^(١)، بإمامة القاضى «ابن الزكى» .

كلمة أخيرة:

كلمة أخيرة، وليست نهائية . .

لأنه لا يزال فى القلب والعقل والوجدان متسع لصلاح الدين ولا يزال للقلم مجال، وأى مجال!!

ليس لنا وحدنا بل لكثير من المفكرين والكتاب .

ولا تزال سيرته وشخصيته ميداناً فسيحاً وأرضاً طيبة خصبة لكل من أراد أن يسهم ولو بجزء - مشكور - فى الحديث عن البطل .

لقد ارتبط اسم سيدنا «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - بفتح بيت المقدس مع نهاية العقد الثانى من الهجرة، وارتبط اسم البطل الناصر «صلاح الدين» - رحمه الله - بتحريرها فى نهاية القرن السادس للهجرة .

* وها هى اليوم تستغيث . . !

(١) أرسالا : جماعات جماعات .

* تستغيث من الإرهاب الصهيوني ... !

* وتستغيث من دنس التآمر العالمى ... !

* وتستغيث من تنازع الورثة ... ! وكأنها سلعة يتاجرون بها ، ولا يملكون من أمرها شيئاً ...

اللهم إلا نفوس مؤمنة، ما تزال تركع وتسجد، وتبتهل فى جنبات الأقصى الشريف .
وأخشى ما أخشاه أن يصدق فىنا حديث رسول الله ﷺ (...حتى يدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم).

القدس تستغيث سائلة أين البطل ؟

أين الحر الشريف؟ أين المؤمن الصادق؟ أين المسلم الحق؟ أين «عمر» .. أين «نور الدين»؟ أين «صلاح الدين»؟

أولئك - رضى الله عنهم ورحمهم - قد انتقلوا إلى جوار ربهم، فهل نحن أموات غير أحياء كالأنعام بل أضل سبيلاً!!..

والقدس رمز لكل مقدس ...

فأين قدسية الإسلام فى نفوسنا؟ وأين قدسية الإيمان فى قلوبنا؟ وأين قدسية الإنسان فى أوطاننا؟

هانت النفوس، وهانت الدماء، وهانت الأموال والأعراض...، وهان المسلمون فى كل أنحاء العالم، اللهم إلا من فئة مؤمنة، قد طحتتها رحى الظلم من جهة والإرهاب من جهة أخرى، فلا تملك نفعا ولا ضرا.

عُزلت عن المشاركة فى صنع المصير، وحُبست فى غير حبس، وغُلّت فى غير قيد...!

اللهم إنا نسألك الهداية والرشاد، والصحة الحق، على كل المستويات، كى نلقاك وأنت راض عنا، يا أرحم الراحمين.

٨- سيف الدين قطز

هل يصنع الرجال أنفسهم ؟ أم تصنعهم الأحداث ؟

تساؤل لمعادلة قد تكون مبتورة أو ناقصة إذا ما أخذنا بأحد طرفيها فقط دون الآخر، إذ لا بد أن تكون فى الرجل طاقة مهيأة مكنونة تنفجر مع الحدث العظيم، فيصباحا كلاهما وحدة لا تتجزأ. فـ«عين جالوت» و«سيف الدين قطز» وحدة تاريخية لا يمكن الفصل بينهما ، على الرغم من وجود عوامل أخرى ثانوية جانبية، سواء كانت شخصية، أم ظرفية، أم مكانية، تضافرت جميعها، وساعدت على ظهور (البطل) و(النصر)؛ فاقترنا وتزاوجا، وأصبحا علماً واحداً.

ونحن حين نترجم لـ «سيف الدين قطز» يدفعنا إلى ذلك تسجيل حدث تاريخي من أخطر وأشد ما واجهته الأمة الإسلامية على امتداد قرون حياتها، ألا وهو خطر «التتار»، الذى انبثق من أواسط آسيا زاحقاً كأرئال الجراد، فى كل اتجاه، يأكل الأخضر واليابس، ويدمر كل شىء، كأنه الإعصار . . .

ما ترك دولة أو دويلة من منطلق زحفه، من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، إلا جعلها أثراً بعد عين أو قاعاً صفصفاً، وكلها ديار إسلامية، من «خوارزم» إلى «خراسان» إلى «فارس» إلى «العراق» إلى «الشام» حتى كاد يبلغ «مصر» .

وما القضاء على «بغداد» عاصمة الخلافة الإسلامية بالصورة الهمجية التى تمت بها، إلا مثالا حياً على هذا الزحف الرهيب المخيف .

لقد كانت «بغداد» يومئذ ليس فقط عاصمة الخلافة، بل حاضرة العالم كله، بكل ما فى الكلمة من معنى، موئل علم ومصدر إشعاع، وغنى ما بعده غنى ؛ فإذا بها بين عشية وضحاها أطلالاً تنعى من بناها . .

الحرائق تأكلها، والدماء تصبغ «دجلة» باللون الأحمر، إذ غلبت الدماء على الماء، وأزهقت أرواح أكثر من مليونين من السكان، شيبًا وشبانًا، نساءً وأطفالًا...، مجزرة بكل المعانى والصور، مجزرة للحضارة الإنسانية فى ذروة اكتمالها.

ثم حدث ولا حرج عن باقى المدن والأقطاع من «حلب» و«الجزيرة» إلى «حمص» و«حماء» و «دمشق» ، فقد لاقى الجميع بعض ما جرى فى «بغداد»...

كان الهدف واضحًا هو القضاء على الإسلام والمسلمين !!!

ولسنا نبالغ فى هذا ... ، فقد تكالبت نصارى البلاد الشامية، وبقايا الصليبيين مع غزاة التتار يؤيدونهم ويعاونونهم، ويقاتلون معهم أحيانًا ؛

ولم تكن أخطار الحملات الصليبية قد زالت بعد، فإنه ما يزال لها فى الديار الإسلامية بعض الوجود الذى يورق المضاجع ، والعملاء الذين تحركهم بين الحين والحين عوامل المذهبية ، ودوافع الحقد ، والأنانية ، يتواصلون مع هذا الطرف أو ذاك حسب المصلحة ووفق المكاسب الرخيصة ، ولو على حساب الأمة والدين .

وكما كانت «حطين» فى أرض فلسطين بدء النهاية للوجود الصليبي...

كذلك كانت «عين جالوت» فى فلسطين - أيضًا - وقفًا للزحف التتارى ، وارتداده ، ثم تلاشيهِ ونهايته !

ولا يفوتنا هنا أن نسجل بفخر وإعزاز - وثقة - أن (جند مصر) كانوا هم الدعامة الأساسية فى دحر هذين الخطرين الهائلين، على امتداد عشرات السنين؛ ولقد صدق فيهم قول الصادق الأمين (عليه السلام) [إنهم خير أجناد أهل الأرض].

ولقد ارتبط اسم سيف الدين «قطز» بمعركة «عين جالوت» ارتباطًا وثيقًا...

و«عين جالوت» فى التاريخ مفصل هام وأساسى، لابد من الوقوف عنده - طويلاً، استذكّاراً واعتباراً، ودرساً وتحليلاً للقائد وشخصيته، للظروف السياسية...، والدينية...؛ لكل جزئية كبيرة أو صغيرة رافقت ذلك اليوم الأغر، وللآثار التى ترتبت عليه من بعد .

ونحن حين نترجم لسيف الدين «قطز» - رحمه الله -، ونؤرخ لـ «عين جالوت» نهدف إلى أمرين اثنين ؛ أولهما : بعث الروح الإيمانية فى نفوس أبنائنا واعية ناضجة ، ليكونوا عباد الرحمن حقاً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان : ٧٣]! وثانيهما : التحذير والتنبيه بأن معركة الحق مع الباطل قائمة أبداً ، مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن أولياء الشيطان عصبة واحدة ، مهما اختلف اللون واللسان والجنس .

لكن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢].

جاء فى الصفحة (٢١٠) من كتاب (ذيل الروضتين) ، فى وصف سيف الدين « قطز » (القائد) ، ما يلى :

[وكان « قطز » هذا موصوفاً بمواظبة الصلاة ، والشجاعة ، وتجنب شرب الخمر ، رحمه الله]

عبارات قليلة تؤدى أغراضاً شتى ، وتوحى بمعان كثيرة تتمحور حول شخصية (القائد) !.. !

المغول والتتار

يختلط الاسمان عند كثيرين من الناس فلا يميزون بينهما، حتى من بعض ذوى العلم، أو أدعيائه فيطلقون هذا على ذاك، وذاك على هذا .

والواقع أن التتار قرع من أصل هم المغول، كانوا يعيشون جميعاً قبائل فى
أواسط شرقى قارة آسيا، مثل حياة البدو تماماً، بكل معطياتها وظروفها السياسية
والاجتماعية والمعيشية، وكانوا وثنيين، فيهم قسوة وغلظة وجفاء .

إلى أن ظهر فيهم «جنكيزخان» - فى نهاية القرن السادس الهجرى، وكلمة
«جنكيزخان» تعنى :المحارب الكامل؛ فأعلن نفسه إمبراطوراً، سيداً مطلقاً، ومن
ثم بدأ تحركه، وكان أخطر تحرك عرفته القارة الآسيوية على امتداد تاريخها،
واتساع رقعتها .

اجتاح الصين . . . ، ثم اتجه غرباً فدخل أرض الإسلام، وغزا «خوارزم» وقتل
من جيشها (١٦٠) ألف جندى، ثم دخل «بخارى» وأحرقها، وسلب ونهب
وسبى منها ما شاء له طغيانه، ثم استمر فى تقدمه نحو الغرب، فقاومته «نيسابور»
فكان جزاء أهلها الذبح والقتل، وبقي فى تقدمه إلى أن لقي حتفه .

فخلفه ابنه «مانجو» فسار على خطة أبيه، فغزا ما بقى من الصين، ثم ارتد غرباً
واكتسح روسيا وجعلها ولاية مغولية، عام (٦٣٣) هـ؛ وكذا استولى على «بولندا»
و«المجر» .

ونم لـ «مانجو» السلطان الكامل على المغول عام (٦٤٩) هـ؛ فولّى أخاً له على
الصين، وسير أخاه الثانى «هولاكو» ليغزو غرب آسيا، فدخل «بغداد» وهدمها
(٦٥٦) هـ؛ وقضى على الدولة العباسية، ووَصَلَ إلى فلسطين، ولكنه هُزِمَ على
أيدى المماليك فى معركة «عين جالوت» سنة (٦٥٨) هـ .

بعد هذه الهزيمة توقفت فتوحات المغول ، وتجزأت دولتهم إلى أجزاء ، يحكم
كلأ منها «خان» مستقل اعتنق ديانة المنطقة التى يحكمها، فاعتنق حكام شرق آسيا
(البوذية)، ودخل خانات غرب آسيا وأواسطها فى الإسلام؛ وكان من بين هؤلاء
«التتار» بزعامة «تيمورلنك» .

اسمه ، وأصله ، ونسبه :

أما الاسم فشأنه شأن كثير من أسماء الممالك، لها مدلولها في لغتهم الأصلية؛ مثل: «بيرس» و«أقطاي» وغيرهم .

حتى إن كثيراً من المفردات والاصطلاحات قد شاع استعمالها في إبان استيلائهم على السلطة وظهور نفوذهم، سواء في مصر أو في الديار الشامية، من «دمشق» حتى «حلب» وأقاصى «الجزيرة». والجزيرة يا عزيزى القارئ - فى الطرف الشمالى الشرقى من البلاد السورية، إنما سميت بذلك لأنها تقع بين نهري «دجلة» و«الفرات» وتعد من أجود الأراضى خصوبة .

وفى نفس الوقت الذى عُرف فيه «قطز» باسم المملوكى، كان قد عرف عنه أيضاً اسمه العربى واشتهر به: «محمود» .



أصله: من «خوارز» وكانت دولة مستقلة لها كيانها ولها حضارتها ولها تاريخها، وشهدت عهداً مجيداً فيما بعد إسلامها، ولقد نبغ فيها كثير من القادة السياسيين (ملوكها) الذين حافظوا بحبات القلوب على إسلامها ونهضتها؛ وتميزها، كما نبغ فيها كثير من علماء المسلمين الذين تركوا بصماتهم جليلة ظاهرة على تراثنا .

ويقال بأن «قطز» كان من أفراد العائلة المالكة^(١)؛ ولكنه كان صغيراً حين احتدمت المعارك الطاحنة بين «التتار» المغيرين على البلاد الخوارزمية، وبين جيشها وأهلها، ووقع «قطز» فى السبى بعد هزيمة الخوارزميين .

فحمل إلى «دمشق» وبيع فى أسواق النخاسة فيها، فاشتراه المعز «أبيك» وضمه إلى عماليكه؛ وهكذا كان شأن قادة الممالك البارزين، ذوى النفوذ والسلطان، يَسْتَقْوُونَ بهؤلاء، ويستكثرون منهم، يربونهم ويدربونهم على الفروسية والقتال، ليكونوا لهم عدة فى تنافسهم على السلطة.

(١) كان «قطز» ابن أخت الملك - كما تقول الروايات التاريخية .

وبهذا أصبح «قطز» أحد العناصر المقربة والمحبة إلى المعز «أيك» ولقد اشتهر بالإخلاص والتبعية والطاعة، أضف إلى ذلك أخلاقه وصفاته، فقد كان نزاعاً إلى الدين، مواظباً على الصلاة، لم يذق خمراً ولم يقترب إثماً أو معصية، فيه شجاعة وشهامة .

ولقد ترك كل هذا سمعة طيبة لدى العامة من أهل «مصر» التي انتقل إليها مع سيده «عز الدين أيك» .



فى ميدان الحياة العامة

ومع تقدم «قطز» فى السن والمنصب والمكانة، وما لديه من مؤهلات وما تزخر به نفسه الأميرية من تطلعات، أصبح له دور فى الحياة السياسية العامة، ولكنه دور خجول إلى حد ما، وعلى استحياء؛ فإنه ما يزال على الساحة «الملك الصالح نجم الدين أيوب» و«أقطاي» أحد أبرز فرسان الممالك، و«بيبرس» الداهية المراوغ، وكل له أتباعه وأعوانه، وكذلك سيده «المعز أيك». وهنا لابد لنا - عزيزى القارئ - أن نعيش الحياة المصرية العامة، بكل أبعادها، الداخلية والخارجية؛ ومن ثم نرى موقع «قطز» منها، وكيف سنحت له الفرصة ليكون فى ذات يوم سلطاناً على مصر، وقائداً لأعظم معركة حسمت هجمة التار الوحشية الرهيبة على بلاد المسلمين؛ وقضت عليها إلى الأبد .

لقد كثر فى العهد الأيوبي - كما ذكرنا من قبل - استجلاب طائفة المماليك بغية الاعتزاز بهم، وتقوية نفوذهم .

وكان «الصالح نجم الدين أيوب» - آخر ملوكهم فى مصر - أكثر الأيوبيين استجلاباً لهم، حتى كان عامة عسكره وجنده منهم^(١)، حتى زاحموا أهل البلاد، وسرعان ما انتشر بينهم الفساد، حتى ضج منهم العامة. ولقد أشار إلى ذلك بعض الشعراء فقال:

(١) أبو المحاسن فى (النجوم الزاهرة)، وابن إياس فى (بدائع الزهور)

«الصالح» المرتضى «أيوب» أكثر من تُرك بدولته يا شرَّ مجلُوب

قد آخذ الله «أيوباً» بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرر «أيوب»^(١)

وأشهر هؤلاء - كما قدمنا «الظاهر بيبرس»^(٢) و«فارس الدين أقطاي» أحد أعظم منافسى «عز الدين أيبك»؛ هذا الثلاثى - من غير شك - رغم منافستهم وصراعهم، كانوا الرحم التى أفرزت «قطز» فتحمل عن جدارة واستحقاق بطولة قيادة معركة «عين جالوت» سواء طواعية منهم، أو رغماً عنهم، فقد كانت الأحداث تهتة لصنع التاريخ، ودخوله إليه من أوسع أبوابه.

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر ودور «المماليك»

لما انقضت الجيوش «الخوارزمية» على الديار - الشامية سنة (١٢٤٤م)، وخربت «بيت المقدس»، أثار ذلك ملوك أوروبا، واتجهت مجهودات لويس التاسع «ملك فرنسا - أو القديس «لويس» لما كان يتمتع به من تدين، ويتصف به من تعصب - إلى تجهيز حملة صليبية (معظمها من الفرنسيين) لمهاجمة مصر، يقودها بنفسه. غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بجزيرة «قبرص»، فجنح أكثر من نصف سفنها إلى سواحل الشام، ولم يصل منها إلى السواحل المصرية سوى «٧٠٠» قطعة؛ ونزح سكان «دمياط» إلى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك «لويس التاسع»، وتركوا مراكب التعدية، فعبرت جيوش «لويس» عليها من غير عناء^(٣).

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخيرها فى التقدم جنوباً، إذ كان عليه أن يتقدم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان، وقبل أن يفيق المسلمون من صدمة الفرار من دمياط.

وبدلاً من التقدم بسرعة ضرب الملك «لويس التاسع» خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التى بعثرتها العواصف؛ ثم تقدمت جيوشه من دمياط فى طريقهم إلى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور !!!

(١) «أيوب النبى» عليه السلام.

(٢) ولسوف نترجم له ونحدث عن عهده فى دراسة مفصلة إن شاء الله تعالى

(٣) من كتاب (دولة الظاهر بيبرس فى مصر) - «محمد جمال الدين سرور»

غير أن جهلها الطريق كان سبباً في تأخيرها فاستغرقت شهراً كاملاً في قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة، وهو لا يزيد طولاً عن خمسين ميلاً؛ وبتأخر تلك الحملة في دمياط وتعثرها في الطريق ذلك الوقت الطويل؛ أتاحت للمسلمين الفرصة فجمعوا شملهم وضموا صفوفهم .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا إلى «شار مساح» - وتقع في منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة، ولكي يتقدموا جنوباً وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة «أشموم طناح»، فاختار «لويس» الطريق الأسهل، وعمل على بناء سد في عرض النهر الصغير^(١)، وأنشأ أبراجاً متحركة لتحمي الجنود الذين يعملون في السد .

غير أن المسلمين بدءوا في مقاومة هؤلاء الجنود ، وعبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد، وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبي، فطاردها الملك «لويس» ولكن معسكره - على الرغم من ذلك - كان معرضاً للخطر من جميع الجهات .

وفي تلك الأثناء تقدم أحد أهالي بلدة «سلامون» وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة «أشموم طناح» في مقابل مبلغ من المال، فاستخدمه الملك «لويس» دليلاً، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات، أولها «الفرسان الداوية» ، وثانيها الخيالة الرماة وثالثها فرقة الملك .

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أول الأمر، غير أنه بمجرد عبور الفرقة الثانية التي كان يقودها أخو الملك «لويس» - عزم على التقدم للحاق بالعدو، ثم اقتحم معسكر المسلمين، فاخترقه من مقدمته إلى مؤخرته، وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد «فخر الدين»، فانهزم المسلمون وتفرقوا .

(١) يعرف الآن بـ «البحر الصغير» .

ثم دارت الدائرة على الفرنسين «الصليبيين»؛ فقد ثبتت فرقة من الممالك أمام - هذا الهجوم العنيف المبالغت، وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر السلطان .

وكان قائد تلك الفرقة «بيرس» الذى انقض عليهم، وقلب نصرهم إلى هزيمة، واندفع جنود الصليبيين فى شوارع «المنصورة»، وسبق كثير منهم قتلى من بينهم أخو الملك «لويس» نفسه، وكذلك عدد من الأسرى .

أما بقية الصليبيين فلحقت بالملك «لويس» فى معسكره، عند السد الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصغير، وقد عرض نفسه بموقفه هذا لهجوم الفرق المملوكية التى أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين، خاصة بعد أن كان قد فقد كثيراً من فرسانه وخيالاته، ولم يبق معه إلا الجنود المشاة، الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وفاة الملك الصالح «نجم الدين أيوب»

عندما أصبح مركز الملك «لويس» حرجاً فكر فى بناء جسر مؤقت على الجزء الذى لم يتنه من السد؛ ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تأتى لنجدته، غير أن النجاح فى بناء هذا الجسر لم يغير شيئاً من موقف جيش «لويس»... فلم يمهل المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه، موجّهين همهم نحو هذا الجسر، فى الوقت الذى لم يكن لهم فيه سلطان يأترون بأمره .

لقد توفى الملك الصالح «نجم الدين»... وكان ابنه وولى عهده «توران شاه» الذى عرف بـ «الملك المعظم» بعد ذلك - بعيداً عن مصر، فى حصن «كيفا» (١) .

هنا تأخذ الحياة السياسية القيادية منحى جديداً... إذ رأت زوجة «الصالح» - شجرة الدر - أن تخفى نبأ وفاته حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين، فيفروا من ساحة القتال إذا علموا بموت السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على

(١) يقع حصن «كيفا» على الضفة الغربية لنهر «دجلة» بالقرب من آمد .

الديار المصرية، وأحضرت الأميرين «فخر الدين» والطواشى «جمال الدين محسن» وهما من حاشية السلطان وخاصيته، وأسرت إليهما بموت الملك «الصالح» واتفقت معهما على القيام بتدبير شؤون الدولة حتى يحضر ابن زوجها «توران شاه» من حصن «كيفا» .

وكان ذلك التصرف من «شجرة الدر» يتم عن دهاء وحكمة، ويعد نظراً، ولعلها كانت تتطلع إلى الحكم والسلطان حين تسنح الظروف .

أما صاحبنا «قطز» فقد كان حتى ذلك الحين فارساً من أتباع «عز الدين» - أيك يتحرك معه وتحت مظلة يقاتل معه، ويسالم معه، لا يملك من أمره شيئاً، ولكنه يزداد مع مرور الأيام بروزاً وظهوراً وتقدمًا، مما لفت إليه الأنظار، بعضها إعجاباً، وبعضها حقداً وحسداً، والبعض الثالث ازدراءً واحتقاراً، إذ لم يخرج عن كونه مملوكاً تابعاً .

«توران شاه» يحسم الموقف

وعاد «توران شاه» إلى مصر على جناح السرعة، وقصد إلى المنصورة فور وصوله، ونزل بقصر السلطنة، وكانت «شجرة الدر» زوج أبيه قد استقبلته وسلمته مقاليد الأمور .

وأشرف «توران شاه» بنفسه على الحرب، ووضع الخطة المناسبة، وختم واقعة المنصورة بنصر مؤزر على الصليبيين، كيف؟

كان أول ما قام به من الأعمال هو نقل أسطول من المراكب على ظهور الجمال إلى نقطة على فرع «دمياط» شمالي المراكب الفرنسية، حيث فاجأها من حيث لا تحتسب، وهناك اشتبك الأسطولان : المصرى والفرنسى، ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيراً من مراكبه .

وأصبح مركز «لويس التاسع» سيئاً للغاية، إذ لم يعد لديه من القوى ما يمنع تقدم المسلمين، وقلت عنده الأزواد، وتعلمل الجند، وتفشى فيهم الوباء

وأخيراً طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يكون للصليبيين « القدس » وبعض بلاد الساحل ، فرفض المصريون ذلك .

عندئذ أحرق الصليبيون مراكبهم ، ولجأوا إلى التحصن فى دمياط ، فتبعهم المسلمون ، وحاربوهم حتى أوصلوهم إلى « فارسكور » .

وهناك كانت المعركة الفاصلة ، إذ حمل المسلمون على الصليبيين حملة صادقة قوية واستماتوا فى القتال ، وكان قائدهم يومئذ « بيرس » فأزاحوهم عن مواقعهم ، وأسروا عدداً كبيراً منهم ، واستولوا على كثير من الغنائم .

وفر «لويس التاسع» ومن بقى معه من الجند إلى تل (منية عبد الله) - بالقرب من المنصورة ، واعتصم هناك ، لكن المسلمين تبعوه ، وشددوا عليه الحصار ، مما اضطره - أخيراً إلى التسليم طالباً الأمان له ولمن معه ، وكان عددهم يبلغ خمسة آلاف ، معظمهم من الفرسان و النبلاء والأشراف .

لويس التاسع فى الأسر

وسيق «لويس التاسع» معتقلاً إلى دار القاضى «إبراهيم بن لقمان» وأقيم عليه حرس هو الطواشى «صبيح»؛ وبقي مدة، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال، وأجبر على إخلاء دمياط .

هذا النصر العظيم ، بقيادة «بيرس» جعل المماليك فى مركز قوة واعتداد، ومن ثم بدأ خلافهم مع «توران شاه»، الذى أخذ يقرب إليه أعوانه، وحاشيته الذين حضروا معه من حصن «كيفا»، وقلدهم المناصب العليا التى كان يتمتع بها ممالك أبيه .

وكذلك بدأ يعزل «شجرة الدر» عما بأيديها من سلطات، وكانت تظن أنها تستطيع أن تسيطر على هذا الشاب، وتسيره حسبما تريد، فشعرت بالمهانة والعزلة، فلجأت إلى المماليك ، وهى تعرف مقدار كرههم لـ «توران شاه» ؛ وأرسلت إليهم تقول : (اقتلوا «توران شاه» وعلى رضاكم) ...

نهاية «توران شاه»

وصادف قولها هذا هوى فى نفوسهم الثائرة الحاقدة . . .

كما بلغهم أن «توران شاه» عندما يشمل من شرب الخمر يضع أمامه صفاً من الشموع الموقدة ، ثم يتناول السيف ويضربها واحدة بعد الأخرى ، وهو يقول :
(هكذا أفعل بالممالك البحرية) ، ويذكر أسماءهم واحداً بعد الآخر .

وكان من بين هؤلاء الأسماء بالطبع «بيبرس» و«أقطاي» و«أيك» و«قلاوون الصالحى» ؛ فاجتمع هؤلاء وأخذوا قرارهم بالتخلص من «توران شاه» قبل أن يغدر بهم .

كان الجميع لا يزالون فى «فارسكور» بعيداً عن القاهرة ، وقد انتهى أمر الصليبيين . . .

وفى ذات يوم مدَّ السماط لحفل طعام احتفاءً بالنصر ، وحين تصدر «توران شاه» المجلس ، تقدم إليه هؤلاء الممالك شاهرين سيوفهم ، وبادره «بيبرس» بأول ضربة فأصابت يده وانقطعت أصابعه ، وتبعه الآخرون ، إلا أنه فر من بين أيديهم ولجأ إلى برج خشبي كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أثناء إقامته بـ «فارسكور» ، فأدركوه هناك وأشعلوا النار فى البرج ، فاستغاث . . . ثم ألقي بنفسه فى النيل وراح يسبح ، وما زالوا يرمونه بالسهام وهو يقول : (خذوا ملككم ودعوني أرجع إلى حصن كيفا) ، ويصرخ ويستغيث ولكن دون جدوى ، حتى قضى غريقاً .

ثم انتشلت جثته وتركت على الشاطئ ثلاثة أيام ، لا يجزؤ أحد من أعوانه على الاقتراب منه أو دفنه ، ثم وورى التراب فى المكان نفسه .

وبدا عصر الممالك :

بهذا الفصل المأساوى انتهت حياة «توران شاه» دون أن يجلس على عرش أبيه ، أو يدخل القاهرة . . . ويقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية ، وبدأ عصر الممالك .

فلقد أجمع أمراء المماليك على تولية «شجرة الدر» مكان «توران شاه» ؟! ظناً منهم أنهم يحكمون من خلالها، وحتى لا تقع فتنة بينهم، أيهم أولى من الآخر . واستطاعت «شجرة الدر» بما أوتيت من ذكاء حاد وبصيرة نافذة وقوة شخصية، أن تتجنب إلى الناس وتستميلهم إليها ؛ لكن طائفة من الشعب رفضت هذا المبدأ، فما تعود المسلمون خلال دهورهم الطويلة أن تحكمهم امرأة، وكان أهل الشام أول الخارجيين عليها، حين بايعوا «الناصر يوسف الأيوبي» والى حلب سلطاناً عليهم .

وأدركت «شجرة الدر» خطورة الموقف، فاستشارت أعوانها من أمراء المماليك، فأشاروا عليها بأخذ رأى القضاة وأهل الشورى، فارتأتى هؤلاء أن تزوج من الأمير «عز الدين أيك» - أتاكب العسكر-^(١)، وتفوض إليه أمور الدولة وقد تم هذا بالفعل بعد ثمانين يوماً من الحكم المطلق الذى باشرته بنفسها .



وتدور عجلة التاريخ . . . ويتبوأ الأمير «عز الدين أيك» سلطاناً على مصر، تحت اسم «المعز» ولكنه كان يواجه أكثر من خطر، من الخارج والداخل، وأثبت فى أكثرها كفاءة ومقدرة . كان أولها استغلال الملك «الناصر» - صاحب الشام - الاضطراب الذى ساد مصر فزحف بجيوشه يريد الاستيلاء عليها، فاستعد له «أيك» ومن معه، والتقوا عند «العباسية» فكانت النصر أول المعركة لصاحب الشام، ثم كر عليه المماليك فهزموه شر هزيمة، ارتد على أثرها إلى الشام، دون أن يحقق غرضه .

وكان صاحبنا «قطز» الساعد الأيمن لسيده «أيك» ، وكان قد بلغ منزلة عالية عنده، ولم يكن بينه وبين أن يسمى أميراً من أمراء المماليك إلا طفرة بسيطة؛ وذلك لما تحلى به من خلق واستقامة وشجاعة وإخلاص، قل أن توجد فى أمثاله من المماليك .



(١) أتاكب العسكر : قائدهم ورئيسهم .

وحانت الفرصة :

لم يكد «عز الدين أيك» يفرغ من قتال صاحب الشام حتى وافته الأخبار (٦٥٠) هـ ؛ بأن «هولاكو» قد خرج من مقره فى (قرة قورم) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار أن يقضى على طائفة الإسماعيلية فى أرض «فارس» ويهدم «بغداد» والخلافة العباسية فيها. فاستعد لذلك وقد أوجس فى نفسه خيفة من امتداد الخطر إليه . . .

لكن استعداده جاء على حساب الشعب ، إذ أزهق الأهلين بالضرائب والمكوس وجمع الأموال؛ ثم إنه عين (الأمير سيف الدين قطز) نائباً للسلطة بمصر. . . وهذا مما أوغر صدور بقية أمراء المماليك، وعلى رأسهم «أقطاي» و«بيبرس» . وعقد صلحاً مع صاحب الشام ليأمن جانبه .

وحدثت فى داخل البلاد فتنة تزعمها رجل يدعى « حصن الدين بن ثعلب» ، زعم أنه ينتمى إلى آل البيت ، فاجتمع حوله العديد من الأعراب ، من كلا الوجهين : البحرى والصعيد ، فتصدى لها « أيك » بحزم ، واستغرقت منه وقتاً ، واستنفدت منه قوة . . . حتى قضى عليها ووأدها .



رأس «أقطاي»:

كان الأمير « أقطاي » أكثر أمراء المماليك تضرراً من تصدر «سيف الدين قطز» لنيابة السلطنة ، وكان لا يخفى ذلك ، وينشر آراءه المعادية لـ «أيك» ونائبه فى كل مجلس ومكان ، ويشير فى النفوس كوامن الحقد ، حتى استفحل أمره واستشرى خطره .

فدبر له «أيك» مكيدة الخلاص ، واستقدمه إليه فى «قلعة الجبل» ، واتفق مع طائفة من حرسه الخاص أن يهاجموا «أقطاي» ويضربوه ضربة رجل واحد ، وقد تم ذلك بالفعل ، وعندما علا صراخ أتباع « أقطاي » خارج القلعة ، وقد علموا بما وقع لأميرهم ، واشتد هياجهم ، ألقى إليهم « أيك » برأس « أقطاي » ، فوقعت فى نفوسهم الرهبة ، وتفرقوا



وكان «بيبرس» - رغم فروسيته ونجدته - صاحب حيلة ومكر وغدر، وتشوق إلى المناصب والرياسة، فلما رأى ما حل بصاحبه وصديقه «أقطاي» أدرك أنه في طريقه إلى نفس المصير، إن هو استمر على ما هو عليه، فعزم على الخروج من مصر هارباً... ولكن إلى أين؟

اجتمع مع بعض أمراء المماليك، الذين هم على شاكلته في العداوة لـ «أيك»، أمثال «قلاوون الألفي» و«سنقر الأشقر» و«الأمير يسرى» وتداولوا الرأي، ثم اتفقوا على الخروج أولاً من البلاد.

ولقد استطاعوا الإفلات من قبضة «أيك» وتضييقه عليهم، حتى إذا بلغوا «غزة» من أرض فلسطين، راسلوا صاحب الشام مستأذنين في القدوم عليه واللجوء إليه، فأذن لهم.

وكان هؤلاء الأمراء يرجون أن يثيروا صاحب الشام على «أيك» ويغروه باحتلال مصر، فسمع لهم وقنع بما قالوا، وجهاز جيشاً، كانوا في مقدمته؛ واستعد لهم «أيك» بجيش كبير، ثم التقوا جميعاً عند قرية «العباسية» لكنه لم يجر بينهم قتال، فتفاوضوا وتم الصلح على أن تكون مصر وساحل الشام من نصيب «أيك»، وأن لا يؤذى صاحب الشام أحداً من أمراء المماليك؛ وكان ذلك عام (٦٥٤ هـ).

هذا الصلح لم يكن في مصلحة أمراء المماليك، فعادوا مع «الملك الناصر» - صاحب الشام - بخفي حنين، وأحسوا بأنهم قد انتقلوا من سجن في مصر إلى سجن غيره في دمشق.

المواجهة بين «قطز» وأمراء المماليك :

وصل إلى مسامع الملك «الناصر» - صاحب الشام - أن «بيبرس» ومن معه يدبرون لقتله والفتك به، فلم يقبض عليهم حتى لا يثير بين أتباعه وجنده وبين

أتباع أولئك، بل أمر بإجلائهم إلى غزة، ووجههم إليها؛ وهناك شعروا بأنهم قد أصبحوا تحت رحمة «أيك»، وفي متناول يده، فراسلوا الملك «مغيث» - صاحب «الكرك» - ونزلوا عنده .

وما زالوا بـ «المغيث» يشيرونه ويشدون من أزره حتى اقتنع منهم بفتح مصر، والاستيلاء عليها فجهزهم بالعدد والعدد . . . وساروا متجهين إلى «مصر» .



علم «المعز أيك» بتحركهم هذا . . ! ولكنه كان فى وضع لا يمكنه مغادرة البلاد على رأس الجيش لمقاتلة أمراء المماليك، فقد كان خلافه مع «شجرة الدر» - التى تزوجها - قد بلغ أوجه، وهى التى عُرِف عنها المكر والدهاء وتدبير المؤامرات، عندئذ قرر إرسال «سيف الدين قطز» - نائب السلطنة - على قيادة الجيش .

وكانت المواجهة !! وعند قرية «الصالحية» اصطدم الفريقان، واستطاع «قطز» - بما أوتى من شجاعة وفروسية أن يكسب المعركة، ويأسر الأميرين: «قلاوون الصالحى» و«بلبان الرشيدى»، أما الباقون ففروا منهزمين إلى «الكرك» .

أيهما يسبق ؟

ساءت العلاقة بين «عز الدين أيك» وبين زوجته «شجرة الدر» ؛ فقد كانت تظن عندما تزوجته أنها ستبقى صاحبة الأمر والنهى على البلاد والعباد، وأنها بحكم قوة شخصيتها الطاغية - تأمره فيطيع وينفذ لها كل رغباتها، إلا أن «أيك» تفرد بالسلطة وحجز بين «شجرة الدر» وبين رغبتها، وسد عليها المنافذ والطرق، فأضحت أسيرة القصر، لا تملك أمراً ولا نهياً .

ومما زاد فى حقدها على «أيك» وأشعل نار الغيرة فى قلبها أنه أرسل إلى «بدر الدين لؤلؤ» - صاحب الموصل - يخطب عليه ابنته !!

هنا . . . لم تطق «شجرة الدر» صبراً، فأجمعت أمرها، ودبرت حيلتها ومؤامرتها للخلاص من «أيك» . . . ، إذ أمرت خمسة من خدمها أن يقتحموا عليه الحمام ويقتلوه، ثم يزعمون أنه مات مغمى عليه .

وفى الصباح أذيع قتله بين الناس، فدفنه ابنه «علي» - من زوجته الأولى -
ومماليكه، ثم قبضوا على «شجرة الدر» وسلموها إلى الجوارى، فضربتها بالنعال
حتى ماتت فى «ربيع الثانى» سنة (٦٥٤) هـ، وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة
أيام، ثم دفنت بترتها المعروفة باسمها اليوم .

كان عمر «علي» خمسة عشر عاماً فتولى السلطنة مكان أبيه، فأقر بقاء «قطز»
فى نيابة السلطنة، وفوض إليه كثيراً من الشؤون الإدارية والعسكرية، وانصرف هو
إلى هواياته .

ولقد كان «قطز» بحق وجدارة أهلاً لهذا المنصب وتلك المهمات ، فقام بها خير
قيام، كما استطاع أن يقف بحزم فى وجه أطماع أمراء المماليك الذين فروا من
البلاد، وكانوا ينتقلون بين الشام وبين «الكرك» - فى الأردن -، وبين «طور سيناء»
لا يدرون أين يستقرون، وعلى رأسهم الظاهر «بيبرس» .

وأخيراً وبعد طول تشرد وارتحال وقد جاءتهم أنباء الزحف «التتارى» الذى
ينطلق كالإعصار مدمراً كل ما يواجهه، وأنه فى طريقه إلى «دمشق» بعد سقوط
«بغداد» - عاصمة الخلافة العباسية - وما حل بها من قتل وسبى وتدمير ..
وإفناء .. وحرق وسلب ونهب ..، أزمعوا العودة إلى مصر ؛ وليكن ما
يكون!!!

ولم يخيب «قطز» ظنهم، فاستقبلهم ورحب بهم وأكرم نزلهم وعفا عنهم ..،
ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تجاوز كل ذلك إلى تعيين «بيبرس» أنابكاً للعساكر -
أى قائداً للجيش -، لأنه يعلم ما يتمتع به «بيبرس» من فنون فى القيادة والفروسية
والشجاعة، إلى جانب أنه كان يريد أن يتجنب شره .

وحين توالى الأنباء من العراق والشام بما فعله التتار، وأنهم يريدون متابعة الزحف على مصر، وقد تأكد لديه ذلك من خلال رسله وجواسيسه، عندئذ جمع الأمراء على مختلف مشاربهم واتجاهاتهم، وتحدث إليهم، وناقشهم فيما يجب اتخاذه من تدابير، فأدلى كل بدلوه وأعطى رأيه، فلما انتهى من سماع آرائهم، قال لهم: (لابد من «سلطان» قاهر يقاقل هذا العدو...، والمملك «المنصور» صبي لا يعرف تدبير المملكة...! وكان الملك «المنصور» - على بن أبيك - غراً صغيراً مستهتراً بأمور الدولة، جل همه اللهو واللعب...، وقد فتح بهذا الانصراف الباب لأمه كي تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة، تحاول أن تعيد دور «شجرة الدر».

ولم يقل الأمراء رأيهم فى «المنصور» وخاصة «بيبرس» الذى كان يطمح ويطمح إلى السلطان، حتى لا يكشف نفسه، متحياً فرصة أخرى .

وفى ذات يوم ضرب «قطز» ضربته...!

اغتنم فرصة خروج الأمراء للصيد، فقبض على «المنصور» وأخيه، وأمهما، واعتقلهم بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر، سنة (٦٥٧) هـ.

وعندما جاءه الأمراء محتجين على ما فعل، غاضبين ثائرين، هداً من حدة ثورتهم بقوله، - معتذراً إليهم - : إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتكم^(١)

فاطمأنوا وباعوا ، وتوحدت الكلمة .

وبدأ الاستعداد على أشده فى طول البلاد وعرضها ، للدفاع عن مصر ، والذود عن حياض الإسلام .

(١) المقرئى : (السلوك) (ج ١) القسم الثانى : (ص : ٤١٧ - ٤١٨) .

العز بن عبد السلام :

لايفوتنا - عزيزى القارئ - ونحن نتحدث عن فترة الاستعداد لمجابهة التتار، أن نتحدث عن شخصية كان لها الأثر الكبير واليد الطولى فى تهيئة الجو العام على الصعيدين : الشعبى والرسمى فى الديار المصرية، لتأخذ البلاد الأهبة ، وتستعد الاستعداد المناسب للملاقاة العدو. هذه الشخصية هى : عز الدين بن عبد السلام .

قال عنه «ابن كثير» - رحمه الله - فى «البداية والنهاية» : (١)

[عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المذهب - الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أبو محمد السلمى الدمشقى، الشافعى المذهب، شيخ المذهب ومفيد أهله، وله مصنفات حسان، منها : التفسير، واختصار النهاية، والقواعد الكبرى والصغرى، وكتاب الصلاة، والفتاوى الموصلية، وغير ذلك .

ولد سنة سبع (أو ثمان) وسبعين وخمسمائة (٥٧٧ - ٥٧٨هـ)؛ وسمع كثيراً، واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع فى المذهب، وجمع علومًا كثيراً، وأفاد الطلبة، ودرس بعدة مدارس بدمشق، وولى خطابتها، ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق.

وكان لطيفاً ظريفاً، يستشهد بالأشعار ؛ وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على «الصالح إسماعيل» - ملكها - تسليمه «صَفَر» و«الشقيف»^(٢) إلى الفرنج «الصليبيين»؛ ووافقه الشيخ «أبو عمرو بن الحاجب المالكي»؛ فأخرجهما «الصالح إسماعيل» من دمشق، فصار «أبو عمرو» إلى «الناصر داود» صاحب «الكرك»

(١) (ج : ١٧) (ص : ٢٤٨).

(٢) صفر : شمالي فلسطين وكانت ذات أهمية عسكرية بالغة، والشقيف : قلعة صخرية على جبل شامق تطل على نهر الليطاني - جنوب لبنان .

فأكرمه؛ وسار «ابن عبد السلام» إلى مصر - فى عهد «الملك الصالح أيوب بن الكامل» - زوج شجرة الدر - فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس «الصالحية» .



وكان لهمته وجراته وعلمه، وقوة شخصيته، دور كبير فى إيقاظ الهمم، وبعث موات الأرواح والنفوس، لا يخشى فى الحق لومة لائم، ولا يسكت عن باطل أبداً، ولقد أحبه الشعب حباً عظيماً، وهابه أمراء الممالك هبة كبيرة، يحسبون لغضبه ألف حساب وحساب، خصوصاً بعد تولى «أيبك» ثم «شجرة الدر» ثم «سيف الدين قطز» فحين حاول (هؤلاء الأمراء) إرهاب الناس بالضرائب والمكوس والجبايات، بحجة إعداد الجيش وتسليحه لملاقاة التار والأعداء من الصليبيين حملة القديس «لويس» - التاسع - ملك فرنسا - على المنصورة و«دمياط». وقف الشيخ «العز بن عبد السلام» فى وجههم جميعاً، وحذرهم وأنذرهم، ثم صرح لهم بأنهم ليسوا أهلاً للملك والسلطان لأنهم «ممالك»، فإن تحرروا من رقهم كان للشعب حق الاختيار من بينهم...! ولقد اضطر هؤلاء جميعاً بلا استثناء أن يتزلوا عند فتواه، ويشتروا أنفسهم بالأموال التى كانوا قد اغتصبوها من الناس والعامه.

ولقد اشتهر عنه - رحمه الله - لقب : «بائع الأمراء» ...!



وكان «سيف الدين قطز» من أقرب المقربين إلى الشيخ «العز» إذ كان متديناً، خلوقاً تالياً للقرآن، يخشى الله تعالى، يستشير ويستنصحه، ويستمع إليه، وينفذ آراءه.



حكى الشيخ «قطب الدين اليونينى»^(١) فى «الذيل على المرأة» عن الشيخ «علاء الدين بن غانم» عن المولى «تاج الدين أحمد بن الأثير» - كاتب السر - فى أيام «الناصر» صاحب «دمشق» قال: [لما كنا مع «الناصر» بوطاه «برزة»^(٢) جاءت البريدية بخبر أن «قطز» تولى الملك بمصر ، فقرأت ذلك على السلطان، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا، قال: فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد فقال لى: جاءكم الخبر من مصر بأن «قطز» قد تملك؟ فقلت: ما عندى من هذا علم... وما يدريك أنت بهذا؟ فقال: بلى... والله سيلى المملكة ويكسر التار... فقلت: من أين تعلم هذا؟ فقال: كنت أخدمه وهو صغير، وكان عليه قُمْل كثير، فكنت أفليه وأهينه وأذمه، فقال لى يوماً: - ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟ فقلت له: أنت مجنون؟ فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التار؛ وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه: فقلت له حيثئذ - وكان صادقاً -: أريد منك إمرة خمسين فارساً، فقال: نعم... أبشر.

قال «ابن الأثير»:

[فلما قال لى هذا قلت له: هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال: والله ليكسر التار؛ وكان كذلك. ويتابع «ابن الأثير» فيقول:

[ولما رجع «الناصر» إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها. ثم رجع عنها، ودخلها أكثر الجيوش الشامية ، كان هذا الأمير الحاكى فى جملة من دخلها، فأعطاه «المظفر» إمرة خمسين فارساً ووفى له بالوعد، وهو الأمير «جمال الدين التركمانى» فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن «المظفر»، فذكرته... ثم كانت وقعة التار على أثر ذلك ، فكسروهم وطردوهم عن البلاد...]

(١) البداية والنهاية (ج : ١٣) (ص : ٢٣٩)

(٢) من قرى ضواحي دمشق .

عزیزی القاری:

ونحن إذ نورد لك هذه القصة كما دونتها كتب التاريخ لا نريد أن نحملك على تصديقها أو نفيها - معاذ الله - ، ولكننا نريد أن نذكرك ونذكر أنفسنا بأن شخصية «قطز» - رحمه الله - كانت مميزة بالتقوى والتدين، وصفاء القلب والنفس، وزكاء الإيمان في الروح، والشجاعة والإقدام، وحسن التدبير والقيادة.

وما النداء الذي كان شعاراً يوم «عين جالوت»: وإسلاماه ، إلا صورة صادقة لمعنى الجهاد في سبيل الله على حقيقته، مبنی ومعنى ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ...﴾ [الحج: ٤٠].



والآن هيا بنا إلى «عين جالوت»... المعركة... ، التي تذكرنا بـ «حطين» و«اليرموك» و«القادسية»، وغيرها من معارك الإسلام الخالدة .

معركة «عين جالوت» :

ذكرنا فيما سبق أن الأمير «بيبرس» قد عاد إلى مصر مع مجموعة من أمراء المماليك ، بعد أن طوفوا في الديار الشامية دون أن يستقروا في مكان معين وهؤلاء وإن كانوا قد فعلوا ذلك. حقدًا على «قطز» وتولية السلطة في «مصر»، إلا أنهم في نفس الوقت كانوا في غيرة شديدة على الإسلام وأهله، يريدون أن يكونوا في جيش قوى يستطيع أن يجابه الهجمة المغولية على أقطار الإسلام؛ إلا أنهم لم يوفقوا إلى القائد الذي يتخذ هذا القرار، سواء في «دمشق» أو «حلب» أو «حماء» أو «الكرك»...

وكانت فاجعة سقوط «دمشق» من أعظم المؤثرات على نفوسهم!!!

وفي نفس الوقت نقطة الانطلاق لمعركة «عين جالوت» الفاصلة الحاسمة!!!

فكيف كان ذلك ؟

يحدثنا «ابن كثير» - رحمه الله - فى «البداية والنهاية» عن ذلك فيقول^(١) :
[أرسل «هولاكو» - وهو نازل على «حلب» - جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال
له : «كتبغا»، فوردوا «دمشق» فى آخر شهر «صفر» - (٦٥٨هـ) ، فأخذوها
سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة .

وقد كتب «هولاكو» أماناً لأهل البلد فقرأ بـ «الميدان الأخضر»^(٢) ونودى به
فى البلد ، فأمن الناس على وجل من الغدر - كما فعل بأهل «حلب» - ؛ هذا
... والقلعة (قلعة دمشق) ممتنعة مستورة ، وفى أعاليها المجانيق منصوبة والحال
شديدة ، فأحضر التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها ، وهم راكبون
على الخيل ، وأسلحتهم على أبقار كثيرة ؛ فنصب المنجنيق على القلعة من غربيها ،
وخربوا حيطاناً كثيرةً وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالطر المتدارك
فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها ، وتداعت للسقوط - وذلك فى نصف «جمادى
الأولى» من هذه السنة ، وقتلوا المتولى بها «بدر الدين بن قراجا» و«نقييها»
«جمال الدين بن الصيرفى الحلبي» ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له :
«إبل سيان» - وكان معظماً لدين النصارى - فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ،
فعظّمهم وذهب طائفة من النصارى إلى «هولاكو» فى حلب - وأخذوا معهم هدايا
و تحفاً ، وقدموا من عنده ومعهم أمان (فرمان) من جهته .

ودخلوا من باب «توما» ومعهم صليب منصوب ، يحملونه على رؤوسهم ،
وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ؛ ويذمون
الإسلام وأهله ... ، ومعهم أوان فيها خمر ، لا يمرون على باب إلا رشوا عنده
خمرًا ، وقمائم ملائنة خمرًا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل
من يجتازون به فى الأزقة والأسواق ، أن يقوم لصليهم

ودخلوا من «باب الحجر» عند رباط الشيخ «أبى اليبان» ورشوا عنده خمرًا
وكذلك على باب مسجد «درب الحجر» الصغير والكبير ؛ واجتازوا فى السوق حتى

(١) (ج : ١٣) (ص : ٢٣٢) - بتصرف -

(٢) «الميدان» من أهم أحياء مدينة دمشق ، ولا يزال قائماً حتى اليوم .

وصلوا «درب الريحاني» أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق «كنيسة مريم» .

فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق، فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله؛ ثم دخلوا بعد ذلك إلى «كنيسة مريم» وكانت عامرةً . . . ، وكان هذا سبب خرابها .

ودخلوا إلى الجامع بخمر ، وكان في نيتهم - إن طال مدة التار - أن يخربوا كثيراً من المساجد وغيرها . [.



هذه - عزيزى القارئ - صورة من صور الحقد الصليبي على الإسلام، فما أن تناح لاهله الفرصة حتى يبدو ما فى داخل نفوسهم تجاهه، نذكر ذلك دون مبالغة أو إثارة؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قَدْ بَدَأَ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] .

ونعود إلى متابعة رواية «ابن كثير» - رحمه الله - فيقول: [ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها «إبل سيان» فأهينوا وطرردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .

وهذا كان فى أول هذه السنة، وسلطان الشام «الناصر بن العزيز» - الأيوبي -؛ وهو مقيم فى «وطاة برزة» ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التار إن قدموا عليهم. وكان فى جملة من معه الأمير «بيبرس - البندقدارى» فى جماعة من المماليك البحرية؛ ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة. . . ، وقد عزمست طائفة من الأمراء على خلع «الناصر» وسجنه ومبايعة أخيه - الملك الظاهر «على» -؛ فلما عرف «الناصر» ذلك، هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر، وساق الأمير «بيبرس» فى أصحابه إلى ناحية «غزة»، فاستدعاه الملك المظفر «قطز» إليه، واستقدمه عليه، وأقطعته ناحية «قليوب» وأنزله بدار الوزارة، وعينه (أتابكا) قائداً للعساكر وعظم شأنه لديه [.



اشتدت وطأة التار على البلاد الشامية بأسرها ، قتلاً ونهباً وسلباً وتدميراً... ، ولم يبق أمامهم سوى مصر... ، فعزموا على غزوها .

فأرسل «هولاكو» - وهو نازل بـ «حلب» - رسالة إلى الملك المظفر «قطز» يتهدده ويتوعده فيها إن لم يسلم إليه ويستسلم ، ولقد جاء فى الرسالة :

[من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القائد الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك «المظفر قطز» الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، ينعمون بأنعامه، ويقتلون من كان لسلطانه بعد ذلك؛ يعلم الملك «المظفر» وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها من الأعمال، أننا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه؛ فلکم فى جميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزددجر، فاتعظوا بغیرکم، وأسلموا إلینا أمرکم قبل أن ینکشف الغطاء، فتندموا ويعود علیکم الخطأ؛ فنحن ما نرحم من بکی، ولا نرق لمن اشتکی؛ وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعلیکم بالهرب وعلینا الطلب؛ فأی أرض تؤویکم؟ وأی طریق تنجیکم؟ وأی بلاد تحمیکم؟ فمالکم من سیوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخیولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسیوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لدينا لا تنفع، ودعاؤکم علینا لا یسمع...] إلى أن یقول :

[أسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادکم منکم خاوية؛ فقد أنصفناکم إذ راسلناکم، وأیقظناکم إذ حذرناکم، فما بقى لنا مقصد سواکم، والسلام علینا وعلیکم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى] (٢، ١)

(١) (صبح الأعشى) (القلقشندي) (ج: ٨) (ص: ٦٣).

(٢) (السلوك) (المقريزي) (ج: ١) (القسم الثانى) (ص: ٤٢٧ - ٤٢٨).

كانت رسالة « هولأكو » هذه إنذاراً وتحذيراً . . . وخطراً على البلاد كبيراً .
ولم يكتف بما فعل بل أرسل جيشاً كثيفاً، فيه العدد والعدة، مع قائده «كتبغا»،
الذى كان نازلاً فى «بعلبك»^(١)، باتجاه «غزة» لدخول «مصر» ، إذ لم تكن
رسالته إلا نوعاً من التضييل والتمويه .

وصل هذا الكتاب إلى الملك المظفر « قطز » فما اضطرب ولا خشى ولا
تزعزع . . . ثم جمع الأمراء، وشاورهم فى الأمر كى لا ينفرد باتخاذ القرار،
فيرمى بالتسلط . . . فتردد بعضهم أول الأمر فى الخروج لملاقاة العدو . . . الذى
أرهب القلوب وأطاش العقول، وزرع الرعب فى النفوس . . . لكن الملك «قطز»
اتخذ قراره فى الحال، وقد رأى فى بعض أمرائه تشجيعاً وتصميماً، خصوصاً
الأمير «بيرس» ؛ فأمر بقتل هؤلاء الرسل، ثم تعليق رؤوسهم على «باب
زويلة»^(٢)، إرهاباً للعدو وحفزاً لنفوس قادته وجنده ؛ ثم أمر بالتجهز للخروج
إلى « الصالحية » .

ولما كان يوم الاثنين الخامس عشر من شهر «شعبان» سنة (٦٥٨) هـ ؛ خرج
الملك المظفر «قطز» بعسكر مصر، ومن انضم إليهم من عسكر الشام والعرب
والترکمان وغيرهم من قلعة الجبل، قاصدين «الصالحية» .

ولما بلغوها طلب « قطز » الأمراء، وأمرهم بمتابعة المسير فامتنعوا فقال لهم : [يا
أمراء المسلمين . . . لكم زمن تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزو كارهون . . .
وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته، فإن
الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين] ^(٣)

ولقد كان لهذا القول أثره فى نفوس أمراء المماليك الذى امتنعوا أول الأمر عن
الخروج من «مصر» إلى «الصالحية» للدفاع ثم تجنبوا عن الزحف لملاقاة العدو
وصده . . .

(١) إحدى مدن «البقاع» اللبنانية الشهيرة .

(٢) (السلوك) (المقريزى) (ج : ١) (القسم الثانى) (ص : ٤٢٩)

(٣) (السلوك) (المقريزى) (ج : ١) (القسم الثانى) (ص : ٤٢٩) .

فلم يكد ينتهى «قطز» من كلمته حتى ثارت حميتهم ونخوتهم، وانفقوا جميعاً على مهاجمة هذا العدو الغاشم، ودفعه عن البلاد ورفع أذاه عن العباد.

وعهد الملك المظفر «قطز» إلى الأمير «بيبرس» أن يتقدم إلى بلاد الشام مع طليعة من العسكر ليقف على أخبار التتار وأحوالهم ويستكشف.. أو كان «بيبرس» مقداماً، شجاعاً، مغامراً..، يتقن فن الحرب..، يعرف كيف يقاتل، ومتى يقاتل، وأين يقاتل..، فتقدم بجنده حتى وصل إلى «غزة»...، وهناك ضرب ضربته الأولى، وأجبر حاميتها من التتار على الفرار وإخلاء البلد، فاستولى عليها وطهرها.. وأعدّها لتكون قاعدة انطلاق داخل الأرض والديار الشامية، ثم لبث ينتظر وصول «قطز»..

ولم يطل انتظاره، إذ وافاه السلطان، الملك المظفر «قطز» بالعساكر والأمراء، ثم انطلقوا جميعاً نحو الشمال، على طول خط الساحل، حتى بلغ «عكا» - وكانت لا تزال فى أيدي الفرنجة من الصليبيين - فأخذ عليهم العهد أن لا يتحالفوا مع عدوه، ويلتزموا الحياد، ففعلوا .

وكان جيش التتار الذى بلغه مقتل الرسل، وعزم «قطز» على المواجهة والمجابهة، قد ثار وانتشر، وخرج كالإعصار - قاصداً الديار المصرية ، يغلى حقداً ويفور غيظاً، يكتسح كل شىء فى طريقه .

والتقى الجيشان عند «مرج بيسان» فى مكان يسمى بـ «عين جالوت»... وكان ذلك يوم الجمعة فى الخامس والعشرين من شهر «رمضان» عام (٦٥٨) هـ .

استمرت المعركة ثلاثة أيام، كانت الرحى فيها شديدة الوطء على الطرفين، ورغم قلة عدد جند الإسلام أمام كثافة جيش التتار، وعدته الحربية، وضراوة قتاله..، فإن شجاعة القائد المظفر «قطز» وبسالته، ومغامرات قائده «بيبرس» واندفاعاته، جعلت جند المسلمين فى غاية الحمية، لا يخشون بأساً ولا رهقاً.

وصمدوا في وجه العدو صمود الأبطال ، وأظهروا من حسن البلاء ما يذكر
بأمجاد الأوائل والسابقين ، - رضوان الله عليهم - .

وكان للخطة الحكيمة التي وضعها «قطز» مع قائده «بيرس» أشد الوقع على
العدو المغتر ، الذي كان يفاجأ بين الحين والحين من سير المعركة بمفاجآت لم
يعهدها من قبل . . . ، مما أوقع البلبلة في صفوفه وأثر على اندفاعه .

ومما زاد في حماس جند المسلمين يومئذ مقتل فرس الملك المظفر «قطز» ثم
وقوفه راجلاً في قلب الميدان، يقاتل عن اليمين وعن الشمال . . وينادى على الجند
بأعلى صوته: وإسلاماه . . !؛ وإسلاماه . . !

فلما رآه بعض الأمراء على تلك الحال ترجل عن فرسه وحلف على السلطان
ليركبها .

فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعت . . !

وظل كذلك في موقعه إلى أن جئ بفرس آخر، فامتطاه وتابع القتال .

هزيمة التتار

وتمكن أحد أمراء الجيش الإسلامي من الوصول إلى قائد التتار «كتبغا» فأرداه
قتيلاً، بعد مبارزة لم تدم طويلاً وحز رأسه ورفعته على رمحه . . ، وهنا سقط في
أيدي الأعداء، فانقلبوا منهزمين وولوا مدبرين، وتشتوا لا يلوون على شيء . . .

وتبعهم جند المسلمين يضربون أقفيتهم ويستولون على ما يخلفون من مغانم
وأسلاب، في طول البلاد الشامية وعرضها . . من دمشق إلى بعلبك إلى حمص
إلى حماه إلى حلب، حتى بلغ أقصى البلاد والديار الشامية، وأعاد لكل منها ما
خلفته يد التتار من دماء وتخريب وإضعاف .

ولقد استقبل الملك المظفر «قطز» في كل البلاد بأعظم مظاهر التكريم والحفاوة
والترحيب، خصوصاً أنه قد خلصهم من خطر داهم عانوا منه الأمرين .

بين قطز وببرس :

وكان الملك المظفر «قطز» قد وعد قائده ورئيس أتاكبه الأمير «ببرس» بولاية «حلب» . . . ، لكن «قطز» لم يف بوعده، وأعطاه لـ «علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ» لأسباب سياسية منها ضمان تأييد «علاء الدين» له، وعدم خروجه عليه، ومنها معرفته بطموحات «ببرس» وتطلعاته، فقد يجعل من «حلب» قاعدة له ينطلق منها إلى الديار الشامية، ثم يهده هو في عقر داره، في مصر ؛ ومنها أن يجعل «ببرس» تحت جناحه يطويه، فلا يغيب عن ناظره، لأنه - أيضاً - يدرك انفلاتات «ببرس» وتحركاته المريبة بين الحين والحين .

لكنه لم يحسب حساباً لغدر «ببرس» !! ؟

نهاية الهالك المظفر سيف الدين «قطز» :

وعاد الجيش المنتصر إلى مصر، وفي الطريق عند «الصالحية» كانت نهاية «قطز» . فلقد أضمر «ببرس» ومن معه من أمراء المماليك الخلاص من «قطز» ، لأنه بدا لهم أنه لا يريد لأحد منهم أن يكون ذا شأن رغم تفانيهم معه وأمامه . واتفقوا على الكيفية . . ! الطريقة التي يتم بها الخلاص .

وخرج «قطز» ذات يوم من معسكره في «الصالحية» للصيد، ترويحاً عن نفسه، ومزاولة لهوايته التي ألفها منذ نعومة أظافره، فلما عاد ودخل خيمته جاءه الأمراء المماليك وعلى رأسهم «ببرس» يسلمون عليه، ثم طلب إليه «ببرس» أن يعطيه بعض أسرى التار، فأنعم عليه «قطز» بامرأة من سبي التار، فما كان من «ببرس» إلا أن تظاهر في تقبيل يد السلطان، ثم انقض عليه بسيفه، وتبعه الأمراء الآخرون، حتى أجهزوا عليه - رحمه الله - .

وكان ذلك في شهر «ذى القعدة» سنة ٦٥٨ هـ .

ويقول « ابن كثير » :

[ودفن بالقصر ، وكان قبره يزار ، فلما تمكن « الظاهر » « بيبرس » من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس ، وكان لا يعرف بعد ذلك ، قتل يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة - رحمه الله]^(١) وهكذا طويت صفحة بطل من أبطال الفتح الإسلامى ، سيف الدين « قطز » ، ليبدأ صفحة جديدة مع الملك الظاهر ركن الدين « بيبرس » البندقدارى .

(١) (السلوك) (المقرئى) (ج : ١) القسم الثانى (ص : ٤٢٩) .

٩- الظاهر بيبرس

عزيزى القارئ :

لا شك أنك تسمع بـ «حى الظاهر» و«مسجد الظاهر» و«ميدان الظاهر» فى مصر (القاهرة) ...!

وأرجو أن تكون قد سمعت بـ «المكتبة الظاهرية» فى «دمشق» - سوريا - كلها - جميعاً - منسوبة إلى الملك «الظاهر» «بيبرس البندقدارى» أحد أعلام ورموز وأبطال الفتح الإسلامى .

ولئن قدر للسلطان الناصر «صلاح الدين -يوسف- الأيوبي» أن يحمل لواء جهاد الصليبيين الذين غزوا الديار الإسلامية، وأقاموا فيها ممالك لهم على مدى عشرات السنين، ثم كان استيلاؤهم على «بيت المقدس» فاجعة الفواجع، ونكسة الدهر للمسلمين .

ولئن قدر لهذا السلطان أن يهزمهم ويكسر شوكتهم فى معركة «حطين»، ويظهر «بيت المقدس» من رجسهم وذنسهم، وكذلك بقاعاً أخرى من أرض الإسلام ...

ولئن قدر للسلطان «المظفر» «سيف الدين - قطز» أن يتصدى لأعظم وأخطر هجمة شرسة تعرضت لها البلاد الإسلامية؛ فيقف فى وجه التتار، الذين دمروا «بغداد» عاصمة الخلافة، وجعلوها أرضاً بلقاعاً، ثم عاثوا هنا وهناك، يسفكون الدماء، ويهتكون الأعراض، ويهلكون الزرع والضرع ...

لئن قدر لهذا السلطان «قطز» أن يصد إعصارهم، ويخضد شوكتهم ويلقنهم درساً قاسياً بليغاً فى معركة «عين جالوت» ...

فإن القدر كان يدبر ويهيئ للمسلمين رجلاً فذاً على غرار «الناصر» و«المظفر» ليحمل الراية من بعدهما ويقود على مدى عشر سنوات - تقريباً - أعظم معركة تطهير لديار الإسلام من بقايا ورواسب «الصليبيين» و«التتار» على حد سواء ...

ذلكم الرجل هو الملك «الظاهر» - «بيبرس البندقدارى» .

يقول الأستاذ الدكتور : جمال الدين سرور فى كتابه القيم «دولة الظاهر بيبرس فى مصر» (١) :

[إن أهم ما تميز به عصر «الظاهر بيبرس» فى مصر تطور الحضارة فيه، وظهورها بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك، فإلى جانب ما نلمسه من تقدم فى نظم الإدارة والحكم، يتجلى لنا انتعاش الحياة الاقتصادية، بفضل ما بذله «بيبرس» من جهود موفقة فى سبيل تنمية موارد الثروة، كما نلاحظ عناية كبيرة بإعداد القوات البرية والبحرية، واهتماماً بإقامة المنشآت؛ وفضلاً عن ذلك... فإن هذا العصر أظهر لنا شخصيات بارزة فى نواحي العلم والأدب، كان لها أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر] .



أصله ونشأته :

عزيزى القارئ : تسمع الآن وتقرأ عن حرب «الشيخان» بين جمهوريتها الإسلامية الصغيرة وبين دولة «روسيا»، بعد أن كانت كلاهما جزءاً لا يتجزأ من «الاتحاد السوفياتى» . .

وجمهورية «الشيخان» جمهورية إسلامية تريد أن تأخذ حقها فى الاستقلال، شأنها شأن كثير من الجمهوريات التى كانت تُكون «الاتحاد السوفياتى» أمثال : «ليتوانيا» و«أستونيا» و«أذربيجان» و«قيرقيزيا» و«كازاخستان» وغيرها . . .

لكن التسلط «الروسى» يأتى عليها ذلك، ولاكثر من سبب . . . ، وهذا الموضوع ليس بحثنا اليوم، إذ قد يخطر على ذهنك سؤال : ما الرابط بين الحديث عن الملك «الظاهر» «بيبرس» - البندقدارى - وبين حرب الشيخان ؟

(١) «دولة الظاهر بيبرس فى مصر» - ص (٢٦) .

فنفول - مستعينين بالله عز وجل - بأن «بيبرس» كان أصله من تلك البلاد،
التي عُرِفَت مرة باسم بلاد «القفجاق»، أو بلاد «القوزاق» مرة أخرى؛ كما عُرِفَ
شعبها باسم «الشراكسة»؛ ويعتبرون على مدى التاريخ من أشرس وأشجع
المقاتلين .

وهذه البلاد تقع على حوض نهر «الفولجا» التي حول بحر «قزوين»؛ أو بحر
«الخرز» كما جاء في كتب التاريخ الإسلامي. هناك ولد ونشأ، وقضى شطراً من
حياته الأولى؛ وعلى أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة (٦٤٠) هـ وقع في
السبي، وبيع لأحد تجار الرقيق، الذي حمله إلى «حماء» ليبيعه في أسواقها - على
أرجح الأقوال؛ لكن صاحب «حماء»: «الملك المنصور محمد» لم يعجبه
«بيبرس»، فقد كان في إحدى عينيه بياض، فردّه على بائعه الذي نقله إلى
«دمشق» وهناك اشتراه الأمير «علاء الدين أيديكين» - البندقدارى - مملوك الملك
الصالح «نجم الدين أيوب»؛ فلما عاد هذا الملك إلى مصر بعد الإفراج عنه من
الحبس، حمله معه؛ ثم انتقل «بيبرس» إلى خدمة الملك «الصالح» نفسه .

ومن ثم بدأت شخصية «بيبرس» تأخذ دورها على مسرح الأحداث بصورة
مؤثرة وفاعلة، وبارزة في نفس الوقت، مما لفت إليه الأنظار، وجعله في مقدمة
أمرء المماليك؛

لبدأ «بيبرس» على أثر انتقاله إلى ملك الملك «الصالح» حياة جديدة تغاير تمام
المغايرة ما كان عليه في حياته الأولى، من يوم أن وصل إلى بلاد الشام، فقد
اتخذهُ الملك «الصالح» سنة (٦٤٤) هـ، رئيساً لإحدى فرق حرسه الخاص، لما رآه
فيه من الهمة الشماء والفتنة والذكاء، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج في
المناصب حتى أصبح قائداً لفرقة المماليك التي كان لها الفضل الأكبر في صد حملة
«لويس التاسع» عن مصر^(١)

وما زال «بيبرس» يقدم خدماته ويعلو شأنه في كل ميدان حتى تولى «عز الدين
- أيك» سلطنة مصر، بعد وفاة الملك «الصالح» وزواج «أيك» من «شجرة الدر» -

(١) المقدمة : (ص: ٣) - نشر : دار الفكر العربي (القاهرة) .

زوجة «الصالح» -! ولقد كان «بيرس» بذكائه وطموحه الذى لاحد له يسعى لأن يكون صاحب الشأن المطلق، ويتنظر الفرصة المواتية .

فلما قضى «أيك» على الأمير «أقطاي» - أحد فرسان وأمراء الممالك الأشداء -، وقامت ثورة الممالك، تريد الثأر قضى عليها «أيك» أيضاً، ثم هرب أكثرهم من «مصر» ناجين برؤوسهم، محاولين الكرة على البلاد، من خلال صاحب الشام أو صاحب حماة أو صاحب الكرك...! لا فرق عندهم فى ذلك، بل المهم هو الثأر لأنفسهم، واستخلاص البلاد لأيديهم ومن هنا بدأت رحلة التشرد والعذاب والمؤامرات...

وكان على رأس هؤلاء الأمراء الممالك «بيرس» - البندقدارى -!

ولا أريد أن أكرر هنا ما سبق وذكرته فى الكتابة عن «قطز» فيما يتعلق بتطور الأحداث التى عاشها «بيرس» أثناءها من تباعد ونفرة وتشرد وتآمر، ثم التقاء فى «عين جالوت» على محاربة التتار، وانتصار المسلمين، بفضل من الله ورحمة، ورد عادية هؤلاء عن ديار المسلمين، بعدما أفحشوا ودمروا، وأبادوا وأهلكوا.

ثم كان الافتراق النهائى بين «بيرس» و«قطز» ودخول «بيرس» فى مرحلة السلطان والمملك...

وهناك سؤال يَسْتَوْقِف الدارس لشخصية «بيرس»: هل كان ميالاً بطبعه إلى سفك الدماء وإلى الغدر؟ وللإجابة يجب التوقف عند كثير من المؤثرات التى أفرزت الأحداث، والتى من جرائها نُسب إلى «الظاهر» ما نُسب...

نعم.. لقد كانت فى طبعه شدة وحزم وذكاء، يترقب الفرص لضرب الخصم والخلاص من العدو..

ولعل الحالة السياسية والاجتماعية فى عصره - من قبل ومن بعد - كانت ذات أسلوب معين وطابع عام، لم يسلم منه أحد ممن كانت له طموحات فى الإمارة والسلطنة والحكم.

ونحن . . . وخلال الحديث عن فترة حكمه، لا يسعنا إلا أن ننصف الرجل، فقد أدى خدمات جلى لأمة الإسلام، فى مختلف أقطارها، كما أكمل الرسالة التى بدأها [نور الدين «محمود آل زنكى»]، وتابعه عليها صلاح الدين «يوسف ابن أيوب»؛ فى دحر «الصليبيين»، ثم قتال التتار، وتثبيت أركان الدولة، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى الديار الشامية - أيضاً -؛ وفى الحجاز . . وفى بلاد «النوبة» التى استعصت على كثيرين من أمراء الفتح . . .، ليس تثبيتاً سلطوياً فقط . . . بل إصلاحياً فى الإدارة والمال ورفى الحياة العلمية والأدبية، ونقله حضارية بعيدة المدى .

ومنذ عام (٦٥٨) هـ ؛ منذ أن تولى «الظاهر» السلطنة حتى وفاته عام (٦٧٦) هـ كان دائم الحركة، لتثبيت دعائم الحكم، والقضاء على جيوب العدو من الصليبيين والتتار، والحركات المناوئة .

فضلاً عن أنه كان قبل ذلك دائم الحركة - أيضاً - فى تطلع مستمر إلى الإمارة، يدفعه طموحه المشبوب بين جنبيه كالنار المتوقدة الملتهبة. !

وعلى هذا فقد قضى «الظاهر» أكثر سنى حياته فوق متن فرسه وفى يده سيفه . . . خائضاً للمعارك والحروب؛ فليس من عجب أن تصبح سيرة حياته من بعده مادة قصصية تستهوى النفوس وتستميل القلوب، ويسهر الناس فى البيوت والمقاهى يقرءونها - مع ما فيها من مبالغات وأغاليط أو يسمعونها من «الحكواتى» مصحوبة أحياناً بأنغام الرباب، أو حركات الراوى ! . . وكان ذلك إلى عهد قريب .

«بين القاهرة» و «الظاهر» :

بعد أن تولى «بيبرس» عرش السلطنة بإجماع من الأمراء وبيعتهم له، وصعوده إلى «قلعة الجبل»؛ اختار لنفسه لقب الملك «القاهر» - ركن الدين بيبرس

البندقدارى -، لكن وزيره «زين الدين بن الزبير» أشار عليه بتغيير اللقب، وقال له: ما تلقب به أحد فأفلح...، فاستمع «بيرس» لمشورته، وتلقب بالملك «الظاهر».

الإصلاحات الداخلية :

بدأ «الظاهر» أول ما بدأ من أمور الإصلاحات الداخلية بتقريب الأمراء واستمالتهم إليه، بمنحهم الإقطاعات الواسعة، ثم أعاد ترتيب الناحية الإدارية بتولية وتنصيب الأمراء، الذين يريدون أن يكونوا ساعده وعضده، يستقوى بهم، ويركن إليهم

فعين الأمير «فارس الدين أقطاي المستغرب» «أتابكا» للعساكر (قائداً عاماً)، وعين الأمير «بدر الدين الخازندار» نائباً للسلطان، وفوض إليه جميع الشؤون الإدارية والتنظيمية؛ كما عين الأمير «تاج الدين - ابن بنت الأعز» على - قضاء مصر - .

كما عزل الوزير « زين الدين بن الزبير » وولى مكانه « بهاء الدين بن حنا » .
ثم اتجه إلى الشعب ...

فأبطل كل ما استحدثه «قطز»^(١) من ضرائب ومكوس...، فتنفس الناس الصعداء، وحمدوا له ما أنزله عن كواهلهم من أثقال؛ ثم جمع إليه كل الممالئك البحرية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل الفارس «أقطاي» - أيام «أيك»، خشية أن يعيشوا في الأرض فساداً، ويرهقوا الناس بالإتاوات... أو البطش؛ وقد نجح في ذلك؛ فاكسب الأمراء إلى جانبه، وأمن ثورتهم، واستفاد رضى الناس كذلك.

وأصبحت القاعدة الشعبية العريضة، بمن عليها من الأمراء تتوجه بالحب والشكر والطاعة للسلطان «الظاهر» وبكل الولاء أيضاً.

(١) «دولة الظاهر بيبرس في مصر» - ص (٢٦).

محاولات يانسة :

وحاول بعض أصحاب الإقطاعات من الملوك والأمراء خارج مصر القيام بالاستقلال بما في أيديهم، ونزع الطاعة...، وكان «علم الدين سنجر الحلبي» - صاحب دمشق - أول الشائرين المنشقين، وهذه في نظر الملك «الظاهر» بادرة يجب أن تقمع حتى لا تتكرر فإن وحدة الأمة خير ضمان لرد عاديات الأعداء من التتار ومن جيوب الصليبيين الذين ما يزالون يحاولون الإبقاء على وجودهم في ديار الإسلام .

فجهز جيشاً بقيادة «علاء الدين» - أيديكين البندقداري - وأرسله إلى «دمشق» وكان ذلك في شهر «صفر» (٦٥٩هـ)، فالتقى بجيش «الحلبى» ظاهر «دمشق»، فتغلب عليه، وفر «الحلبى» وأتباعه إلى قلعة دمشق يحتمون بها، ثم اتخذوا ظلام الليل ستاراً وفروا هاربين إلى «بعلبك» فلحقهم جند «الظاهر» فأمسكوا بـ «الحلبى» وأتباعه وعادوا به إلى «مصر» حيث اعتقل بها إلى أن مات.



وعلى نفسها جنت «بواقش» :

وكذلك كانت محاولة «علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ» صاحب «حلب»، الذى ولاه «قطز» عليها بدلاً من الظاهر «بيبرس» بعد الانتصار فى «عين جالوت»...! فقد قام هو الآخر بمغامرة فاشلة قضت عليه؛ فقد غرته نفسه ذات يوم، وهو الذى سار فى الحكم سيرة سيئة كرهه الناس من أجلها...، فقد بلغه أن جموعاً من التتار تريد الاستيلاء على «البيرة» فجهز ثلة من الجند لمواجهة هذا الزحف، ولم يستمع لنصيحة أحد من أصحاب المشورة، بضرورة تكثيف الجند...، فسرعان ما وقعت الهزيمة بجند «علاء الدين» وأبيدوا عن آخرهم...، فثار الناس والأمراء فى «حلب» وقبضوا على «علاء الدين» واستولوا على السلطة، وحازوا إليهم كل ما كان اغتصبه من الحقوق ظلماً وعدواناً^(١) وولوا بدلاً منه «حسام الدين لاجين العزيز»؛ وأعلموا «الظاهر» بذلك، فوافقهم عليه .

(١) يقدر المؤرخون مقدار الثورة بألف من الدنانير الذهبية.

لكن « التار » أعادوا الكرة... ، ففر «حسام الدين» إلى «حماء» وحذروا صاحبها «المنصور» من الخطر الداهم؛ فظن بادئ الأمر أن ذلك خدعة منهم وحيلة، فلما تحقق ذلك، انضم إليهم وساروا جميعاً إلى «حمص»... والتار من ورائهم .

فلما بلغوها أجمعوا على لقاء التار، وجرت المعركة في ظاهرها، فكانت النصر للمسلمين .

لكن مثل هذه الأحوال من الطفرات والثورات، وغدر الأمراء ببعضهم، وانتفاض المدن الكبيرة، أمثال «دمشق» و«حلب» و«حمص» و«حماء» و«الكرك» لم يهدأ ولم يستقر إلا بعد سنوات من الكفاح، وخروج «الظاهر» بنفسه إلى الشام، وقمع تلك الفتن وتثبيت وتوطيد الأمن، واطمئنائه إلى استقرار الأمور؛ فإن هناك من الواجبات ما هو أهم، ومن الأخطار ما هو أدهى؛ لكن تعويل «الظاهر» على إصلاح الوضع الداخلى وتمتين الصلة بين مصر والشام، كان فى غاية الحنكة والوعى .



«الظاهر» والخلافة العباسية

ظلت ديار الإسلام بضع سنوات لا خلافة فيها، منذ أن قتل التتار الخليفة العباسى فى بغداد واحتلوها وأبادوا معالمها... (٦٥٨هـ)

مضى «أيك» و«شجرة الدر» و«قطز»... ، وكرسى الخلافة فارغاً، وهى تمثل بالنسبة للمسلمين عامة رمزاً دينياً يشير إلى وحدتهم فى التبعية الدينية على أبسط الفروض -، مع ما تثيره فى نفوسهم من معانى الإيمان والإسلام .

وكان من شأن الملك «الظاهر» - بالإضافة إلى عسكريته الفذة، وحزمه وعزمه، بعيد النظر فى الشؤون الإدارية والسياسية، فرأى بثاقب فكره أن يجدد منصب الخلافة، ويبعثه قبل أن ينساه الناس، وإن كانوا يشعرون بأن شيئاً ما ينقصهم فى حياتهم كأمة وجماعة .

ولا نريد أن نركب موجة القائلين بأن هذا التصرف من «بيبرس» كان يريد من خلاله كسباً شخصياً وزيادة في تثبيت الأقدام في السلطة، ذلك أن «الظاهر» لم يكن ضعيفاً محتالاً، بل كان قوياً ذكياً مؤمناً، يحمل علماً وفقهاً؛ ووجود خليفة للمسلمين ضرورة سياسية ودينية، كما أن وجود خليفة عباسي في «مصر» يقضى على مطامع بذور «الفاطميين» ورواسبهم فيها وفي الديار الشامية أيضاً حيث تتمركز «الإسماعيلية».

واختار «الظاهر» بمحض الصدفة رجلاً اسمه «أحمد بن الإمام الناصر - العباسي-»، كان قد وصل إلى دمشق، فاستحضره إلى «مصر» وخرج إلى لقائه ومعه الوزراء والكبراء والأمراء وحشود الناس، وتقول بعض المصادر إن «اليهود» و«النصارى» قد خرجوا أيضاً للترحيب به .

وما زال «الظاهر» يمشى معه - متأخراً عنه حتى أوصله بنفسه إلى قلعة الجبل؛ وجلس بين يديه غير متقدم ولا مستعلٍ عليه .

وزيادة في التوثيق والتوكيد، وتنظيم المقام، عقد الظاهر مجلساً في قاعة الأعمدة، دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الخليفة. ثم تمت البيعة .

وضربت السكة باسميهما، على أحد وجهيها اسم الخليفة، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان «الظاهر» ؛ وكذلك كان الدعاء للخليفة على المنابر يتقدم الدعاء للسلطان .

المهم في الموضوع - عزيزي القارئ - أن هذه اللفتة البارة من السلطان «الظاهر» تركت أثرها الطيب الجميل في كل الديار الإسلامية، وأفاضت على السلطان «الظاهر» شيئاً جديداً من الأبهة وقوة النفوذ وسعة السلطان .

وزاد في هذا الشأن ذلك التفويض^(١) الذي صدر عن الخليفة الجديد للسلطان «الظاهر» بالحكم .

(١) أورد نص التفويض: النويري في «نهاية الأرب» (ج: ٢٨) القسم الأول (ص ٢١-٢٨) والمقرئ في «السلوك» (ج: ١) القسم الثاني (ص ٤٥ - ٤٧) وأبو الحسن في «النجوم الزاهرة» (ج: ٣) القسم الثاني (ص ١٨٨) - (١ - ب) .

الهلك «الظاهر» وبقايا الصليبيين :

كانت الديار الشامية ما تزال مرتعاً لبقايا الصليبيين، الذين كان أكثر تركزهم على السواحل والثغور، من «عكا» جنوباً حتى «طرابلس - الشام» شمالاً، ثم فى بعض القلاع الداخلية أمثال « شقيف - أرنون » و« حصن الكراد » فى «تل كلخ» وغيرهما .

وكانوا وما يزالون خطراً يتهدد فى كل حين تواصل الديار المصرية والشامية؛ ويؤرق مضجع السلطان «الظاهر» وسلامة حكمه .

وما زاد فى خطورتهم نشأة الدولة التتارية فى « بغداد » - والعراق -، التى كانت على صلة طيبة بهم، تمدهم ويمدونها، تساعدهم ويساعدونها .

إذا ... هناك أكثر من جبهة لابد من خوضها ومواجهتها لتأمين البلاد الإسلامية من شرور الطامعين والحاquدين والمغامرين .

فالمهمة صعبة، لكن همة «الظاهر» وأداءه العسكرى والسياسى يستطيع مواجهتها، والتغلب عليها - بإذن الله ونصره و تأييده .



الهناورة

قبل أن يواجه « بيرس » الصليبيين فى الميدان العسكرى عقد عدة محادثات مع الدول المحيطة بمملكته، فتحالف أولاً مع «بركة خان» - سلطان مغول «القفجاق» - القوقاز - ضد خانات فارس والعراق، وتبادل مع «بركة خان» السفارات والبعوث (١٢٦١-١٢٦٣)م.

كما عقد حلفاً دفاعياً مع إمبراطور الدولة البيزنطية «ميخائيل باليولوجس» . وأيضاً أرسل بعثاً إلى «مانفرد» ملك «صقلية» و«توسكانيا» ليأمن خط التواصل بين الجزر فى البحر المتوسط والثغور الشامية .

كذلك تحالف مع سلطان «سلاجقة» الروم .

كان كل ذلك تمهيداً لبدء الحملة على بقايا الوجود الصليبي في الديار الشامية،
وتطهيرها من رجسهم وأذاهم .

والسبب الذي اتخذته ذريعة لذلك هو كثرة نقضهم للعهود والمواثيق التي كانت قائمة بينه - أو بين من سبقه - وبينهم؛ وأكثر ما كان يهمه في ذلك إيذاؤهم لأسرى المسلمين في أيديهم .

ولعل في إيراد هذه المراسلة التي تمت بين السلطان وأمراء الصليبيين عندما زحف إليهم وتوسط بلادهم ما يدل على ما سبق بيانه .

ويعذرنا القارئ الكريم على طول المقالة، إذ لابد من إيرادها كاملة ؛ جاء في كتاب [السلوك] - للمقرئ - (ج ١) القسم الثاني (ص: ٤٦٣ - ٤٦٤):

[حتى إذا توسطها (أي بلاد الشام، جاءت رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان إليهم، فكتب إليهم كتاباً قال فيه : (إن من يتولى أمراً فعليه باليقظة، ومن خفى عليه خروج هذه العساكر، وجهل ما عليه الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه من كثرتها، التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر؛ ولعل وقع سناكبها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في «موقان»^(١) من بلاد التار .

فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرن !! فأى شيء تعملون؟)

ولما رأى «الظاهر» مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة، بعد أن كانوا يكاتبونه بندمهم عليها، أحضر رؤساءهم وقال لهم :

- (ما تقولون ؟ .. قالوا : نتمسك بالهدنة التي بيننا . فأجابهم بقوله : لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحاراً... ونحن لما حضرنا إلى ها هنا ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره ؛ وأنتم منعمت الجلب والميرة عن العسكر، وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيرنا

(١) إقليم في «أذربيجان» - معجم البلدان.

نسخة يمين لم تحلفوا عليها ؛ وسيرنا الأسارى إلى «نابلس» و«دمشق»، وما سيرتم أنتم أحداً، وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحداً ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى . . . وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندهم؛ ثم إنا سيرنا رسلاً إلى بلاد (السلاجقة) الروم، وكتبنا إليكم بتفسيرهم فى البحر فأشرتكم عليهم بالسفر إلى «قبرص»، فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم، هذا مع إحساننا إلى رسلكم؛ وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى. وما زالت الحرب قائمة والرسل مترددة؛ فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم) ثم ذكرهم بما كان من عفو «الملك الصالح نجم الدين أيوب» عنهم حين خرجوا عليه مع عمه «الصالح إسماعيل بن العادل»، وأخذهم مقابل ذلك مديتى «صفد» و«الشقيف»، وأنهم غدروا ونصروا «لويس التاسع» وصحبوه إلى مصر. . . إلى أن قال :

(وما بالجملة أنتم أخذتم هذه البلاد من «الملك الصالح إسماعيل» لإعانة مملكة الشام وغيرها . . . ، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجاتكم، فردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإنى لا أقبل غير ذلك . . . ؛ فقالوا : نحن ما نقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى، ونفك الأسرى . .)

فلم يقبل السلطان ذلك منهم، وأمر بإخراج رسل الفرنجة ؛ ووجه الأمير «علاء الدين طبرس» إلى كنيسة «الناصر»، فسار إليها وهدمها، ولم يلق من الفرنجة أى مقاومة .

إلى «عكا» :

كانت «عكا» من أمتع مدن الثغور الشامية، بأسوارها وأبراجها، واتصالها بالبحر، ولقد وقفت أكثر من مرة فى وجه «صلاح الدين»، فلم يستطع تحريرها واستعادتها؛ وظلت على مدى عقود من السنين من أهم المدن التى استولى عليها الصليبيون؛ وخطراً يتهدد الديار الشامية .

كل ذلك كان يعلمه الملك «الظاهر»، فصمم على اقتحامها وفتحها؛ فجرد إليها جيشاً، ثم سار بنفسه وحاصرها من جهة البر، (٦١١) هـ؛ وكان أهلها من الفرنجية قد حفرُوا خندقاً حول «تل الفضول»، بالقرب من «عكا» واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه .

رأى «بيبرس» صنيعهم هذا، فلم يمنعه من مهاجمة التل حيث تحصنوا، ولما وصل رتب عساكره بنفسه، وهمَّ الجميع بردم الخندق، وسرعان ما انتهوا منه، واعتلوا التل وانقضوا على الصليبيين، ففروا منهزمين إلى داخل المدينة، والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار... وامتلاً الجو بالدخان .

دخل الصليبيون المدينة وأغلقوا أبوابها عليهم، وتحصنوا ؛ لكن كتائب جيش المسلمين بقيادة الأمراء حملوا على الأبواب الواحد بعد الآخر، ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة، شتوا فيه شملهم، إذ ألقى فريق منهم فى الخنادق، وقتل عدد عظيم، وامتلات أيدي الجيش الإسلامى بالأسرى والغنائم .

صن «عكا» إلى «قيسارية» و«عتليت» و«حيفا» .

وفى عام (٦٦٣) هـ؛ سار «بيبرس» من مصر إلى الشام على رأس جيش كبير، لمحاربة التتار، فلما بلغته الأنباء بارتدادهم عن «البيرة»، اتجه إلى «قيسارية» ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها، ففر أهلها إلى قلعتها، ثم اضطروا إلى تسليمها، بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها . . وكان «بيبرس» يشارك بنفسه فى هدم هذه الأسوار .

ومن موقعه فى «قيسارية» أرسل جيشاً إلى «عتليت» و«حيفا» أوقع التخریب فيهما، ثم تحول هو نحو قلعة «أرسوف» البحرية، الواقعة جنوبى قيسارية وأخذ فى مهاجمتها، لكن حاميتها دافعت عنها دفاع المستميت، ودام ذلك مدة أربعين يوماً . . . وأخيراً جرت المفاوضة بين الطرفين، فأعطاهم «بيبرس» الأمان على حياتهم، ثم أكرههم على العمل فى تخریب حصونهم بأيديهم .

ولقد أقطع «الظاهر» أمراءه الأشاوس إقطاعات واسعة من الأراضى التى كان الصليبيون قد استولوا عليها، بتفويضات موقع عليها من الوزير والحاخازندار وديوان الجيش؛ وسجل ذلك فى صحيفة .

ثم إلى «حمص» و«طرابلس الشام» و«حصن الأكراد» :

وفى عام (٦٦٤) هـ؛ أغار ملك «أنطاكية» الصليبي على مدينة «حمص» فأرسل «بيبرس» قوة لنجدها، ثم خرج بنفسه على رأس كل جنده، فلما بلغ غرة أرسل مدداً إلى «حمص»، بقيادة الأميرين: «جمال الدين أيدغدى العزيزى» و«سيف الدين قلاوون الألفى»، فأغاروا على الفرنجة وهزموهم، ثم جاءهم كتاب من السلطان بالتوجه إلى «طرابلس» فساروا على غرة من العدو ونزلوا على «حصن الأكراد»، وأغاروا على ساحل البحر من جهة «طرابلس» واستولوا على بعض القلاع. أما السلطان «بيبرس» فإنه توجه إلى «بيت المقدس» و«الخليل» فزار قبر سيدنا «إبراهيم» - عليه السلام - وأفاض النعم على حراسه، وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس .

إلى «صفد» :

ثم اتجه نحو مقصده، فتقدم نحو «عين جالوت»، وأرسل بعض الأمراء فى عدة من العسكر لغزو «صور» و«صيداء»، ثم سار بنفسه إلى «عكا» وأقام بها، حتى يوافيه جنده من مختلف الأنحاء، فجاؤوه وقد حققوا انتصارات هامة وفتوحات عظيمة، محملين بالغنائم، فزحف بهم جميعاً إلى «صفد» .

فحاصرها حصاراً شديداً، واستمرت المعارك بينه وبين حاميتها طيلة ثلاثة أسابيع، وكانت حامية طاحنة، وأبلى الطرفان فيها أعظم البلاء، ولم تلبث أن سقطت، فطلب قائد الفرسان الأمان، وأن يرحلوا إلى «عكا» سالمين، فأمنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا عدة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة .

غير أنهم نقضوا عهد الأمان ونكثوا به، فخرجوا محملين بالسلاح ومعهم بعض أسرى المسلمين - على أنهم نصارى - !!!

فصادر السلطان ما معهم، وحرر أسرى المسلمين وضرب أعناق المخالفين جميعاً، عدا اثنين أحدهما أسلم وظل من بعد في خدمة السلطان «بيبرس»، والثاني بعثه رسولا إلى «عكا» ليخبر الفرنجة بما كان وشاهد؛ فيحذروهم وينذروهم.

ولم يبق «بيبرس» مدينة «صفد» على ما هي عليه من الخراب والدمار، لكنه أعاد بناءها ورقم أسوارها وأبراجها، وجدد فيها ووسمها وزينها بآيات قرآنية كريمة تدل على انتصاراته منها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وجاء في كتاب (نهاية الأرب) لـ (النويري) ما نصه :

(ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد، وبذل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه - التي هي أعز النفوس - حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان صاحب القرآن، أبو الفتح «بيبرس» قسيم أمير المؤمنين^(١))

المتابعة :

واستمر السلطان «بيبرس» في متابعة الجهاد ضد الإمارات، والقلاع والحصون الصليبية الممتدة على طول السواحل الشامية، لا يكف عن غزوها ومحاربة من فيها وإخراجهم منها .

ولقد رغب بعضهم في المصالحة والمسالمة، فعقد معهم العقود والمواثيق التي تحد من سلطانهم، وكان أهم ما يرغب فيه ويهتم به هو تحرير أسرى المسلمين الذين هم في أيديهم .

(١) (ج ٢٨) القسم الأول (ص: ١٣٦ - ١٣٨).

وكانت قلعة «الشقيف»^(١) من أهم الحصون التي يحرص الصليبيون على بقائها في أيديهم، ولقد رفض أصحابها الدخول في الأمان .

والقلعة تقع على جبل عال، منحوتة في الصخر، ذات منحدرات صعبة المئال؛ لكن ذلك لم يمنعه - أى السلطان - من مهاجمتها وحصارها، ورميها بالمجانيق، وقد استخدم في ذلك ستة وعشرين منجنيقاً، كما استخدم الحيلة في الإيقاع بين أفراد حاميتها من فرسان «الداوية»؛ إلى أن استسلموا، فاستولى عليها وأخرجهم منها .

ثم تابع زحفه باتجاه الشمال نحو مدينة طرابلس، التي كانت قد تعرضت من قبل إلى مهاجمة فرقة من جنود السلطان يوم استولى على حصن الأكراد - وهو بينها وبين مدينة حمص - .

وتعتبر «طرابلس» الخطوة الأولى في الشمال نحو «أنطاكية»؛ أهم الممالك اللاتينية على الإطلاق. فنحن نرى حين نتابع تحركات «بيبرس» العسكرى، أنها مدروسة ومخطط لها، أو كأنها على خريطة حربية قتالية، هي معركة واحدة مع الصليبيين إلا أنها ذات مراحل، مما يوحي أو يعطى انطباعاً بأن السلطان «بيبرس» يتمتع بكفاءة القائد العسكرى الفاتح دون ريب .

وصلها - أى طرابلس - بجيشه فهاجم القرى والداكر والحصون والقلاع التي تحيط بها، فاستولى على الكثير منها، وترك بعضها فى ضعفه...، ثم تابع زحفه إلى الشمال؛ إلى «حمص» وإلى «حماه»...، وكانت تحت سلطانه .

وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد (إقليم) «أنطاكية»، وتولى قيادة إحدى الفرق بنفسه، ونزل بها على «فامية» وعندما وصل السلطان إلى «أنطاكية» وافته جيوشه إلى هناك؛ ثم بدأ الهجوم عليها فى رمضان (٦٦٦) هـ؛ وجرى قتال شديد، سالت فيه الدماء غزيرة، ووقع فى أيدي المسلمين أسيراً حامى المدينة، فوسطه السلطان ليكون رسولاً إلى المقاتلين لعلمهم يتزعون إلى السلم

(١) تقع فى القطاع الأوسط من الجنوب اللبنانى، ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ويلقون السلاح، ويحقنون الدماء، لكنهم رفضوا وأبوا واستكبروا وتعالوا - حينئذ لم يجد السلطان بدءاً من الضربة القاتلة، فهاجم المدينة هجوماً شديداً عنيفاً استمر خمسة أيام متواصلة، ثم انقضض عليها بجنده وأمعن في القتل والأسر، ووقعت المدينة (أنطاكية) فى أيدي السلطان، وهز هذا النبأ العالم المسيحى من أقصاه إلى أقصاه . . . بعدها كر راجعا باتجاه «طرابلس»، وأعاد ما كان قد بدأه من قبل، وهو التمهيد لفتحها بشل حركتها وتقطيع أوصالها من خلال بعض الحصون والقلاع التى كانت ما تزال فى أيدي الصليبيين، وأهمها «حصن الأكراد» فاستولى عليه . . . وعلى غيره، وأصبحت الطريق إلى «طرابلس» ممهدة . ولما بلغها حاصرها وشددها عليها . . . فأرسل إليه ملكها «بوهيمند» يفاوضه، فاشترط السلطان شروطاً رفضها «بوهيمند»؛ وحاول السلطان أن يلين جانبه . . . وأخيراً اتفقا على هدنة مدتها عشر سنوات ؛ مع تحديد مواقع نفوذ كل من الطرفين فى ذلك الساحل الشمالى الغربى من سورية اليوم .

إلى قبرص !!

ما توقفت جهود السلطان «بيبرس» على محاربة الصليبيين فى البر، إنما اتجه إلى البحر أيضاً، فوسع مدى عملياته العسكرية . والسبب فى غزو «قبرص» أن حاكمها قد أمد فرسان حامية حصن الأكراد عند الحصار، وكأنه يستعدى السلطان «بيبرس» عليه ويدخل طرفاً فى النزاع . فأمر السلطان «بيبرس» بإنشاء بعض السفن فى ميناء «دمياط»، حملها بالجنود، وتوجهت إلى «قبرص»، فلما قاربت شواطئها عند ميناء «ليماسول» هبت عليها عاصفة شديدة أغرقت منها إحدى عشرة سفينة . . . فهاجمها أهل «قبرص» وأخذوا الأسرى من المسلمين، وفشلت هذه الحملة .

لكن «بيبرس» بما أوتى من همة وذكاء وسعة حيلة، استطاع أن يعيد إنشاء أسطول آخر، وينتظر الفرصة المواتية للضربة التالية، كما علم أن أسرى المسلمين

فى «قبرص» قد بيعوا إلى «صور» فأرسل من يتابعهم ويفك أسرهم، لكن الفرنجة رفضوا...، فما كان من «بيبرس» إلا أنه أمر رسله بإغراء الحراس بالمال، ففعلوا... ونجا الأسرى؛ ووقعت الفتنة بين الفرنجة أنفسهم .

«بيبرس» و «الإسماعيلية»

الإسماعيلية فرقة شديدة المغالاة من الشيعة، شديدو العداوة لأهل السنة والجماعة، متطرفون فى آرائهم، لا ينتسبون إلى الإسلام... إطلاقاً ولو أنهم قالوا - ويقولون ذلك -؛ ينتسبون إلى «إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على (زين العابدين) بن الحسين بن على بن أبى طالب» .

تفرعت عنهم طائفة «الحشاشين» أو : «القتلة» - حسب الترجمة الفرنسية : (ASSASSINS) وكانوا من أخطر العصابات التى تعيث فى الأرض فساداً، اتخذوا مقراً لهم فى بلاد «فارس» أسموه: «قلعة الموت»؛ ومنه كانوا ينطلقون فى كل اتجاه، يضربون ويهربون...

ولقد عانى منهم «صلاح الدين» معاناة شديدة، وحاربهم وشدد عليهم، لكنه لم يقض عليهم، فقد كانوا لا يواجهون إلا قليلاً، ثم يفرون إلى حصونهم ومعقلهم، ولقد تجرأوا على «صلاح الدين» ذات مرة ودخلوا معسكره وخيمته...، ولولا لطف الله به لقضوا عليه .

وبقى خطر هذه الطائفة يتزايد ويشدد فى مختلف بقاع البلاد العراقية والشامية، وكان من أخطر ما فعلوه أنهم كانوا حلقة للتار حين غزوا البلاد، كما استمروا على تحالفهم مع الصليبيين...؟! بعد فتح «حصن الأكراد» ضعف موقف «الحشاشين» فى تلك الأنحاء، إذ اشترط «بيبرس» عند توقيع عقد الصلح مع صاحب الحصن أن تكون الجزية التى يدفعها الحشاشون إليه من حق السلطان «الظاهر بيبرس»؛ فصارت الأموال التى كانت ترسل إلى الفرنجة تحمل إلى السلطان فى «مصر» .

وقد مهد السلطان بهذا التصرف الطريق إلى ضربهم الضربة القاصمة، وراح يستولى على حصونهم فى الشمال السورى واحداً بعد الآخر، حتى تلاشى وجودهم إلى حد ما، ونقل بعضهم إلى مصر، واستخدمهم فى بعض المهام، وهنا يستغرب ويتعجب بعض المؤرخين والباحثين من ذلك، ويتساءلون : كيف ؟ وهو يعلم مدى خطورتهم !!!

إن من يطلع على أحوالهم ونشأتهم، وظروف العمل العسكرى والسياسى الذى باشره « بيبرس »، يدرك أن « الظاهر » يعرف ماذا يريد، ومن يستخدم، وكيف ينفذ .

«بيبرس» و «المنغول» «التتار»

قلنا فى (التوطئة) إن أصل «بيبرس» من بلاد «القفجاق» القوقاز - (شيشنيا)؛ وهناك كانت نشأته الأولى .

وبعد أن تعرضت البلاد لهجمات «التتار» وأسر «بيبرس» وبيع رقيقاً، حمل فى أعماقه عداًءً ممزوجاً بالحقّد على هؤلاء البرابرة السفاحين السفاكين ؛ فكان منذ ظهوره فارساً وأميراً، يقوم ببعض الهجمات الفردية عليهم، على معسكراتهم، أو على جنودهم، أو على أفرادهم منذ أن استولوا على «بغداد» وزحفوا باتجاه «الشام» .

ولم يكن كل هذا ليشفى غليله أو يرد إليه اعتباره، حتى على الرغم من معركة «عين جالوت» ؛ والتي لعب فيها دوراً رئيسياً وأساسياً . . . ، فإنه ما زال حتى اعتلائه عرش مصر، وقيادته للأمة وتحرير أكثر أراضيها من الوجود الصليبي، يحمل بين جنبيه قلباً مشحوناً بالبغضاء لأولئك « التتار » .

وتفرع عن «التتار» الذين أقاموا دولتهم فى «فارس» و«العراق» وجزء من آسيا الصغرى، قبيلة سمت نفسها القبيلة «الذهبية»، - أو هكذا اسمها -؛ أسلمت هذه القبيلة وآمنت واتبعت الحق؛ ونزلت فى «القفجاق» وطن «بيبرس» الأصلى -؛

وكان زعيمها «بركة خان» من القادة المؤمنين، على صلة دائمة بالسلطان «الظاهر بيبرس»، يرأسه ويتودد إليه، ويتعاون معه .

أما «تتار» فارس وبغداد؛ فما كفوا أبداً عن مناوأة «الظاهر» والتحرش به، واستفزازه ليخوض معهم حرباً، لعلهم يكسرون شوكته، ويقضون على سلطانه، ولا ينسون أبداً أنه عدوهم الأول ؛ وكانوا في حلف دائم وتعاون مستمر مع الممالك الصليبية .

إلا أنه كان لا يتطلع إلى حربهم في تلك الأثناء، فقد وجه كل اهتماماته باتجاه الصليبيين، حتى إذا اطمأن بعد عدة سنوات من الجهاد والجلاد، وقوقعة الصليبيين والقضاء على نفوذهم، وسيطرته التامة على أنحاء مملكته، من حلب في الشمال إلى أقصى بلاد النوبة في جنوب مصر، عندئذ تفرغ «للتتار» ؛ وبدأ معهم حرباً طويلة المدى، كان آخرها معركة «الأبلستين» - في بلاد الروم . .

كان السلطان «بيبرس» قد شرع في السفر (رمضان: ٦٧٥هـ) للاستيلاء على بلاد الروم، مغادراً مصر على رأس جيش كبير، فأتى «دمشق» ثم غادرها إلى «حلب»، فجاءته الأنباء باتفاق «التتار» والروم على لقائه ومحاربتة .

فرتب «بيبرس» عساكره، وعبأ جيشه، واعتلى جبلاً تشرف على صحراء «الأبلستين»^(١)

فلما توسط الروم والتتار السهل، انصب عليهم «بيبرس» بجنوده وعساكره من أعالي الجبال انصباب السيول، وأوقعوا فيهم قتلاً وسيياً وتشريداً، وهزيمة منكرة لم تقم بعدها للتتار قائمة، اللهم إلا بعض المناوشات التي لا طائل من ورائها ؛ منها مثلاً محاربتة لهم عند نهر الفرات سنة (٦٧١) هـ . وهزيمتهم أيضاً .

فيما وراء الحدود

بعد هذا النفوذ الواسع والسلطان الممتد، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ودحر الصليبيين وهزيمة التتار، رأى «الظاهر بيبرس» أن تكون له صلات دولية

(١) مدينة في بلاد الروم اسمها الحالي «البتان» قرية من «أفسوس» مدينة أهل الكهف - (ياقوت).

ومحالفات وسفارات، مع ملوك وحكام أوروبا، توطيداً لهيبة الدولة الإسلامية (الظاهرية) .

فكان أول تحالف له مع إمبراطور بيزنطة (إمبراطور القسطنطينية) - «ميخائيل بالبولوجس» ؛ يتبادلان الرسل والهدايا، والتواصل .

ثم تبادل مع «مانفرد» ملك «صقلية» و«توسكانيا» الرسل والهدايا، وتوثقت بينهما العلاقات والمصالح .

كما عقد معاهدات تجارية وتبادل مصالح مع ملك «أرجونة» و«ألفونس» ملك «أشبيلية»

فى الأراضى المقدسة

ووجد «الظاهر» ببيرس طريقاً إلى الحجاز، يعيد بها الأمن المهدد والاضطراب، الذى استعر بين شرفائها، سواء فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، فتزل هناك بثقله السياسى والمادى، وأصلح بين الأطراف، ووطد الأمن، وقضى على مظاهر الاختلاف والتأخر؛ وأصبح يخطب له على منابر المساجد، ويدعى له .

وفى شهر «شوال» سنة (٦٦٧)هـ، قصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، واستصحب معه قاضى القضاة «صدر الدين سليمان» - الحنفى - وصاحب ديوان الإنشاء «فخر الدين بن لقمان» . ونحو ثلاثمائة مملوك، وبعض الأجناد .

وعندما بلغ المدينة المنورة زار مسجد رسول الله ﷺ ثم أتى مكة المكرمة فأدى شعائر الحج ومناسكه ووضع بيده كسوة الكعبة الشريفة، وأعطى الخواص مبلغاً من المال ليوزعوه على أهالى الحرمين الشريفين، كما خلع على أكابر بلاد الحجاز وأمير ميناء «ينبع» وأميرى «مكة»، وزاد فى المقرر لهما، وعين نائباً له بمكة تلبية لطلب أميرها .

إصلاحات «ببيرس» وإنشاءاته واستحداثاته

استحدث «ببيرس» رغم انشغالاته العسكرية - أحدث النظم فى الإدارة والحكم، مما نبىء عن عقلية فذة تتحلى بمعطيات القيادة على مختلف الصعُد، ولا نستطيع استيفاء ذلك كله فى كتابنا هذا لأنه واسع وشامل، يتناول كل كبيرة وصغيرة .

علماً بأننا إنما نتناول شخصية «الظاهر بيبرس» من خلال الفتح والجهاد، فهذه خصوصية تقتضى عدم الإسهاب والإطالة فى الجوانب التالية، بل نأتى على ذكرها إنصافاً وعدلاً . ومن الطبعى جداً أن يكون هناك تطور ملحوظ فى تنظيم الجيش، وقد كانت كثرة الحروب والمعارك وتعدد الجبهات، وتنوع الجند، والأمراء، والقادة، محكاً لقدرة القائد على «تنظيم» ذلك كله، واستحداث نظم جديدة، وأسلحة متطورة ؛ وقد تم له ذلك، وفاجأ به أعداءه .

وفى الشأن الاقتصادى كان لـ «الظاهر بيبرس» جولات وصولات، فى الزراعة وتطوير أساليبها، وتنويع مواردها ومحاصيلها؛ وفى الصناعة من إنشاءات تعمل على أسلوب الاكتفاء الذاتى، سواء فى الآلة الحربية، أو النسيج، والزجاج بأنواعه، والمعادن وما ينتج عنها، والأدوية العلاجية . . . ، وقد اقتضى ذلك إنشاء مستشفيات متعددة تفى بحاجة الناس، يقوم عليها أطباء مهرة .

كما أوجد أسواقاً خارجية أدت إلى ارتقاء التجارة، فعادت على البلاد والعباد بالريح الوفير والمال الكثير، سواء للأفراد من التجار وشيوخهم، أو موارد الدولة من الرسوم والمكوس ؛

ولقد اهتم أيضاً بالناحية العلمية، فأنشأ عدة مدارس، أنفق عليها الكثير، وأوقف لها أوقافاً كثيرة، وجند لها أساطين أهل العلم فى مختلف الفنون .

وكذلك أكثر من إنشاء المساجد، على أرقى صورة وأكمل شكل، وفرشها وزينها وزخرفها، وأوقف لها - أيضاً - أوقافاً تدر عليها وعلى من يقومون بالمهام فيها .

وهذا كله لم يكن محصوراً داخل مصر - مقر السلطنة - ؛ بل تعداه إلى الديار الشامية والحجازية، وكل بقعة من أرض الإسلام بسط عليها سلطانه ونفوذه ؛ إذ لم يكن همه التوسع فى السلطان بقدر ما كان همه إعمار ديار الإسلام .

وكان للناحية العلمية فى البلاد نهضة تتفق وتتساوى مع متطلبات الواقع المعاصر، فأخذت سبيلها إلى ذلك، وإن اقتصر على بعض النواحي دون البعض الآخر .

فظهر علماء وقضاة وكتاب وشعراء وأطباء وغير ذلك .

كان السلطان «الظاهر بيبرس» حنفى المذهب، على جانب من الفقه والعلم، والتدين أيضاً، وكان مثلاً طيباً وقدوة حسنة لأمثاله من أبطال الفتح، لارباء ولا سمعة، بل إخلاصاً وطاعة لله عز وجل .

والمتبع لمراحل كفاحه وحروبه ومعاركه يلحظ اهتمامه الشديد البالغ بأسرى المسلمين فى يد العدو، فلم يكن يطبق صبراً على وجود مسلم أسير فى أيدي الأعداء، ويذل الغالى والنفيس فى سبيل تخليصه واستعادته وحرثته؛ وكأنه - رحمه الله كانت لا تفارق جوارحه وعقله الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

كان مؤدياً للصلاة فى أوقاتها، مهما كانت الظروف والشواغل، لم يعاقر خمرًا، ولم يرتكب إثماً ولا مجرمًا؛ شديد الحساسية تجاه العقيدة والسلوك، من ذاته ومن حاشيته وأهله، ومن الشعب .

وفاته

كان السلطان «الظاهر بيبرس» - على ما علمنا مما تقدم - لا يستقر فى مكان، دائم التنقل...، بسبب انشغاله العسكرى الحربى...، وأكثر ما كان يستهويه من أماكن يقيم بها بعض الوقت «القاهرة» و«دمشق»؛ فلما كانت سنة (٦٧٦) هـ وكان فى «دمشق» وافته المنية، ودفن بها؛ وما يزال قبره إلى اليوم محجة ومزاراً للكثيرين من الناس يستلهمون التاريخ، وعبق الجهاد، واسترجاع الذكريات. ومن أشهر المعالم ذات الأثر العلمى «المكتبة الظاهرية» بدمشق، والمنسوبة إلى الملك «الظاهر» - رحمه الله -؛ وتضم الآلاف من المخطوطات والتراث الفكرى والعلمى، وتقع قريباً من «الجامع الأموى» .

كلمة أخيرة

على هذه الصفحة الأخيرة من عجالتنا عن الملك «الظاهر بيبرس»، ونحن نودع فارساً وبطلاً من أبطال الفتح الإسلامى، هياؤه القدر ليكون أنموذجاً حياً للقادة

المجاهدين، خاصة في عصرنا الحاضر وقد تكالبت علينا أمم الشرق والغرب،
يمعن فينا فتكا وسلبا ونهباً... لا يسعنا إلا أن نحى الرؤوس إجلالاً واحتراماً،
ونبعث في القلوب والعقول والأرواح دفقةً من إيمان صادق وإسلام نقي صاف،
لعل الله تعالى يأخذ بناصرنا وأيدينا، ويهدينا سواء السبيل، ويرفع عن عيوننا
غشاوة الجهل، ويحقق قوله فينا: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [آل عمران: ١١٠] لأن (الخيرية) مرتبطة بالاستقامة على
المعروف قولاً وعملاً، والابتعاد عن المنكر نهياً وفِعْلاً .

١٠- عبد الرحمن الداخل

[قال أبو جعفر المنصور - رأس الدولة العباسية ومؤسسها - لبعض أصحابه وخاصته الجالسين عنده :

- من صقر قریش من الملوك ؟ فقالوا وهم يمالئون - : أمير المؤمنين ، الذي راض الملك ، وسكن الزلازل وحسم الأدواء .

قال : ما صنعتُم شيئاً . ! قالوا : ف « معاوية » قال ولا هذا ؛ قالوا : ف « عبد الملك ابن مروان » ؛ قال : لا . . . ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قریش « عبد الرحمن بن معاوية ^(١) » الذي تخلص بكبده عن سنن الأسنة وظبابة السيوف ، يعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمة .

إن « معاوية » نهض بمركب حملة عليه « عمر » و « عثمان » وذلل له صعبه ، و « عبد الملك » بيعة أبرم عقدها . . . ، وأمير المؤمنين (يعني نفسه) بطلب عزمه واجتماع شيعته . . . ، و « عبد الرحمن » منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب بعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين [.

بهذه الكلمات القليلة تصدر عن « أبي جعفر المنصور » تتحدد معالم شخصية « عبد الرحمن الداخل » فما من مغامر جرى في التاريخ العربي - الإسلامي ، يتحرك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وحيداً بنفسه ثم ينشئ ملكاً امتد عقوداً من السنين ، ويعيش أكثر سني حياته مجاهداً مكافحاً ، لا ينزل السيف من يده ، ولا تفر له همة ، ولا يضعف ولا يخور . . . ، يتقض من كل على فريسته فلا يتركها حتى يقبض عليها بمخالبه ، أو يمزق جسدها بمنقاره الحاد . . . فإذا هي جثة هامدة ، لا حراك بها ، إنه - فعلاً - صقر قریش - ، الذي ما تزال شخصيته - إلى يومنا هذا - مثلاً حياً في الجرأة والمغامرة وإثبات الذات ، والقضاء على الفساد ، واعتلاء عرش البلاد .

(١) ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

وعلى الرغم من المعاناة الداخلية فى تثبيت أركان الدولة والمملك، فقد كان أيضاً من أبطال الفتح، فقد حمى الدولة الأموية الأندلسية من مطامع الطامعين وثورات الثائرين، وأعاد إليها وحدتها بعد أن كادت تصبح بدداً، هذا أولاً . . . وثانياً فإنه واجه المملكة النصرانية فى الشمال الأندلسى لاسعياً وراء سلطان، ولكن تبشيراً بكلمة الرحمن - جل جلاله .

نهاية وبداية :

يوم الحادى عشر من جمادى الثانية سنة (١٣٢) هـ، كان يوم النهاية لسلطان بنى أمية ودولتهم وبداية الدولة العباسية، على يد «أبى العباس» - السفاح وعمه «عبد الله بن على» ؛ وقائد جندهم «أبى مسلم الخراسانى» الذى كانت له اليد الطولى فى انتصاراتهم كلها .

فى ذلك اليوم هزم جيش الأمويين بقيادة «مروان بن محمد» آخر خلفائهم عند ضفة نهر «الزاب» اليسرى، من أرض الجزيرة، هزيمة منكرة، لم تقم لها من بعد قائمة .

ثم كان التتبع والمطاردة، رهبة دموية فاحشة؛ ولا أدل على ذلك من قول الشاعر «سديف بن ميمون» محرضاً «السفاح» على اجتثاث جذور الأمويين :

لا يغررك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويماً
فضع السيف وارفع السوط لا ترى فوق ظهرها أموياً

فعهد «السفاح» إلى عمه «عبد الله بن على» - وهو بالشام - تنظيم هذه المطاردة الدموية؛ فتتبع وجوه «بنى أمية» ومواليهم فى كل مكان، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمايتهم، ولم يبق حتى على النساء والأطفال، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء زعم أن ابن أخيه «أبا العباس» قد ندم على ما فرط منه فى حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه . . . ، فخدع كثيرين منهم بهذا الوعد . . . وأخذوا يظهرن، وبهذه الحيلة الخديعة استطاع أن يكمل على سبعين رجلاً آخر منهم .

وكانت - كما يقول المؤرخون - مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة، ومثل بكثير من الضحايا أبشع غمائل، وألقيت جثثهم للكلاب تنهش لحمها، كما استخرجت رفات الخلفاء الأمويين من القبور وبُذرت...!

إلا واحداً...

إلا واحداً من ذريتهم تهيأت له ظروف تغيير وجه التاريخ، وكان جديراً بذلك لما أوتيّه من جرأة ومغامرة وذكاء وقوة شخصية...! هو: «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك» - بطلنا -، ومحور حديثنا .

ولد «عبد الرحمن» سنة (١١٣) هـ؛ في بلد اسمها «دير خنان» من أعمال «قنسرين» بالقرب من «حلب»

ومات أبوه «معاوية» وهو لا يزال طفلاً، فكفله جده «هشام» مع إخوته، ورعاهم ورباهم . فلما اشتدت وطأة المطاردة على «بنى أمية» فر «عبد الرحمن» بأهله إلى ناحية «الفرات» من أرض الجزيرة، واختفى هناك وقتاً في إحدى القرى، وكانت أمه «أم ولد» تدعى «راح» وهى من قبيلة بربرية اسمها «نفزة» لها عددها ولها بأسها ومكانتها،

الفرار

فلما بلغت خيل المطاردة مكان اختفائه ولحقوا به، ألقى بنفسه في «الفرات» سابحاً، ومعه أخ له صغير إلا أن أخاه لم يستطع السباحة وغره قول المطاردين له بالأمان، فعاد إلى الشاطئ من حيث نزل، فأمسكوا به وهددوا أخاه «عبد الرحمن» بقطع عنق أخيه إن لم يعد إليهم...، ولقد أدرك «عبد الرحمن» أنه وأخاه سوف يقتلان... فلم يرضخ لتهديدهم؛ ولم يسمع لقولهم، فذبخوا أخاه أمام عينيه...!!! وكانت مأساة أليمة تركت أثرها في أعماقه، إذ كان منظر الدماء يتخايل في عينيه مع مستقبل الأيام، لا يحول عنه ولا يزول .

إلى مصر ثم إلى الشمال الأفريقي

لماذا...؟

لأنه صمم على أن يكون أكثر بعداً من أن تطاله يد العباسيين، وأن يكون له شأن، فمؤهلاته كثيرة، ونفسه طموحة، والمغامرة والجرأة عنوان شخصيته... وما كانت مصر أو الشمال الإفريقي إلا محطتين في طريقه إلى الأندلس، حيث لا يزال لبني أمية وجود وأنصار وجند.

اخترق «فلسطين» ومنها إلى «مصر» حيث لحق به موليان له هما «بدر» و«تمام» يحملان بعض المال والجوهر، أرسلتهما له أخت له تدعى: «أم الأصبح».

ثم تابع سيره إلى «برقة» حيث منازل أخواله من «بنى نفزة»، فاستقبلوه وأكرموا وفادته، واحتضنوه، فأقام عندهم زمناً، لا يفصح عما يريد، ولا يتحدث بما اتوى عليه، لكنه كان فى مقامه هناك يدرس أحوال المغرب، وأحوال العدو القصورى فى الأندلس، ويرقب التطورات، كى يختار المكان المناسب والزمان المناسب.

الأندلس

وكانت بلاد الأندلس فى ذلك الحين قد دخلت فى دوامة من الصراع الطاحن، بين المتطلعين إلى الولاية من ناحية، وبين القبائل العربية التى نزلت تلك الديار مع الفتح من قيسية ومضرية وفهرية... وغيرها؛ وكذلك بين هذه القبائل نفسها وقبائل البربر الذين كانوا - ولا شك - عدة الفتح بعددهم وفروسياتهم وشجاعتهم، ولهم يد فى ذلك الفتح العظيم، تذكر فتشكر، ولا تنسى أبداً.

لم تطل إقامة «عبد الرحمن» فى «برقة» إلا بعض الوقت، وعندما أحس بخطر المطاردة قد اقترب منه نزع عنها إلى المغرب، وفى ظروف صعبة وقاسية، وقد عانى من خطر الموت أكثر من مرة...

وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى «وانوس»، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل على قومه من «زناته» على شاطئ البحر، ولحق حيناً

بـ «مليلة» وغيرها... ، وهكذا... ! وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس -
وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها .

ولا يفوتنا - عزيزى القارئ - ونحن نتحدث عن الوضع الأندلسى أن نذكر بأن
هذا الوضع القلق المضطرب ؛ المشحون بالمؤامرات والدسائس، المنكوب بالدماء
البريئة تسيل على أرضه، بأن المملكة النصرانية فى الشمال الشرقى كانت تقوى
وتشتد على حساب ذلك كله، وربما اقتطعت أطرافاً من الأرض التى كان يسيطر
عليها المسلمون .

رسول «عبد الرحمن» إلى الأندلس

مع أواخر سنة (١٣٦) هـ، و«عبد الرحمن» لا يزال فى المغرب يرقب ويدرس
ويبحث ويتنظر، إذ لاحت له فرصة التدخل وأمل العبور، إذ اشتد الصراع هناك
بين «المضريّة» و«اليمنية» .

فأرسل مولاه «بدرًا» إلى الأندلس ليسبر غورها ويطلع على أحوالها من قريب،
ويبث دعوته بين أنصاره من بنى أمية، الذين لا يزالون على ولائهم .

فتزل «بدر» بساحل «إلبيرة» - كورة «غرناطة»، وكانت منزل جند الشام، وفيها
تجتمع عصبة من «بنى أمية» ؛ وكانت رئاسة الأمويين - والشاميين - يومئذ لـ «أبى
عثمان عبيد الله بن عثمان» وصهره «عبد الله بن خالد»؛ فاجتمع بهما «بدر»
وأبلغهما رسالة «عبد الرحمن» وعرضه، وناشدهما النصر والمساعدة؛ فاستجابا
لذلك ووعداه خيراً.

«يوسف بن عبد الله الفهرى» و«الصميل»

وكان والى العام على الأندلس يومئذ «يوسف بن عبد الرحمن الفهرى» - وهو
آخر الولاة، وكان يأتى تعيين والى «الأندلس» إما من «دمشق» - أى الخليفة -
مباشرة، أو من والى الشمال الإفريقى بناء على موافقة الخليفة ؛

أما «الصميل» فإنه كان زعيم اليمنية بلا منازع، فارس شجاع مقدم، له مهابته
وله مكانته، ويحسب له ألف حساب، وقد لعب أدواراً متعددة على الساحة

الأندلسية منذ وطئت أقدامه البلاد مع الجنود الشاميين، الذين كانوا يتوافدون إليها بين الحين والحين وهو كما تقول أرجح الروايات يتهمى نسبه إلى «الشمر بن ذى الجوشن» الذى اشترك فى مقتل «الحسين بن على» - رضى الله عنهما - فى «كربلاء»؛ كما قيل إنه هو الذى احتز الرأس .

وكانت بين «أبى عثمان بن عبيد الله بن عثمان» وبين «الصميل» مودة وصداقة، وتواصل وتعاون، فقصده إليه، وعرض عليه فكرة تأييد «عبد الرحمن»، فأبدى تردداً وفتوراً . . . ، لأنه كان يحرص على بقاء السلطة فى يد «يوسف بن عبد الله الفهرى» - الوالى - لأنه يتمتع فى ظله بالنفوذ الواسع، ويعتبر الشخصية الثانية من بعده فى «الأندلس» .

لكن «أبا عثمان» لم يأس، بل انطلق هنا وهناك يبشر بدعوة «عبد الرحمن» ويستميل القبائل، ويمهد لقدمه، حتى استيقن من التأييد، عندئذ أرسل «بدرًا» فى موكب ومعه نفر من الأمويين يبشرون «عبد الرحمن» بما تم له فى الديار الأندلسية من ترحيب ونصرة .

العبور إلى «الأندلس»

وفى شهر ربيع الآخر سنة (١٣٨) هـ، عبر «عبد الرحمن» إلى الأندلس ووطئت قدماه أرضها، ونزل بساحل «إلبيرة» عند ثغر «المنكب»، فاستقبله «أبو عثمان» وأنزله فى قرية «طُرس» قريباً من الساحل، فاستقر بها، يدير خطته ويرسم خريطة تحركه .

وكانت هذه الحركة - حركة العبور - بداية عهد آخر من حياة «عبد الرحمن»، ملئ بالمعارك والحروب، لإخماد الثورات، والقضاء على المؤامرات، مما استدعى منه يقظة دائمة، وحركة لا تهدأ، وجهاداً متواصلاً لا يفتر ولا ينقطع، وقد دامت أعواماً طويلة، استنفذت منه زهرة قوته وشبابه .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

كان والى الأندلس «يوسف بن عبد الرحمن الفهرى» - آنذاك فى الشمال، يعسكر بجنته تحت أسوار «سرقسطة»، وقد استعصم بها بعض الشائرين: «عامر العبدرى» و«الحباب الزهرى»، فلما تم له فتحها والقبض عليهما وإعدامهما، ارتد بجيشه صوب «طليطلة».

وبينما هو فى الطريق جاءه من يبلغه بمقدم «عبد الرحمن الأموى» - الداخل - وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس، والتفاف الناس حوله ؛ فذعر «يوسف»، وذاع النبأ فى الجيش، فسرى إليه الخلل، وتسلفت العناصر الناقمة، ولم يبق معه إلا القليل من الجند، فبادر مسرعاً إلى «طليطلة»، ليجث مع حليفه «الصميل» فيما يجب عمله إزاء هذا الخطر الداهم .

وكانت دعوة «عبد الرحمن» قد اجتاحت جنوبي الأندلس كله، والتف حوله زعماء القبائل والجند، جند فلسطين، وجند الأردن، وريّة، وأشبيلية...، وكثير من جند الشام حشددهم له «أبو عثمان» .

وأشار «الصميل» على يوسف بمصانعة «عبد الرحمن» ومداهنته، فأرسل إليه يغريه بتزويجه ابنته، وإقطاعه ما يشاء من الأرض، كما أرسل له هدايا وأموالاً .
وجاء فى رسالته إليه (١) :

[أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل «المنكب» وتأبش من تأبش (٢) إليك، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه - جل وعلا - تستعين عليهم؛ ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمضوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقص، والله من ورائهم محيط، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى بك عن لجأت إليه، أكنفك وأصل رحمك، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته بى...، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى

(١) البيان المغرب (ج: ٢) (ص ٤٧)

(٢) تأبش: تجمع.

صاحب أفريقية ولا غيره ...] لكن «عبد الرحمن» لم يخلع بوعود «يوسف» وعهده فأبى عرضه، ورد رسله ؛ إذ كان يسمو ويتطلع بطموحه إلى أبعد من ذلك... إلى الأندلس كلها .

بداية النضال

ثم اتخذ سبيله.. فسار في صحبه ومن معه من «طرش» إلى «رية» فبايعه عاملها «عيسى بن مساور» ثم إلى «شدونة» فبايعه عاملها «علقمة بن غياث اللخمي»، ثم إلى إشبيلية، فبايعه كبيرها «أبو الصباح بن يحيى اليحصبي» - زعيم اليمانية . وقد انضم إليه أثناء التجوال زهاء ثلاثمائة فارس .

ولما داعت دعوته في الجنوب حيث كان أول نزوله، داعت أيضاً في غربى الأندلس كلها، وأقبلت عليه المتطوعة من كل حذب وصوب، من المضربة واليمانية وأهل الشام .

عندئذ آنس «عبد الرحمن» في نفسه القدرة على مواجهة «يوسف» فسار إليه في «قرطبة»، وكان ذلك في أول ذي الحجة سنة (١٣٨) هـ.

وكان «يوسف» و«الصبيل» قد حشدا جموعهما، ومعظمها من القهرية والقيسية، وكان جند «يوسف» قد وهن، وتفرق معظمه خلال الفتن والحروب، وجاءت دعوة «عبد الرحمن»، فزادته تفرقاً وضعفاً .

وخرج «يوسف» بقواته من قرطبة إلى «المسارة» في ظاهر «قرطبة» من الغرب على ضفة نهر «الوادى الكبير»؛ وكان «عبد الرحمن» قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية، في قرية مقابلة تعرف عند العرب بـ«بله نوبة» وهو تحريف لاسمها الأعجمي : (VILANUEVA).

وفرق النهر بين الجيشين على مدى أيام ثلاثة، وفي اليوم الرابع وكان يوم الخميس التاسع من ذي الحجة هبط النهر، وانحسر في بعض المواقع، فتأهب الفريقان للحرب، ولم تنجح محاولة «يوسف» في سبيل عقد الصلح، وصمم عبد

الرحمن على القتال فى اليوم التالى (يوم الجمعة) - وكان يوم الاضحى -، متمناً فى ذلك بذكرى موقعة «مرج راهط» التى انتصر فيها جده «مروان بن الحكم» على قوات «عبد الله بن الزبير»، التى كان يقودها «الضحاك بن قيس الفهري»، وذلك يوم الاضحى - سنة ٦٤ هـ ؛ وكان يوم الجمعة أيضاً .

المعركة:

وفى اليوم التالى دفع «عبد الرحمن» بقواته لافتحام النهر، وكان أول من اقتحم منهم جند بنى أمية ؛ وكان «يوسف» يتفوق بكثرة فرسانه لكن التفرق كان يسود جنده، وكانت جموع «عبد الرحمن» تضطرم على قلتها عزمًا وحماسة؛ فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة، لكن قصيرة، فلم يأت الضحى حتى مُزقت خيل «يوسف» وهُزم جيشه هزيمة شديدة، ونهبت أسلابه، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية، وفر «يوسف» صوب «طليطلة» حيث كان ولده «عبد الرحمن» . وفر «الصميل» صوب «جيان»؛ ثم دخل «عبد الرحمن» وصحبه إلى قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة، وحمل أسر خصومهم وحریمهم وأموالهم من العبث، وصلى الجمعة فى الجامع، ثم نزل بالقصر، ويبيع فى الحال بالإمارة، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة (١٣٨) هـ .

أمير الأندلس

وكان ذلك مفترق طريق بالنسبة إلى الأندلس ؛ فبدلاً من أن تكون ولاية إسلامية تابعة للخلافة فى المشرق، سواء فى «دمشق» أو «بغداد» أصبحت إمارة مستقلة، تمهد لقيام الدولة الأموية والخلافة الأموية فى الأندلس ؛ وتمتد قروناً من الزمان .

لكن كانت هذه البداية، ودون تحقيق الغاية الكبرى أمام شاسعة من الزمن، وحروب ومعارك، وجهاد وجلاد، ونار متأججة من الثورات والانتفاضات والانتفاضات، لا تكاد تخبر واحدة حتى تظهر أخرى . . . أشد وأعتى .

لقد كان «عبد الرحمن» يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية، والتطاحن على الزعامات، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة المركزية مع الإمارات المستقلة، أو الإقطاع المحلى ؛ معركة الرياسة الشاملة مع العصبية المتناثرة !!!

وبالإضافة إلى خطر هذه النزعة القبلية العنصرية، كان هناك خطر البربر، الذين كانوا يشكلون نقطة ثقل كبرى فى توازن القوى، خصوصاً وأنهم متوحدون، وما يزالون يحملون فى نفوسهم كراهية للعرب .

وأيضاً كان هناك خطر أكبر نعى به (أسبانيا) النصرانية التى استطاعت أن تخرج من قوقعة الهزيمة والفوضى، ومن ثم تنظم دولة ومملكة فى الشمال . . . ، وكذلك (مملكة الفرنجة) التى استطاعت هى الأخرى أن تنتزع الأراضى التى استولى عليها المسلمون فى زحفهم وفتوحهم، والتى تقع فيما وراء جبال «البيرتة» وكانت هاتان الدولتان تتنافسان على النفوذ بأساليب مختلفة، ولكن من غير حرب أو قتال بينهما، مما قوى موقفهما وأضعف خصومهما - العرب - .

نهاية «يوسف» و«الصميل»:

كان هذان الزعيمان من أخطر الشخصيات على الساحة الأندلسية وأقواها وأعظمها نفوذاً، وأكثرها تبعاً، فكان لابد من التخلص منهما أولاً، ثم التفرغ إلى ما دونهما .

فمنذ أن بويع «عبد الرحمن» بالإمارة، وقد قرَّ الرجلان بعد معركة «المسارة» إلى «طليطلة» و«جيان» يحشدان أتباعهما، ويستعيدان قوتهما، لينازلا من جديد، الأمير الجديد . . .

منذ يومئذ - وقد كان ذلك فى عام (١٣٨) هـ - احتدمت المعارك بينهما وبين «عبد الرحمن» حتى نهاية عام (١٤٢) هـ ، بين هزيمة مؤقتة، أو نصر مؤقت؛ أو مؤامرات تبدأ بالتسليم وتنتهى بنقض العهد، وقد روى المؤرخون أن عدد اللقاءات

الدائمة والمعارك العنيفة زادت على العشر بين الطرفين، كان خلالها «عبد الرحمن» هو المنتصر والرابح فى أكثر الأحيان من خلال القوة العسكرية، وحسن التخطيط والتدبير، وحزم التنفيذ، والسياسة الحكيمة .

ولقد كانت نهايتهما: «يوسف» و«الصميل» بالأسر والقتل!!!

ويأخذ بعض المؤرخين على «عبد الرحمن» - سواء المؤرخون العرب أم الأجانب - كثرة سفكه للدماء، دماء خصومه، وكثرة اعتماده على الحيلة والغدر والدسيسة ...!

ويبدو لنا - دون أن نعمد إلى تبرير ذلك - بأن أسلوب العصر فى التعامل السياسى والحربى كان قائماً على هذين العنصرين، بالإضافة إلى المواجهة القتالية ...، فكان لا بد له من التعامل مع خصومه بكل أسلوب معروف مألوف ... وإلا أخذ به هو فكان الضحية، مع ضياع الآمال الكبار .

ثورات هنا وثورات هناك:

وقطع «عبد الرحمن»^(١) أعوامه التالية فى كفاح مستمر، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع «يوسف» و«الصميل»، «القاسم بن يوسف» وحليفه «رزق بن النعمان الغساني»، وكان «القاسم» حينما فر من «طليطلة»، قد سار إلى «الجزيرة الخضراء» والتجأ إلى شيخها «رزق» - صديق أبيه، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرزقة، واستولى بمعونة حليفه على «شدونة»، ثم سارا فى قواتهما إلى «أشبيلية» ولم تكن بها قوات تدافع عنها، فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر «عبد الرحمن» فى قواته إلى «أشبيلية»، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة، قتل فيها «رزق» ومزق جنده، ودخل «عبد الرحمن» «أشبيلية» ظافراً، وكان ذلك فى أواخر سنة (١٤٣) هـ .

أما «القاسم» فالتجأ بقواته إلى «شدونة»، وبعث «عبد الرحمن» فى أثره «تماماً» والى «طليطلة»، فطارده حتى أسره ومزق قواته .

(١) دولة الإسلام فى الأندلس (محمد عبد الله عنان) (العصر الأول - القسم الأول) (ص : ١٦) .

وقامت ثورة فى أشبيلية بقيادة «عبد الغافر اليمانى» - زعيم اليمانية -، فارتد إليه «عبد الرحمن»، والتقى بوادى «قيس»، فاستمال «عبد الرحمن» إليه بعض البربر من جنود «عبد الغافر»، ثم اقتتلا، فانهزم «عبد الغافر» وفر إلى «لقت»؛ وكان ذلك سنة (١٤٤) هـ.

ثم قامت ثورة أخرى فى «أشبيلية» بقيادة «حيوة بن ملاس الحضرمى» فانضمت إليه جموع غفيرة واستولى على أنحاء متعددة واستفحل أمره فسار إليه «عبد الرحمن» وقاتله، وكان قتالاً مريعاً شديداً، وأخيراً وقعت الهزيمة . . . ، وفر «حيوة» . . . ، ثم كتب إلى «عبد الرحمن» يلتمس منه العفو والأمان، سنة (١٤٤) هـ.

وفى «طليطلة» قامت ثورة بقيادة «هشام بن عزرة الفهرى»، وأعلن العصيان، فقصده «عبد الرحمن» وحاصره شهوراً عديدة، حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده رهينة . . . ، فقبل ذلك منه «عبد الرحمن» . . .

لكن «عبد الرحمن» ما كاد يصل إلى «قرطبة» حتى نكث «هشام» بوعده وعهده، فنكص «عبد الرحمن» على عقبيه ليؤدب الثائر الخائن، وحاصر «طليطلة» ولكن على غير طائل، ورغم أنه قطع رأس ولد «هشام» وألقاه بالمنجنيق داخل الأسوار، إلا أن هذا لم يفت فى عضد الثائر «هشام»؛ فارتد «عبد الرحمن» عن طليطلة لأمور أخرى شغلته أكثر .

أخطر الحركات الثورية:

كان «العلاء بن مغيث اليمصى» من وجوه «باجة»، ورياسته فيها معروفة، وعصبته بها قوية كثيرة، وكان من أشد خصوم «بنى أمية»، فراسل «أبا جعفر المنصور» فى «بغداد»، وأعلن ولاءه للخلافة العباسية، واستصدر من «أبى جعفر» كتاباً بولايته على الأندلس، ورفع العلم الأسود - شعار بنى العباس -، وكان ذلك سنة (١٤٦) هـ.

اضطربت «باجة» بنيران الثورة - وما حولها - وهرع إليها كل ناقم وثائر، لا سيما الفهرية واليمينية وجند مصر، وانضم إلى «العلاء» في ثورته «أمية بن قطن» و«غياث بن علقمة» في «شدونة»

وكانت هذه الانتفاضة والانتفاضة أخطر ما واجه «عبد الرحمن» . . !

لكنه بما أوتيته من جلد وقوة وعزيمة وبعد نظر، وحسن تدبير في الأمور العسكرية، لم يرتع . . . ، بل قدر الأمور بدقة وحسب لكل احتمال حسابه . فلما جاءت الأنباء تترى، خرج بقواته من «قرطبة»، وبعث مولاه «بدرًا» في جند إلى «شدونة» فحاصرها حتى أذعن «غياث» لطلب الصلح . . !

وسار «عبد الرحمن» بباقي قواته إلى «قرمونة» - ما بين «قرطبة» و«أشبيلية»، واتخذ موقف الدفاع، وقد جاءه العلاء - رأس الثورة - بجند كثيف، وهاجم «قرمونة» مراراً وتكراراً، وحاصرها على مدى أسابيع، دوغاً فائده، وقد ضعفت عزيمة جنده وأصابهم الوهن . . . ، عندئذ ضرب (البطل) ضربته، وانقلب من الدفاع إلى الهجوم، ونشبت بين الفريقين معارك عديدة عنيفة، على مدى أيام متواصلة، حتى وقعت الهزيمة في صفوف العلاء، ومزق جنده شر ممزق، وقتل منهم عدة آلاف، وكان «العلاء» نفسه بين القتلى، كما أسر «ابن قطن» ؛ وجمع «عبد الرحمن» رؤوس الزعماء والقادة من خصومه وعلق في كل منها اسم صاحبها، ورقمها، ثم أرسلها إلى «القيروان» في المغرب سرّاً، وألقيت في الأسواق ليلاً، فأثارت في صباح اليوم التالي فزعاً ورعباً بين الناس . . . ، ووضعت رأس «العلاء» في سيفٍ ومعها اللواء الأسود، وكتاب «المنصور» لـ «العلاء»، وبعث بها إلى «مكة» مع بعض التجار، حيث كان «المنصور» في الحج، وألقيت الرأس أمام باب سرادقه، فلما رآها فزع لرؤيتها وقال : - [ما في هذا الشيطان مطمح !!! فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر . . .]

وهذه العبارة كافية للدلالة على مدى ما كان يتمتع به «عبد الرحمن» من نفوذ وهيبة في نفوس أعدائه العباسيين ؛ وإخافة وإقلاق .

وبهذا تم لـ «عبد الرحمن» سحق أخطر ثورة قامت في وجهه منذ وطئت قدماء أرض الأندلس .

لكنها لم تكن آخر الثورات !..

إذ يبدو للمتتبع تاريخياً أن «عبد الرحمن» قد أمضى أكثر سنى حياته في الأندلس وهو يقمع ثورة هنا وثورة هناك، دونما كلل أو ملل، حتى استقام له الأمر، وتأمّر على البلاد .

فى «طليطلة» ...

ولما عاد «عبد الرحمن» إلى «قرطبة» - التى اتخذها قاعدة له، وعاصمة لسلطانه، كانت قد نشبت ثورة فى «طليطلة»، حيث أعلن «هشام الفهري» العصيان، وأخذ يبعث فساداً فى الأنحاء، فأرسل إليه «عبد الرحمن» قائديه «بدر» و«تمام» فى نخبة من الجند، فحاصروا «طليطلة»، وشددوا عليها، فاضطر أهلها إلى طلب الصلح على أن يسلموا الزعماء الثائرين، فقبض على «هشام» وأعوانه وحملوا إلى «قرطبة» مصفدين، وهناك صلبوا بأمر من «عبد الرحمن»، وكان ذلك سنة (١٤٧) هـ .

ثم فى «لبلة» .. و «أشبيلية» .. وغيرهما ..

ولما كان عام «١٥٠» هـ؛ وعلى مدى خمس سنوات شغل «عبد الرحمن» بثورة داعية بربرى الأصل ! اسمه «شقيقا بن عبد الواحد»، أصله من «مكناسة» فى «المغرب»، ادعى أنه من سلالة النبی ﷺ، من ولد «فاطمة» و«الحسين» - رضى الله عنهما -، وكان فقيهاً يعلم الصبيان . فذاعت دعوته، وانتشرت لأكثر من سبب، والتف حوله الكثيرون؛ وقد عرف بـ «الفاطمى» !!!

أما لماذا استمرت خمس سنوات، وقد لقي منها «عبد الرحمن» وقادته وجنده كثيراً من المصاعب والمتاعب .. ؟ فإن ذلك يعود إلى ظهورها واستفحالها فى

الشمال الأندلسي، وهو منطقة جبلية وعرة، مناعتها في طبيعتها وكثرة حصونها وقلاعها، ثم انشغال «عبد الرحمن»، بالثورات - الصغيرة والكبيرة - في الجنوب .
وقد فشلت أكثر حملات «عبد الرحمن» للنيل من هذا التأثير... إذاً لابد لـ «عبد الرحمن» من أن يقرن الحيلة والتدبير إلى جانب الحملات العسكرية، فاستقدم إليه كبير البربر في شرقي الأندلس «هلال الميديوني» وأمره على ما بيده من الانحاء، وأصدر له عهداً بالولاية على المناطق التي غلب عليها «الفاطمي»، وفوض إليه أمر استخلاصها منه، وبهذا ضرب «عبد الرحمن» البربر ببعضهم، فانشق عنه الكثيرون، واضطر إلى التراجع... إلى الشمال الأندلسي... حيث معاقله وحصونه، فتبعه «عبد الرحمن» بنفسه على رأس الجند يدك حصونه وقلاعه ويطارده من مكان إلى آخر .

ولكن «عبد الرحمن» شغل بتدبير مؤامرة ضده قام بها ثلاثة من المناوئين له: «أبو الصباح»^(١)، و«حيوة بن ملامس» و«عبد الغافر اليحصبي» - ومعهم «عمر ابن طالوت» .

فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى «قرطبة» في غيبة «عبد الرحمن» عنها... مما اضطره إلى العودة السريعة...، فالتقى بالثائرين في وادي «منبس» على نهر «بميسزار» - أحد الفروع لنهر «الوادي الكبير»...، فنشبت بين الفريقين معارك محدودة، دون أن يسجل طرف على الآخر نوعاً من النصر...؟

وعلى عادته في التدبير، تحت شعار: [الحرب خدعة]، لجأ «عبد الرحمن» إلى الحيلة، فسير طائفة من وجهاء البربر ليلاً، من عنده، إلى إخوانهم وأبناء عشائريهم في صفوف الثائرين... فاستمالوهم إليهم...

فلما كان اليوم التالي ونشبت المعارك، تقاعس بربر الثائرين عن القتال...، فلاحقت الهزيمة بالثائرين، شر هزيمة، وكثر القتل فيهم، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً كما هلك معظم الثائرين...، وفر بعضهم، وقبض «عبد الرحمن» على ثلاثين من وجهاء «أشبيلية»، وأمر بهم فأعدموا؛ جزاءً وفاقاً على الخيانة .



(١) كان حليفاً لـ «عبد الرحمن» وأحد ولاته، لكنه انقلب عليه.

نهاية «الفاطمي» :

ولم يترك «عبد الرحمن» خصمه «الفاطمي» يسرح ويمرح، ويعيث في الأرض فساداً وإفساداً، وتعقبه في خطوات استراتيجية مدروسة؛ كي يقتحم عليه معاقله في الجبال الشاهقة ...

غزا «عبد الرحمن» «قورية»...، وأرسل لقتال «الفاطمي» قائديه «تمام» و«عبيد الله بن عثمان»؛ بالقرب من «شت برية»، فحاصراه عدة شهور، ولكن على غير طائل...، فعادوا إلى «قرطبة»، وخرج هو من مخبئه ونزل بقرية تدعى «قرية العيون»...

إن المعارك مع «الفاطمي» استمرت عشرة أعوام كاملة، دون أن يظفر به «عبد الرحمن»؛ ولقد اضطر «عبد الرحمن» إلى اللجوء إلى التدبير، فأغرى اثنين من أتباع «الفاطمي» به، وأمدهما بالمال، ووعدهما بالوعود...، فانقضت ذات ليلة على صاحبهما فقتلاه واحتزا رأسه وأرسلا بها إلى «عبد الرحمن»، على أثر ذلك، حدثت البلبلة في صفوف أتباعه وجنده...، وكانت النهاية، وانتهاء الثورة عام (١٦٠) هـ.

يقول بعض المؤرخين: إن الخيانة والجريمة كانتا من بعض أسلحة «عبد الرحمن» في حربه مع خصومه؛

ولو أنهم «عايشوا» عصر «عبد الرحمن» بكل معطياته وحقائقه وأساليبه في الخصومة والتنافر، و«تبعوا» الحركات الثورية التي يواجهها على مدى السنوات الطوال لعدلوا عن كلمتي: الخيانة والجريمة، ذلك أن أسلوب المكر والخديعة والحيلة، قد تعرض لها هو من أكثر خصومه؛ فحاربهم بنفس الأسلوب؛ لا نقول ذلك دفاعاً عن «عبد الرحمن» بل إحقاقاً للحق وإنصافاً للتاريخ.

لقد طال عليك الأمد - عزيزي القارئ - في الحديث عن الفتن والمؤامرات، والانتفاضات والحروب؛ ويؤسفني ذلك، فإنها طبيعة الفترة التاريخية التي أمضاها «صقر قریش» في ديار الأندلس: إذ دخلها - كما عرفت - وحيداً أعزل...، فإذا

به خلال سنوات سيد الموقف فى طول البلاد وعرضها، ولولا حزمه وعزمه وجده وشجاعته، لما بلغ ما بلغ، خصوصاً فى المنطقة الجنوبية من الأندلس، وعلى امتداد الساحل .

أما الشمال الأندلسى فقد حدثتك عنه قليلاً، ولابد من الإسهاب فيه لأنه ولا شك أهم وأخطر المواقف، والذى على أثره، أصبح «عبد الرحمن» بطل البلاد بأسرها : شمالها وجنوبها، وأعاد بالفعل إلى الأندلس إمارة أجداده الأمويين، ثم أسس ملكاً عريضاً تركه لذريته من بعده، و(خلافة) أموية تنافس خلافة العباسيين بالشرق - سلطاناً وغنى وأبهة مُلك - !!!

«شارلمان» أو : «كارل»

«شارلمان» مؤسس الدولة النصرانية فى الجزء الجنوبي الغربى من البلاد الفرنسية، تفصله عن أسبانيا سلسلة جبال «البيرنيه»؛ ولقد استطاع هذا الرجل بما أوتيته من شجاعة وسياسة أن يؤسس تلك الدولة ويكافح القبائل الوثنية التى كانت تهدد مملكته بين الحين والحين، أمثال «البشكنس» و«القوط»، فيحاربها ويشدد عليها، ويدخلها فى النصرانية، ويكون جبهة قوية .

وكان من جملة طموحاته الاستيلاء على الأندلس وإخراج الكفار (المسلمين) منها، وبسط سلطانه عليها .

ولقد وجد فى قيادات بعض الولايات العربية الأندلسية فى الشمال من يمد له يد التحالف، ويتعاون معه، ويؤيده ويغريه، ويقدم الرهن والمساعدات العينية على ذلك . . . ؛ مما ألهم فى نفسه فكرة الزحف على الأندلس (أسبانيا) كلها .

«هارون الرشيد» و «شارلمان» :

ومنذ عهد والد «شارلمان» كانت السفارات والتواصل قائماً بينه وبين «أبى جعفر المنصور»، يتبادلان الهدايا، ويتناقشان الأفكار، ولقد كان «أبو جعفر» يطمع فى القضاء على «ولاية صقر قريش» فى الأندلس، بالحد من انتصاراته، وتوسع رقعة

سلطانه، ووجد «أبو جعفر» فى والد «شارلمان» ضالته المنشودة ؛ وفى عهد «هاورن الرشيد» كان نجم «شارلمان» قد بدأ يسطع ويعلو، وأصبح موضوع الزحف على أسبانيا «الأندلس» كلها جاهزاً مهيناً .

وكان «عبد الرحمن» يعرف كل ذلك، ويدرك خطورته، لكن انشغاله بالحروب والفتن الداخلية، أخرته عن مواجهة هذا الموقف، وكأن الرجل كان يجعل الوقت والزمن يعمل لحسابه .

هزيمة «شارلمان» عند باب «شيزروا» وارتداده:

انطلق «شارلمان» بجيش كثيف العدد والعدة، لم تشهد له أوروبا الغربية مثيلاً فى التاريخ القديم والحديث، وقد وطن نفسه على طرد «الكفرة»، وبسط النفوذ على «أسبانيا» ؛

وهنا - عزيزى القارئ - نتحدث الروايات الغربية لتلك الحملة بشئ من الفخر والاعتزاز والكبرياء، وقد أشاد الشعراء بعظمة «شارلمان» ونظموا فيه القصائد الطوال .

قسم «شارلمان» جيشه قسمين، جعل القسم الأول بقيادة أحد أبطاله الشجعان وقادته المعدودين، أما القسم الثانى فقد قاده بنفسه، مختاراً جبال «البيرنيه»، وقد ضم الجيش بقسميه العدد العديد من الحلفاء، «البشكنس» و«القووط» وغيرهم ؛ فكان خليطاً من الأجناس والألوان والاتجاهات .

وكان هم «شارلمان» أن يفى حلفاؤه العرب أمراء الولايات الشرقية بما وعدوا من نصرة ودعم ومدد .

موقف «عبد الرحمن»:

قدر «عبد الرحمن» الموقف حق تقديره، ودرس الموضوع الطارئ بإمعان وروية، ورأى بعد ذلك أن لا يغادر موقعه فى وسط البلاد - القلق المضطرب -

خشية الضربة من وراء، لكنه أوعز إلى بعض قادة وأمراء الولايات الشمالية الشرقية - ممن يرى فيهم الخير والصلاح، أن يستنكفوا عن مساعدة «شارلمان»، كما وعدهم أن يقرهم على ما بأيديهم من الولايات، وبهذا يكون قد كسب طرفاً له شأنه .

وساح «شارلمان» في البلاد واسترد كثيراً من الأراضي الفرنسية التي كانت بأيدي المسلمين، وأوقع بأهلها، إما قتلاً أو سبياً أو تشريداً أو نفيًا، واستولى على كثير من الغنائم التي جعلها في معسكر خاص، وأقام عليها حراسة .

ويبدو أن هذه المغنم كانت مطمعا لـ «البشكنس» «القوط» وغيرهم من الدخلاء على جيش «شارلمان» . . . ، ويبدو أيضاً أن الوعود التي قطعها ولاة المناطق الشمالية قد نكث بها أصحابها، لذا اضطرب الوضع في جيش «شارلمان» وجرى قتال شديد بين الأطراف، أودى بحياة الكثيرين، وضع على «شارلمان» خطته، وأحبط آماله، واضطر للعودة بمن بقي معه .

وهكذا فشلت الحملة بكل معنى الفشل، وارتدت على أعقابها من غير أن تحقق هدفاً، اللهم إلا ما كان من تحرير الأرض الفرنسية التي كان يسيطر عليها المسلمون .

إتمام المهمة :

وانصرف «عبد الرحمن» بعد ذلك إلى إتمام المهمة الكبرى التي نذر نفسه لها منذ أن غادر الشام، طريداً، وحيداً . . . شريداً، ثم نزل الأندلس . يقول أستاذنا «محمد عبد الله عنان»^(١) (وهكذا أنفق «عبد الرحمن» جميع حكمه - ثلاثة وثلاثين عاماً - في كفاح مستمر، وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة، أن يطمح فتى شريد، يعمل القتل الذريع في أسرته وعصبته، وحيد ليس له أنصار ولا صعب، إلى افتتاح قُطر عظيم، زاهر بالقادة والجنود، وأن يخضع ذلك القطر في حروب لا يخمد أوارها، وسيول من الدماء لا تنقطع، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة) .

(١) دولة الإسلام في الأندلس - القسم الأول (الجزء الأول) (ص: ١٩١) .

تلك هى قصة «عبد الرحمن الداخل» الأموى، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية، ولا يقدم التاريخ إلينا كثيراً من أمثالها، ولكن «عبد الرحمن» كان رجل الموقف، وكانت حوادث (شبه) الجزيرة (أسبانيا) وظروفها، وتمزق شملها، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها، وتسير بها نحو السلام والأمن، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر، كذهن «عبد الرحمن» .

وكان «عبد الرحمن» يجمع إلى فيض جرأته كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهى غير مرة، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع، ولكن الغنم كان عظيماً: كان ملكاً بأسره، وكان بعث أسرة هوت ومجد عريض دُثر .

تلكم - عزيزى القارئ - هى بطولة «عبد الرحمن» - صقر قریش، فى استعادة الوحدة والأمن والسلطان إلى ربوع «الأندلس» بعد أن أوشكت على التمزق والانحلال .

وكانت وفاة «عبد الرحمن» - رحمه الله تعالى - فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة (١٧٢) هـ . وقد بلغ الثامنة والخمسين من العمر .

ولم يزل السيف فى يده ومقود الفرس فى يد أخرى، صائلاً جاثلاً مقاتلاً.

خلاله ومآثره:

للذين عاصروا «عبد الرحمن» أو جاؤوا بعده بقليل، آراء متباينة فى شخصه، ولكن لديهم إجماع على أنه كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل، وكان طاغياً مسرفاً فى البطش والفتك وسفك الدم .

ولعل هذا رأى أكثر مؤرخى الغرب الذين عاصروه، أو كتبوا عنه، أمثال «دورى» - الذى يقول: [لقد دفع «عبد الرحمن» ثمن ظفره غالباً، ذلك الطاغية

الغادر الصارم المنتقم، الذى لا تأخذه رافة؛ ولم يبق زعيم عربى أو بربرى يجرؤ على مواجهته صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية، ولم يك رجل يرغب فى خدمته...

[كان هم «عبد الرحمن» الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام، وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع...].

هذا أقصى وأقصى ما طعنه عليه خصومه ومعارضوه فيما يتعلق بأسلوب معالجة الأوضاع الشاذة والمضطربة التى تعيشها الأندلس أيام نزلها «عبد الرحمن».

والى جانب هذه الآراء، هناك آراء أخرى تحاول أن تبرر هذا الأسلوب وتلك الممارسة؛ يقول «ابن حيان» مؤرخ الأندلس [كان «عبد الرحمن» راجح الحلم فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الظمأنية، بليغاً، مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، سخياً، طلق اللسان] (١).

ويقول أستاذنا «محمد عبد الله عنان» :

(وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية والمثيرة معاً، لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب).

وهناك سؤال يطرح نفسه :

لماذا لم يتسم «عبد الرحمن» بـ «الخلافة»، وقد أصبح أميراً مطلقاً على بلاد الأندلس، لا ينازعه فيها منازع؟ ولقد استمر وقتاً طويلاً يدعو لهم ويذكرهم على المنابر، إقراراً منه بوحدة الأمة، حتى نزل على ضغط أقربائه من «بنى أمية» الذين وازروه فى حربه وأيدوه، فألغى ذلك عام (١٣٩) هـ.

وعلى الرغم من هذا لم يتسم بالخليفة

(١) (نفع الطيب) (ج: ٢) (ص: ٦٧).

يقول «ابن خلدون»: (إن بنى أمية فى الأندلس تلقبوا كسلفهم^(١) مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس)

ويقول المؤرخ المسعودى: (إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكا للحرمين، ولذلك سموا بـ «الخلائى»، حتى بعد أن سموا بالخلافة - بعد «عبد الرحمن» - لم يخاطبوا بالخلفاء) .

عزيرى القارى:

لعل الصورة التى قدمنا وأسلفنا كافية فى إلقاء الضوء على شخصية «عبد الرحمن» فى سعيه لتوحيد الأندلس، والاستقلال بالإمارة، وإعادة الأمن والأمان، والرخاء والازدهار، إلى ربوع أسبانيا، بعد أن كادت تذهب بدداً بين أيدي الطامعين والمارقين والحاقدين .

سياسة «عبد الرحمن» نحو رعاياه من نصارى البلاد

لقد أورد «ابن الخطيب» فى كتابه «الإحاطة» نص عهد قطعه «عبد الرحمن» على نفسه إزاء هؤلاء الرعايا، وهو ولا شك يقوم على أسس من الكتاب والسنة. يقول «عبد الرحمن» فى كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم «عبد الرحمن» للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى، والأندلسيين أهل «قشتالة» ومن تبعهم من سائر البلدان، كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة^(٢) ومثلها من الرماح، فى كل عام، إلى خمس سنين، كتب بمدينة «قرطبة» - ثلاث «صفر» عام اثنين وأربعين ومائة (١٤٢) هـ.

(٢) بيضة: خوفة.

(١) أى من الولاة والامراء

الحاكم الإداري

وعلى الرغم من شهرته واستفاضةها على الملأ في الشئون العسكرية والقتالية، فقد كان «عبد الرحمن» حاكمًا إداريًا ناجحًا من الطراز الأول ؛ ولا عجب في ذلك، لأنه سليل بيت حاكم مالك، هو البيت الأموي،

ويجمل لنا «ابن حيان» هذا المفهوم بالعبارات التالية فيقول: (إنه دون الدواوين، ورفع الأواوين وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آله، وأخذ للسلطان عدته).

ويقول صاحب رأى :

(ولو لم يشغل «عبد الرحمن» طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقًا جديدًا، وأن يجعل منها حديقة يانعة، على أنه ذلل الصعب، ومهد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة، التي غدت على يد بنيه - من بعده - أعجوبة العصور الوسطى).



الجيش

من الطبيعي جدًا لرجل مثل «عبد الرحمن»، حياته ومصيره في القتل والقتال، أن يكون الجيش هو أهم ما يعتنى به، وبعبارة خاصة، فحشد الجند من كل جنس ونوع، حتى بلغ تعداده مائة ألف مقاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه من الموالي والبربر والرقائق - ضمانًا للطاعة العمياء -، وقد بلغ أربعين ألفًا . كما أنشأ قوات بحرية، حفاظًا على الشغور البحرية والنهرية، أمثال: «طركونة» و«طرطوشة» و«قرطاجنة» و«أشبيلية» وغيرها.



الصمران:

وحدث ولا حرج عن «قرطبة» عاصمة ملكه ...!

لقد حصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض الياقة، وكان أول ما أنشأ بها فى عهده «منية الرصافة» - وقصرها المنيف .

وأنشأ ضاحية ملوكية جديدة تليق بحاضرة ملكه؛ وأنشأ فى الشمال الغربى منها قصرًا فخماً تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى، من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بـ «الرصافة» واتخذها مقامًا ومترزها ومركزًا للإمارة .

وفى عام «١٥٠» هـ، أنشأ سور «قرطبة» الجديد، واستمر العمل فيه خمسة أعوام، كما أنشأ فى مختلف المدن الأندلسية المساجد، وفى عام (١٧٠) - أواخر أيامه - بدأ بإنشاء الجامع الأموى وقد أتمه من بعده ولده «هشام» ... حتى غدا أعظم مساجد الأندلس .

كما أنشأ «عبد الرحمن» فى «قرطبة» دارًا للسكة، تضرب فيها النقود .

الخلال الشخصية:

ما قدمنا - عزيزى القارئ - كانت صفات عامة تتعلق بشخصية «عبد الرحمن»، ومآثره ؛ ونود هنا أن نتحدث عن صفاته الذاتية.

يقول العالمون المعاصرون لحياة «عبد الرحمن»، الذين عايشوه وتعايشوا معه بأنه كان جوادًا سَمَحًا كريمًا، جم البساطة والتواضع فى ملبسه ومأكله ومشربه، يحضر الجنائز ويصلى عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويخاطبهم، ولم ينحرف عن هذه البساطة وهذا التواضع إلا فى آخر عهده ؛ حينما أشار عليه بعض خاصته بالترفع، استبقاءً لهية الملك، والحذر من بوادى العامة، وشر المتآمرين .

وكان نقش خاتمه: [«عبد الرحمن» بقضاء الله راضٍ] . . . وعلى خاتم آخر :
[بالله يثق عبد الرحمن ويعتصم] .

الأديب

وكان «عبد الرحمن» شاعراً جيد النظم، ناثراً فصيح البيان، قوى الترسل، عالماً بالشرعية وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة في البلاغة والأدب .

يقول في رسالة بعث بها إلى «سليمان بن يقطان» حين خرج عليه: [أما بعد،
فَدَعْنِي من معاريف المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يدًا بالطاعة،
والاعتصام بحبل الجماعة، أو لالقيْن نبانها على رصف المعصية، نكالاً بما قدمت
يداك، وما الله بظلام للعبيد] .

وكتب إلى مولاه «بدر» يزجره عن تمرده وانحرافه :

[لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم ردت إلى أن
ثقل على السمع كلامك، ثم ردت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا
بإقصائك إلى أقصى الثغر . . .]

وإليك بعضاً من نظمه فيه السلاسة والعذوبة، وعدم التكلف :

يقول في التشوق إلى ربوع الشام، والحنين إليها :

أفّر من بعضى السلام لبعضى	أيها الركب الميمم أرضى
وفؤادى ومالكيه بأرضٍ	إن جسمى كما علمت بأرضٍ
وطوى البين عن جفُونى غَمَضِى	قدر البين بيننا فافترقن
فَعَسَى باجتماعنا سوف يقضى	قد قضى الله بالفراق علينا

وكان يتنزه يوماً في روض «الرصافة»، فرأى نخلة، فحن إلى أرض النخيل

فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تنادت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهى فى الثغرب والنوى وطول الثنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيه غريبة فمثلك فى الاقصاء والمتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل
رحم الله «عبد الرحمن» - صقر قريش - وغفر له ؛ وجزاه عن كفاحه فى
سبيل وحدة البلاد ، خير الجزاء .

وليكن لنا - فى عصرنا الحاضر - خير أمثلة فى القيادة، تلتزم الحق، وتعزم فى
الأمور، وتحزم عند الضرورة، وتستهدى بالله، وبه تستنصر؛ والله خير
الناصرين، وهو وحده الهادى إلى سواء السبيل .

١١ - محمد بن القاسم

قبل أن نخوض في الحديث، ونسترسل في الكلام، مؤرخين للبطل «محمد بن القاسم» في غزواته وفتوحه، لابد لنا أن نتوقف - بعض الشيء - أمام قبيلة «ثقيف» التي ينتمى إليها، و«الطائف» التي نبت ونشأ فيها، كما نتوقف - أيضاً - أمام شخصية «الحجاج بن يوسف»، التي شغلت الناس والتاريخ، قديماً وحديثاً، ذلك أن بين الرجلين نسب وسبب.

فقد كانت «ثقيف» من القبائل العربية الكبيرة العريقة، ذات القوة والبأس والعدد، لها ماض وتاريخ حافلان بالأمجاد، وعلى مختلف الصُّعد، خصوصاً في ميداني العلم والحرب، كما أنها من جهة أخرى كانت تتمتع بغنى وافر وثروات ضخمة، اشتهر بها عدد من رجالاتها البارزين.

كل ذلك كان قبل الاسلام، وفي جاهلية العرب.

لذا كان اعتراض بعض الجاهلين على اصطفاء سيدنا «محمد» ﷺ رسولاً نبياً ...، وهو اليتيم الفقير...، ينصب على إغفال عظماء القريتين: «مكة» و«الطائف»، عن هذه المكانة الرفيعة ...!

و«عظمة» النبوة والرسالة لا تتفق - في مفهومهم الجاهلي - مع اليتيم والفقير، إذ لابد من الغنى والسلطان...، السلطان القبلي العائلي.

فقالوا - كما حدث القرآن الكريم عن رعمهم :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وما دروا أن العظمة إنما تكون في الحقيقة الثابتة في الكيان الإنساني، وليست في العرض الزائل، وأن الرسالة المحمدية إنما جاءت لتقلب كل هذه المفاهيم الجاهلية رأساً على عقب، وتعيد الإنسان سوياً يمشى على رجليه ويفكر برأيه، بعقله وقلبه... لا أن يمشى مكباً على رجليه، يمتطى رأسه ويفكر بقدميه.!!

على كل حال ... ليس هذا موضوعنا، وليس هذا بحثنا...، إنما هو الشاهد فقط...! ذلك أن سكنى قبيلة «ثقيف» كان في «الطائف» التى هى ثانى القريتين: «مكة» أولاً - «أم القرى» - و «الطائف» ثانياً!

ونحن لو رحنا نحقق مدن العرب فى «الحجاز» كمرتكزات سكنية وحواضر، لما وجدناها تخرج عن إطار «مكة» و «يثرب»^(١) و «الطائف»...!

وتتميز «الطائف» بموقعها الجغرافى، وبطبيعتها المناخية عن غيرها من مدن «الحجاز» وأقاليمه، الساحلية منها والصحراوية والجبلية...، فهى تقع على مرتفع جبلى، يبدأ فى سفوحه صخرياً وينتهى فى قمته بأرض خصبة جيدة التربة، ذات أشجار وظلال، ومياه غزيرة غيرة وفيرة، وثمار متنوعة شهية، وفاكهة لذينة متنوعة!

ولئن كانت «مكة» - أم القرى - تعتمد فى اقتصادها على التجارة، فقد كانت الطائف تعتمد على الزراعة.

ولئن كان التنافس فى ميدان الزراعة قائماً بين «يثرب» و «الطائف»، فإن الأخيرة كانت فى هذا الميدان أسبق، نظراً لقربها الشديد من «مكة»، سوق العرب الكبرى. أضيف إلى ذلك أن «الطائف» فى ارتفاعها الشاهق، وعلوها... واعتدال مناخها، خصوصاً فى فصل الصيف القانظ، مدعاة تفوق وتميز.

هذه الحاضرة (الحجازية)، قصدها رسول الله ﷺ ذات يوم مؤملاً أن يجد فى عقول أبنائها وقلوبهم استجابة لدعوته، بعد أن صدت عنه «قريش» صدوداً، وحاربت رسالته حرباً شديدة لا هوادة فيها.

لكنه - ﷺ - لقى فى «ثقيف» إعراضاً... وسفهاً... وإبذاءً...!

وإنا لنلاحظ فى دعائه - ﷺ - لدى رجوعه من «الطائف» - وقد رد من أهلها ردّاً قبيحاً فظاً - نلاحظ قمة الحرارة الإيمانية، ومرارة الجفوة، وذروة التوكل على الله تعالى:

(١) كان ذلك اسم المدينة قبل الهجرة.

(اللهم .. إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس..!)

يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي!!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).^(١)

وظلت «ثقيف» على عداوتها للإسلام والمسلمين، لا تألو جهداً، ولا تدخر وسعاً، وتُتمعن في محاربة الله ورسوله..!

إلى أن كان العام الثامن للهجرة، بعد فتح «مكة»، وهزيمة هوازن وحلفائها في «حنين»، وقد نزل جيش المسلمين بـ «الطائف» وحاصرها..، وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون معه حول حصونها أياماً وليالي، ولم يفتح الله عليهم.

ولقد لقي جند الإسلام يومئذ كثيراً من العنت والمشقة، وأصيب كثير منهم بجراحات سهام المشركين، ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل عنها ولما تفتح..، فقبل له ﷺ أن يدعو على «ثقيف»، فكان جوابه:

- (اللهم اهد «ثقيفاً» واث بها).

وبعد أقل من عام جاء وفد «ثقيف» إلى «المدينة» يعلن إسلامه، ودخوله في حوزة الإسلام.

ومنذ ذلك اليوم قدمت «ثقيف» للدين «الحنيف» خالص جهادها وجلادها، وحسن بلائها في سبيل الله، وكان «محمد بن القاسم» أحد الأعلام البارزين الذين نذروا أنفسهم لله ورسوله، ومضوا شرقاً وغرباً ينشرون راية الحق والهدى.

(١) كان يرافقه - ﷺ - في رحلته تلك مولاة «زيد بن حارثة» رضى الله عنه - فقط.

هو: «محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب» - الثقفى -، هكذا جاء نسبه فى معظم المراجع التى تؤرخ له^(١).

ويتصل نسبه بـ «الحجاج بن يوسف» عند «الحكم بن أبى عقيل»

نشأته :

حين كان «الحجاج بن يوسف» عاملاً لـ «عبد الملك بن مروان» على «العراق»، ولّى ابن عمه «القاسم بن محمد بن الحكم» (والد «محمد») على «البصرة»...، وهناك كانت نشأة «محمد» فى بيئة كلها حكم وإدارة وقيادة وفتح...، ولقد تعهده «الحجاج» منذ نعومة أظفاره، وغرس فيه روح العلم والمعرفة، وأحاطه بكل رعاية وعناية، وهياً له أسباب التفوق، لما كان يعهده فيه من قوة الشخصية، ولما كان يراه فيه من مخايل النجابة والذكاء.

يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» فى كتابه عن «محمد بن القاسم»:
نشأ «محمد» بـ «البصرة»، منذ نعومة أظفاره بين الأمراء والقادة، أبوه أمير، وابن عم أبيه - الحجاج - أمير العراقيين، وأكثر «بنى عقيل» فى «ثقيف» - قوم الحجاج - أمراء وقادة...، فنشأ «محمد» وترعرع فى محيط ملائم لتنشئة القادة والأمراء.
وكان له استعداد فطرى متميز، وأفاده محيطه فى بناء شخصيته وتكاملها، لذلك ظهرت كفاياته الفذة فى وقت مبكر من عمره، وهو لا يزال فى ريعان الشباب).

فى الميدان !

ولما بلغ «محمد» واستوى عوده، وأظهر من الكفاية عند الاختبار ما يؤهله لخوض ميادين القتال، قذف به «الحجاج» إلى ساحات الوغى، ومعامع الحروب، ليكتسب الخبرة والتجربة، فمضى «محمد» يخوض المعارك ويثبت الكفاءة

(١) معجم الشعراء (٤١٢) اليقوى (٣ - ٣٢) وفیات الاعيان (١ - ٣٤١) تهذيب ابن عساکر (٤ - ٤٨) جمهرة أنساب العرب (٥٢٧٨).

والجدارة، وكانت أنباء كل ذلك تصل إلى الحجاج تبعاً، فيزيد إعجابه بـ «محمد» وتقديره له، ويفخر بأنه قد أحسن التربية والتوجيه، كما أحسن الاختيار والتقدير. وكان محمد «آنذاك» يدرج نحو السادسة عشرة من عمره...! بين الفتوة والشباب، ولكنه بفعاله واستعداديته كان أكبر من ذلك.

إلى القيادة:

وحدث أمر جعل «محمد بن القاسم» يبرز إلى الواجهة ويتصدر مركز القيادة. فقد أهدى ملك جزيرة «الياقوت» - جزيرة «سيلان» اليوم - إلى «الحجاج بن يوسف»، نساءً مسلمات ولُدن في الجزيرة ومات أباهن الذين كانوا من التجار المسلمين الذين نزلوا تلك الديار خلال رحلة تجارية قاموا بها، فاستوطنوا وتزوجوا وأنجبوا...!

وقد أراد ملك تلك الجزيرة بهذا التصرف أن يتقرب من «الحجاج»... ولكن...!

بينما كانت السفينة التي تقلهن تمخر عباب اليم عرض لها بعض القراصنة من ثغر «التريل» - وهو ثغر كان قائماً بالقرب من مدينة «كراتشي»^(١) فاستولى القراصنة على السفينة بما فيها، ومن فيها، ونادت إحدى النسوة المسلمات، - وكانت من بنى يربوع - مستغثة: يا «حجاج»!! هذا النداء سمعه أحد الأسرى الذين قُدر لهم النجاة والفرار، فأبلغه إلى «الحجاج» وحدثه عن الواقعة وتفاصيلها، فانفض «الحجاج» وأخذته العزة، وقال: - لييك...!

الإنذار..!

وعلى الفور أرسل «الحجاج» رسولا إلى «داهر» ملك «السند»^(٢) يحمل كتاباً فيه تهديد وإنذار بإطلاق سراح المسلمات الأسيرات المختطفات.

(١) كانت مدينة «كراتشي» عاصمة الدولة الباكستانية إلى وقت قريب.

(٢) «السند»: جزء من القارة الهندية، تقع معظم أقاليم «باكستان» فيه، وكان يحد قديماً بين دولة الهند حالياً، و«كرمان» «سجستان» (المالك والمالك) (١٠٣) - (معجم البلدان) (٥ - ١٥١).

فكان جواب «داهر» ملك «السند» لـ «الحجاج»: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم...! ويبدو في جواب «داهر» عدم تجاوبه مع رغبة «الحجاج» مما زاد في غيظ الحجاج وثورته وحميته.

حملات فاشلة:

وأعد «الحجاج» قوة من الجند المسلمين بقيادة «عبيد الله بن نيهان» ووجههم إلى «الديبل» للاستيلاء عليها، وتخليص الأسيرات المسلمات، واسترداد الهبة المفقودة.

ولكن القائد «عبيد الله» قُتل، ووقعت الهزيمة في صفوف المسلمين، فارتدوا على أديبارهم، لكن واقعة هذه الحملة الأولى لم تفت في عضد «الحجاج»، فكتب إلى عامله على «عُمان» - «بديل بن طهفة البجلي» أن يسير إلى «الديبل»، في غزوة جديدة.

ولم يكن حظ «ابن طهفة» بأحسن من حظ «عبيد الله»..

إذ إنه لما بلغ أرض «الديبل» بقواته، واستعد للقاء عدوه، ونظم صفوفه، ثم التحم في القتال، نفر به فرسه بعيداً عن أرض المعركة، ولم يفلح في كبح جماحه، فأحاط به العدو...، واستفردوا به وقتلوه...!

عندئذ وقعت البلبلة في صفوف قوات المسلمين، وتبدت لهم الهزيمة، فانسحبوا من الميدان، وقللوا راجعين...، وعادوا من أرض «الديبل» لم ينالوا بغيتهم، ولم يحققوا هدفهم، وقد قُتل قائدهم.

«محمد»... لها!!

وتبدى لـ «الحجاج» مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين، والخطورة الكبرى إن هو سكت على هذا الأمر...!

لقد فقد اثنين من خيرة القادة الذين يعتمد عليهم، ولحقت الهزيمة بالمسلمين مرتين متعاقبتين.

ففكر كثيراً قبل أن يقدم على بعث جديد... ورأى أنه لابد أن يكون القائد المنشود على مستوى المسئولية، ليحسم الأمر ويعيد الهيبة والثقة، وقال في نفسه: لم لا يكون «محمد بن القاسم»؟!...

إنه منذ خاض ميادين القتال وصيته يتردد، وشهرته تزداد، وكفاءته تظهر وتعلو...! ولكن، أين هو الآن؟

إنه في «الري» فقد بعثه منذ حين في مهمة على رأس فرقة من الجند...! فأرسل إليه يستدعيه على جناح السرعة.

فلما وافاه، عقد له «الحجاج» اللواء على ثغر «السند»، وولاه فتحه...، وضم إليه ستة آلاف من جند الشام، بالإضافة إلى القوات التي كانت تحت إمرته، وجهزه بكل ما يحتاج إليه في معاركه المنتظرة، وقد قيل إنه جهزه حتى بالخيوط والإبر!!!

ثم أمره بالخروج إلى منطقة «شيراز» في أقصى بلاد «فارس»، ويقيم بها، حتى يستكمل حشد رجاله وقواته، ويوافيه بما يعده له من جديد.

ومن هنا يظهر اهتمام «الحجاج» البالغ بهذه الحملة، وما يعلق عليها من آمال عراض، وما يؤمله على يد قائدها من دحر العدو وهزيمته، ورد الاعتبار إلى مكائته التي اهترت، ومكانة المسلمين.

ويذكر أن «الحجاج» - أيضاً - قد اهتم اهتماماً عظيماً في استحضارات جيش «محمد بن القاسم» حتى بلغ حد الروعة حقاً...، إذ لم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج، نقعه في الخل الأحمر الحريف، ثم جففه في الظل، وأوصى الجند فقال:

- إذا صرتم إلى «السند» فإن الخل بها ضيق، فانقعوا هذا القطن بالماء، ثم اطحخوا واصطبغوا!!!

ويقال أيضاً بأن «محمد بن القاسم»، لما وصل إلى ثغر «السند»، وبلغ مقصده وهدفه، كتب إلى الحجاج يشكو ضيق الخل عليهم، فبعث إليه الحجاج - عندئذ - بالقطن المنقوع بالخل!

وسواء كان هذا أم ذاك . . . ، فإن الحادثة بحد ذاتها تشهد للاستعداد العظيم الذى ألقى «الحجاج» على نفسه أن يجهز به جيش «محمد بن القاسم» ، وكأنه يرى فى هذه الحملة غاية الغايات ، وأقصى الأمانى .

وكانت عدة من مع «محمد» من الجند اثنى عشر ألفاً ، من الشام والعراق ، وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم .

إلى «مكران» !..

أقام «محمد» بجيشه فى «شيراز» فترة ستة أشهر ، كانت تواتيه خلالها إمدادات «الحجاج» ، من أسلحة وأغذية واستحضارات ، فلما تمت أهيته ، أمره «الحجاج» بالتحرك ، ووصاه ، وتمنى له النصر والظفر .

وطار على بركة الله ، يحدوه الأمل بنصر الله !..

فلما بلغ «مكران» نزل بها ، وكانت أولى محطاته فى الطريق إلى هدفه العظيم ، فأقام فيها أياماً للراحة ، وقيل إن إقامته بها امتدت إلى شهر «تقريباً» - .

ثم غادرها وهو على كامل تعبته الحربية ، خشية أن يياغته شىء ، ولقد تعلم «محمد» هذا الدرس العسكرى العظيم من القائد المظفر - سيف الله - «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه - .

وكانت محطته الثانية مدينة «قز بور» ، التى تقع بين «مكران» و«الديبل» ، ولم تكن محطة راحة كما يخطر على الذهن فى بادئ الأمر ، بل حدثت هناك معارك طاحنة ، وقتال شديد ، حتى فتحها واستولى عليها ، ومنها انتقل إلى مدينة «أرماتيل» ، وهى مدينة كبيرة وحاضرة عظيمة ، تقع على طريق «الديبل» ، فأحاط بها وحاصرها ، وشدّد عليها حتى فتحها ، وترك فيها حامية من المسلمين .

معركة «الديبل» :

عند مدخل مدينة «كراتشى» حالياً ، والتى تقع على شاطئ المحيط الهندى - أو الهادى- ، فى «باكستان» ، توجد جزيرة صغيرة تسمى جزيرة

«محمد بن القاسم»^(١)، والسبب في ذلك هو أن «محمدًا» قد وافته قوات إسلامية محمولة بحرًا إلى تلك البقعة...، إذ حُمِلَت السفن بالرجال والسلاح والعتاد والمهمات في شط العرب عند «البصرة» ومخرت عُباب الخليج، ثم شقت طريقها مع الساحل حتى أتت تلك الجزيرة عند مدخل مدينة «كراتشي»، وهناك جرى الإنزال، وتكاملت القوات.

وكان «محمد بن القاسم» القائد - النابه - أراد أن يرهب أعداءه ويُدخل في قلوبهم الرعب من خلال الحصار البري والبحري!!!، وأيضًا... بوصول إمدادات إسلامية إضافية.

وبعد أن تم له كل ذلك خندق حول مدينة «الديبل» التي يريد لها، ويريد تأديب الذين اجترؤوا على الإسلام والمسلمين، فكان الخندق أول عمل حربي قام به...، وكان الإيذان ببدء الحرب الفعلية، بعد أن تم له الغرض بالحرب النفسية.

ثم نصب منجنيقًا ضخمًا يقال له: «العروس»!!

وهذا المنجنيق هو في مقابل المدفعية اليوم، من أجل ذلك التحصينات والخطوط الدفاعية...، ولقد قيل في وصف منجنيق «العروس» بأنه كان يعمل في تشغيله خمسمائة من الرجال الأشداء ذوي الكفاية.

وراحت قذائف المنجنيق تنصب على مدينة «الديبل» وأسوارها، وخصوصًا على معبد «الهندوك» الأكبر، المسمى عندهم بـ «البد»^(٢).

و (البد) صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة، ويرتفع (البد) في السماء أربعين ذراعًا.

وحاصر «محمد» مدينة «الديبل»... لكن حمائها قاتلوا ودافعوا عنها بشدة...، ولم يكتفوا بالدفاع من الداخل، بل كانوا يخرجون من الأسوار ويشتبكوا مع المسلمين، ولكنهم كانوا يرتدون منهزمين...!

(١) مثل جزيرة «طريف» عند الشاطئ الإسباني، التي نزل بها «طريف بن مالك» أول البعوث إلى الأندلس، أو مثل (جبل طارق) حيث اجتازه «طارق بن زياد» فاتحًا للأندلس.

(٢) البد: هو المعبد، وكل شيء عظموه بالعبادة فهو عندهم (بد)، والصنم (بد) أيضًا.

وإزاء هذا الموقف قبعوا فى جحورهم داخل الأسوار، وراحوا يرشقون المسلمين بنبالهم وسهامهم، فأمر «محمد» بالسلام فنصبت على الأسوار، وصعد عليها الرجال غير مبالين بما يقع عليهم أو يُصيبهم...!

وكان أولهم صعوداً رجل من «بنى مرادن» من أهل «الكوفة»، استطاع أن يزيح الحرس عن مواقعهم بعد قتال عنيف...، ومن بعده تدفق المسلمون إلى الداخل، تدفق السيل العظيم.

وفُتحت المدينة عنوة...!

فاستباحها «محمد بن القاسم» ثلاثة أيام، وسبى منها جند الاسلام سبياً كثيراً، وغنموا منها غنائم وفيرة.

وفر عنها حاكمها وواليتها من قبل «داهر» ملك «الهند»، ونجا بنفسه وأهله وحاشيته.

وكان أول أعمال «محمد بن القاسم» فى مدينة «الديبل» أن بنى فيها مسجداً جامعاً، فكان أول مسجد أُقيم فى هذه المنطقة فى بلاد «الهند».

وبعد أن استقر له الأمر فيها، واطمأن إلى موقعه، ترك فيها حامية كبيرة من المسلمين، قُدرت بأربعة آلاف من الجند الأشداء، ثم غادرها.

ولكن إلى أين؟؟

هل يكتفى «محمد بن القاسم» بفتح «الديبل» التى عصت من قبل على غيره من قادة المسلمين وجندهم؟ وهل يكتفى بتأديب العصاة الذين أذلوا النساء المسلمات الأسيرات؟ وهل يكتفى من الأمر الذى خرج له بهذا القدر وهذا الحد؟

الفتح...!

إن مهمة جند الإسلام فى الأرض، شرقاً وغرباً، ليست مهمة ثأر، ولا انطلاقاً فتك وتدمير، وتخريب وإذلال لرقاب البشر، أو استعباد واستعمار...! إنها مهمة

فتح وتبشير ونشر لرسالة الله فى الأرض، وإقامة دين الله فى القلوب والنفوس،
وهداية الضالين عن الحق إلى الصراط المستقيم.

لذا ... ، خرج «محمد بن القاسم» بجيشه وقواته من «الدليل» متجهًا إلى
مدينة «النيرون» - وغيرها - فاتحًا.

و«النيرون» مدينة كبيرة، وحاضرة عظيمة، تقع على بُعد خمسة وسبعين ميلاً
من «مكران»، وتعرف أيضاً باسم «نيرانكوت»، وموقعها الجغرافى مكان مدينة
«حيدر آباد» حالياً.

وكان أهل هذه المدينة، حين علموا بخروج المسلمين إلى «الهند» بهذا الجيش
الضخم، وبهذا الاستعداد الهائل... ، وفى نية قائدهم المظفر «محمد بن القاسم»
أخذ الشار للذين استشهدوا من قبل، ورفع الذلة عن أسرى المسلمين من
النساء... !

وحين علموا - أيضاً - بتخلى ملكهم «داهر» عنهم، ووقوع «الدليل» فى أيدي
المسلمين، وما لقيه أهلها من أذى بسبب غدرهم وإصرارهم على القتال، .. !

حين علموا بذلك ... أرسلوا رسلهم إلى «الحجاج» فى «العراق»، وعقدوا
معه صلحًا، وقدموا خضوعهم واستسلامهم، رحمة بأنفسهم وبلدهم.

وحين اقترب «محمد بن القاسم» من مدينتهم، خرجوا إليه يحملون الميرة
والمؤن، واستقبلوه أحسن استقبال، وعادوا معه إلى مدينتهم، ودخلوها جميعًا،
ووفوا بعهدهم وعقدهم، وضمنوا بذلك الأمن والسلام.

وكان «محمد» قد أقام معسكرًا خارج المدينة، فلم يدخلها جيشه، أو أحد من
جنده.

التوغل ...

خرج «محمد» عن مدينة «النيرون» متوغلًا فى أقصى «الهند»... ، فكان لا
يمر بمدينة أو بلد إلا خضعت له واستسلمت، صلحًا أو قتالًا. !

فلما بلغ أحد الأنهر عند منطقة تدعى «مهرات» جاءه أهل مدينة «سريديس» وطلبوا الصلح، فقبل منهم، وفرض عليهم الخراج، فاستجابوا وقبلوا؟ ثم سار عنهم إلى مدينة تدعى «سهبان»، ففتحها عنوة.

وكان فى خط سيره - شمالاً - إنما يقصد المنطقة التى يقيم فيها «داهر» - ملك الهند الأعظم - ، الذى كان قد رد على «الحجاج» فى قضية الأسرى المسلمات رد العاجز . ، أو رد غير المعنى . ! أو رد المتحدى . !

فالحملة أساساً لتأديبه وإذعانه للحق والعدل . . !

وخط السير هذا كان بمحاذاة نهر «مهرات» - نهر السند - ، فلما توسطه «محمد» بجيشه وبلغ منتصفه، بين منبعه ومصبه - ، نزل هناك، وقد علم أن «داهر» يقيم قريباً منه، فى حشد عظيم من جنده وقواته.

كان «محمد» قد أمن خطوطه الخلفية، واطمأن إلى ما ورائه، فلن يؤتى من قبل ذلك فى حالة التحامه بقوات «داهر» . . !

ولكن . . . هناك مدينة قريبة تدعى «سدوستان»، وهو لا يريد أن يتركها ثغرة تشكل عليه وعلى قواته خطراً . . ، أو شوكة تؤذيه . . ، فلا بد أن ينظف الأرض التى سوف يُقاتل عليها . . ، خصوصاً وأنه قد يضطر إلى عبور النهر للقتال، فهل يترك وراءه من يضغط عليه، أو يغدر به من خلفه؟؟

لذا أرسل قوة من الجند، من موقعه الذى هو فيه باتجاه «سدوستان» . . ، فطلب أهلها الصلح والأمان، وخرج وفد منهم إلى معسكر «محمد»، وعقدوا معه عهداً، فأمنهم وألزمهم بدفع الخراج، وترك فى مدينتهم حامية.

عبور نهر «السند»:

انتظر «محمد» أن يعبر إليه «داهر» . . ، فيقاتله فى العدو التى يُعسكر فيها . . ، ولكنه لم يفعل، بل أمعن فى الاختفاء . . والاستعداد . . !

وكانت تلك المقاطعة فى بلاد «الهند» تدعى «قصة»، ويحكمها ملك تابع لـ «داهر» اسمه «رامل» . . !

فلما طال به «محمد» أمل الانتظار، قرر العبور...، وتحيز فرصة هبوط ماء -
النهر...، وأوحى إلى داهر أنه ينتظره...، مما جعل الأخير يستخف به «محمد»
ويلهو عنه... ويغفل. ثم عقد «محمد» جسراً فوق النهر، مستغلاً فرصة ظلام
الليل الدامس...!

ونحن - إزاء هذه الظاهرة العسكرية الهامة - نتساءل:
ما هي الاستعدادات الهندسية والفنية التي كانت قد حشدت لقوات «محمد بن
القاسم» فى تلك الآونة؟

لا بد وأنها كانت على جانب عظيم من العلم والمقدرة والكفاءة...!
ولا بد وأنه كان فى الجيوش الإسلامية الفاتحة آنذاك سلاح مهمات...
وخدمات...، يوفر للقوات جانباً عظيماً من جوانب الأرضية الصالحة التى عليها
يقاتلون، ويمدهم بالخبرة والكفاءة، والدراسة والتحليل...!
وليس موضوع السلالم التى ارتقوا عليها أسوار مدينة «الديبل» عن أذهاننا
ببعيد...!

وعبرت قوات الجيش الإسلامى بكاملها فوق الجسر، ونزلوا بأرض «قصة»، فى
الضفة الثانية من نهر «السند».

وكانت المفاجأة...!

إذ لم يكن «داهر» يتوقع عبور المسلمين ونزولهم بساحته...!
فحشد قواته، وعبأها، واستعد الطرفان للقتال.

المعركة:

تقدم «داهر» إلى الميدان وهو يمتطى ظهر فيل ضخم...!
تُرى... هل يخشى المسلمين الفيلة؟ وهل ترتد خيلهم عنها؟
هكذا كان يؤمل «داهر» ويرجو...، وما درى أن المسلمين منذ «القادسية» قد
عرفوا كيف يواجهون الأفيال، وأين هى مقاتلتها، ونقاط الضعف فيها.

والتحم الجيشان، واصطدم الفريقان... واشتد القتال بصورة لم يُسمع بمثلا من قبل، وكانت قوات «داهر» وحشوده أضعاف أضعاف القوات الإسلامية.

وصبر المسلمون، وحثهم قائدهم على القتال، وحرصهم على الجهاد... وأعطاهم النموذج الرائع من نفسه، إذ أبلى أحسن البلاء، وخاض بكل حماسة وإقدام في صفوف العدو، مما جعلهم يلتهبون حماساً وهمة واندفاعاً.

بدأت المعركة مع خيوط الفجر الأولى، واستمرت طيلة النهار، وزادت حرارة الجو وقيظ الشمس التهاباً وسعيراً.

وكان «داهر» مقاتلاً شديداً عنيداً... فلما رأى أن الفيل الذي يركبه يُعيقه على الحركة... نزل عنه، وامتنى جواداً، وراح يضرب هنا وهناك.

حتى آذنت الشمس بالمغرب، وبدأت تميل إلى الأفق الغربي... وتنحسر أشعتها عن الميدان، الذي عقد فوقه الغبار سُحباً داكنة متراكمة...!

في تلك الأثناء انقضَّ أحد فرسان المسلمين، ويدعى «القاسم بن ثعلبة» من قبيلة «طى»، على «داهر» - ملك الهند (السند) وقتله... ثم صاح مكبراً... عندئذ وقعت الهزيمة في صفوف قوات «داهر» ولاذوا بالفرار...!

ووقع عدد كبير منهم في الأسر، وامتلأت أرض المعركة بأشلاء العدد العديد منهم، وقليل منهم من نجا.

وكان مما قاله «القاسم بن ثعلبة»، قاتل «داهر» مُتخراً:

الخيل تشهد يوم «داهر» والقنا^(١) ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت^(٢) الخيل غير معرد^(٣) حتى علوت عظيمهم بمهندي
فتركته تحت العجاج^(٤) مجندلاً^(٥) متعفر الخدين غير موسد

(١) القنا: الرماح.

(٢) فرجت: فتحت، من فرَج بين الشيئين: فتح.

(٣) معرد: منحرف، من تعرد الرجل عن الطريق: انحرف.

(٤) العجاج: الغبار.

(٥) مجندلاً: صريعاً.

نتيجة الفتح..!

وكما كانت معركة اليرموك «مفتاح» بلاد الشام...، و«القادسية» مفتاح بلاد العراق وفارس، كذلك كانت المعركة مع «داهر» ملك «السند» ومقتله... فقد انفتحت أبواب «الهند» كلها أمام جيوش المسلمين بقيادة «محمد بن القاسم»، ومهدت لسلطان عظيم استمر قرونًا طويلاً، وما يزال قائماً إلى يومنا هذا في تلك الديار، بالإضافة إلى حضارة عظمى ازدهرت وأثمرت.

تقول مصادر التاريخ:

لما قُتل «داهر» غلب «محمد» على بلاد «السند» ففتح مدينة «راور» عُنوة.

و«راور» مدينة عظيمة من مدن «السند»، وكانت بها - في ذلك الحين - إحدى زوجات «داهر»، - حين قصدها - «محمد بن القاسم»، وهذه الزوجة تدعى «دراني باي»...، وكانت أختاً لـ «داهر»!!! بنى بها، وتزوجها...؟؟؟

فلما أحاط جيش المسلمين بالمدينة، وشدد عليها الحصار، وقذفها بالمنجنيق، وتهاوت أسوارها، وتهدمت جدران حصونها، وأوشكت على السقوط...، خافت «دراني باي» على نفسها من الأسر، فجمعت جواربها ومتاعها وأشعلت النيران في القصر، فاحترقوا جميعاً.

إلى «برهمن آباد»

ومن «راور» توجه «محمد» بقواته شمالاً شرقاً، حتى بلغ مدينة «برهمن آباد»، وهي مدينة تقع أيضاً على نهر «السند» العظيم، بين «كراتشي» ومقاطعة «البنجاب»، ولها مكانة تاريخية ودينية لدى «الهندوس».

والسبب في هذا التوجه... هو أن فلول قوات «داهر» - بعد هزيمتهم عند النهر - أوغلوا في الفرار، حتى انتهوا إلى هذه المدينة وتحصنوا بها.

فلما وصلها «محمد» بقواته أحرق بها، وأحاط بمن فيها، ثم هاجمها بقوة وعنف حتى دخلها وقضى على العدو القضاء المبرم.

وتحدثنا روايات التاريخ أنه قتل فيها خلقاً وبشراً كثيراً...، وكذلك خرب المدينة التي صمدت له بعض الوقت...!

وبعدها توجه إلى «الرور» و «بغرور»^(١)...، فخرج إليه أهل مدينة «ساوندرى»، وسألوه الأمان والصلح، فاستجاب لهم...، ولم يفرض عليهم خراجاً ولا جزية...، والسبب هو أنه طلب إليهم ضيافة المسلمين، وإمدادهم بالميرة... فوافقوا...، ولم تمض فترة حتى أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً.

وتستكمل مسيرة فتح «السند» مع «محمد بن القاسم»...!

فمن «ساوندرى» اتجه «محمد» إلى «الرور»...، فمر فى طريقه بـ «بسمند»، فصالح أهلها على مثل ما صالح عليه أهل «ساوندرى»...! ثم وصل إلى «الرور» مقصده وهدفه.

وكانت تقع على ذروة جبل شاهق، مما يزيد لها حصانة ومناعة...! فحاصرها... واستغرق ذلك شهوراً، وقد قطع عنهم الإمدادات وضيق عليهم...! وأخيراً أدرك أهلها والمدافعون عنها أن «محمدًا» لن يُغادرهم حتى يستسلموا، فرأسلوه...، ثم اتفقوا على الصلح والأمان، ولكنهم اشترطوا أن لا يتعرض لمقدساتهم، معابدهم وأصنامهم، فوافقهم، وفرض عليهم الخراج، وأقام فى المدينة مسجدًا عظيمًا...، ثم غادرها وقد ترك فيها حامية من المسلمين.

وعند كلمة (الحامية) التى ترددت كثيراً فى حديثنا، نريد أن نوضح ما يلى، إذ ليس المقصود بها - فقط - القوة العسكرية...، بل هناك أمر لا يقل أهمية، وهو وجود جماعة - تضطلع بعبء نشر الدين، وتشقيف الناس، وهداية الضالين، والتبشير بكلمة التوحيد، فما إقامة المساجد فى المدن المفتوحة إلا دليل ذلك وقرينه، والباب الواسع الذى دخل منه أهل تلك البلاد فى الإسلام وأضحوا من بعد من دعائه ورُعاته، وحملة لوائه.

إلى «الملتان» أعظم مدن «السند» الأعلى!

وسار «محمد» قاصداً «الملتان»...، ففتح فى طريقه مدينة «السكة»، ثم عبر نهر «بياس»، وهو نهر عظيم تتدفق مياهه بغزارة وقوة، ويُفضى إلى «الملتان»...، ويعتبر أعظم روافد نهر «السند».

(١) الرور: ناحية فى «السند» قريبة من «الملتان»، و«بغرور» بئر بالقرب من «الرور».

أما مدينة «المُلتان» فتعتبر أعظم مدن «السند» الأعلى، وأقوى حصونه على الإطلاق...، فلما أتاها «محمد» ضرب عليها الحصار شهوراً، وقد اضطر أهلها - بعد أن ضيق عليهم - أن يخرجوا للقتال، لكنهم هُزموا، وآووا ثانية إلى مدينتهم الحصينة!

ووقع في أيدي المسلمين واحد من أهلها فأسروه...، فاستأمن على نفسه، فأمنه «محمد» ولكنه اشترط عليه أن يدلّه على ثغرة من ثغور القوم، ليأتيهم منها...، فدله على مدخل الماء الذي يشرب منه الناس، ويستقون لزروعهم وخيولهم ومواشيهم...، فسده «محمد» عليهم...، حتى اشتد بهم العطش وأشرفوا على الهلاك، فأذعنوا واستسلموا، ونزلوا على حكمه.

فقتل «محمد» المقاتلة، وسبى الذرية، كما سبى سدة «البد»^(١)، وكانوا ستة آلاف وأصاب مالا كثيراً، جمعه من مكان طوله عشرة أذرع، وعرضه ثمانية، تلقى فيه الأموال من كوة في وسطه.

ولذا سُميت «المُلتان»: (فَرَج بيت الذهب).! أى: ثغر بيت الذهب.

وكان «بَدْ» - المُلتان - «بَدْ» رئيساً، عظيماً، تهدي إليه الأموال، وتُنذر له النذور من كل مكان في «السند» ويحج إليه «الهنود»، فيطوفون به، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن فيه قبر «أيوب» - عليه السلام-!!

وفاة «الحجاج بن يوسف»

مع مطلع سنة خمس وتسعين للهجرة، كانت وفاة «الحجاج بن يوسف»، وكان «الوليد بن عبد الملك بن مروان» ما يزال خليفة...، و«محمد بن القاسم» يتابع جهاده والفتح، وقد أمضى خمس سنوات متواصلة لا يهدأ ولا يستقر، ويتنقل من نصر إلى نصر، حتى قارب على فتح «السند» كلها...!

فلما أتاها نعى «الحجاج» حزن حزناً بالغاً، وتأثر تأثراً شديداً، ولكنه لم يقعه ذلك عن متابعة الجهاد...!

(١) سدة «البد»: كهانه الذين يقومون على طقوس العبادة والنذور.

عاد من «الملتان» إلى «الرور» و «البغور» اللتين فتحتهما من قبل...، ومنها وجه جيشاً إلى «اليلمان»، ففتحت صلحاً، وكذلك «سرشت».

ثم عزم على فتح «الكيرج»... وهو إقليم واسع كان يحكمه ملك يُدعى «دوهر»، لا تقل شهرته وعظمته وسلطانه عن «داهر» - ملك السند...، أضف إلى ذلك أن «دوهر» كان ملكاً مهتماً بشؤون بلاده، إذ كرّس كل جهوده للإصلاح وال عمران، فازدهرت «الكيرج» في عهده وزادت شهرتها.

أما مدينة «الكيرج» - التي سميت المملكة باسمها - هي اليوم مدينة «بومباي» - عاصمة «الهند»، وكانت في حينها مدينة مقدسة، وتتميز بموقعها على البحر، وثروتها الزراعية، وعمرانها، وكثرة سكانها، ومركزها التجاري.

وعندما وصلها «محمد» في حملته إليها، خرج إليه ملكها «دوهر» بقواته، ودارت المعارك عنيفة شديدة، وثبت المسلمون، حتى تغلبوا على عدوهم وهزموه هزيمة منكرة...، وقتل «دوهر»، ونزل أهل الديار كلهم على حكم «محمد بن القاسم».

وفاة «الوليد» وخلافة «سليمان»...

مات «الوليد بن عبد الملك» وتولى مكانه «سليمان» أخوه...

وكان لـ «سليمان» على «الحجاج» مأخذ كثيرة في سيرته الشخصية والعامة، فلما تولى أراد أن يتخلص من كل من يمت بصلة إلى «الحجاج»، ليس حقداً ولا ثاراً... ولكن ابتعاداً عن أدواء المجد الشخصي على حساب أرواح الناس وأموال المسلمين...، وكانت هذه وجهة نظره...!!!

وكان «محمد بن القاسم» - رحمه الله - أحد الضحايا...

فقد جاء الأمر من الخليفة بعزله... وجيشه...، وسوقه مقيداً إلى العراق...

فى أتون المحنة..!

من قائد فاتح مظفر .. إلى رهين قيد وسلاسل وسجن...!! إنها نهاية مؤلمة وحزينة!!!

وصل أمير «السند» الجديد «يزيد بن أبى كبشة»، فألقى القبض على «محمد»، وقيده بالحديد، وسيره إلى العراق...!

فتسلمه الوالى الجديد «صالح بن عبدالرحمن» وأودعه فى غياهب السجن، فى «واسط»^(١)...!

وكان «محمد» - رحمه الله - على جانب كبير من الثقافة والأدب...، فكان يردد:

أضاعونى.. وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر...!!
ويقول أيضاً :

فلئن ثويت بـ «واسط» وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً
فلرب فتية فارس قد رُعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً
ويردد كذلك :

ولو كنت قد أجمعت الفرار لوطئت إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل «السكاسك»^(٢) أرضنا ولا كان من «عك»^(٣) على أسير
ولا كنت للعبد «المزوني»^(٤) تابعاً فيا لك دهر بالكرام عشور

وقفة «محمد» - رحمه الله - :

وعذبه «صالح بن عبدالرحمن» والى العراق الجديد...، فى رجال من «آل عقيل» - رهط «الحجاج»-، حتى ماتوا جميعاً...!

(١) واسط: بناها الحجاج بن يوسف، أثناء توليه العراق.

(٢) السكاسك: من قبيلة «كندة» اليمنية.

(٣) عك: إحدى قبائل اليمن الكبرى.

(٤) المزوني: نسبة إلى قبيلة «مزينة».

وكان «الحجاج» من قبل قد قتل أخا لـ «صالح» هذا، اسمه «آدم»، كان خارجيًا في رأيه ومذهبه، فانتقم له «صالح»...، ولكن أى انتقام!!!

وهنا نضع أيدينا، وتتجه بصائرنا وأبصارنا، إلى مكمن داء وعلة، أصابت القيادات الإسلامية على فترات، قادت إلى انتكاسات وتراجعات...، حيث سيطرت «الأنانية» على قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، فلم يروا غير ذواتهم...، ونسوا حظا مما ذكروا به...، فضيعوا شعوبهم في الدنيا، وضيعوا هم أنفسهم في الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

١٢- قتيبة بن مسلم

هو: «قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين» - الباهلي -، وكنيته التي اشتهر بها: «أبو حفص»

وُلد عام تسعة وأربعين للهجرة (٤٩ هـ)، أيام خلافة «معاوية بن أبي سفيان» وكان والده «مسلم بن عمرو» ذا حظوة ومكانة عند «يزيد بن معاوية»، ومن ثم كانت فتوة «قتيبة» في زمن الدولة الأموية «السُفْيانية»، أما شبابه وظهوره فكان في عهد «المروانية»، أيام «عبد الملك» و«الوليد».

ينتمي إلى قبيلة «باهلة»، التي كان لها باع طويل في الإسلام، في أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده...!

وأشهر رجالها الصحابي الجليل «أبو أمامة الباهلي» - صُدِّي بن عجلان -، رضى الله عنه -، فقد كان من القادة الفرسان الشجعان، والحفظة والرواد.

أول إطلالة :

في سنة سبع وسبعين للهجرة (٧٧ هـ) كان الحجاج بن يوسف مشغولاً بإخماد الفتن في العراق، هنا وهناك...، وكانت ثورة «شبيب - الخارجي» في أشدها استفحالاً وخطورة، خصوصاً بعد استيلائه على «الكوفة»، وانتصاره على كتائب «الحجاج».

ولقد جمع «الحجاج» ذات يوم وجوه الناس وكبراءهم ليستشيرهم ويستحثهم، فاجتمعوا عنده، وهو على سرير له، وقد التحف... قال:

- إن هذا الرجل - («شبيب - الخارجي») - قد تبجح تبجحوحتكم، ودخل حريمكم، وقتل مقاتلكم، فأشيروا عليّ...!

فأطرقوا جميعاً...! ثم بدر من بينهم فارس فقال: إن أذن لي الأمير تكلمت...، فقال الحجاج: تكلم...!

فقال هذا الفارس: إن الأمير - والله - ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين، ولا نصح للرعية...! ثم عاد إلى مجلسه.

وكان «قتيبة بن مسلم» !!

فانتفض «الحجاج» غاضباً، وألقى اللحاف عنه، واستوى في جلسته، وولى قدميه من السرير، وقال: من المتكلم؟

فعاد «قتيبة» إلى الظهور ثانية، وأعاد الكلام...، وأعلن عن نفسه...!

وسكن «الحجاج» قليلاً، ثم قال لـ «قتيبة»: فما رأى؟ فأجاب: أن تخرج إليه بنفسك فتحاكمه!! فقال له الحجاج: ارتد لي معسكراً، ثم اغدُ لي!!

فى اليوم التالى، صلى الحجاج الصبح، ثم دخل مقصورته، وكان حاجبه يخرج بين حين وآخر فيسأل الحضور: أجاأ بعد؟ أجاأ بعد؟

ولم يعرف الناس من يريد، حتى غص المكان بالحضور...، وكان الحجاب مايزال يتردد ويسأل: أجاأ بعد؟

وإذا به «قتيبة» يمشى فى المسجد، عليه قباء هروى أصفر، وعمامة خز أحمر، متقلداً سيفاً عريضاً قصير الحمائل، حتى كأنه تحت إبطيه، سابغاً فى درعه حتى ساقه.

ففتح له الباب، فدخل على الحجاج ولم يحجب، فلبث طويلاً ثم خرج يحمل لواءً منشوراً، وقد كُلف بقيادة حملة على «شبيب»...!

صلى الحجاج ركعتين، ثم خرج يتبع قتيبة، وركب الناس من ورائهما، واتجهوا إلى حيث معسكر «شبيب»...!

صف قتيبة جنده، ثم أنشب القتال...!

وكان بالأمس قد ارتاد المكان متخفياً، وعرف ميدان المعركة على الطبيعة...، ثم إنه بعث بكتيبة من الجند يقودها «خالد بن عتاب»، وأمره بإضرار النار في أخصاص معسكر «شبيب» من ورائهم...!

فلما رأوا شوب النار وضرامها، وسمعوا زفيرها ورأوا منازلهم طعمة لها... ارتدوا مذعورين، وتبعهم الناس، وكانت الهزيمة.

تلك كانت بداية التعرف على القائد النابه «قتيبة بن مسلم» لدى «الحجاج»...! واختياره له والاعتماد عليه في أعظم الفتوح في بلاد ما وراء النهر.

الوالى القائد:

كانت بلاد فارس مصدر قلائل واضطرابات، وانتفاضات على السلطان، لا تهدأ ثورة أو تقمع حتى تظهر أخرى، أكبر وأقوى...!

و«الحجاج» - والى العراق - قد تحمل ذلك لدى الحكم المركزى فى «دمشق» وتعهد بالقضاء عليه نهائياً، وقد مرت بـ «فارس» و «خراسان» أدوار من الاستقرار أيام «المهلب بن أبى صفرة» وابنه «يزيد»، لكن «الحجاج بن يوسف» لم يكن ليرضى عن «آل المهلب» - رغم مصاهرته لهم -، إذ كان بينه وبينهم منافسة شديدة...، فأوغر صدر «عبدالمكك» عليهم...، خصوصاً وقد ظهرت فى أيام «يزيد ابن المهلب» ثورة «عبدالرحمن بن الأشعث»، وكانت عنيفة خطيرة....

ومازال الحجاج فى سعيه حتى استجاب له عبدالمكك فاختر «قتيبة بن مسلم» ووافقه «عبدالمكك» على هذا الاختيار: ليكون والياً على «فارس» و«خراسان» وقائداً يضطلع بمهمة الفتح...!

وكان ذلك سنة خمس وثمانين (٨٥ هـ).

قدم «قتيبة» إلى مركز عمله، فجمع الناس، وخطبهم... وحضهم على الجهاد، وكان مما قال لهم:

(أما بعد، إن الله أحلکم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بکم عن الحرمات، ويزید بکم المال استفاضة، والعدو وقحاً، ووعد نبيه - ﷺ - النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف: ٩].

ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠ - ١٢١]

ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حى مرزوق، فقال:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩]

فتنجزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأقصى ألم، وإياى والشهوبنا!!

بدء التحرك والاستطلاع

استعرض «قتيبة» جنده وسلاحه، ثم أتم تنظيمه وتعبئته، وانطلق في سياحته الجهادية التى استمرت أعواماً طويلاً، منذ سنة خمس وثمانين (٨٥هـ) حتى سنة ست وتسعين (٩٦هـ)، والتى اجتاز فيها مئات الأميال، وعشرات المدن والداكر. خرج من «مرو» وقد خلف فيها حامية بقيادة «إياس بن عبدالله بن عمرو»، ووظف على خراجها «عثمان بن السعدى»..!

وعندما وصل إلى نهر «جيجون» - أموداريا - توقف في «بلخ»..!

وكانت مدينة عظيمة، وقاعدة كبرى، وهى تقع على مفترق الطرق، شرقاً إلى «الهند» و«السند» وشمالاً إلى بلاد «الترك»...!

وكان توقفه عندهما بسبب انتفاض بعض تابعيها فى الأقاليم على المسلمين، فحاربيهم «قتيبة» واشتد عليهم، ثم صالحوه... فرد عليهم السبى...، وقد انضم إليه فريق من كبرائهم...، وانتظموا فى صفوفه متطوعين، راضين غير مكرهين.

ثم مضى فى طريقه إلى «الطالقان»...، بين «بلخ» و«مرو الروذ»..

فلما اجتاز نهر «جیحون» - أموداريا - تلقاه ملك «الصغانيان»^(١) وقدم له الهدايا، ومفتاحاً ذهبياً، رمزاً على الصداقة والتعاون، ودعاه إلى بلاده.

واستعان ملك «الصغانيان» بـ «قتيبة» على محاربة «غيشلستان» - ملك «آخرون» و«شومان» - وهما إقليمان فى «طخارستان»-، إذ أساء هذا الملك الجوار...!

فناصره «قتيبة» على عدوه...، فأتاه «غيشلستان» مستسلماً متصالحاً، ودفع له فدية...، فقبلها منه.

العودة إلى «آمل» فى خراسان^(٢)

ثم ارتد «قتيبة» راجعاً...!

ركب السفن واجتاز نهر «جیحون» - أموداريا - ، وانحدر إلى «آمل»، وخلف على الجيش أخاه «صالح بن مسلم»...

وكان هذا التصرف من «قتيبة» مدعاة لوم له من الحجاج...، إذ لايجوز لقائد أن يكون فى آخر جنده عند لقاء العدو، أو فى أولهم عند الانكفاء...!

(إذا غزوت فكن فى مقدم الناس، وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقبتهم...).

(١) إقليم واسع وولاية عظيمة وراء نهر «جیحون».

(٢) خراسان: بلاد واسعة تناخم العراق العجمى من الغرب، وأفغانستان والهند من الشرق، من أهم مدنها: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ.

ولقد أمضى «قتيبة» عام ستة وثمانين (٨٦هـ) فى تنفيذ عمليات استطلاعية ميدانية، لدراسة الموقف من كل جوانبه... طبيعة البلاد، وقوات العدو...، والمسالك والدروب، والاستعداد.

فتح «بيكند»^(١)

وصل إلى علم «قتيبة» أن أسرى من المسلمين فى قبضة «نيزك» - ملك «طرخان» - ، وهم يعانون، فكتب إليه مطالباً إياه بإطلاق سراحهم، وتهده فى كتابه...! فخاف «نيزك» وأطلق سراحهم، وبعث بهم إلى «قتيبة».

ثم وجه إليه «قتيبة» كتاباً آخر يدعو فيه إلى الصلح والأمان، وتهده: (لئن لم يقدم عليه، ليغزونه، ثم ليطلبته حيث كان، لا يُقلع عنه حتى يظفر به، أو يموت قبل ذلك).

فلما سلمه الرسول الكتاب، قال «نيزك» :

- ما أظن عند صاحبك خيراً...، كتب إلى كتاباً لا يكتب إلى مثلى...!

فقال السفير:

- يا «أبا الهياج» إن هذا رجل شديد فى سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عُسّر، فلا يمنعك من غلظة كتابه إليك...، فما أحسن حالك عنده، وعند جميع «مضر»...!

عندئذ قدم «نيزك» على قتيبة وصاحبه عن أهل «بازعيس»، على أن لا يدخل عليهم.

اختيار الوقت:

كان الوقت الذى يختاره «قتيبة» لتحركه بداية من فصل الربيع، وطوال الصيف، حتى إذا حلَّ الشتاء توقف... بسبب الثلوج والأمطار...!

(١) «بيكند» أولى مدن «بخارى» عند نهر «جيحون» عرفت قديماً بـ «مدينة التجار».

فبعد أن أمن شر «نيزك»، ومع مطلع الربيع عام سبعة وثمانين (٨٧هـ) تحرك من «مرو» إلى «مرو الروذ»...، ثم أتى «زَمْ»، ومنها إلى «آمل»، واجتاز نهر «جیحون» وغايته «بيكند».

فاستعد له أهلها، واستنصروا حلفاءهم «الصغد»، واستمدوا من حولهم...، فأتوهم في جمع كثير حاشد، والتفوا على جيش «قتيبة» وقطعوا عليه الطرق والمنافذ، حتى انقطعت أخباره وموقعه عن «الحجاج» فترة شهرين...، وهو في قتال مستمر لا يتوقف...!

وكان لـ «قتيبة» جهاز (مخابرات عسكرية) على رأسه رجل يدعى «تنذر» - وكان فارسي الأصل-، فأغراه أهل «بخارى» بمال كثير، فاستمالوه إليهم، ووعدوه المزيد إن هو استطاع أن يصرف عنهم جيش «قتيبة».

جاء «تنذر» إلى «قتيبة» وطلب الاجتماع به على أفراد، لأمر سرى وهام، فنهض الحاضرون وانصرفوا، لكن «قتيبة» احتبس عنده «ضرار بن الحصين الضبي» - وكان أحد أعوانه المخلصين، ليحضر المواجهة ويشهد عليها.

قال «تنذر» :

- إن عاملاً جديداً سوف يقدم عليك، ويتولى الشؤون بدلاً عنك، فلو انصرفت بالناس إلى «مرو» وأقمت بها متحصناً حتى تتبين الأمور، وتتضح المواقف...!

فأدرك «قتيبة» بثاقب نظره سوء نية «تنذر» بالتحريض والخيانة...، فنأدى على مولاه: «سياه» وقال له: اضرب عنق «تنذر»...، فقتله.

ثم التفت قتيبة إلى «ضرار بن الحصين» وقال:

- لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك...، وإنى أعطى الله عهداً - إن ظهر هذا الحديث في أحد - حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به!!! فلإن انتشر هذا الحديث يفت في أعضاء الناس...!

ثم أذن للناس بالدخول عليه، فلما رأوا جثة «تندر» راعهم ذلك، فإطرقوا واجمين، فقال لهم «قتيبة»: ما يروءكم من قتل عبد أحانه الله!!!
قالوا: إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين..!!

فرد «قتيبة»: بل كان غاشاً، فأحانه الله بذنبه، وقد مضى لسبيله..
فاغدوا على قتال عدوكم، والقوه بغير ما كنتم تلقونه به!
فغدا الناس متاهبين، وأخذوا مصافهم، ومشى قتيبة بين الصفوف، فحضر أهل الرايات.. وثبت الجند، وقرأ عليهم القرآن، وتلا عليهم آيات الجهاد..
ثم أطلق إشارة البدء بالهجوم..، فكان بين الناس قتال بالرماح، ثم تراشقوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل الله النصر على المسلمين، فقاتلهم حتى زالت الشمس، ثم فتح الله تعالى أكتاف عدوهم...، فانهزموا يريدون المدينة، وتبعهم المسلمون وحالوا بينهم وبين دخولها.. فتفرقوا..، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً، كيف شاؤوا، واعتصم من دخل المدينة بها، وهم قليل، فوضع «قتيبة» الفعلة (المهندسين) للعمل في أساسها ليهدمها..، فسألوه الصلح..، فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من خاصة أهله..، ثم ارتحل عنهم يريد الرجوع..، فلما ابتعد عنهم مقدار خمسة عشر ميلاً..، نقضوا وكفروا وارتدوا..، وقتلوا العامل عليهم وأصحابه، ومثلوا بهم.. جددوا أنوفهم وقطعوا أذانهم وأفحشوا..!!

وبلغ «قتيبة» خبر ما فعلوا فارتد إليهم..، لكنهم تحصنوا داخل المدينة، فحاصروهم فترة شهر، وقتلهم، ثم طلب إلى (المهندسين) أن يربطوا الخشب بأساس الأسوار ثم يشعلونها.. فتهدم على من فيها، ويموتوا حرقاً أو هدمًا..
خاف المحاصرون على أنفسهم، فطلبوا الصلح فأبى عليهم، ومازال بهم حتى دخلها عنوة.

وكان فيمن أسر بداخلها رجل أعور، وكان من البارزين فيها، فقال له «قتيبة» أنا أفدى نفسي ولا أقتل...!

فَقِيلَ لَهُ: وما تَبْذُلُ فِي ذَلِكَ؟ قَالَ: خمسة آلاف حُريرة صينية قيمتها ألف ألف (مليون) درهم.

فَقَالَ «قَتِيبة» لِمَنْ حَوْلَهُ: ما تَرَوْنَ؟ قَالُوا: نَرَى أَنْ فِدَاءَهُ زِيَادَةٌ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ...، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مِنْ كَيْدِ هَذَا؟
فَقَالَ لَهُمْ «قَتِيبة»: لَا وَاللَّهِ... لَا تَرَوُّعَ بِكَ مُسْلِمَةٌ أَبَدًا...! ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فُقْتُلَ.
غَنَائِمُ «بِيكَنْد»:

لَمَّا دَخَلَ قَتِيبة بِيكَنْدَ أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا مِنْ آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا لَا يَحْصَى، وَصَارَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ لَمْ يَصِيْبُوا مِثْلَهُ فِي خِرَاسَانَ كُلِّهَا.
وَرَجَعَ «قَتِيبة» إِلَى «مَرُو» - الَّتِي اتَّخَذَهَا قَاعِدَةٌ - ، وَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ فَاشْتَرَوْا السِّلَاحَ وَالْخَيْلَ، وَجُلِبَتْ إِلَيْهِمُ الدُّوَابُّ، وَتَنَافَسُوا فِي حَسَنِ الْهَيْئَةِ وَالْعُدَّةِ، وَغَالُوا بِالسِّلَاحِ حَتَّى بَلَغَ ثَمَنُ الرَّمْحِ سَبْعِينَ دِينَارًا وَكَانَ فِي الْخَزَائِنِ سِلَاحٌ وَأَلَّةُ حَرْبٍ كَثِيرَةٌ...، فَكُتِبَ «قَتِيبة» إِلَى «الْحُجَّاجِ» يَسْتَأْذِنُهُ فِي تَوْزِيعِ ذَلِكَ السِّلَاحِ عَلَى الْجُنْدِ، فَأُذِنَ لَهُ...، وَأُخْرِجُوا مَا كَانَ فِي الْخَزَائِنِ مِنْ عُدَّةِ الْحَرْبِ وَأَلَّةِ السَّفَرِ... وَاسْتَعْدَدُوا.

تَتَابَعُ الْحَمَلَاتُ ... حَمَلَاتُ الْفَتْحِ !!!

فَلَمَّا كَانَ فَصْلُ الرَّبِيعِ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ (عَامُ ثَمَانِيَةٍ وَثَمَانِينَ) (٨٨هـ)، نَدَبَ «قَتِيبة» النَّاسَ لِلْخُرُوجِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي أَغْزِي بِكُمْ قَبْلَ أَنْ نَحْتَاجُوا إِلَى حِمْلِ الزَّادِ، وَنُنْقِلَكُمْ قَبْلَ أَنْ نَحْتَاجُوا إِلَى الْإِدْفَاءِ (مِنْ الْبَرْدِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ)...!
فَسَارَ بِهِمْ فِي عُدَّةٍ حَسَنَةٍ مِنَ الدُّوَابِّ وَالسِّلَاحِ، فَاتَى أَوَّلًا «أَمْلَ»، ثُمَّ عَبَرَ «زَمْ» إِلَى «بُخَارَى»، حَتَّى بَلَغَ: «نَوْمُشْكَتَ»، وَكَانَ قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى «مَرُو» «بِشَارُ بْنُ مُسْلِمٍ» - أَخَاهُ -.

مَعْرَكَةُ مَعَ التُّرْكِ وَ«الصَّغْدِ» وَأَهْلِ «فَرغانة»:

بَوَّغَتْ أَهْلَ «نَوْمُشْكَتَ» بِوُصُولِ جَيْشِ قَتِيبة غَيْرِ الْمَتَوَقَّعِ، مِمَّا جَعَلَهُمْ يَسْتَقْبِلُونَهُ وَيَرْجُونَ، وَيَعْقِدُونَ صَلَاحًا...!

ثم تابع سيره إلى «راميشنة» فصالحه أهلها أيضًا، فانصرف عنهم، وزحف في وجهه «الترك» و«الصفند» وأهل «فرغانة»، وقد أحسوا أنهم مقصده وهدفه، فأرادوا أن يصدوه عن ديارهم قبل بلوغها.

وقد اتبعوا خطة التفاف، يهاجمون مؤخرة الجيش الإسلامي (الساقة)، التي كان يقودها أخوه عبدالرحمن بن مسلم، فيقضوا عليها، ثم ينقضوا من وراء على «قتيبة» ومن معه فيبدوهم، إذ كانت المسافة بين الساقة والمقدمة تتيح ذلك.. أكثر من ميل.

فلما أحس «عبدالرحمن» بحراجة الموقف أرسل إلى قتيبة رسولا يخبره ويستنجده، فارتد قتيبة بقواته إلى الراء واشتبك مع «الترك» و«الصفند» وأهل «فرغانة» في قتال عنيف... حتى هزمهم الله تعالى وفض جمعهم، وردّ كيدهم إلى نحورهم.

ثم رجع قتيبة بقواته إلى قاعدته في «مرو»، يستعد لغزو جديد وفتح آخر.

ومع إطلالة ربيع عام تسعة وثمانين (٨٩هـ)، خرج من «مرو»، واجتاز نهر «جیحون» عند «زم»...، وعند بوابة المفازة الصحراوية الكبرى لبلاد «الصفند» واجهته قوات «كش» و«نسف» في حشد هائل، فقاتلهم... وبعد معركة ضارية نصره الله عليهم..!

ومن ثم تابع طريقه حتى نزل بـ «خرقانة» فالتقاء العدد بحشد كبير، فقاتلهم طيلة يومين وليلتين، حتى ظفر عليهم.

إلى «بخارى»

وفي مواجهتها تصدى له ملكها (وردان خذاه)، فلم يتمكن قتيبة من حسم الصراع معه... وأقام على ذلك وقتًا، ويبدو أن فصل الشتاء قد حلّ، وخلت المؤنة والزاد، فعاد إلى «مرو» وكتب إلى «الحجاج» بذلك، فطلب إليه الحجاج أن يكلف بعض الفتيين برسم خريطة للمقاطعة التي تضم بلدان: «كش» و«نسف» و«وردان».

ف فعلوا.

ثم إن الحجاج اطلع على الخريطة، وأرسل إلى قتيبة بتعليماته، وقال:
(إن كش بكش، وانسف نسف، ويرد وردان، وإياك والتحويط (التردد)،
ودعني من بنيات الطريق (أى الطرق الفرعية التى قد تضلل)، وأرجع إلى مراغيك
(هدفك الذى هو «بخارى»، وتب إلى الله فما كان منك، واتبها من مكان كذا
وكذا (الأماكن التى حددها له)...) .

فتح «بخارى» - (٩٠هـ)

يقول المؤرخون، والمحللون العسكريون:

لم تكن أعمال السنوات السابقة (٨٦-٨٩هـ) فى تحركات قتيبة بن مسلم أكثر
من غزوات استطلاعية ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية،
وأساليب القتال الملائمة، لتلك الديار وأهلها.

وكانت رسالة «الحجاج» إلى «قتيبة» - وفيها بعض اللوم والتحذير والإرشاد -
حافزاً له على تدارك ما فات، واستنهاضاً لهمة.

وكان «وردان» - ملك بخارى - قد استعد لمجابهة احتمال هجوم «قتيبة» فى
أية ساعة وأى يوم، فأرسل يطلب الدعم من حلفائه «الصغد» و«الترك» ومن
حولهم...، لكن مفاجأة «قتيبة» سبقت وصول هذا الدعم...، فحاصر بخارى
وطوق قوات وردان.

وعندما وصلت لـ «وردان» قوات الدعم، خرجت قوة من المسلمين لقتالهم.

قالت قبيلة «الأزد»: اجعلونا على حده وخلوا بيننا وبين قتالهم...! إذ أرادوا
أن يكون لهم وحدهم شرف المجابهة... الإيابة...!

فوافقهم «قتيبة»، وتقدمت قبيلة الأزد للقتال، وقتيبة جالس، عليه رداء أصفر
فوق سلاحه - ينظر إليهم، فصبروا جميعاً فى معركة طاحنة، كان التفوق فيها
لحلفاء وردان، ولم يلبثوا أن حطموا صمود «الأزد»...، واندفعوا فى تقدمهم حتى
دخلوا معسكر «قتيبة» وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ومعسكر النساء...!

فخرجت النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو، حتى ضربت النساء وجوه الخيل...

عندئذ تدخل «قتيبة»، فأمر بتطويق قوات الحلفاء وإبادتها... فأسرع هؤلاء بالارتداد والانسحاب إلى مكان مرتفع يتحصنون به، فقال «قتيبة»: من يزيلهم لنا عن هذا الموضع؟ فلم يقدم عليهم أحد...! وقبائل العرب كلهم وقوف... فمشى قتيبة، إلى «بنى تميم» وحضهم على القتال قائلاً: يوم كأيامكم!!

فشارت حميتهم، وتقدم وكيع من تميم وحمل الراية، واستثار قومه، وسلم الراية لقائد فرسان «بنى تميم» - «هريم بن أبي طلحة المجاشعي»، في حين تولى «وكيع» قيادة المشاة...

ووصلت بنو تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهر واسع... فتقدم الفرسان وخاضوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة، فيما كان وكيع يجمع الخشب حتى أقام جسراً على النهر، وقال لأصحابه:

- من وطن نفسه على الموت فليعبر... ومن لا... فليثبت مكانه...!

وعبر الجسر ثمانمائة (٨) مقاتل، وسار بالقوة بعد ذلك حتى اقترب من العدو، فأعطى جند المشاة فترة استراحة قصيرة، ثم نظم قواته، إذ جعل الخيل على منجنيقه للحماية، وأعطى أمر الزحف قائلاً:

- شدوا...

فحملوا، فما انتثوا حتى خالطوهم، وحمل «هريم» خيله عليهم فطاعنهم بالرمح، فما كفوا عنهم حتى حדרوهم عن موقعهم...

ونادى قتيبة: أما ترون العدو منهزمين...!

ما تبعهم الناس...

ونادى أيضاً: من جاء برأس فله مائة...!

وانطلق الجند يعبرون النهر، وأسرعت قوات العدو بإخلاء ميدان المعركة والانسحاب بسرعة، قبل أن تصلهم بقية قوات المسلمين.

كان من نتيجة هذه الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيش الحلفاء - وإصابة «خاقان» الترك وابنه - أن تقدم ملك (السند) - «طرخون» - حتى وصل إلى الضفة المقابلة من نهر «جیحون» وعرض على «قتيبة» الصلح، فوافقه قتيبة، ووقعوا اتفاقية الصلح.

وعندما رجع «طرخون» إلى بلاده، رفض أهل مملكته ميول الصلح، وخلعوه عن الملك ونصبوا ابن أخيه مكانه ... ، فشعر «طرخون» بالهانة وتألم أشد الألم، فأتكأ على سيفه وانتحر...!

وأرسل الملك الجديد إلى قتيبة رسولا يعلن رفضه ونقضه لاتفاقية الصلح مع عمه...!

في الوقت ذاته كان «قتيبة» ينظر أمور «بخارى» وتنظيماتها، بعد أن تم فتحها... ، حتى إذا ما فرغ من ذلك رجع إلى «مرو» - قاعدته - ومعه «نيزك»، وقد أذهله ما شاهده من فتوح «قتيبة»... ، قال «نيزك» لأصحابه المقربين وخاصة: - لست آمن «قتيبة»، فهو شديد السطوة فاجر، فلو استأذنته ورجعت كان الرأي...! فقالوا: استأذنه...!

فلما بلغوا «آمل» استأذنه «نيزك» بالرجوع إلى «طخارستان»، فأذن له. فلما فارق «نيزك» ومن معه المعسكر، متوجهاً إلى «بلخ» قال لأصحابه: غزوا السير...!

فساروا سيرا شديداً حتى وصلوا «النوبهار»، حيث قال لأصحابه: إني لا أشك أن «قتيبة» قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لى، وسيبعث رسوله «المغيرة بن عبدالله» يأمره بحبسى... ، فأقيموا ربيثة (نقطة مراقبة)... ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنه لا يبلغ «البروقان» حتى نبليغ نحن «طخارستان»، فيبعث «المغيرة» رجلاً في إثرنا يُدركنا حتى ندخل شعب «خُلم»...!!
ففعّلوا...!

ولم تمض سوى فترة قصيرة، حتى أقبل رسول من قبل «قتيبة» إلى «المغيرة» يأمره بالإمساك بـ «نيزك» وحبيه، فلما مر الرسول إلى «المغيرة» رآته الريثة (نقطة المراقبة) ... ، فأعلموا «نيزك» فأسرع هو وأصحابه في المضى .. هرباً.

ولم يدركه «المغيرة» ... ، فارتد من حيث انطلق .. !

وأعلن «نيزك» عدوانه لـ «قتيبة»، واتصل بملوك المناطق يحثهم على التحالف والقتال، فاستجابوا له: وتواعدوا أن يكون فصل الربيع القادم موعداً لقتال «قتيبة» والقضاء عليه!!!

كان أول من استجاب لـ «نيزك» - «طرخان» - ملك بلاد «الطالقان»، واتفق معه على قتال «قتيبة» ... ، فلما هرب «نيزك» ودخل شعب «خلم» في طريقه إلى «طخارستان»، أدرك «طرخان» ضعف موقعه، وأنه لا طاقة له بقتال «قتيبة»، فهرب هو أيضاً !

وسار «قتيبة» إلى بلاد «الطالقان»، فأوقع بأهلها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وصلب فيهم على امتداد اثني عشر ميلاً، في نظام واحد، كأنهم الأعمدة، أو الخشب المسندة، جزاءً وعبرة.

وبدأت المعركة الحاسمة مع «نيزك»!!

مضى فصل الشتاء، ودخل فصل الربيع في عام واحد وتسعين (٩١هـ) ..

فقدم أهل «أبرشهر» و«بيورد» و«سرخس» و«هراء» بجيوشهم على «قتيبة»، فسار بهذه الجيوش الهائلة إلى «مرو الروذ»، وفيها استخلف على الحرب «حماد ابن مسلم» وعلى الخراج «عبدالله بن الاهتم»، وكان قد بلغ «مرزبان» أمير بلاد «مرو الروذ» إقبال «قتيبة» عليه، فهرب إلى بلاد الفرس ... ، فالتقى «قتيبة» القبض على ابنين لـ «مرزبان» محاربين، فقتلهما وصلبهما.

ثم تابع سيره إلى «الطالقان»، فصالحه صاحبها، فكف عنه «قتيبة» ... ، وقد كان فيها لصوص ... ، فأمسكهم «قتيبة» وصلبهم عبرة لغيرهم، وأماناً للناس.

واستعمل على «الطالقان» - «عمرو بن مسلم»

ومضى إلى «الغارياب»، ... فخرج إليه ملكها مدعياً مَقْراً بالطاعة، فرضى عنه، ولم يقتل بها أحداً، وولى عليها رجلاً من قومه «باهله».

وبلغ صاحب «الجوزجان» خبرهم، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هارباً، وسار «قتيبة» إلى «الجوزجان» فلقية أهلها سامعين مطيعين، فقبل منهم، فلم يقتل فيها أحداً، واستعمل عليها «عامر بن مالك الحمانى».

ثم أتى «بلخ» فلقية «الأصبهذ» فى أهل «بلخ»، فدخلها ولم يقيم بها إلا يوماً واحداً للراحة، ثم مضى يتبع أخاه «عبدالرحمن» - الذى سبقه -، حتى أتى شعب «خُلُم»، وقد مضى «نيزك» فعسكر بـ «بغلان»، بعد أن ترك مجموعة من المقاتلين لحماية مضيق الوادى، عند فم الشعب، للدفاع والحراسة، كما وضع «نيزك» أيضاً - حامية من المقاتلين فى قلعة حصينة من وراء مضيق الوادى.

فأقام «قتيبة» أياماً يقاثلهم عند مدخل الوادى دون أن ينال منهم، أو يتتصر عليهم، ولم تكن المعلومات المتوافرة لديه تشير إلى وجود محاور للاختراق سوى طريق الوادى... ومفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاجتيازها!!! فوقف فى موقعه محاولاً إيجاد مخرج من هذا المأزق...!

فى تلك الفترة قدم عليه ملك «الروب» و«سمنجان»، فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة، التى وراء الشعب، فأمنّه... وبعث معه رجالاً فى الليل، فانتهى بهم إلى القلعة... فباغتهم فى الهجوم وأبادوا حامية القلعة، وهرب من تبقى منهم، وكذلك من كان فى فم الشعب...، فدخل «قتيبة» بجيشه الوادى وأتى القلعة...، ثم مضى إلى «سمنجان»..

وكان «نيزك» بـ «بغلان» عند نبع يُعرف باسم «فنج جاه»، ولم تكن المفازة بين «سمنجان» و«بغلان» شديدة الوعورة، أو صعبة المسالك.

أقام «قتيبة» بـ «سمنجان» أياماً، ثم سار إلى حيث «نيزك»، وقدم أخاه «عبدالرحمن بن مسلم» طليعة له...!

فبلغ «نيزك» الخبر، فارتحل من منزله حتى مطلع وادي «فرغانة»، ووجه ثقله وأمواله إلى ملك «كابل»...، ومضى حتى نزل «الكرز»، وعبدالرحمن يتبعه...!

ونزل عبدالرحمن بمضائق «الكرز» يأخذ الطريق على «نيزك»..!

أما «قتيبة» فقد نزل في «اسكيمشت»، بينه وبين «عبدالرحمن» مسافة أميال قليلة..!

تحصن «نيزك» في «الكرز» ولم يكن من مسلك في سبيل الوصول إليه إلا من وجه واحد، وكان ذلك الوجه صعباً وعراً... على الفرسان.

فحاصره «قتيبة» و«عبدالرحمن» مدة شهرين، حتى نفذ التموين عند «نيزك»، وفشا الجدرى في جنده، وخاف قتيبة حلول فصل الشتاء، فدعا رجلاً من أتباعه يدعى «سليم الناصح»، وكان ذا حيلة ودهاء، فقال له:

- انطلق إلى «نيزك» واحتل لأن تأتيني به بغير أمان، فإن أعيالك وأبى فأقته، واعلم أنى إن عايتك (رأيتك عند عودتك) وليس هو معك.. صلبتك!!! فاعمل لنفسك..!

فقال «سليم»:

- اكتب لى إلى «عبدالرحمن» لا يخالفنى...

قال «قتيبة»: نعم،

وكتب إلى أخيه «عبدالرحمن» بذلك.

وعندما وصل «سليم» إلى «عبدالرحمن» طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للمرابطة والتمركز عند مدخل الوادى، وقال له: إن على هؤلاء الفرسان إعاقتنا عن الوصول إلى مدخل الوادى إذا ما خرجنا أنا و«نيزك».

فبعث «عبدالرحمن» قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سليم، ومضى سليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفى أياماً، حتى أتى «نيزكاً»، ونصحه بتسليم نفسه إلى «قتيبة» ومحاولة إزالة غضبه، وأن «قتيبة» لن يغادره وقد صمم على قضاء فصل الشتاء فى موقعه.. سواء هلك أو سلم!!!

وبعد مناقشة طويلة وحوار استطاع «سليم» إقناع «نيزك» بالتسليم . . . ورافق
سليماً في القدام على «قتيبة» . . . !

أما كتيبة الفرسان عند فم الوادى، فقد حالوا بين الأتراك والخروج . . . ومن
ثم رافقوا «نيزكاً» تحت الحراسة إلى معسكر «عبدالرحمن»، الذى أرسل إلى أخيه
«قتيبة» يعلمه بذلك، فأرسل «قتيبة» بطلبهم، حبس «قتيبة» أصحاب «نيزك» الذين
رافقوه، وسلم «نيزكاً» إلى قائد من جنده يُعرف بـ «ابن بسام» وأمره بتشديد
الحراسة عليه، وبعث إلى الحجاج يستأذنه فى قتل «نيزك»، أما «ابن بسام» فقد
جعل «نيزكاً» فى خيمته، وحفر حولها خندقاً، ووضع عليه حراسة قوية . . . !
وبعد أربعين يوماً جاء كتاب «الحجاج» إلى «قتيبة» يأمره بقتل «نيزك» والخلاص
منه .

شهادة «الحجاج» فى «قتيبة»

وعمل «قتيبة» بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة فى «تخارستان»، وأطلق
سراح ملكها «جَفَبويه»، وأرسله إلى الخليفة «الوليد بن عبدالملك» فى «دمشق»،
فلم يزل بالشام حتى مات .

ورجع «قتيبة» إلى «مرو»، واستعمل أخاه «عبدالرحمن» على «بلخ»، وأرسل
إلى «الحجاج» بالخراج وأخبار الفتح . . . !
فكان «الحجاج» كثيراً ما يردد:

(بعثت «قتيبة» فتى غراً، فما زدت ذراعاً إلا زادنى باعاً !!!)

التوسع فى الفتح

وعلى هذا النهج من الإقدام والجرأة استمر «قتيبة» فى التوسع فى الفتح،
ويتقل من نصر إلى نصر . . . !

من «الجوزجان»، إلى «شومان» و«كش» و«نسف» عام واحد وتسعين (٩١هـ)،
وقد واجه معارك طاحنة أثبت فيها كفاءته القيادية، وقدراته القتالية، وحسن
التدبير .

وتم له أيضاً عام ثلاثة وتسعين (٩٣هـ)، فتح «خام جرد» والصلح مع ملك «خوارزم شاه».

يوم سمرقند:

وكانت معارك فتح «سمرقند» سنة ثلاث وتسعين (٩٣هـ) من أشد المعارك هزلاً... وإليك - عزيزي القارئ - ملخصاً عنها،

ما إن أمضى «قتيبة» الصلح مع ملك «خوارزم» حتى تقدم إليه أحد رجاله «المجشر بن مزاحم»، وطلب محادثته على انفراد، ففعل... قال «المجشر»:

- أيها الأمير... إذا أردت «الصغد» يوماً من الدهر، فالآن...، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام...!

فسأله «قتيبة»: هل أشار بهذا عليك أحداً؟

فأجاب «المجشر» بالنفي...، ثم سأله «قتيبة»: وهل أعلمته أحداً؟ فأجاب بالنفي أيضاً...، عندئذ قال له «قتيبة»: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقه...!

وكان الغرض هو السرية التامة في التحرك...!

ثم التمويه أيضاً...!

فقد قدم أخاه «عبد الرحمن» في قوة من الفرسان والمرامية، وكأنه يريد «مرو»، ومعه الأثقال من المغانم، والعودة إلى القاعدة للراحة والاستجمام...!

ثم أمره بتوجيه الأثقال إلى مرو في حامية، والانطلاق نحو بلاد «الصغد» كطليعة له، على أن يلحقه.

وخطب «قتيبة» الجند فقال:

- إن الله قد فتح لكم هذه البلدة، في وقت، الغزو فيه ممكن...، وهذه «الصغدة» شاعرة برجلها، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه «طرخون»، وصنعوا به ما بلغكم.

﴿فَمَنْ نَكثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾

فسيروا على بركة الله، فإنى أرجو أن يكون «خوارزم» و«الصغد» كـ «النجير» و«قريظة»، .

قال الله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾

واستدعى ملك «الصغد» - «غوزك» - ملوك «الشاش» و«أخشاد» و«فرغانة»، واستحثهم على مساعدته، فلبوا نداءه...

فلما وصل إليهم «قتيبة» ورأى جموعهم، وقد حاصروهم...! وعلم عن طريق عيونه ما يدبرونه من مكائد، خطب فى جنده، فقال:

(إن عدوكم قد رأوا بلاد الله عندكم، وتأييده إياكم فى مزاحمتكم فكاثرتكم، كل ذلك يفلحكم (ينصركم) الله عليهم...!

فاجتمعوا أن يختالوا غرتكم وبياتكم (مفاجأتكم ليلاً)، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبلوا الله بلاءً حسناً تستوجبون به الثواب، مع الذب عن أحسابكم...)

ونشبت المعارك...! واشتدت...!

وقذف «قتيبة» «سمرقند» بالمنجنيق، حتى أحدث فى أسوارها ثلثة...، واندفع أصحابه يريدون اقتحامها، ولكن على غير طائل، فقد كان الدفاع عنها شديداً...!

وقال «قتيبة» :

- حتى متى يا «سمرقند» يعشعش فيك الشيطان!! أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية...!

وكانت كلمته هذه - رحمه الله - كالشرارة التى أشعلت النار...!

فانقد الحماس فى نفوس الجند، والتهبت مشاعرهم، وثاروا كالإعصار الزاحف المدمر... واقتحموا المدينة العتيقة العتيقة...، فطلب أهلها الصلح...، وكان لـ «قتيبة» شروط:

- أن يسلموه ثلاثين ألفاً من أهلها ليس فيهم صبي، ولا شيخ، ولا عيب...! رهناً.

- وإخلاءها من كل مقاتل...!

- وأن يُبنى له فيها مسجد، ويدخل ويصلى، ويوضع له منبر فيخطب...! وتم له ما أراد.

إلى «الشاش» و«فرغانة»

وقصد من بعدُ فى فصل الربيع من عامى أربعة وتسعين وخمسة وتسعين (٩٤هـ، ٩٥هـ) إلى «الشاش» و«فرغانة» حيث تملاً ملكاهما مع أهل سمرقند على قتاله وصدّه، فكان لابد من التأديب والردع، والفتح أيضاً...! وبعد معارك ضارية استهلكت جنداً وجهداً وجهاداً، أذعنت تلك الديار، ودخلها «قتيبة» فاتحاً.

وجاء من الخليفة «الوليد بن عبد الملك» كتاباً يقول فيه:

(... وقد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهادك فى قتال أعداء المسلمين...، وأمير المؤمنين رافقك، وصانع بك كالذى يجب لك، فاعم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه).

إلى الصين...!

وانطلق «قتيبة بن مسلم» غازياً يريد إقليم «كاشغر» فى بلاد الصين، وهو أولها... وبابها...، فلما وصلها، أرسل وفدًا إلى ملكها، على رأسه «هيرة بن المشمرج»...!

يقول المؤرخون :

(فلما قدموا، أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاء، تحتها الغلائل، وتطيبوا بالبخور والعطور، ولبسوا النعال الرقيقة، وارتدوا الأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته...، فجلسوا...، فلم يكلمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا...!)

فقال الملك لمن حضر المجلس: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا رأينا قوماً ما هم إلا نساء؟؟

فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوشى وعمائم الخبز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا، قيل لهم: ارجعوا...!

فقال الملك لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى، وهم أولئك...!

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم...، فشدوا عنهم سلاحهم، ولبسوا البيض والمغافر^(١)، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وركبوا خيولهم، وغدوا.

فنظر إليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين وقد أثاروا الفزع، مما حمل الصينيين على منعهم، والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس الملك، فانصرفوا وركبوا خيولهم، وأصلحوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم.

فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط، فلما أمسى أرسل إليهم الملك: أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم، فبعثوا إليه «هيرة». فقال له حين دخل عليه:

- لقد رأيتم عظيم ملكي، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني، وأنتم في بلادى، وإنما أنتم بمزلة البيضة في كفى...، وأنا سائلك عن أمر، فإن لم تصدقني قتلنكم...!

(١) البيض: الخوذ، والمغافر: دروع الوجوه.

قال: سلّ... ، قال ملك «الصين»: لِمَ صنعتُم فى الزى فى اليوم الأول والثانى والثالث؟ قال «هيرة»: أما زينا الأول فلباسنا فى أهلنا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثانى.. فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا.. ، فإذا هاجنا هيجٌ أو فزعٌ هكذا..! قال الملك: ما أحسن ما دبّرتُم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف... ، فإنى عرفت حرصه وقلة أصحابه... ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه..!

فقال له، «هيرة»: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون^(١)..؟! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا - قادراً عليها - وغزاق..؟! وأما تخويفك إيانا بالقتل... فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل (الشهادة)، فلسنا نكرهه ولا نخافه..!

قال: فما الذى يرضى صاحبك؟

قال «هيرة»: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطا أرضكم، ويختم فلولكم ويُعطى الجزية..!

قال «ملك الصين»: فإننا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوّه، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاهم..!

ثم دعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم.. فأحسن جوائزهم.

فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل «قتية» الجزية، وختم الغلّة ورددّهم، ووطئ التراب.

وفى هذا الصدد قال الشاعر «سودة بن عبدالله السلولى»:

لا عيب فى الوفد الذين بعثتهم	للصين إن سلّكوا طريق المنهج
كسروا الجفون ^(١) على القذى خوف الردى	حاشا الكريم «هيرة بن مشمرج»
لم يرض غير الختم فى أعناقهم	ورهائن دفعت بحمل سمرج
أدى رسالتك التى استرعيت	وأناك من حنث اليمين بمخرج

(١) منابت الزيتون: بلاد الشام.

نهاية البطل الفاتح

كانت نهاية البطل الفاتح «قتيبة بن مسلم الباهلي» فاجعة . . . وسقطة . . . !
- عليه رحمة الله-!! فبعد أن مات الخليفة «الوليد بن عبد الملك» وبويع لأخيه
«سليمان»، الذي كان منكراً لأعمال الحجاج بن يوسف وولاته وعماله
وقادته . . . ومنهم «قتيبة بن مسلم» . . . !

فبادر «قتيبة» بإظهار العداوة لأمير المؤمنين الجديد، وأرسل إليه يقول:
(لئن لم تُقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنك خلع النعل!!! ولأملأنها
عليك خيلاً ورجالاً . . .)

فكان هذا التصرف من «قتيبة» سقطة . . . !

فخلعه «سليمان» من الولاية والقيادة، وولى مكانه «يزيد بن المهلب بن أبي
صفرة» مما زاد في حق «قتيبة» وسخطه، فجمع الجند، وخطبهم وحشهم على
متابعته في موقفه، وأغلظ في الكلام . . . ! فلم يتجاوبوا معه . . . بل دبوا
مؤامرة للخلاص منه تولى قيادتها «وكيع التميمي»، فأحاطوا به وأهله، فقتلوه مع
إخوته وولده وبعض أهله . . . ، وأرسلوا برأسه إلى الخليفة في «دمشق» . . . !

وكان ذلك فاجعة . . . !

رحم الله البطل الفاتح «قتيبة بن مسلم» وغفر له، وجزاه بما قدم وجاهد.

١٣- موسى بن نصير

فى السنة الثانية عشرة للهجرة (١٢) هـ، كان «خالد بن الوليد» -رضى الله عنه- يقود حملة فى جنوب «العراق»، فى خلافة «أبى بكر الصديق» -رضى الله عنه-.

فلما أتى بلدة تدعى «عين التمر» - غربى «الكوفة»-، ودخلها... وجد فيها بيتاً مغلقاً على أربعين طفلاً، فكسره عليهم...، ثم سألهم: ما أنتم؟ فقالوا: رُهْن...!

وكان يُعَلِّمون «الإنجيل»... وكانهم فى دير للرهبان!!

كان من بين هؤلاء «نصير» - والد «موسى»، وهو ينسب إلى «بنى يشكر»...، فقسمهم «خالد» فى أهل البلاد سبايا.

فكان نصيبه نصير «لبعض بنى أمية» ففى ظل سبطانهم من بعد كانت نشأته الأولى، حتى بلغ مبلغ الرجال.

فى الشام

تحرر «نصير» من رق السبى، فسكن «الشام»، ودخل فى خدمة واليها «معاوية ابن أبى سفيان»، فى جملة حرسه...، ثم إنه أظهر كفاءة عالية، فقدمه «معاوية» على غيره، حتى بات رئيساً للحرس عنده، وموضع ثقته.

وتزوج «نصير»، فكان باكورة زواجه ولده «موسى»، سنة تسع عشرة هجرية (١٩ هـ) زمن خلافة «الفاروق» -رضى الله عنه-^(١)

وفى جو القصور، وبين الحكام والولاة والقادة كانت نشأة «موسى»، وعلى هذا الجو المقعم بالحكم والإدارة والسياسة تفتحت عيناه، وكانت لديه استعدادات وكفاءات، ونباهة وذكية، وشهامة وفروسية، أضف إلى ذلك حفظه لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، والتزامه الشديد بأحكام الدين، وحسن فقهه.

(١) كان والده «نصير» يسكن قرية من قرى الشام تدعى «كفر مئرى» وفيها كانت ولادة «موسى»

ونعود إلى «نصير»...

وعلى الرغم من ولاء «نصير» لـ «معاوية»، وتمكين «معاوية» له وتقريبه منه، إلا أن نصيراً كان له استقلال وإرادة حرة في اتخاذ القرار، تابعين من إيمانه وصدق إسلامه... مع اعتزازه بشخصيته.

ويتبين لنا هذا من موقفه من «معاوية» حين خرج لقتال «علي» -كرم الله وجهه-، يوم «صفين»، إذ لم يخرج معه، فسأله «معاوية»:

- ما منعك من الخروج معي... ولي عندك يد لم تكافئني عليها؟

فأجابه «نصير»:

- لم يمكني أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى فيك!

فقال معاوية فى استغراب واستهجان: ومن هو؟

قال نصير: الله عز وجل...! (فى جرأة وصراحة وورع!!!)

فأطرق معاوية ساهماً ، قليلاً، ثم قال: أستغفر الله...! ورضى عنه^(١).

التجربة الأولى

عندما اشتد عود «موسى»، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية، وأكسبه قربه وصلته المباشرة ببيت له صلة مباشرة بالجندية والقيادة والإدارة والحكم... تجربة وعلمًا...، اشتد إعجاب معاوية به، فولاه -أيام خلافته- قيادة غزو البحر...، حيث كان للروم فيه قواعد وسبل تهدد ثغور بلاد الشام...، فغزا موسى «قبرص»، وافتتحها، وبنى بها حصونًا: «الماعوصة» و«بانس» وغيرها، وأقام بها فترة واليًا عليها، وكان ذلك بعد سنة ثمان وعشرين (٢٨هـ) حين افتتحها معاوية للمرة الأولى، وكان هذا الحدث التاريخي أول ظهور لـ «موسى» على الخريطة السياسية والعسكرية، فى الغزو والفتح.

(١) (وفيات الأعيان) (٤-٤٠٢) (فتح الطيب) (١-٢٢٤، ٢٢٥).

موسى بين «السفليانيين» و«المروانيين»

ظل «موسى» على ولائه لبني «أمية»، عاملاً فى خدمتهم، ناشطاً فى معاركهم السياسية والعسكرية، إلى أن أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة، وانضم إليه «الضحاك بن قيس الفهرى»، فدخل «موسى» مع المنشقين، وكان ذلك سنة أربع وستين (٦٤هـ).

وشهد معركة «مرج راهط»، التى انتهت بمقتل «الضحاك» وانتصار «مروان بن الحكم» - أول خليفة أموى مروانى - فخشى «موسى» على نفسه، ولجأ إلى «عبدالعزیز بن مروان» الذى حماه وأنقذ حياته، واستفتح له عند أبيه، فعفا عنه. ومن ذلك الحين أصبح «موسى» و«عبدالعزیز» أكثر من أخوين متحابين، وأخلص «موسى» الطاعة للخليفة الجديد، وعمل بين يديه متفانياً فى معاونته، مما جعل «مروان» يثق به ويعتمد عليه.

فى «مصر»:

وتوجه «مروان بن الحكم» إلى «مصر» - سنة خمس وستين (٦٥هـ)، لاستخلاصها من أيدى «الزبيريين»، وكان من أبرز قادته يومئذ «موسى»، الذى أبلى أحسن البلاء، فلما تم له فتحها وتملكها عين ابنه «عبدالعزیز بن مروان» والياً عليها، وجعل له «موسى» وزيراً ومشيراً.

إلى «العراق»:

وتولى الخلافة «عبدالمملك بن مروان» بعد وفاة أبيه، وكانت الديار الإسلامية بين «الحجاز» و«العراق» ما تزال تشهد قلاقل واضطرابات وفتن.

وعين «عبدالمملك» أخاه «بشر بن مروان» والياً على «الكوفة» سنة إحدى وسبعين (٧١هـ)، ثم أضاف إليه «البصرة» سنة ثلاث وسبعين . . . وكان حدثاً صغير السن، قليل الدراية، قد شغله اللهو عن أمور الإدارة والحكم والضبط . . . لذا جعل «عبدالمملك» «موسى بن نصير» - وزيراً لأخيه «بشر» - أو ما يشبه الوصى - وحمله مسئولية كل خلل أو تقصير فى ديوان «العراق».

وقيل في حينه إن «بشراً» دفع خاتمه إلى «موسى» ، وتخلّى له عن جميع العمل، وبذا أصبح الوالى الفعلى .

اللاجئ إلى «عبدالعزیز فی مصر»

وفى سنة «خمس وسبعين» (٧٥هـ)، مات «بشر بن مروان»، فولّى «عبدالمالك» على «العراق» «الحجاج بن يوسف» - الثقفى - وأوصاه أن لا يفوته «موسى» فيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، خصوصاً وأن ديوان العراق، قد حلّ خراجه وعطاؤه، ظلّاً من «عبد الملك» بأن «موسى» قد خان الأمانة... ولم يكن كذلك!!! فقد كان بشر من المسرفين فى الإنفاق، أضف إلى ذلك قلة موارد البلاد بسبب سوء الأحوال...!

فأدرك «موسى» أن مصيره وحسابه بين يدى «الحجاج» سوف يكون عسيراً، فهذا الجبار يأخذ بأدنى شبهة... واضطر «موسى» مجدداً أن يلجأ إلى صاحبه وصفيه «عبدالعزیز»^(١) فى مصر، فأواه إليه، وتوسط له عند أخيه «عبدالمالك»، فصلح الحال.

قائد فتح المغرب - من جديد -!!

كانت بلاد المغرب العربى، الشمال الإفريقى بدءاً من الفتح لمصر حتى عام خمسة وثمانين (٨٥هـ)، أى طوال ستة عقود، لاتهدأ حيناً حتى تعود للاضطراب والثورات، سواء من قبائل البربر، أو من الرومان الذين يُدافعون دفاع المستميت عن البقاء فيها، وكان البحر الأبيض المتوسط لا يخلو من سفنهم الغازية، المحملة بالجنود والعتاد والمؤن، والأموال...!

وكان آخر وال عليها «حسان بن النعمان»، الذى وفد إلى «دمشق» على «الوليد ابن عبدالمالك» الذى تولى الخلافة بعد أبيه، وكان حسان قد بذل جهده فى تثبيت أركان السلطان فى تلك الديار...! ولكنها ظلت بؤرة تمرد دائم، واضطراب لا يهدأ ولا يستقر...!

(١) كان «عبدالعزیز بن مروان» ولياً للعهد بعد «عبدالمالك»، ومن هنا كانت مكانته محترمة وكلمته مسموعة مطاعة.

عين «الوليد» بإيعاز من عمه «عبد العزيز» - «موسى بن نصير» قائداً ووالياً على الشمال الإفريقي، وأطلق يده فى العمل، وجهزه بكل ما يلزمه من الجند والسلاح والمال.

خطبته فى جندة قبل الزحف المقدس:

عندما تكاملت الجيوش عدداً وعدة فى معسكرها ومركز تعبثتها، قام فيها «موسى» خطيباً، فقال: (... وإنما أنا رجلٌ كأحدكم، فمن رأى فى حسنة، فليحمد الله، وليحضر نفسه على مثلها، ومن رأى منى سيئة، فليتركها، فإنى أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير^(١) - أكرمه الله - لكم بعطاياكم وله عندنا قضاؤها فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله...)^(٢)! هـ

إلى المغلوب

وسار «موسى» متوجهاً إلى «المغرب»، وكان الأمن هناك غير مستتب... وذلك أن «حسان بن النعمان» كان قد خلّف مكانه على البلاد والعباد رجلاً يقال له: «صالح» - أو «أبو صالح» -، عندما غادرها إلى «دمشق»، وكان «صالح» هذا ضعيفاً...، مما أطمع الناس فيه، فدبت الفوضى فى الأنحاء واستشرت.

وكان على «موسى» أن يتحمل مهمتين:

١- مهمة الضبط والربط، أولاً.

٢- والفتح، ثانياً.

فجمع اناس وخطب فيهم، فقال:

(أيها الناس، إنما كان قبلى على «إفريقية» أحد رجلين، مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكلم (يجرح)، ويحب أن يسلم، أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راض بالهونيا...!

(١) الأمير: «عبد العزيز بن مروان».

(٢) (الإمامة والسياسة) (٢-٦١، ٦٢).

وليس أخو الحرب إلا من اكتحل بسهر، وأحسن النظر إلى وخاض الغمر،
وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يكلم أو
يكلم، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عف يقاسيه، متوكلاً في
حزمه، جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه،
متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجانب إقحاماً، ولا بالمتخاذل إحجاماً، إن ظفر لم يزد
الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادةً وصبراً، راجياً من الله حسن العافية، فذكر
بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ - أى الحذرين -.

وبعد ...

فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، يتتهز
منه الفرصة، ويدلّ منه على العورة، ويكون عوتاً عليه عند النكبة... وأيم
الله... لا أرى هذه القلاع، والجبال الممتعة، حتى يضع الله أرفعها، ويدلّ أمنعها،
ويفتحها على المسلمين، بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين

لقد بين - رحمه الله - عن ذاته فى قيادته، ومخالفته لمن سبقه، وأوضح
للناس أهدافه فى تحركه العسكرى، ليكونوا على بينة، وأنهم أمام قيادة جديدة من
نوع غير الذى عرفوا، فيكونوا معه على انسجام وتوافق، وتفهم وطوعية.

جبل «زغوان»^(١)

فقص - أولاً - إلى جبل «زغوان» وبينه وبين «القيروان» مسيرة يوم -، حيث
تكثّر قبائل البربر التى انتقضت... فقدم أمامه خمسمائة فارس من الأشداء...،
ووجه ابنه «عبدالله» فى قوة إلى بعض النواحي، وأيضاً أرسل ابنه «مروان» فى
حشد من الجند إلى ناحية أخرى...!

واستطاع خلال أيام أن يقضى على كل جيوب المقاومة، وأن يطهر المنطقة كلها
من العدو، ويسبى آفاقاً مؤلفة...! وعاقب الخارجين المحاربين عقاباً صارماً رادعاً
ليكونوا عبرة لغيرهم.

(١) زغوان: جبل يطل على تونس من ناحية «ليبيا» وهو عالٍ مشرف يرى عن بعد مسيرة أيام، فيه قرى كثيرة
أهلة، كثيرة الحياة والثمار.

كما استطاع - رحمه الله - أن يؤمن «القيروان» وما حولها، فتكون قاعدته التى ينطلق منها، وتكون طرق مواصلاته فى الأتحاء خالية من الأخطار.

إلى المغرب الأوسط (الجزائر)

وأرسل «موسى» ألف فارس بقيادة «عياش بن أخيل» للإغارة على قبيلتي: «هواره» و«زناتة» وكانوا من أشد قبائل البربر الذين انتقضوا، فلما انتهوا إليهم وأعملوا السيف فى رقابهم، وسبوا منهم، طلبوا الصلح...، فصالحهم المسلمون.

أما قبيلة «كتامة» - وكانت تقيم فى وادي «درعة»-، فكانوا قبل ذلك قد قدموا على «موسى» وصالحوه، فولى عليهم رجلاً منهم، وأخذ منهم رجالاً رهناً...!

وحاول هؤلاء الرهن الفرار...، وانطلقوا بعيداً عن معسكر المسلمين، فوجه «موسى» فرسانه فى طلبهم، فألقى القبض عليهم وأعيدوا.

واتخذ قراره بصلبهم...، لكنهم استشفعوا فقالوا:

- أبها الأمير لا تعجل بقتلنا حتى يتبين لك أمرنا، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا فى خلاف أبداً - ونحن فى يدك أسرى-، وأنت على استييان الأمر أقدر على إيقائنا أحياء بعد القتل...!

فعفا عنهم، ولكنه أمر بقيدهم فى الحديد، وخرج إلى «كتامة» وهم معه...! بنفسه...! فلما علمت «كتامة» بخروج «موسى» هذا، تلقاه رؤساؤها ووجوهها معتذرين، فقبل منهم، إذ تبينت له براءة الجميع.

إلى «صنهاجة»

وكانت «صنهاجة» من قبائل البربر الكبرى التى انتقضت على الولاة وغدرت، أيضاً. ولقد كان فى عزم «موسى» وقصده أن ينال منها عقاباً وجزاءً على ما أسلفت.

وكان لـ «موسى» عيون وأرصاد (جواسيس) يأتونه بالأخبار من كل مكان...، وقد أخبر بأن «صنهاجة» فى حالة استرخاء ومقام فى ديارهم، قد أقعدتهم مواسم نتاج إبلهم وماشيتهن عن التنقل...، فانتهازها فرصة مناسبة، فأغار عليهم بجند

كثيف...! أربعة آلاف من النظاميين، وألفين من المتطوعة، وبضعة آلاف من قبائل البربر الذين انضموا إليه.

ومن اللافت للنظر أنه - رحمه الله - قد استصحب معه ثلاثة من أبناء «عقبة ابن نافع» - رحمه الله - الذي استشهد غدرًا في تلك الديار، ليكون حافزهم على الثأر لأبيهم قويًا...!

وقد جعل على مقدمة الجيش «عياض بن عقبة بن نافع»...!

سار «موسى» حتى غشى «صنهاجة»...، ومن كان معها من قبائل البربر...، وهم لا يشعرون!!! فقتلهم - كما تقول روايات التاريخ - قتل الفناء، وسبى منهم سبيًا كثيرًا، قيل إنه بلغ مائة ألف رأس.

ثم انصرف قافلًا إلى قاعدته في «القيروان».

إلى «سجومة» في المغرب الأوسط (الجزائر)

أقام موسى في «القيروان» مدة، حيث أتم استعداداته، ثم انطلق على رأس قوات من المسلمين بلغت عشرة آلاف مقاتل، باتجاه «سجومة»، وجعل على مقدمته ابنه «مروان» حاملًا اللواء.

حتى إذا كان في مكان يُعرف بـ «سجن الملوك»، خلف الأثقال وراءه (أى المتاع والزاد والمغانم، على ظهور الجمال، وتجرد في الخيل، مع الفرسان الأشداء فقط، وعلى مقدمته - كما قدمنا - «عياض بن عقبة بن نافع»...!

فلما بلغ نهر «ملوية» وجده في حالة فيضان، وغزارة ماء، وكره طول المقام خلفه، فلابد من اجتيازه، خشية نفاد الزاد، أو يعلم العدو بمكانه فيستعد له، وهو يريد المباغتة والمفاجئة، فأمر بإحداث مخاضة^(١)، ليجوز بقواته عبرها...،

فلما انتقل إلى الضفة الثانية من النهر، وجد أن القوم قد أُنذروا بقدمومه عليهم، وتأهبوا لملاقاته، واستعدوا للحرب.

(١) المخاضة: المكان من النهر الذي يسمح بعبور المشاة - بدلًا من الجور.

وتحصنوا في جبل شاهق، لا يمكن الوصول إليه إلا من شعاب محدودة ضيقة، لكن ذلك لم يُثْنِ عنهم، فدفع بقواته هنا وهناك، وقد أحاط بالجبل، وركب الصعب...، واستمر القتال ثلاثة أيام حتى هزمهم هزيمة ساحقة، واستولى على مدينتهم «سجومة»، ودخلها فاتحاً، وقتل كُبراءها، وسبى أهلها، وأمر أولاد «عقبة بن نافع» - رضى الله عنه - : (عياضاً) و(عثمان) و(أبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قتلة أبيهم، فقتلوا ما يزيد على ستمائة من العدو الغادر، فلما بلغوا هذا العدد أمرهم «موسى» بالكف.

فقال «عياض بن عقبة» :

(أما والله لو تركنى ما أمسكت عنهم، وفيهم عين تطرف...)

وهكذا - عزيز القارئ - استطاع القائد الظافر «موسى بن نصير» - رحمه الله - خلال فترة زمنية وجيزة أن يقضى على محاولات قبائل البربر بالانتقاص مرة ثانية، على امتداد المغرب الأدنى والأوسط، وقد بث فيهم الدعاة والفقهاء والمعلمين، حتى دخل أكثرهم في الإسلام، وحسن إسلامهم، كما انضم إليه عدد وفير منهم، انتظموا تحت لوائه، مجاهدين في سبيل الله.

عمليات تطهير لبعض الجيوب...

وكان من الطيحي، وقد حقق «موسى» هذا النجاح الباهر أن يوسع دائرة نشاطه في بقية أنحاء المغرب (الجزائر ومراكش)، حيث لاتزال هناك، في المرامي البعيدة، بعض الجيوب التي يمكن أن تشكل خطراً.

فسير ابنه «مروان بن موسى» على رأس قوة من خمسة آلاف رجل إلى (السوس الأقصى) عند شاطئ المحيط الأطلسي...!

كما سير قائده «زرعة بن أبي مدرك» إلى قبيلة «مصمودة» البربرية (من قبائل البرانس)، ونجحت الحملتان، إذ عاد «مروان» منتصراً ومعه سبى كثير... أما «زرعة» فلم يلق حرباً ولا قتالاً مع «المصامدة» الذين أعلنوا خضوعهم وولاءهم، كما قدموا إليه رهناً منهم إيماناً بالطاعة والأمان.

فتح ولاية «طنجة»

بعد أن تمَّ لـ «موسى» إخضاع (المغرب الأوسط) و(المغرب الأقصى) - من صحراء «درعة» إلى السوس الأقصى، إلى بلاد المصامدة...،
تطلَّع نحو «طنجة» التي كانت تخضع للأمير الرومى (جوليان)^(١)، منذ بدء
الفتح أيام «عقبة بن نافع» -رضى الله عنه- .
و«طنجة» ليست المدينة وحدها، بل الولاية الواسعة التابعة لها.

«طارق بن زياد»

ولأول مرة منذ بدأ «موسى من نصير» سيرة فتح المغرب، من أدناه إلى أقصاه،
يظهر اسم البطل الفاتح «طارق بن زياد» .
خرج «موسى» - كعادته - من «القيروان» قاعدة ولايته على المغرب، ومركز
جيوشه واستعداداته، لفتح «طنجة»، وجعل على مقدمته مولاه «طارق بن
زياد»

فلم يزل «موسى» يقاتل فلول البربر، ويفتح مدائنهم، الواحدة تلو الأخرى،
حتى بلغ مدينة «طنجة»، وهى -كما عرفها المؤرخون-: قصبة (عاصمة)،
بلادهم، وأم مدائنهم^(٢) .

فلما دنا منها بث السرايا، فانتهدت خيله إلى (السوس الأدنى)، فوطنهم
وسباهم، وأقروا إليه بالطاعة، وولى عليهم من أحسن السيرة فيهم، إرشاداً
وتعليماً وإدارة.

وحاصر «طنجة» حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط^(٣) فيها
للمسلمين، فأسلم أهلها أجمعين، وجعلها قاعدة مثل «القيروان» .

(١) نسب المراجع «بليان»، وهو تحريف.

(٢) فتح الطيب (١-٣١٥)، (١-٣٣٤).

(٣) اختلط: بنى.

«سبّة» المستعصية...!

واتجه «موسى» إلى المدن الساحلية والثغور، وكان حكامها ولاية لملك «الأندلس»، ثم استقلوا بالحكم فيها وعصوا... وكانت «سبّة» أكبرها وأهمها، يحكمها «جوليان»، فقاتله «موسى»، ولكنه وجده في قوة ومنعة، فالمدينة ذات أسوار شاهقة، وحصون وأبراج، يأتيها رزقها عن طريق البحر... فاضطر «موسى» إلى مغادرتها، والعودة إلى «طنجة»، وهناك أقام بمن معه، وراح يشن الغارات على من حوله والتضييق عليهم... وبالرغم من ذلك صمدوا، فقد كانت الأمداد تأتيهم بالسفن من الشاطئ الأندلسي محملة بالميرة والمؤن والسلاح.

وكان في بعض أنحاء «طنجة» بطون من قبائل «البتر» و«البرانس»، ممن لم يكونوا قد دخلوا في الطاعة، فترك «موسى» ابنه «مروان» في حامية مكونة من ألف وسبعمائة مقاتل... وانصرف يريد «القيروان».

لكن «مروان» ألقى بعبء هذا الأمر على «طارق بن زياد»...!

وكان «موسى» - وقد رحل عن مدينة «طنجة» - قد استعمل مولاة «طارق» على الولاية كلها، وترك معه جيشاً عدته تسعة عشر ألفاً، أغلبهم من البربر الذي أسلموا وانضموا تحت لواء «موسى»، وترك عنده أيضاً أسلحة وعدة كاملة...! وأيضاً... طائفة من العرب ليعلموا الناس القرآن وفرائض الإسلام، دُعاة، وهداة.

وفي الطريق إلى «القيروان» أعاد «موسى» فتح مدينة «مجانة» وتقع على الحدود بين «الجزائر» و«تونس»، إذ أرسل إليها فرقة من جنده بقيادة «بشر بن فلان»، وكانت ذات قلعة حصينة، فمازال بها حتى دخلها وحطم دفاعاتها، واستسلم أهلها، وكان قد سبق فتحها على يد «بشر بن أبى أرطاة» أحد قادة فتح المغرب.

سُجمل أعمال «موسى» في المغرب

يتبين لنا مما ذكر أن «موسى» - رحمه الله - قد فتح أكثر بلاد المغرب ووطّد فيها دعائم الإسلام، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا تحصى...، وخاض معارك مشهودة مشهورة، لاتزال على مرّ التاريخ معامل جهاد ونضال، وعزّم لا يلين.

ولقد أسلم على يديه أكثر أهل المغرب من البربر، وبث فيهم الدين والقرآن، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، ويفقهوهم في الدين.

وهكذا ... نشر في بلاد المغرب كلها رايات الإسلام، أمناً وأماناً، وعلماً وحضارة... ولم تستعص عليه إلا «سبتة»...

وهذه سيكون لها شأن آخر فيما بعد.

«موسى» والبحر...

كان موسى في مطلع شبابه وبوادر جهاده قد غزا البحر أيام «معاوية بن أبي سفيان»، ونزل جزيرة «قبرص»، وأقام بها، واختط.

وها هو الآن يواجه من جديد خطر البحر...، فما تزال في الروم رغبة العودة إلى المغرب، وها هي أساطيلهم تحاول من حين لآخر إمداد عملاتها من «البربر» للانتفاض على المسلمين، وزعزعة الوجود الإسلامي...

فعليه إذا سدّ هذه الثغرة، أو تخفيف وطأة خطرهما على الأقل، ولا يتم له ذلك إلا بخوض غمار البحر...

اهتم أولاً بعمران مدنية «تونس»، وتوسيع دار الصناعة بها، أى أحواض بناء السفن...، فعمد إلى شق قناة توصل بين الميناء «راوس» وبين المدينة ذاتها، على طول اثني عشر ميلاً، حتى أقحم مياه البحر في المدينة، التي أصبحت مشتى للمراكب والسفن إذا هبت الأنواء والأعاصير، ثم أمر ببناء مائة مركب!!!

فلما تم له ذلك أمر الناس بالتأهب والاستعداد لركوب البحر وخوض غماره، والتصدي للعدو، ولكي يشجعهم على ذلك أعلن أنه سيكون أول راكب معهم...، فرغب الناس وتشجعوا وتسارعوا، وتحديثا روايات التاريخ عن ذلك فتقول:

(لم يبق شريف ممن كانوا معه إلا وقد ركب الفلك).

وعقد «موسى» لواء هذه الغزوة - الأولى - لابنه «عبدالله بن موسى» وولاه على الناس، وأمره عليهم، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه الذى حدده له...! وهو جزيرة «صقلية»^(١).

غزوة «الأشراف»:

وإنما أراد «موسى» - رحمه الله - من خلال تصرفه هذا أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة: (غزوة الأشراف)، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزيت فى بحر «إفريقية»^(٢).

وسار «عبدالله بن موسى» فى مراكبه بشق أديم الماء، حتى بلغ «صقلية»، فتزل بسواحلها، وافتتح مدينة فيها، وغنم وسى، وبلغ سهم الرجل يومئذ مائة دينار ذهباً.

وكان عدد جند المسلمين يومئذ ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم عاد سالماً مظفراً إلى «تونس».، وكان ذلك عام خمسة وثمانين للهجرة (٨٥هـ).

ثم عاود «موسى» الكرة مرة ثانية فى غزوة بحرية أخرى إلى «صقلية»، وذلك فى فصل الشتاء، وكأنه - رحمه الله - قد أراد المفاجأة من ناحية، وتدريب جنده وتعويدهم على التحمل القاسى فى الظروف الصعبة.

وقد أمر يومئذ على قيادة الحملة «عياش بن أخيل»، وهو من القادة المعروفين الموثوقين، فشتا «عياش» فى البحر، حتى نزل فى «صقلية» من طرف آخر، فأصاب مدينة فيها هى «سرموسة»، وغنم منها، وعاد منصوراً...، وكان ذلك عام ستة وثمانين (٨٦هـ).

كان «موسى» - رحمه الله - خبيراً بشؤون البحر، كيف يتحرك...؟ ومتى يتحرك...؟ من غير مغامرة فاشلة، تعود عليه وعلى جنده بالخسران والموت.

وكما كان فارساً مقداماً وقائداً عسكرياً فذاً فى البر، كان كذلك فى البحر...!

(١) أكبر جزيرة إيطالية اليوم.

(٢) شاطئ البحر الأبيض المتوسط الإفريقى.

واليك هذه الحكاية :

أرسل والى مصر «عبدالعزیز بن مروان» حملة بحرية من عنده، فى مراكب وجند من أهل مصر، بقيادة «عطاء بن أبى نافع الهزلى»، حتى بلغوا جزيرة «سردينية» - قریباً من أقصى الشاطئ الغربى - فأصاب فیها، ثم رسا بمراكبه فى ميناء «سوسة»...، فأمدّه «موسى» بما یحتاجه من مؤونة وتجهيزات وسلاح...!

ثم وصاه أن لا یتحرك فى ذلك الوقت، إذ بدأت نهاية فصل الخریف، وقدم فصل الشتاء...، فالتغیرات المناخية والرياح العاتية تشتد وتعنف...! قال له فى رسالته :

(إن ركوب البحر قد فات فى هذا الوقت، وفى هذا العام، فأقم ولا تفر نفسك، فإنك فى تشرین الآخر (نوفمبر)...، فأقم بمكانك حتى یطیب ركوب البحر...)

لم یكثرث «عطاء» بنصیحة «موسى» وشحذ مراكبه، ثم رفع مراسیها، واتجه إلى هدفه فى العودة من حیث أتى، ومرّ ثانية بـ «سردينية»، وغنم منها، ثم فاجأته ریح عاصف فى الطریق، فغرقت مراكبه، وغرق هو وأصحابه...!!
«سردینة» - أو «سردینية»

وهى من الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط...

وكان لابد من غزوها وإخضاعها فى سلسلة عملیات تطهیر البحر من العدو الرومى، ففى سنة تسع وثمانین للهجرة (٨٩هـ)، عقد «موسى» لـ «عبدالله بن مرة» لواءً وأمره على رأس حملة لغزو هذه الجزيرة، فاستطاع «عبدالله» أن یتزل بها ویخوض فى جنباتها، یتغلب على حاميتها یتصر، ویفتح مدنها واحدة بعد الأخرى...، ویعود ظافراً إذ بلغ السبى ثلاثة آلاف رأس، سوى ما حمّله من الذهب والفضة، والغنائم الأخرى.

وهما جزيرتان تقعان على الساحل الشرقى من بلاد الأندلس^(١) . . !

وفى نفس العام ستة وتسعين للهجرة (٩٦هـ)، جهز «موسى» حملة بحرية كبرى، عقد لواء قيادتها لولده «عبدالله بن موسى»، فغزاهما وافتتحهما . . ، وبذا أصبح الطرف الغربى من البحر الأبيض المتوسط خاضعاً بالكلية لنفوذ المسلمين وقواتهم البحرية.

التطلع إلى «الأندلس»

وكان «موسى» - رحمه الله - فى الغزو والفتح بعيد النظر، بعيد الهمة، نشطاً موفقاً، وبعد أن تم له فتح المغرب بكامله، وتوطيد سلطان الإسلام فيه، والسيطرة التامة على معظم جزر البحر الأبيض المتوسط، سمت به همته العليا، وجهاده فى سبيل الله أن يجتاز البحر إلى الأندلس . . !

ولقد علم «موسى» ما تُعانيه تلك الديار من قلاقل واضطرابات وتفسخات، بين حكامها وملوكها وتنازعهم على السلطة فيها . . ، فالوقت مناسب تماماً لعملية الغزو واجتياز البحر . . ! ولكن . . !

كان هناك خطر ما يزال قائماً لديه فى المغرب . . ، هو: «سبتة» الحصينة وحاكمها العنيد الشديد «جوليان» . . ! - وقد جاء ذكره من قبل -!

فمن هو؟ وما مدى خطورته . . ؟

كان «الكونت»^(٢) «جوليان» - أو «يوليان» - قوطياً إسبانياً، نزع فى أول حكمه وسلطانه إلى «روما» والدولة «البيزنطية»، ثم والى الحكم الإشباني فى «طليطلة»، بعد أن ضعفت هيئة الدولة «البيزنطية» بانتصار العرب عليها فى الشام، ومصر، والشمال الإفريقى، . . . وكان بُعد الشقة -أيضاً- بين «سبتة» و«روما» أحد العوامل وكذلك انقطاع طرق الإمداد.

(١) بين جزيرة (صقلية) الإيطالية وشبه جزيرة الأندلس.

(٢) الكونت: لقب شرف عند الغربيين، مثل «الباشا» وغيره.

وكان كما تقول روايات التاريخ: رجلاً شجاعاً، ومغامراً منتقماً، شديد السطوة، ومن كبار أشراف (القوط) - حكام «إسبانيا» - «الأندلس»، وتابعاً للسلطان المركزى فى الدولة، وقد اتسع نفوذه فى «سبتة» كولاية ومقاطعة، وتعامل مع البربر كواحد منهم، فأحبوه ووالوه.

وكان غنياً شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم بالبحر، بعيداً عن سلطة العرش، وكان فى مملكة قائمة بذاتها، يقبض على مفتاح «إسبانيا» بحكمه لـ «سبتة» والمضيق، أو بحر الزقاق - كما سماه العرب -.

التحالف بين «جولييان» و«موسى» !!!

كان لـ «جولييان» ابنة تدعى «فلوراندا» رائعة الحسن، أرسلها إلى بلاط «طليطلة» جريباً على تقاليد ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان .. !

وكان أمر الديار الإسبانية قد انتهى إلى مقتصب اسمه «رودريك» - (الذريق) عند العرب -، بعد أن تغلب على خصومه، وأضحت البلاد فى بحر زاهر من الاضطرابات والفتن.

استهوى جمال «فلورندا» قلب «رودريك»، فهام بها، ثم اغتصبها، وفض عذريتها، فغضب لذلك «جولييان» أشد الغضب، ثم استقدم إليه ابنته، وأقسم لينتقم من «رودريك» أشد الانتقام.

وفى ذلك الحين اتصل به خصوم «رودريك» ليحالفهم على قتال خصمه، الغادر بابنته ..، وهم يعلمون مدى قوة جيشه واستعداداته، ولكنهم أوحوا إليه بالتحالف مع العرب، ليكون أشد وأقوى، وأضمن للنصر .. !

وكان «موسى» - رحمه الله - قد بسط سلطانه على الشمال الإفريقى كله، ماعدا «سبتة» المنيعه، وكان يتمنى ... ويعد العدة للخلاص من هذه الشوكة التى تؤرق خاصرته .. !

وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءت رسالته من الكونت «جوليان» نفسه، يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح إسبانيا، وسيعاونه بسفنه ومراكبه وجنده مخلصاً.. صادقاً، غير غادر ولا مخادع.

وكان «موسى» - رحمه الله - على اطلاع واسع بأحوال «إسبانيا»، الضعيفة المتهالكة. وعلى معرفة بما جرى لابنة «جوليان»..!

فبدأ المفاوضات مع «جوليان» على حذر..! بالمراسلة ثم اللقاء..! حتى إذا ما تيقن الصدق في اللهجة والعقل، وافق «جوليان» على مساعدته، وهو يطمح لأبعد من ذلك..! إنه يتوق إلى الفتح ونشر الدين، ورفع لواء الإسلام.

وقبل الإقدام... أرسل «موسى» كتاباً إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» في دمشق، يخبره فيه بكل التفاصيل، ويستأذنه الشروع.

ثم جاءه الرد من «الوليد» بالموافقة، شرط أن يختبر ذلك ببعض السرايا يرسلها إلى شواطئ الأندلس (إسبانيا)، دون المخاطرة بالجيش الإسلامي، فإذا عادت تلك الحملات الخفيفة السريعة بما يطمئن، كان الإقدام والمغامرة، والله تعالى هو الناصر والمعين.

وكان أغلب الظن عند «جوليان» وحلفائه من حكام المقاطعات الإسبانية، أن العرب إذا تم لهم النصر على «رودريك» وامتلات أيديهم بالغنائم، وفاضت خزائنهم بالأموال، لن يلبثوا في «إسبانيا» ولن يُقيموا فيها، وسيعودون من حيث أتوا..!!

جزيرة «طريف»

على الساحل الجنوبي الغربي من «إسبانيا»، شبه جزيرة، تُعرف إلى يومنا هذا بـ «جزيرة طريف» وهو اسم «عربي»^(١) فمن هو «طريف» هذا؟ ولماذا سميت تلك المنطقة باسمه؟

بعد موافقة الخليفة وإذنه، جهز «موسى» قوة صغيرة من المسلمين، مائة فارس وأربعمائة رجل، بقيادة أحد قادته ويدعى «طريف بن مالك»^(٢)، ويكنى بـ «أبي

(١) أو: بربري، ولكنه غير أعجمي.

(٢) وقيل: طريف بن ملوك، إثباتاً لقبه البربري.

زرعة»، عبرت البحر فى أربعة مراكب، ثم نزلوا بساحل البحر بالآندلس، فيما يحاذى «طنجة»، فعُرف المكان باسمه، ومازال يحمله.

ومنها أغار على ما يليها إلى جهة «الجزيرة الخضراء»^(١)، وأصاب سيّاً ومالاً كثيراً، ورجع سالماً، وكانت حملته هذه فى شهر رمضان «سنة إحدى وتسعين (٩١١هـ).



نهاية البطل «موسى بن نصير» - رحمه الله -

فى سنة سبع وتسعين هجرية (٩٧هـ). حج بالناس الخليفة «سليمان بن عبدالملك»، فأمر «سليمان» «موسى» بالشخوص والحج معه، فذكر «موسى» لـ «سليمان» أنه ضعيف، فأمر له «سليمان» بثلاثين نجياً^(٢) موقورة جهازاً، وبحجرة من حُجره، وجائزة.

فحج «سليمان» وحج «موسى» معه، ثم وافته المنية فى «وادي القرى»^(٣) سنة سبع وتسعين هجرية، (٩٧هـ) وقد قارب الثمانين، وصلى عليه «مسلمة بن عبدالملك»، وورى الثرى فى «أم القرى».

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأنزله من لدنه منازل الأبرار والصالحين.

«موسى» فى التاريخ

القائد المؤمن بنصر الله ..

سأله «سليمان بن عبدالملك»: ما الذى كنت تفزع إليه فى مكان حريك من أمور عدوك؟

فأجاب «موسى»: التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين ..

(١) جاء فى «تقويم البلدان»: الجزيرة الخضراء، مدينة أمام «بنة» فى بر الأندلس الجنوى، وهى مدينة طيبة، توسطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها (مينائها) أحسن المراسى للجوار (العبر) وأرضها أرض زرع وطرح (١٧٣-١٧٤).

(٢) خيار الإبل وأنفها.

(٣) بين المدينة والشام، وهى من أعمال المدينة.

فسأله «سليمان»: هل كنت تمتنع فى الحصون والخنادق، أو كنت تخندق حولك؟ قال: كل هذا لم أفعله...، قال فما كنت تفعل؟

قال: كنت أنزل السهل وأستشعر الخوف والصبر، وأتحصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله وأرغب إليه فى النصر...!

العالم بالخيول...!

وسأله «سليمان»: أى الخيل رأيتها فى تلك البلاد أصبر؟

فقال: الشقر - الحمرة فى العُرف والذيل -،

وإذا كان الأدهم (الأسود) أحمر العينين، فإنه يتهم بالحرن...، ويختبر العسر بأن يقفز الفرس خندقاً صغيراً سبع مرات، فإن رفع فى كل مرة من المرات يده اليمنى قبل اليسرى، فاعلم أنه ليس بأعسر...، والعسر مما يُكره فى الخيل.

وتختبر بلادة الفرس -أو الجواد- بأن تقف منه على بُعد عشرة أذرع، ثم ارمه بخرقة، أو ارم عنائه بحصى، فإن وقف، فاتهمه بالبلادة، وكذلك إن عطست وأنت راكبه، أو نفضت بعض ثيابك...، ثم اركبه وألق على الأرض ثوباً أبيض وامش به عليه، فإن حذره فاعلم أنه زكى النفس، وإلا فاعلم أنه بليد.

قصافته

وكتب إليه «عبدالله بن عبدالملك بن مروان» -أمير مصر- رسالة يتهدده فيها ويتوعده، فكتب إليه «موسى»:

(أما بعد ...)

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما وصفت فيه من إركانى إلى أبويك وعمك، ولعمري إن كنت لذلك أهلاً، ولو خبرت منى ما خبراً، لما صغرت منى ما عظماً، ولا جهلت من أمرنا ما علماً، فكيف آتاه الله لك؟؟؟

فأما انتفاضك لهما، فهما لك، وأنت منهما، ولهما فيك ناصر لو قال وجد^(١).
عليك مقالا، وكفاك جزاء العاق.

فأما ما نلت من عرّضى، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك...!
وأما تهدّدك إياي بأنك واضع منى ما رفعا، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعده وأبرق لغبرى.

وأما ما ذكرت مما كنت آتى به عمك «عبدالعزیز» فلعمري إنى مما نسبتنى إليه من الكهانة لبعيد، وإنى من غيرها من العلم لقريب...، فعلى رسلك...، فكأنك قد أظلك البدر الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع، فقد تم لها -أى الخلافة- وتمت له، ثم بعث إليك الأعرابى الجلف الجافى، فلم تشعر به حتى يحل بعقوتك فيسلبك سلطانك، فلا يعود إليك ولا تعود إليه، فيومئذ يعلم أكاهن أم عالم؟! وتوقن أيننا النادم السادم، والسلام) - أ.هـ.

الورع التقى

ذات يوم، وهو فى المغرب، أصيبت البلاد بقحط شديد، وجذب...، فأمر الناس بالصوم والصلاة، وإصلاح ذات البين...، وخرج بهم إلى الصحراء، ومعه سائر الحيوانات، وفرّق بينها وبين أولادها...، فوقع البكاء والصراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب الناس، ولم يذكر «الوليد ابن عبدالمملك» -الخليفة-، فقليل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال:

- هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى...!

فسقوا حتى رووا، ورخصت الأسعار!!

رضى الله عن التابعى الجليل، القائد الفاتح، القوى الأمين، «موسى بن نصير» وأسكنه الفردوس الأعلى.

(١) وجد: حامد مبعوض.

١٤- طارق بن زياد

لقد ارتبط اسم «طارق بن زياد» بالفتح الإسلامي للأندلس ارتباطاً وثيقاً، حتى إن المضيق الذى يفصل بين قارتي أوروبا وإفريقيا، والذى عُرف تاريخياً بـ «زقاق البحر» ما يزال يحمل اسمه وسيظل...، فيقال: [مضيق جبل طارق] نسبة إلى الشاطئ الصخري الذى نزل عنده يوم بداية الفتح، ورسى فيه مراكبه التى كانت تُقل جنده وعتاده.

وهنا وقفة لابد منها لنعرف من هو هذا القائد الهمام الذى تولى العبور إلى القارة الأوروبية، وفتح الأندلس، وأرسى فيها قواعد الإسلام، عقيدة وتشريعاً، وحضارة، على مدى تسعة قرون من الزمان...!

عربى أم بربرى؟!..

لقد كثر اختلاف المؤرخين النسابين فى جذور انتسابه لأى الأصلين: العربى أم البربرى؟ لكن معظمها يؤيد انتسابه البربرى^(١)، وأنه أسلم على يد «موسى بن نصير»، الذى جعله مولى له، وقد رأى فيه من الشهامة والرجولة والشجاعة... والإقدام...، وحسن الإدارة... ما جعله أقرب المقربين إليه، فكان يعتمد فى المواقف الصعبة، ولا يمكن الاستغناء عنه.

كما يرجح المؤرخون أن ولادته كانت سنة خمسين للهجرة (٥٠هـ)!! إذن.. فقد كانت ولادته فى خضم معمرة معارك الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى، فعاصرها طفلاً وفتى وشاباً يانعاً...!

فلما ولى «موسى بن نصير» على تلك البلاد، وقام بإعادة الفتح وتوطيد الأمور، وتثبيت الإسلام فى قبائل البربر، أسلم على يديه «طارق» ودخل فى زمرة القادة، وبرز بينهم.

(١) أورد صاحب كتاب «البيان المغرب» (ج: ٢) (ص: ٦٠) نسبة «طارق» - هكذا: «طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن ثيرغاس بن سطاتس بن بطوث بن نفزة» - فهو ينتمى إلى قبيلة «نفزة» البربرية. ويقول «الشريف الإدريسي»: إنه بربرى من قبيلة «زنانة»، وتبعه فى ذلك «ابن خلدون» و«المقرئ» فى «فتح الطيب» (ج: ١) (ص: ١١٩).

ولا أدل على ثقته فيه أنه عندما فتح ولاية «طنجة» ولاء عليها، وقد ظهرت كفاءته في الحرب والإدارة.

فلما قرر «موسى» بالاتفاق مع الكونت «جوليان» غزو الأندلس، لم يجد قائداً أكفأ من «طارق» لقيادتها.

ونحن - عزيزى القارئ - لا يهمنا من قريب أو بعيد الخوض فى معرفة النسب...، ويكفينا أنه - رحمه الله - كان جندياً مسلماً، سطر فى سفر التاريخ أنصع الصفحات وأخلدها.

العُبور

ففى الخامس من شهر رجب (الفرد^(١)) سنة اثنتين وتسعين للهجرة (٩٢هـ)، جهز «موسى بن نصير» جيشاً خليطاً من العرب والبربر، بلغ سبعة آلاف مقاتل، بين فارس واجل، بقيادة «طارق بن زياد» عبر البحر من «سبتة» على سفن جهزها لهم الكونت «جوليان».

وكان نزول «طارق» بالبقعة الصخرية المقابلة، التى لانزال -كما ذكرنا- تحمل اسمه حتى اليوم: (جبل طارق)^(٢).

حرق السفن !!..

تذكر بعض الروايات التاريخية أن «طارقاً» بعد نزول جنده على الأرض الإسبانية، أحرق السفن التى أقلته وجنّده، كى يقطع الأمل فى نفوس الجند بالعودة، أو التفكير بها...، وعليهم مواجهة عدوهم بهمة ودون يأس...!

ولكن أكثر المحققين يستبعد ذلك، إذ ليس من المعقول -ولا المقبول- أن يقوم قائد حكيم فذ بمثل هذا العمل الخطير، والذى ليس له أدنى سبب فى التخطيط للحرب والقتال.

(١) الأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهى متتابعة، ثم يأتى «رجب» فرداً.

(٢) يكتبها الأجانب هكذا: [Gibal Tar].

وعليه .. فنحن - أيها القارئ العزيز - نرُد هذه الرواية الأسطورية على مدعيها ..!

الزحف

زحف «طارق» بجنده، من حيث نزل، غربًا، وكان معه في حملته هذه الكونت «جوليان» في نفر قليل من أصحابه، فكان يشير على «طارق» ويدلّه ..! واتجه إلى (ولاية الجزيرة) التي كان يحكمها «تيودمير» عامل الملك «رودريك» - لنريق - عليها، فهزم الشراذم التي تصدت له، واحتل القلاع، وفوجئ حكام الولايات الغربية بالهجوم فأخطروا الملك «رودريك» ..، فأسرع إلى «طليطلة»، وقدم أمامه قائده «أديكو» لصد العدوان ريثما يستكمل هو أهبة ..، لكن «طارقًا» هزم «أديكو» واستمر في زحفه عبر سهول «الفونتييرة»

حشد «رودريك» - لنريق - قواته، واستقطب خصومه، وجمع حوله معظم الأشراف والأمراء والأساقفة، في جندهم ومؤيديهم، فبلغ تعداد الجيش «القوطي» يومئذ مائة ألف مقاتل، واتجه الجميع إلى لقاء «طارق».

النجدة

بلغت أنباء هذا التحشد مسامع «طارق»، فأرسل إلى مولاه «موسى» - القائد العام يستمده ويستنجده ..، فبادره بإرسال خمسة آلاف من الأشداء، المشهود لهم بالإقدام، والجرأة، فأصبح عدد جيش «طارق» اثني عشر ألفًا، من العرب والبربر ..، ولكنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا تخيفهم كثرة، ولا ترهبهم حشود، واستعدوا للقاء الموعود.

خطبة «طارق» في جنده

عندما تواجه الجيشان عند وادي نهر «رنكة»، خطب «طارق» في جنده يحثهم على الصبر والقتال ويث فيهم روح الحماس، وهذه عادة اتبعها معظم قادة المسلمين في فتوحهم وغزواتهم، اقتداءً برسول الله ﷺ.

ونحن نورد لك - عزيزى القارئ - خطبة «طارق» فى الجند، وقد اشتهرت على ألسنة الناس، قدامى ومحدثين، رغم الشك الكبير فى صحتها، ف «طارق» يربرى مهما أنقن اللغة العربية فلسانه يقصر عن لغة هذه الخطبة فى مبنائها وعباراتها..

قال :

(أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلا الصديق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة وأنت لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم.

وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ربحكم وتقوضت القلوب عن رعبها منكم بالجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن..! إن سمحتم لأنفسكم بالمؤن.

وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس، أبداً بنفسى... واعلموا أنكم إن صيرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى، فما حظكم فيه بأوفى من حظى، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحُور الحسان من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحُلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان.

وقد انتخبكم «الوليد بن عبد الملك» - أمير المؤمنين - من الأبطال عُرَباناً، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً واختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطَّعان، واستحاحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولىّ إنجازكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين.

أيها الناس:

ما فعلت شيئاً فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال...، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتل وأسير...!

وإياكم... إياكم أن ترضوا بالذنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا -والله معكم ومفيدكم- تبؤوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين...

وها أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملى... (١) - أ. هـ.

معركة والدى «لكة»

كما كانت «اليرموك» مفتاح بلاد الشام، و«القادسية» مفتاح «العراق» و«فارس»، كانت معركة وادى «لكة» مفتاح بلاد «الأندلس»...

كان اللقاء بين الجيشين فى سهل «الفونتيه» على ضفاف نهر وادى «لكة»، فى الثامن والعشرين من شهر «رمضان» سنة اثنتين وتسعين للهجرة (٩٢هـ). فرق النهر بين الجيشين مدى ثلاثة أيام، شغلت بالمعارك البسيطة.

وفى اليوم الرابع التحم الجيشان، ونشبت بينهما معركة عامة، وظهر ملك القوط «رودريك» وسط الميدان فى حقل ملوكية، فوق عرض تجره الخيول المطهمة.، متوجاً باللالى، متشحاً بالحرير المذهب، مضطجعاً فى هودج من العاج... وكأنه فى حفل وليس فى معركة.

واستمرت المعركة بين الطرفين هائلة مضطربة، بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة... أربعة أيام!!!

(١) نقل هذه الخطبة «المقرئ» عن مؤرخ لم يذكر اسمه، وقد دونت بعد ثلاثة قرون من فتح الأندلس.

وتمكن الجيش الإسلامى - على ضآلة عدده، بجلده وثباته، واتحاد كلمته، من جيش «القوط»، فلم يأت اليوم السابع من بدء اللقاء حتى تم النصر لـ «طارق» وجنده، وهزم «القوط»، شر هزيمة، وتشتوا أفواجًا وقلولا فى كل صوب.

ولكن أين «رودريك»؟؟

تقول بعض الروايات بأنه سقط قتيلًا فى الميدان، واحتزت رأسه، وحُملت إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» فى «دمشق»، وتقول روايات أخرى إنه فر من الميدان على ظهر جواد سقط به فى مياه النهر وغرق.

وكما عُرِفَت هذه المعركة بأنها معركة وادى «لكة»، عُرِفَت أيضًا بمعركة «شذونة»، وقد انتهت على أثرها مملكة «القوط» فى «إسبانيا»، وغنمها المسلمون. وكما نُسب إلى «طارق» خطبته التى ذكرنا، نُسب إليه قوله:

ركبنا سفينًا بالمجاز قصير عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسًا وأقوالًا وأهلًا بجنة إذا ما اشتبهنا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرنا

متابعة الفتح:

على أثر هذه الواقعة...، ساد الرعب فى «القوط» عامة، فامتنعوا بالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول، فرارًا وابتعادًا. ووصلت أنباء هذا النصر العظيم إلى «طنجة» و«سبتة» وما جاورهما...، فتدفق سيل من المجاهدين -عربًا وبربرًا-، وعبروا المجاز، وانضموا إلى جيش «طارق».

فى «استجة»:

كانت بقية الجيش «القوطى» قد تجمعت عند «استجة»، قريبًا من «وادى النهر الكبير»، لتحاول -يائسة- منع «طارق» من التقدم، لكنه زحف إليها على عجل،

ليضرب ضربته الثانية، قبل أن يلم «القوط» شعثهم، ويداووا جراحهم، ومن ثم أنزل بهم هزيمة مُنكرة...!

إلى المدن الحصينة والقلاع:

لم يبق أمام «طارق» إلا أن يهاجم مُدنهم وقلاعهم الحصينة، ويستولى عليها...!

فقرر أولاً: أن يقصد بنفسه إلى «طليطلة» عاصمة المملكة «القوطية» - الإسبانية-، ووزع بعض قواته...،

فأرسل قائده «مُغيثا» الرومى، فى سبعمائة فارس إلى «قُرطبة»، فاستولى عليها دون مشقة.

كما أرسل قوات إلى «غرناطة» و«إلبيرة» و«مالقة»، فافتتحت «مالقة» وفر سكانها إلى الجبال...، وجنودها إلى «إلبيرة» و«غرناطة» التى حوصرت أياماً ثم فتحت...، كما فتحت «إلبيرة» -أيضاً-.

واتجهت قوة من المسلمين شرقاً إلى ولاية «قُرطبة» - وكانت تسمى «تيودمير» باسم أميرها، أما عاصمتها فهى: «أوزيولة»...!

وكان «تيودمير» -هذا- جندياً وافر العزم والبأس، فالتقى الجيش الإسلامى، ونشبت بين الطرفين معارك شديدة، هلك فيها معظم رجاله، فارتد إلى العاصمة «أوزيولة» وتحصن بها، وألبس النساء ثياب الجند وعرضهم على الأسوار ليوهم المسلمين بكثرة جنده...، وظل يقاوم إلى أن قبل منه المسلمون الصلح وبشروط أنقذت مدينته من السبى والحزبة.

هذه التحركات... كان لابد فيها من دليل مرشد، فى أرض غريبة...!

وما من شك أن «موسى» و«طارق» كانا على بعض العلم فى هذا المجال، لكن «جوليان» حاكم «سبته» كان له المقام الأول فى المساعدة...! وقد رافق «طارقاً» فى عبوره وحملاته وإرشاده.

ونعود إلى «طارق»:

فقد سار ببقية الجيش إلى «طليطلة» -العاصمة- مخترقاً هضاب «الأندلس» وجبال «سيراموريتا»^(١) التي تفصل بين «وادي الأندلس» و«قشتالة».

وكان «القوط» قد فرّوا منها نحو الشمال، بأموالهم وآثار قديسيهم، ولم يبق بها سوى القليل من أهلها من اليهود والنصارى، فاستولى عليها، وأبقى على من بقى من سكانها، وترك لأهلها عدة كنائس، وترك لأجبارها حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها مطرانها السابق «أدباس»، كما ترك فيها حماية من المسلمين.

ثم تابع زحفه شمالاً، فاخترق «قشتالة»، ثم «ليون»، في وهادٍ ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط حتى «استرقة»، فلجأت إلى «جليقية» واعتصمت بجبالها الشامخة، وعبر جبال أشتوريش (أستورياس)، واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج «غسكونية»... ورده عباب المحيط عن التقدم، فعاد إلى «طليطلة»، وقد تلقى من «موسى» -الذى كان يُتابع فتوحاته وزحفه - أمراً بالتوقف!!

«موسى بن نصير» هن جديد...!

وهنا نتوقف مع «طارق» بانتظار «موسى»...

«موسى» الذى كان قد بلغ من العمر ثمانية وثمانين عاماً آنذاك، وهو لا يزال فى قمة نشاط جهاده وبلائه، فلا تفتّر همته رغم شيخوخته!!

يُقال بأن الأمر من «موسى» إلى «طارق» بالتوقف عن التوغل كان قد سبقه أمر آخر بعد معركة وادي «لكة»، وهزيمة «القوط» ومقتل «رودريك» وأن «طارقاً» لم يعبأ بأمر «موسى» ومضى فى زحفه ومعاركه...

وهذا قول مستبعد، فقد كان «طارق» -رحمه الله- لا يتحرك إلا ويبلغ القائد العام بتوجهاته، وانطلاقاته.

(١) عرف بجبل الشارات.

وأيضاً قيل بأن «موسى» قد حسد «طارقاً» على نجاحاته فى فتوحاته وتقدمه، فأمره بالتوقف دون التوغل حتى يأتيه...!

ولا نغفل إلى هذه الفرية، فليس من شأن «موسى» ولا طبعه، وخلقه ودينه أن يحسد، إنما كان أمره له بالتوقف حتى يوافيه، كى ينظم عمليات المتابعة معه، وحرصاً منه على جند الإسلام فى ديار الغربية.

على كل حال، فقد عبر «موسى» إلى «إسبانيا» فى عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك...!

وكان نزوله بولاية «الجزيرة الخضراء»، حيث استقبله «الكونت جوليان» - حليفه-، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ثلاثة وتسعين (٩٣هـ). أى بعد سنة من دخول «طارق» إلى «إسبانيا».

فتح «موسى»

لم يقصد «موسى» إلى «طليطلة» حيث تواعد على اللقاء بـ«طارق»... بل اتجه إلى «شدونة» واستولى عليها، ثم مضى إلى «قرمونة»، وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً.

ثم سار إلى «ماروة» وحاصرها مدة، وقد قتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى...، وانتهت بالتسليم فى رمضان سنة أربع وتسعين (٩٤هـ) على أن تكون أموال الفارين والكنائس غنيمة للمسلمين، دية لمن قُتل منهم.

اللقاء بـ«طارق»:

ثم قصد «موسى» إلى «طليطلة» للقاء «طارق» حيث تواعدا، فخرج إليه «طارق» ليستقبله ويرحب به على مقربة منها.

وهنا تبالغ بعض الروايات فى معاملة «موسى» لـ«طارق»، فتقول بأن «موسى» قد عتف مولاه، وعامله بقسوة وشدة لمخالفته أوامره، وزج به فى السجن...، ثم عفا عنه؟! وردّه إلى منصبه فى القيادة؟!

لا بأس أن يُعاقبه... ولكن أن يُعاقبه ويحبسه ويقيده فهذا أمر مستبعد، لا يليق بـ «موسى» ولا بالقائد الظاهر المتصبر «طارق بن زياد»!!

الزحف معاً...!

ووضع الاثنان «موسى» و«طارق» خطة لافستاح ما بقى من «إسبانيا»، فاتجها نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية «أراجون» -وتُعرف بالشجر الأعلى-، وافتحا «سرقسطة» و«طرُكونة» و«برشلونة» وغيرها من المدائن والمعاقل...!

ثم افترقا...!

فسار «طارق» نحو الغرب ليغزو «جليقية»، وليتم القضاء على قُلُوب القوط...!

وسار «موسى» شمالاً فاخترق جبال «البيرينيه» وغزا ولاية «لانجدوك» -سبتمانيا-، واستولى على «قرقشونة» -كاركاسون- و«أربونة» -ناربون-، ثم غزا وادى «الرُون» حتى بلغ مدينة «ليون» -الفرنسية-...!

فاضطرب ملوك وأمراء الفرنج، وأخذوا فى التجمع والأهبة لرد الغزاة.

«عبدالعزیز بن موسى»

وكان لـ «موسى» ولد اسمه «عبدالعزیز» سماه باسم صديقه وصفيه «عبدالعزیز ابن مروان» تيمناً، فكان «عبدالعزیز» هذا من خيرة القادة الذين أبلوا أحسن البلاء، سواء فى المغرب أو فى «إسبانيا».

ولقد وجهه والده على رأس قوات من المسلمين لفتح بعض النواحي التى ماتزال فى أيدي العدو^(١)...، فافتتح منطقة الساحل الواقعة بين «مالقة» و«بلنسية»، وأحمد الثورة فى «أشبيلية» و«باجة»، وافتتح «لبلة» وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح، والاعتدال فى تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.

(١) البلاد المعروفة الآن بالبرتغال.

«موسى» و «طارق» فى «دمشق»:

إزاء ما وفقه الله تعالى إليه من فتوح فى مختلف نواحي الديار «الإسبانية» شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، حتى بدت كلها تحت يد سلطانه، وقد دق أكثر من مرة أبواب فرنسا...!

إزاء ذلك.. فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوروبا، غازياً فاتحاً، ناشراً لدين الله عز وجل...، وأن يصل إلى «الشام» عن طريق «القسطنطينية» -التي استعصت طوال عقود من السنين على الفاتحين المسلمين،- منذ عهد «معاوية بن أبى سفيان».

ذكر لنا ذلك «ابن خلدون» -عليه رحمه الله- فقال:

(وجمع أن يأتى المشرق على «القسطنطينية» ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض^(١) ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم أن يلحق بدار الخلافة...)

ولكن...

كان فى جيش «موسى» قائد هو «مُغيث الرومى»، غلام من موالى «الوليد بن عبد الملك»، وكان مقداماً شجاعاً، ولكنه -يبدو- أنه ما يزال يحن إلى أصوله الرومية...!

فانتهاز فرصة بعثه إلى «دمشق» محملاً بالغانائم والأسلاب والسبايا، فوسوس إلى «الوليد» بما يجول فى خاطر «موسى» و«طارق»، وحذره من مغبة هذه المغامرة -على حد زعمه-...!

وكان فى «الوليد» بعض التردد، حتى إنه كان يحذر من التوغل فى إسبانيا نفسها، فلما سمع مقالة «مُغيث» أرسل إلى «موسى» و«طارق» يستدعيهما إلى «الشام»، وعلى الفور...!

(١) تاريخ (ابن خلدون) (ج : ٤) (ص : ١١٧).

تمهل «موسى» فى الاستجابة بعض الوقت، ريثما يتم له فتح معاقل «جليقية»، والقضاء على بعض الجيوب والشغرات فى «إسبانيا»، واطمأن إلى توطيد الأمن فى ربوع البلاد، وأخذ يتأهب للعودة إلى «دمشق».

وبينما هو على تلك الحال من الاستعداد، جاءته رسالة أخرى عاجلة، تأمره بالحضور ومعه «طارق بن زياد»، فلم يجد بُدًّا من الإذعان، فاستخلف على البلاد ابنه «العزیز» وغادر «إسبانيا» متوجهاً إلى الشام، وجعل عاصمتها «أشيلية».

كما استخلف أكبر أولاده «عبدالله» على «إفريقية»، وعلى المغرب الأقصى ولده «عبدالمملك»، وفى شهر ذى الحجة من عام خمسة وتسعين (٩٥هـ) قفل راجعاً إلى المشرق، ومعه «طارق بن زياد»... وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يُعد ولا يُحصى، ومن أشرف السبى عدد عظيم، يفوق الحصر...!

بين «الوليد» و«سليمان»:

وصل البطل الفاتح «موسى بن نصير» ومعه موله القائد المظفر «طارق بن زياد» إلى «دمشق»، فى حين كان «الوليد بن عبدالمملك» يُعانى مرض الموت.

ويبدو أن «مغيثاً الرومى» كان قد شحن صدر «الوليد» بالسخط على «موسى» و«طارق» معاً، فكان اللقاء جافاً، رغم ما حمله معه موسى من ثروات هائلة، وتحف نادرة، قدمها كلها للخليفة غير محتجزٍ لنفسه شيئاً، حتى ولو درهماً.

وتولى بعد «الوليد» أخوه «سليمان»... وكما دس «مغيث» على «موسى» عند «الوليد» دس عليه أيضاً عند «سليمان» -الخليفة الجديد-، حقداً من عند نفسه وحسداً...!

فجافاه «سليمان» فترة، ثم رضى عنه، وقربه منه وأدناه، وجعله من أصفياه، وما كان «سليمان» إلا ليفعل ذلك، وهو ذو علم ودين وتقوى، حتى عدَّ من كبار التابعين.

نهاية «طارق بن زياد»...

وهنا -عزيزى القارئ- يُسدل الستار على أخبار «طارق» تمامًا... وتسكت
ألسنة التاريخ عن الحديث عنه، فلا ندرى كيف انتهت حياته؟ ومتى مات؟ وأين
دُفن؟

وكلها تساؤلات تذهب سدى ولا مجيب عليها.

ويكفى «طارق بن زياد» فخراً ومجداً، أنه منذ ولايته على «طنجة»، ثم عبوره
إلى إسبانيا، وتوغله فى الفتح، وإخضاع أكثر الولايات لسلطان الإسلام، خلال
سنوات تُعد على الأصابع، قد سجل فى التاريخ اسمه بأحرف من نور، ولا يزال
شعاع بريقها يملأ الدنيا... وما يزال الجبل الذى يحمل اسمه إلى اليوم، شامخاً
شاهداً، على بطولته وإخلاصه، وتفانيه...! رحمه الله وغفر له، وأجزل ثوابه.

١٥- عبد الرحمن الغافقي

نزع الفتى «عبد الرحمن»^(١) من «اليمن» إلى «الحجاز»، وهو يحمل بين ضلوعه قلباً جياشاً بحب الله ورسوله، ونفساً تضج بالحياة والفتوة، توافقه إلى طلب العلم، والجهاد.

وهياً الله تعالى له في «المدينة المنورة» أستاذاً عظيماً ممن صحبوا رسول الله ﷺ وشرفوا بتلك الصحبة، هو: «عبد الله بن عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه-.

أعجب التلميذ بأستاذه، في عمله وسلوكه وحفظه وورعه، فلزمه كظله، يتابعه في غدواته وروحاته، وحلقاته في المسجد النبوي الشريف، يأخذ عنه، ويحفظ منه، ويتأسى به.

ولم يبخل الأستاذ على التلميذ وهو يرى فيه نجابة وذكاءً، فأفرغ في واعيته كل ما كان لديه من حذق علم، وكنوز فهم، ودراية، حتى استوى الفتى على عوده، تابعياً متربعاً في الطليعة.

الانطلاقة الأولى:

ما إن توافر لـ «عبد الرحمن الغافقي» أسباب تناغم العلم والفهم، مع روحه الوثابة، حتى انطلق إلى ميادين الجهاد في سبيل الله، يحمل في فؤاده مصحفاً ويده سيقاً...! ناذراً نفسه لله عز وجل، ينتظر إحدى الحسينين.

وكان أول قدومه على «إفريقية» حيث تنطلق فيها كتائب النصر إلى الأندلس...، ف قضى فيها زمناً يسيراً، دارساً متفحصاً، مثله مثل القائد الذي يعاين خطته قبل مباشرة القتال، وخوض معارك الحروب.

إلى دمشق؟!

ثم ارتد «عبد الرحمن» إلى «دمشق»، وقد عرف كل كبيرة وصغيرة حول الشمال الإفريقي، والأندلس أيضاً...! فاتصل بالخليفة «سليمان بن عبد الملك»،

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم - الغافقي العكي - [أبو سعيد].

الذى رأى فيه قائداً خيراً، وعالمًا ألمعياً جليلاً... مؤمناً صادقاً، فقربه منه وأدناه، وجعله موضع ثقته، ثم بعث به إلى «الأندلس».

عن «سليمان» إلى «عمر بن عبدالعزيز»

وتولى «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة بعد «سليمان بن عبد الملك»، وبدأ عملية الإصلاح حسبما اتفق له ورأى،

وكانت الأندلس آنذاك قد خلت من قيادة «موسى بن نصير» وولده عبدالعزيز ابن موسى» فعين «عمر بن عبدالعزيز» عليها والياً جديداً هو: «السمح بن مالك الخولاني»، وكان ذلك سنة مائة من الهجرة.

فلما نزل «السمح» الديار الأندلسية أراد أن يستعين برجال على مستوى المسؤولية فى القيادة العسكرية، والإدارية، خصوصاً فى المهمة التى كلفه بها أمير المؤمنين -عمر بن عبدالعزيز-...، إذ عهد إليه أن يميز الأرض ويخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وكأنها يعاينها.

فسأل «السمح» واستفسر، ودقق واستخبر، وكان من جملة أسئلته: هل فى الناس أحد من التابعين؟؟

وجاءته الإجابة بأن واحداً من التابعين النابيين، من ذوى العلم الغزير والسلوك القويم، والصيت الحسن، ممن تتلمذوا على «عبدالله بن عمر بن الخطاب»... ما يزال بين أظهرنا، وقد نبه ذكره، وحسن مظهره ومخبره، هو «عبدالرحمن الغافقى العكوى»!..

فاستدعاه إليه وحدثه، وسبر غوره وامتحنه، فرآه أعظم وأكبر وأقدر مما وُصف به، وقيل عنه.

وسُر الأمير «السمح بن مالك» مما رأى وسمع...، وعرض على «عبدالرحمن» أن يوليه عملاً كبيراً ومهماً من أعمال «الأندلس»، فاعتذر «عبدالرحمن» بأدب، وأعلن بين يدي السمع أنه إنما جاء إلى البلاد غازياً

مجاهداً... هدفه رضوان الله تعالى، لا يطلب ولاية ولا إمارة، وأنه سوف يكون مع «السمح» أطوع له من ظله...!

وكان «عبدالرحمن» -رضى الله عنه- صادقاً وليس متهرباً من المسئولية، فميدان الجهاد عنده أرفع مكانة من كل منصب، وصهوة الجواد أسمى وأرفع من كل كرسي...!

من خاصة الأمير:

صدقته «السمح» فيما قال، ورضى منه، ولكنه جعله من خاصته، وأقرب المقربين إليه، يستشيريه ويستورره، ولا ينطق بأمر قبل أن يسمع رأيه، خصوصاً في ميادين القتال، ومعامع الحروب والمعارك...، إذ كان «عبدالرحمن» مقداماً جريئاً، وصاحب خطة وتدبير في الحرب والنزال، شهدت له بها المواقع والوقائع.

«السمح» والفتح!

وأراد «السمح» أن ينفذ حلم القائد العظيم «موسى بن نصير»، الذى مات قبل أن يحققه، فيصل مشرق الدولة الإسلامية بمغربيها عن طريق «روما» و«فتح القسطنطينية»، مخترقاً قارة أوروبا...، ويحقق بذلك بشرى رسول الله ﷺ.

إلى فرنسا

وكان هدفه الأول «فرنسا»...!

فأعد العدة لذلك، وحشد قواته، وانطلق على بركة الله، وعبر جبال «البيرينيه» وهى من أصعب الجبال وعورة وعُلُوًّا، وأشدّها مشقة...، وتقع من خلفها -عند سفوحها- أولى المدن الفرنسية: «أربون»، التى كانت غاية فى التحصن، وسدّاً منيعاً فى وجوه الطامعين والطامحين، والتى استعصت على كثير من الغزاة...، فارتدوا عنها.

وصلها «السمح» فحاصرها بقواته، وضيق عليها، وقذف أسوارها بالمنجنيقات، وضغط عليها بهجمات متتاليات، وبعد أربعة أسابيع من الحصار قُتحت «أربون» على أيدي المسلمين، ودخلوها ظافرين، مهللين مكبرين.

وأبدي «عبدالرحمن الغافقي» -رضى الله عنه- ضروباً من الشجاعة والإقدام،
وتدبير الخطط في الهجوم ما لفت إليه الأنظار، وتعلقت به الأبصار، وزاده ذلك
علواً ورفعة في عيني «السّمح» والجند أجمعين .

الأسير - رغباً عنه - !!

وتابع الجيش الإسلامى الظافر زحفه فى الأرض الفرنسية باتجاه «تولوز» -
عاصمة مقاطعة «أوكثانيا» على الساحل الجنوبي من فرنسا، فلما أئوها ضربوا
حولها الحصار، ورموها بقذائف المجانيق تهدم أسوارها وأبراجها، وتسقط عليها
كسفاً من فوقها. . !

وكادت المدينة تقع فريسة للهزيمة الساحقة، ولكن . . . حدث ما لم يكن فى
الحُبان، ولأمر قدره الله تعالى فى علمه وقضاه فى حكمه . . . ، إذ كان حاكمها
قد استنجد بمن خلفه من الأمراء والحكام من كل دول أوروبا، فأتوه مبادرين
زاحفين، ومعهم جيوشهم تملأ الوديان والسهول، حتى إن غبار الأرض من تحت
أقدامهم وسنايك خيولهم كان يتصاعد إلى عنان السماء فيحجب نور الشمس عن
مقاطعة «الرون» كلها!!!

والتقت الجيوش الزاحفة بجيش المسلمين فى ظاهر المدينة، وثبت جند الله
ثبوت الجبال الرواسى، بما ألهموا من صبر وإيمان وفداء . . . !

لكن سهماً أصاب «السّمح بن مالك» - القائد - فى صدره، فخر صريعاً
شهيداً . . . ، إذ كان - رحمه الله - لا يفتأ يتنقل بين كتائب جيشه يحرضهم على
القتال، ويتفقد مواقعهم عن يمين وشمال، وقلب ومقدمة . . . !

رأى الجند قائدهم يسقط، فدب اليأس إلى قلوبهم، والذعر إلى نفوسهم،
وفت فى عضدهم، ووقعت البليلة فى صفوفهم . . . ، ولاحت فى الأفق فوق
رؤوسهم الهزيمة الفاجعة . . . !

لولا أن تداركتهم عناية الله تعالى . . . ، وأبرزت - بل أفرزت - لهم قائداً
شجاعاً محنكاً هو «عبدالرحمن الغافقي»، إذ أعطى أوامره بالاستعداد للانسحاب
بأقل قدر ممكن من الخسائر، وعلى عجل . . . ! ودون تردد ولا وجل . . . !

وأستطاع (الأمير) - رغمًا عنه - أن يرجع بجيش المسلمين إلى الأندلس، دون هزيمة ساحقة، أو إبادة كاملة.

كان الجند يعرفون - حق المعرفة - شخصية «عبدالرحمن» القائد، فالتفوا حوله، وشعروا بشيء من الطمأنينة تعود إلى قلوبهم ونفوسهم، وهو يتقهقر بهم رويدًا رويدًا من الميدان، رغم الجرح الأليم الذى أصابهم باستشهاد «السّمح» والهزيمة التى حلت بهم...، والتى كانت أول هزيمة يلقونها من عدوّهم، منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس.

الأمير - الوالى

لم يكن «عبدالرحمن» - كما قدمنا - يطلب الإمارة والقيادة، لكنه وجد نفسه مبايعًا من الجند...، بل جنديًا يتصدر الموقف رغمًا عنه، فقبل مكرهاً!!! وما إن عاد إلى «قرطبة» حتى تبّلع منشور الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» بإقراره على إمارة الأندلس، والمقاطعات الفرنسية التى بسط المسلمون أيديهم عليها، وإطلاق يده فى إصلاح مختلف الشؤون.

الإدارى والسياسى

اتجه هم «عبدالرحمن» - أولاً - إلى استعادة الجند ثقتهم بأنفسهم، وتحقيق العدل فى المجتمع، والاستعداد للثأر، ومتابعة الفتح...!

وكانت هذه المهام شغله الشاغل، لأن الزلزلة التى أصابت الجند كانت مؤلمة وشديدة، ما تعودوها من قبل...، فأخذ -رضى الله عنه- يصل ليله بنهاره ليزيل آثارها من قلوبهم، بشحذهم وإذكاء الإيمان فى أرواحهم، وتذكيرهم الدائم بنصر الله تعالى لهم.

كما التفت إلى الإصلاح الاجتماعى، لبناء القاعدة السليمة التى ينطلق منها، فلا خير فى أمة مهزومة فى نفوسها، مفككة فى بنائها وتواصلها.

وكان من أعماله فى هذا المجال أن طاف البلاد كلها، من أقصاها إلى أقصاها، يقوم ما اعوج، ويضبط ما نشز، ويصلح ما فسد...!

ونادى فى الناس :

من كانت له مظلمة عند والٍ من الولاة أو قاضٍ من القضاة، أو أحد من الناس، فليرفعها إلى الأمير، لا فرق فى ذلك بين المسلمين وغيرهم من الذميين المعاهدين، وقام بنفسه بالنظر فى الشكاوى والمظالم، يقتص للمظلوم من الظالم، ويقوم ميزان العدل.

ومن أبرز أعماله -رضى الله عنه- أن حقق فى موضوع الكنائس المغتصبة والمستحدثة، فرد ما قضت به الموائيق والمعاهدات إلى أصحابها، وهدم ما بُنى رِشوة..!

وكذلك حاسب الولاة على الأقاليم، والعُمال على المقاطعات، فأقر منهم فى مناصبهم من ثبت له حسن سلوكه، ونصاعة يده، وعزل واستبدل بمن كان ضعيفاً أو منحرفاً غيره من أهل الثقة والكفاءة.

كما أخذ فى الأعمال العمرانية، من تشييد للجسور والقناطر فوق الوديان والممرات الجبلية، لتسهيل حركة الناس فى أمور معاشهم، وتحركات الجيوش أيضاً.، ودعم الحصون والقلاع، وأقام فيها الحاميات، خصوصاً تلك الموجودة على الحدود، أو قريباً منها، لتكون دروعاً واقية تصد غارات العدوان.

وكان لا يتخذ قراراً قبل المشورة، فإذا ما حل ببلد جمع القادة ووجوه الناس، يسمع إليهم ويفهم مطالبهم، ويدون كل ذلك، وقليلاً ما كان يتكلم.

ولم يتوقف فى استطلاعهِ لشؤون المواطنين عند المسلمين فقط، بل كان يجتمع إلى رجال الدين والدنيا من الذميين كذلك، فهم رعايا الدولة، ولهم العهد والميثاق.

لقد كان اهتمامه فى ضمان القاعدة الشعبية جُل غاية وهدفه استعداداً لمعركة الثأر، واسترداد الهبة، وتضميد الجراح، والانطلاقة الكبرى إلى الفتح، وأنفق فى ذلك قرابة الستين من الأعوام.

العين الساهرة:

وكانت عين «عبدالرحمن» الساهرة على الشئون الداخلية للبلاد لا تغفو عن تحركات العدو خارجها، فقد بث العيون والأرصاد ترقب الأحداث وتنقل إليه كل حركة، بدقة وأمانة.

وذات مرة استدعى إليه أحد كبار المعاهدين، من أبناء المقاطعات الفرنسية، وحدثه وتبسط معه فى كل شأن وأمر، حتى أنس إليه ضيفه، ثم سأله فجأة:

- ما بال ملككم الأكبر - «شارل مارتل» - لا يتصدى لحربنا وليس بيننا هدنة ولا معاهدة، وقد حشد من الجند من كل البلاد الأوربية جيشاً جراراً؟؟ لماذا؟؟

فأجابه الضيف:

- أيها الأمير، لقد وفيتم لنا بدمتكم علينا، وعهدكم لنا، فمن حقكم أن نصدقكم القول فى كل ما تسألون عنه وتستفسرون...، إن قائدكم الكبير «موسى ابن نصير» كان قد أحكم قبضته على «إسبانيا» و«البرتغال»، ثم تطلع إلى اجتياز جبال «البيرنية» التى تفصل بين الأندلس وفرنسا، رغبة منه فى احتلال بلادنا...، ففزع حكام الأقاليم والمقاطعات وكبار رجال الدين إلى «شارل مارتل» وقالوا له: ما هذا الخزى والعار الذى نزل بنا ويأحفادنا وكان وصمة الدهر والأبد؟ لقد كنا نسمع بالمسلمين من قبل وما نعبأ بهم، ونصد وثباتهم المتتالية علينا من قبل المشرق، من ناحية «القسطنطينية»، المرة تلو المرة، ونردهم على أعقابهم، ولكنهم الآن قد جاؤونا من حيث لا نحتسب، جاؤونا من قبل المغرب، ووطدوا أقدامهم فى «إسبانيا» وامتلكوا فيها من الذخائر والكنوز، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا لهم تمهيداً...، كيف حدث ذلك وعددهم قليل، وسلاحهم هزيل، وهم فى عيون الأمم ذات الحضارات أهون الناس؟ كيف؟ كيف؟

فقال لهم :

- إن ما يشغلكم الآن قد شغلنى من قبل، وقد فكرت فيه طويلاً، ورأيت أن لا نتعرض لهؤلاء القوم فى وثبتهم الآن، فإنهم فيها كالسيل المتدفق الجارف، يأخذ

فى طريقه كل ما يعترضه، بل يقتلعه من جذوره، ويلقى به حيث يشاء، وهم فى عقيدتهم التى يعتقدون أقوى وأصلب من كل القلاع والحصون، والدروع والرماح... وكل سلاح، فأمهلوهم إلى حين، إلى أن تمتلئ أيديهم بالغنائم، ويخلدوا إلى القصور والدور، ويتخذوا الخدم والحشم، ويتنافسوا على الدنيا بكل متاعها وزخرفها، عندئذ - فقط - تكون لكم الغلبة عليهم، وهزيمتهم^(١).

كان «عبدالرحمن» - على عادته - يسمع ولا يتكلم، وينصت ويصغى باهتمام شديد، فقد كانت إجابة «شارل مارتل» للسائلين حقيقة لاريب فيها..!

ثم تنهد تنهيدة عميقة، وزفر زفرة شديدة أودعها كل آلامه وأحزانه، وهب واقفاً قائلاً: - حى على الصلاة، فقد آن أوانها، ووجب وقتها، ونسأل الله تعالى العافية.

ولا يفوتنا هنا - عزيزى القارئ - أن ننوه بأمر ذى بال، فقد كانت هذه الأعمال والاستعدادات خلال الولاية الثانية لـ «عبدالرحمن الغافقى»، أمير الأندلس، فأما الأولى فقد علمنا ظروفها، إذ كانت بعد استشهاد «السّمح بن مالك» فى معركة «تولوز».

ولقد مرَّ على «عبدالرحمن» عشر سنوات، كان أثناءها قائداً عادياً، من سنة (١٠٣هـ)، حتى سنة (١١٣هـ)، فقد تقلب على منصب الأمير الوالى أكثر من شخص، وقليلًا ما انطلقت الجيوش إلى أهدافها فى الفتح، وعمت الفوضى والضعف... حتى كان عهد الخليفة «هشام بن عبدالملك» الذى أصدر مرسومًا بإعادة «عبدالرحمن» إلى الإمارة مرة ثانية.

ولقد وصفه المؤرخون فقالوا:

(كان «عبدالرحمن» جنديًا عظيمًا، وحاكمًا قديرًا بارعًا فى شؤون الحكم والإدارة، ومُصلحًا كبيرًا يضطرم رغبة فى الإصلاح، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس، وأقدرهم جميعًا)^(٢)

(١) (دولة الإسلام فى الأندلس) - محمد عبد الله عنان - (ج: ١) (ص: ٨٤).

(٢) (نفع الطيب) (ج: ١) (ص: ١٢٩).

إلى الفتح ..!

لم ينس «عبدالرحمن» عهده مع الله تعالى، منذ أن نزل الأندلس، ومشت قدماه على أرضها، وأن يكون طوال حياته مرابطاً في سبيل الله: ..، وأنى للمؤمن الصادق أن ينسى ..؟! .

ولم ينس أيضاً عهده لـ «السّمح بن مالك» أن يثار له من عدوه ..! .
فلما أتم استعداداته، واستوثق من حال البلاد والعباد، واطمأن إلى سلامة ومثانة الجبهة الداخلية، نادى في الناس: حى على الجهاد!!

واستعان ببعض الجند من والى إفريقية، فأمدّه ..، كما أرسل إلى أمير الثغور عثمان بن أبي نسعة» يأمره أن يشاغل العدو بغاراته حتى يقدم عليه.

ومن قبل «ابن أبي نسعة» كانت الفجوة ومكمن الخطر ..!

إذ كان هذا الأمير ساقط الهمة، مريضاً بالحق، أضف إلى ذلك أنه كان قد أسر ذات يوم ابنة «دوق - أوكتانيا»، فتزوجها ..، وكانت ذات حسن وبهاء، .. ودهاء، فاستطاعت - وقد خلبت لُبّه وعقله - أن يكون لها التأثير الكامل عليه، حتى عقد معاهدة مع أبيها وصالحه وأمنه.

فلما جاءه أمر الأمير «عبدالرحمن» بالزحف والمشاغلة، توقف حيران لا يدري ماذا يفعل ..!!! وزينت له زوجته أن يرفض الأمر .. فأطاعها، وكتب إلى «عبدالرحمن» يقول إنه لا يستطيع أن ينقض عهده مع «دوق-أوكتانيا»، حتى يتم الأجل.

غضب «عبدالرحمن» من تهاون واستخذاء «ابن أبي نسعة» غضباً شديداً، ووجه إليه كتيبة من أشد فرسانه مضاءً وعزيمة، وأمرهم أن يأتوه بهذا الخائن، حياً أو ميتاً، وقد عُرِف أن هذا الغادر قد راسل «دوق-أوكتانيا» وحذره من قدوم «عبدالرحمن» عليه.

فلما أحس «ابن أبي نسعة» بالخطر، فرّ ومعه فرسانه وزوجته، وتحصن في رؤوس الجبال، فتبعه فرسان «عبدالرحمن»، ووقعت بين الطرفين معركة رهيبة، سقط على أثرها الخائن صريعاً، فاحتزت رأسه وحملت إلى «عبدالرحمن» .. .

ومعها زوجته الحسنة «مينين»، فأرسلها «عبدالرحمن» مخفورة إلى الخليفة «هشام ابن عبدالملك» في «دمشق» .. !

وهكذا .. سدَّ «عبدالرحمن» هذه الثغرة، ودرأ عن نفسه الخطر، وبات يستعد للزحف المقدس. ومع مطلع عام (١١٣هـ) انطلق «عبدالرحمن» بجيش من الأندلس باتجاه فرنسا ..

انطلق قائداً، وعاد شهيداً .. !

خرج يحدوه الأمل بالظفر والنصر والثأر .. !

ولكن تكرّرت مأساة «أحد» في «بلاط الشهداء» .. ! فكيف كان ذلك؟؟

الخروج العظيم

انطلق «عبدالرحمن» بجيشه اللجب الذى زاد على مائة ألف من المقاتلين الشجعان، متجهاً شمالاً قاصداً مقاطعة «أكوتين»، حيث خصمه اللدود «أودو»، وبلغت مسامع «الدوق» أنباء هذا الزحف، فاستعدّ للقاء «عبدالرحمن»، وقد تراءت له واقعة مقتل صهره «ابن أبى نسعة»، ووقوع ابنته «مينين» أسيرة، وانتقالها إلى دار الخلافة في «دمشق» جارية من الجوارى .. ، وازداد خوفاً أن يكون مصيره كواحد منهما، فتحصن وتأهب، وحشد كل ما يستطيع حشده.

اخترق «عبدالرحمن» ولايتى «أراجون» و «نافار» وانحط كالسيل الجارف من فوق جبال «البيرينيه» عن طريق «بنبلونة» ودخل الأراضى الفرنسية فى ربيع عام (١١٤هـ)، وكان أول توجهه إلى مدينة «آرل» الواقعة على نهر «الرون»، إذ نكصت هذه المدينة على عقبها، وتخلفت عن دفع الجزية بعد استشهاد «السّمح ابن مالك» فى «تولوز» .. ، فأراد «عبدالرحمن» تأديبها وقهرها.

فلما أتاها وجد «دوق أكوتين» - أودو - قد استعد له وتصدى، فجرت بين الطرفين معركة هائلة، انهزم فيها «الدوق» وفرّ هارباً من الميدان بما بقى معه من فلول جيشه وقواته، ودخل «عبدالرحمن» المدينة - مدينة «آرل» واستولى عليها حربياً، وغنم كثيراً من الغنائم التى لا تحصى ولا تعد .. !

ثم زحف غرباً وعبر نهر «الجارون»، وانتشر الجيش الاسلامى الظافر فى أنحاء مقاطعة «أكوتين» يشخون فى مَدنها وبساتنها، ويحققون النصر تلو النصر، فجمع «الدوق» فلوله، وحاول أن يتصدى من جديد لزحف «عبدالرحمن»، لكنه ما لبث أن انهزم هزيمة ساحقة ماحقة.

يقول «إيزيدور الباجى»، والله وحده يعلم كم قُتل فى تلك الموقعة من النصارى!!!

واستولى «عبدالرحمن» على مدينة «بورديو» بعد حصار قصير، وفرّ «الدوق» أودو» فراره النهائى، وبذلك تم فتح مقاطعة «أكوتين» كلها.

ثم ارتد «عبدالرحمن» نحو نهر «الرون» فاخترق «برجونية» واستولى على «ليون» و«بيزانسون» ووصلت طلائع قواته إلى «سانس» التى كان بينها وبين «باريس» مائة ميل فقط...!

وتعد هذه المناطق كلها نصف فرنسا الجنوبي، وقد تم لـ «عبدالرحمن» الاستيلاء عليها فى مدة وجيزة كانت تقدر ببضعة أشهر فقط!!

ويحدثنا المؤرخ «إدوارد جيبون» فيقول:

(وامتد خط الظفر مدى ألف ميل، من صخرة «طارق» إلى ضفاف نهر «اللوار»، وقد كان اقتحام هذه المسافة يكاد يحمل العرب إلى حدود «بولونيا»، ورُبى «اسكتلندا» فليس نهر «الراين» بأمنع من «النيل» و«الفرات»، ولعل أسطولاً عربياً كان يمكنه أن يصل إلى مصب نهر «التايمز» دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد «أكسفورد»، وربما كانت منابرها تؤيد لـ «محمد» ﷺ صدق الوحي والرسالة!!!) أ.هـ.

تلك هى صورة الزحف الذى قام به «عبدالرحمن الغافقى» فى عيون الغرب، وتصورات انعكاساته على تلك الفترة التاريخية.

النفير فى أوروبا !!

وأطلق النفير فى كل دول أوروبا يستصرخ همم الناس لصدد تيار الإعصار الإسلامى الزاحف، وأخذت الحشود تتجمع من هنا وهناك، تحت قيادة «شارل مارتل»، ولاح فى الأفق بوادر معركة هائلة لم يشهد لها التاريخ من قبل مثلاً. ويصف الشاعر الإنجليزى «سودى» جموع المسلمين وحماسهم وحميتهم واندفاعهم فيقول:

[جمع لا يُحصى ...

من شام وعرب وبربر، وروم وخوارج

وفُرس وقبط وتتر ... عصابة واحدة

يجمعها إيمان هائم راسخ القوة

وحمية مضطربة، وأخوة مروعة

ولم يكن الزعماء أقل ثقة بالنصر ...

وقد شمعخوا بطول الظفر

يتيهون بتلك القوة الجارفة

التي أيقنوا أنها - كما اندفعت .. جيشاً كانوا بلا منازع

ستندفع ظافرة إلى الأمام

حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق

يطأطن الرأس إجلالاً لاسم «محمد» ﷺ !!

ينهض الحاج من أقصى المتجمد ليبدأ بأقدام الإيمان الرمال المحرقة ...

المنشرة فوق صحراء العرب

وأراضى «مكة» الصلدة ...]

وكان جيش «شارل مارتل» الضخم خليطاً من مختلف العشائر «الجرمانية» المتوحشة، والعصابات الأوروبية المرتزقة، جله جند غير نظاميين، نصف عراة، يتشحون جلود الذئاب، وتسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم العارية.

اللقاء...!

ويصف لنا المؤرخون ذلك اللقاء بين «عبدالرحمن الغافقي» وبين «شارل مارتل» فيقولون: انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي «بواتيه» و«تور»، وكان المسلمون قد استولوا على المدينتين واستخرجوا كنوز كنائسها وقصورها وأديرتها.

وعند نهر «الوار» كان «شارل مارتل» قد وصل قبلهم، ولم يشعروا به إلا وهو أمامهم بجموعه الجرارة، وقدّر «عبدالرحمن» خطورة هذا الجمع الغربي الحاشد، فارتد إلى السهل الواقع بين «بواتيه» و«تور» وعسكر هناك.

وكان الجيش الإسلامي في حال تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت هذه القبائل تتوق إلى الانسحاب، ناجية بغنائمها الكبيرة الكثيرة.

وكان المسلمون - في الواقع - قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، وغنموا كنوز أديرتها وكنائسها، وأثقلوا بما لا يعد ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبي...!

فكانت هذه الأثقال النفيسة تُحدث الخلل في صفوفهم، وتثير النزاعات.

وقدّر «عبدالرحمن» خطورة هذه الغنائم على نظام جيشه وأهبطه، وحاول - عبثاً - أن يحملهم على ترك شيء منها، والتخفف من وطأتها، ولكنهم كانوا في حرص شديد عليها، ولم يقسروهم على ذلك... خشية التمرد!! ومع كل هذا صمم «عبدالرحمن» على خوض المعركة، بعزم وثقة، ووضع خطته للقتال، وتأهب لذلك.

من «أحد» إلى «بلاط الشهداء»...

وكما كانت غنائم قریش يوم «أحد» ... وتخلی الرُماة عن مواقعهم، ومخالفتهم أوامر الرسول ﷺ سبيًا في الهزيمة، ويدل ميزان المعركة ... كان - أيضًا - معسكر الغنائم في المواجهة بين جيش المسلمين بقيادة «عبدالرحمن الغافقي»، وجيش الفرنجة بقيادة «شارل مارتل» سبيًا في نكبة أليمة ... وهزيمة مرة ...!

بدأ القتال، وكان ذلك في أواخر شهر شعبان سنة (١١٤هـ). واستمرت المعارك بين الطرفين على مدى سبعة أيام، دون أن يحقق أحد الطرفين نصرًا ... أو غلبة.

وفي اليوم الثامن نشبت معركة عامة، اشتبكت فيها كل قوات الطرفين ... واشتدت ... وحمى وطيسها حتى جن الليل، وفصل بينهما الظلام.

ومع فجر اليوم التالي استؤنف القتال، أشد ضراوة، حتى ظهر الإعياء الشديد على جيش «شارل مارتل»، ولاحت بوادر النصر الإسلامي ... ورجحت كفة جيش «عبدالرحمن» ...

وفجأة ... سُمع صوت يقول بأن معسكر الغنائم يوشك أن يقع في أيدي العدو، فارتد أكثر الفرسان من قلب المعركة إلى الصفوف الخلفية لحماية الغنائم ...!

وهكذا حدث الخلل الكبير في صفوف المسلمين، وتضعف تماسكهم، وانقلب اندفاعهم وهجومهم ارتدادًا ...!

وعبثًا حاول القائد «عبدالرحمن» أن يُعيد النظام إلى صفوف قواته وجيشه، ويهدئ من روع جنده ...!

وبينما هو يتنقل هنا وهناك فوق جواده، أصابه سهم في صدره، فسقط عن الصهوة أرضًا، ولفظ أنفاسه الطاهرة، شهيدًا في سبيل الله.

وارتد جيش المسلمين تحت جنح الليل مخلّفا وراءه آثار أعظم معركة وأخطرها -
فى تاريخ الفتح الأندلسى، من غنائم وأسلاب . . . شهداء!!!
وقد عُرِفَت تلك المعركة بـ «معركة بلاط الشهداء».

رحم الله تعالى التابعى الجليل، القائد الفاتح «عبدالرحمن الغافقى» وبوأه من
الفردوس الأعلى أسمى منزلة، وأرفع مقام.

١٦- السمح بن مالك

حيثُ إننا قد خضنا معاً أنباء الفتح الإسلامي لـ «الأندلس»، وعاشنا لبضع سنوات قليلة جهاد «طارق بن زياد» والشيخ المجاهد - بطل الأبطال - «موسى بن نصير» -رحمهما الله-، فإنه من الواجب علينا أن نتابع أنباء الفتح مع الذين خلفوهما، والذين لا يقلون عنهما جهاداً ونشراً للإسلام فى تلك الديار، وتثبيت أركان الوجود الإسلامى هناك.

وبطلنا اليوم «السمح بن مالك» أحد أعلام الفاتحين الذى خضبوا بدمائهم الزكية تربة تلك الديار!

«عبدالعزیز موسى بن نصير»

بعد رحيل «موسى بن نصير» و«طارق بن زياد» عن الأندلس إثر استدعاء الخليفة «الوليد بن عبدالمك» لهما إلى «دمشق»، ترك «موسى» ابنه «عبدالعزیز» والياً على «الأندلس» خلفاً له...، وكان من شأن «عبدالعزیز» حسن جهاده وعظيم بلائه، واتساع فتوحاته، مما أهله لأن يكون والياً بجدارة.

وبقى «عبدالعزیز» فى مقام الولاية مدة عامين، وقد أقره فيها الخليفة الجديد «سليمان بن عبدالمك».

إلا أن ظروفًا متضاربة، وغامضة - أحياناً - أحاطت بسلوكه فى الإدارة، أدت إلى الثورة عليه، تزعمها وزيره «حبيب بن أبى عبدة الفهرى»، فقتل وهو يصلى فى أحد مساجد «إشبيلية» - فى شهر «رجب» سنة (٩٧هـ)، وبعثوا برأسه إلى «دمشق».

«فتنة غامضة»

ولقد قيل فى هذا الصدد روايات كثيرة، أكثرها يوجه الانهمام إلى الخليفة «سليمان بن عبدالمك»، وأنه وراء هذا التدمير الشنيع، تخلصاً من «موسى» وذريته...!

وتحن لا غيل إلى ذلك . . . نظراً لما كان عليه حال التنافر بين العرب والبربر - في الأندلس، بل التنافس بين العرب أنفسهم، وقد انبسطت لهم أرض «الأندلس»، وتم لهم الاستيلاء عليها.

تعدد الولاة على «الأندلس»:

وعلى أثر مقتل «عبد العزيز» اتفق الزعماء والرؤساء في «إشبيلية» على تولية «أيوب بن حبيب اللخمي» - ابن أخت «موسى بن نصير» - وكان عاقلاً حكيماً، صالحاً في دينه وخلقه، فهدأت الخواطر، ونقل مقر الولاية من «إشبيلية» إلى «قرطبة».

لكن ولايته لم تدم أكثر من ستة أشهر، فقد عزله والى الشمال الإفريقي، وعين بدلاً منه «الحرب بن عبدالرحمن الثقفي»، فقدمها في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . . . وصرف أكثر وقته في قمع الفتن والمنازعات التي كانت بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة، وتوطيد الأمن، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة.

والملاحظ أن «الأندلس» كانت حتى ذلك الحين تتبع والى «إفريقية»، ولا سلطان للخلافة المركزية في «دمشق» عليها.

غزوات «الحرب»:

استعد الحرب بعد أن ضبط الوضع الداخلي - للغزو، ومتابعة الفتح، فسار نحو الشمال في جيش ضخم، ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال «البيرويه»، فاخترق ولاية «سبتمانيا» - «لانجدوك» - في ربيع سنة (٩٩هـ)، فاستعاد مدن «قرقشونة» و «أربونة» و «بنريه» و «نيمه» . . . وتابع زحفه حتى بلغ نهر «الجارون» . . . !

لكنه اضطر للعودة . . . لسببين:

أولهما : أن النصاري في منطقة «نافار» الجبلية قد نظموا حركة مقاومة خطيرة . . . !

وثانيهما: عودة الاضطراب الداخلي في قرطبة . . . !

ولقد أنفق «الحُر» وقتًا طويلاً في قمع الفتن، في محاولة يائسة لإعادة الأمن إلى ربوع البلاد.

في ذلك الحين، كان الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قد مات وولى مكانه الخليفة الراشد «عمر بن عبدالعزيز» -رضى الله عنه-.

وكان أول أعماله أن ألغى تبعية «الأندلس» إلى والي «إفريقية» وألحقها بـ «دمشق» مباشرة، كما كان له رأى في الوجود الإسلامي في «الأندلس»، حتى إنه فكر بالتخلي عنها، إشفافاً على أرواح المسلمين في ديار الغربة...، لكنه اقتنع من مستشاريه المخلصين بضرورة الفتح ونشر راية الإسلام.

تم عزل «الحُر بن عبد الرحمن الثقفي» -وعين بدلاً منه «السَّمح بن مالك الخولاني».

إطلالة «السَّمح»:

لم يكن اختيار «عمر بن عبدالعزيز» -رضى الله عنه- للرجال المسؤولين عفوياً، أو لقرابة أو مصلحة، فقد كان رجلاً يعرف أقدار الرجال، ويزنهم بميزان الإيمان والإسلام، والقدرة على تولى الأمور، بحزم وعزم وكفاءة.

ولقد توفرت في «السَّمح بن مالك» كل المزايا، في الإدارة والقيادة، إذ لم يكن والياً مصلحاً حازماً عادلاً فقط، بل كان قائداً ميدانياً عظيماً، شهدت له بذلك كل المسئوليات التي أوكلت إليه من قبل، في ساحات المعارك.

قدم «السَّمح» إلى الأندلس في شهر رمضان من سنة مائة للهجرة (١٠٠هـ)، مزوداً بنصائح الخليفة الراشد، واضعاً نصب عينيه أن يتبع الرفق والعدل.

فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة، وكان أول أعماله قمع المنازعات، وإعادة اللحمة بين أفراد الشعب والجيش، والقضاء على العصية العربية والبربرية، ثم أخذ في إصلاح الإدارة، فعزل من عزل من الولاة وولى من ولى...، عزل الفاسد وولى الصالح.

وأعطى اهتمامه الفائق للجيش، عدة وعدداً وسلاحاً وقيادات، لأنه الأداة -
والسيد في بسط السلطان، وردع المعتدين، وتحرير الأرض، والانطلاق في
الفتح...!

السياسات الزراعية:

الأندلس أرض ذات تضاريس مختلفة، من جبال ووديان وأنهار وسُهل،
وكلها تؤتي أكلها خيرات وعطاءات وفيرة.

ولم تكن - حتى ولاية «السّمْح» - قد خُمّست، أى حُصرت وحددت،
وفرض الخمس على خراجها، وقد فتحت عنوة.

ويحدثنا أحد المؤرخين - من الأسبان^(١) - عن ذلك العمل الإصلاحي فيقول:

(لقد ترك الفاتحون «المسلمون» للأسبان الذين أسلموا - أو خضعوا - سواء
كانوا جنداً أم نبلاء، حقوقهم في ملكية أموالهم، كلها أو بعضها، مع فرض
ضريبة عقارية مشابهة للخراج «الجزية»، على الأراضي المتزرعة، والأشجار
المثمرة، واتبعت هذه القاعدة مع بعض الأديار...) مما يؤكد سماحة الإسلام في
التعامل مع غير أهله!!!

(وأما ما زاد عن الخمس في الأراضي التي استولى عليها «المسلمون» الفاتحون،
فقد وزّع «بالعدل» بين الرؤساء والجند، والقبائل التي يتألف منها الجيش،
الولايات الشمالية لقبائل البربر، والجنوبية لقبائل العرب).

وعليه... فقد أعطت الزراعة - من خلال هذه السياسة العادلة - دفقاً عظيماً
من الثروة، انعكست على بيت المال وعلى الأفراد، على حد سواء.

القنطرة...!

أو قنطرة «السّمْح»... التي لاتزال إلى يومنا هذا أثراً قائماً، شاهداً على
أعمال «السّمْح» الإصلاحية العمرانية.

(١) (التاميرا). R.Altamira. Historiade Espana V.(I) P.217 - 218.

لقد رأى فى بعض جولاته التفقدية للبلاد أن نهر (الوادى الكبير) يحجز بين المقاطعات، ويعيق التحركات، ويؤثر سلباً على حرية وسرعة التنقل، فأرسل إلى الخليفة الراشد فى «دمشق» يعرض عليه الأمر ويستشير فى بناء قنطرة (جسر) فوق النهر، يصل بين طرفى الوادى، ويسهل وينظم!! يسهل الحركة، وينظم تدفق المياه الغزيرة.

فانشرح صدر الخليفة لذلك ووافق على العمل العظيم...!

فأعدت الخرائط والرسومات، وتطوع المهندسون والعمال، وبُذِلَ المال...، وتم إنشاء القنطرة، وهى ماتزال تحمل اسم «السّمح» إلى يومنا هذا، وتؤدي عملها...، ولو مع تحريف الاسم «السّمح»، إذ يكتبه الفرنجة فى تواريخهم، ويلفظونه «زيمّا: Zima»

الجبهة الداخلية:

وفى مدة وجيزة لاتزيد على السنة، استطاع «السّمح بن مالك» من خلال روحه الوثابة وإرادته القوية، وشخصيته الفذة، وعقله النير...، أن يكون الجبهة الداخلية المثينة المتماسكة، وتزدهر البلاد ازدهاراً عظيماً.

ولولا هذا البناء الأساسى لما استطاع أن يقوم بأعمال الفتح العظيمة...!

انطلاقة «الفتح»!!

لقد كان «السّمح» - رحمه الله - فوق كفايته الإدارية - التى عرضت لها - جندياً جريئاً، وقائداً عسكرياً عظيماً، يُحسنُ إدارة المعارك، ويخوض المعامع، ويتقدم الجند، ويعطى المثل الأعلى فى الجهاد والبذل والتضحية... فى سبيل الله.

فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح، تأهب لاستئناف الغزو والفتح، وتوطيد سلطان الخلافة...، خاصة فى الولايات الجبلية، والقواعد الشمالية، التى لم يستطع سلفه «الحُر بن عبد الرحمن الثقفى» أن يخضعها أو يستعيدها.

فرحف أولاً على ولاية «لانجدوك» - وتُعرف بـ «سبتمانيا» - في جيش ضخم، يضم جماعات كبيرة من الزعماء والقادة، العرب والبربر. فاخترق سلسلة جبال «البيرنيه»، من ناحية «روسيون»، وهي الحدود الفاصلة بين «إسبانيا» وفرنسا - حالياً - .

وخاض عدة معارك وكان في زحفه هذا كالريح العاصف تدمر أمامها كل شيء، فلم تستطع كل القوى والجيوش التي تصدت له أن تحجزه عن غايته. فاستعاد مدن «أربونة» و «قرقشونة»، ومعظم قواعد وحصون مقاطعة (لانجدوك) - سبتمانيا، وعاث في تلك الأنحاء، يميناً وشمالاً، وقد تم له ذلك سنة إحدى ومائة للهجرة (١٠١هـ) وفي مدة وجيزة.

ويقول بعض المؤرخين^(١) عن تلك الحملة:

[إن العرب اجتاحوا - يومئذ - «غاليس القوطية»، وجميع قواعد «سبتمانيا»]^(٢)

المتابعة:

بعد هذه الانتصارات المتوالية، والتي أكسبت «السّمح» ومن معه من القادة والجنود ثقة كبيرة، قرر متابعة الزحف شرقاً - أيضاً - قاصداً مملكة الفرنج (أكوتين) . . . !

وهي المرة الثالثة التي يغزو فيها العرب «فرنسا» .

فرحف بجموعه نحو عاصمتها «تولوشة» - تولوز-، باندفاع قوية كالسيل الجارف، لا يقف في وجهه حاجز ولا مانع.

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن هذه الغزوة أن نلقى نظرة على ما فعله القائد (الوالي) في ولاية «سبتمانيا» . . !

(١، ٢) (إيزيدور الباجي): Dom Vissette: Ibid. V(1) P(781)

لم يكن قصده الغزو فقط، واستلاب المغنم، والاستحواذ على الخيرات، بل الفتح ونشر الإسلام، وبسط السلطان، وتمكين الأيدي من تلك الديار.

فلقد أقام في الولاية حكومة إسلامية مركزية، لها إدارتها ونظامها، ووزع الأراضي بين العرب وسكان تلك البلاد الأصليين، وفرض الجزية على النصارى من أهلها، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم، ولم يتعرض لكنائسهم وأديرتهم، وأقام المساجد للعبادة، حتى اتسمت الولاية، من خلال صورتها العامة، كأنها ديار إسلامية.

فلما تم له ذلك زحف نحو مملكة الفرنجة في «أكوتين».

وهذا - ولا شك - شأن القائد الفاتح الذي يضع نشر الدين الحنيف في طليعة اهتماماته، ولا شيء غير ذلك، لا يستعمر ولا يستغل...!!

دوق «أودو» - ملك «أكوتين»:

وكان دوق «أودو» - ملك «أكوتين» أقوى أمراء الفرنجة في منطقة «غاليا» - غاليس - وأشدّهم بأساً، وقد استطاع أن يقضى على أكثر خصومه ويستقل بتلك الناحية، وقد التفت حوله قبائل «النافار» - «القوط» و«البشكنس» -، مما حفزه إلى أن يعدّ العدة لتوسعة رقعة سلطانه، والتخلص من باقي أعدائه وعلى رأسهم «شارل مارتل» - خصمه اللدود.

خطر الزحف العربى:

لكن خطر الزحف العربى على بلاده بقيادة «السّمح بن مالك» جعله يصرف النظر عن طموحاته، ويستعد لرد العدوان. ولقد أهل أطراف مقاطعته (مملكته) بالحصون والجند من قبائل «البشكنس» و«الغسكونيين» وزودهم بالعتاد والسلاح.

الصدام:

وواجه «السّمح» جموع الأعداء الفرنجة في أكثر من موقعة ومعركة، واستطاع أن يدحرهم جميعاً، ويشتتهم، ويستولى على ما خلفوه وراءهم من قرى ومزارع

وضياع وأموال وأسرى...! ثم تابع زحفه المؤزر باتجاه «تولوز» العاصمة، التي كانت مقصده - كما سبق وقدمنا - .

خروج الدوق «أودو»:

لم يأس الدوق «أودو» من سلبات الهزائم التي منيت بها طلائعه، فقد كان وافر العزم شديد البأس، صلب الإرادة، فنفخ في الناس روح المقاومة فاستجابوا له...، وخرج بجموع لا حصر لها للملاقاة «السّمح»...! وقد زادت كثرة كثيرة على قوات المسلمين.

علم «السّمح» بكل ذلك فارتد عن «تولوز» إلى سهولها وبساتينها، واستعد للملاقاة «أودو» وجيشه الضخم، الوافر العدة والعدد... غير مبالٍ بقلّة جنده.

المعركة:

ونشبت المعركة في سهول «تولوز» عنيفة قوية دموية...!

وسالت الدماء غزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون - رغم قلتهم - شجاعة خارقة، وثبتوا في وجه عدوهم ثباتاً عظيماً...، حتى إن النصر تراوح بين الفريقين...، ودامت أياماً طوالاً.

«السّمح» الشهيد...!

وبينما كان القائد البطل «السّمح» بن مالك الخولاني يتقدم الصفوف، ويخوض القتال، لا يُبالى بالرمح أو السيف أو الحراب، ويحفز الجند على الثبات، ويصيح فيهم: حي على الجهاد...! رمى بسهم، فأصابه في مقتل، وسالت دماؤه...، وسقط الفارس عن جواده...، ولفظ أنفاسه، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها.

عندئذ اختل نظام الفرسان المسلمين، وتضعفت قوتهم، ووقع الاضطراب في الجيش كله...

وبدأت عملية الارتداد والانسحاب.

وعلى الفور اختار الجند قائداً من بينهم، كفوّاً...! وزعيماً مشهوداً له.

هو البطل الفاتح «عبدالرحمن الغافقى» !...

وأجمعوا عليه والتفوا حوله، واستطاع «عبدالرحمن» أن يرتد بفلول الجيش الإسلامى المنهزم، نحو الجنوب، ويللم صفوفه، ويحمى قواته، حتى بلغوا «سبمانيا».

وكان أن أجمع الزعماء من رؤوس الجند والعشائر على ولاية «عبدالرحمن الغافقى» بدلاً من «السّمح» الشهيد - مؤقتاً - ريثما يأتى أمر الخليفة من «دمشق» باسم الحاكم والوالى الجديد.

رحم الله تعالى «السّمح بن مالك الخولانى»، البطل الشهيد، والجندى العنيد، والقائد الفارس العتيد، الذى خضب بدمائه الزكية الطاهرة سهول «تولوز» من أرض «فرنسا». شهادة طيبة له عند الله تعالى.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٧- عبدالرحمن الناصر

لو قُدِّر لك ذات يوم أن تزور الأندلس (إسبانيا) - الفردوس المفقود - لرأيت من آثار العرب والمسلمين فيها عجباً عجائباً.

ومن أشد ما يلفت نظرك ويستولى على مشاعرك، وتقف عنده طويلاً، متأملاً متذكراً... «قصر الزهراء» و«المسجد الجامع» في «قرطبة»، ومن خلالهما تدرك مدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في تلك الأيام، وقد كانت «أوروبا» كلها غارقة في ظلمات الجهل.

هذا... فضلاً عما تفتقت عنه القرائح والعقول في ميادين الثقافة والعلوم، وسطرته الأقلام في الطرس، فغدا تراثاً فكرياً نهلت منه «أوروبا» حتى ارتوت... واتخذته من ثم قاعدة وأساساً لنهضتها... حتى المعاصرة!!

وما من شك أبداً أن عصر «عبدالرحمن الناصر» الذي امتد خمسة عقود من السنين كان أزهى وأعظم عصور الأندلس على الإطلاق.

يشهد بذلك التاريخ والمؤرخون، على مختلف اتجاهاتهم ونزعاتهم، إنصافاً وعدلاً، وإحفاً للحق.

ومن هنا... كان لابد لنا من تسجيل اسم «الناصر» - عبدالرحمن - في لائحة شرف أبطال الفتح الإسلامي...

ولقد كان «الفتح» - عنده - على أكثر من جهة، وفي أكثر من ميدان.

ونحن نحاول - بإذن الله تعالى - أن نحيط بشخصه وأعماله وآثاره، ونقدمها لك نموذجاً ولو في عُبالة... ذلك أن الحديث عنه يقتضى مجلدات، ولا يسعنا ذلك، والله الموفق.

خفيـد «صقر قريش»

هو: «عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن» - الداخل، صقر قريش.

وهو ثامن أمراء بنى أمية فى الأندلس.

و«صقر قریش» هو اللقب الذى أطلقه «أبو جعفر المنصور» -العباسى- على «عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك»، الذى نجا من فتك العباسيين، وفرَّ إلى «الأندلس» هارباً، واستطاع بذكائه ونشاطه وشجاعته وفروسيته أن يؤسس الدولة الإسلامية الأموية فى الأندلس، ويتنافس ملك العباسيين فى المشرق، ولقد عدّه المؤرخون أحد عظماء العالم.

والملاحظ -القارئ العزيز- فى سلسلة النسب أن ثلاثة من أصحابها كان اسمهم: «عبدالرحمن»، الأكبر وهو «صقر قریش»، والأوسط وهو «عبدالرحمن ابن الحكم» والأصغر وهو «عبدالرحمن» -الناصر- صاحب حديثنا اليوم. ولّد «عبدالرحمن» فى الثانى والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين ومائتين للهجرة (٢٧٧هـ)،

وكذ يتيماً...!

فقد مات أبوه «محمد» قبل ولادته بواحد وعشرين يوماً، فتعهده جده «عبدالله» وأفاض عليه من حبه وعطفه ورعايته، وكان كثير الخنو عليه. أما أم «عبدالرحمن» فقد كانت من سبى الفرنجة، نصرانية غسלונית، تدعى «مارية»، وتسميها الروايات العربية: «مزنة»، فهى أم ولد.

نشأته

نشأ -كما عرفنا- فى كنف جده... الذى أحاطه بكل مشاعر حبه، وتولى تربيته...، وما كاد يبلغ أشده حتى تكشفت مواهبه، فأبدى فى مستهل عمره امتيازاً وتفوقاً، وتجلت براعته فى النحو والشعر والتاريخ، وأظهر استعداداً ملحوظاً فى فنون الحرب والقروسية، بعد أن حفظ القرآن ودرس السنة الشريفة.

وارث العرش

كل ذلك أهله لأن يكون موضع تطلع جده إليه فى وراثة العرش من بعده، فكان يرشحه لمختلف المهمات، أو يقعده مقعده فى المناسبات والأعياد ليسلم الجند

عليه، ويألفوا طاعته. وقيل إن الجلد في مرض موته رمى إليه بخاتمه إشارة إلى الاستخلاف...!

وتوفي الجلد «عبدالله» ليلة الخميس في مُستهل ربيع الأول سنة ثلاثمائة للهجرة (٣٠٠هـ)، وعلى الفور بويع «عبدالرحمن» بالإمارة دون منازع أو طامع، بإجماع لم يسبق له نظير من أفراد العائلة الأموية، كبيرها وصغيرها، مقدرين في «عبدالرحمن» مواهبه وحُسن سلوكه وقوة عزمه ورجاحة عقله.

وأى عرش...؟

كانت البلاد الأندلسية -في حينها- تفور بالفتن والاضطرابات والفتن، وتضطرع فيها الجنسيات والولاءات...!

فمن عرب يتنازعون السلطة القبلية، قيسية ومضرية ويمانية، ومولدين تتجاذبهم نزعاتهم العنصرية، وبربر يشدد خلافهم العشائري، ويظنون أنهم أهل المعارك والحروب، وأصحاب الميادين، وبهم كان الفتح والنصر، فهم أولى من غيرهم بالسلطان...، ونصارى من أهل البلاد قد ظلوا على دينهم وعقيدتهم، يحسون أحياناً كثرة الغبن والتمييز، وسوء المعاملة، وبعضهم قد أسلم أهله -أجداده وأبائهم- فوجدوا أنفسهم مسلمين بالتبعية...، ولكنهم في دخائلهم وأعماق نفوسهم يحنون إلى أصولهم، ويميلون عند انتهاز الفرص، كاشفين الستر عن وجوههم...! وممالك نصرانية على الحدود، تقفز بين الحين والحين إلى أطراف الديار الأندلسية، أو إلى قلبها، لتستعيد ما أخذ منها...! في تهديد ووعد.

فأى عرش هذا الذى ورثه «عبدالرحمن»...؟!

بل قل إن شئت: أى هم ثقيل، وأى عبء جليل؟ بل أى بركان يجلس «عبدالرحمن» فوق فوهته المتأججة؟؟

التغيير والتجديد:

ومن أجل تغيير الأوضاع كى تتوافق مع طموحات وآمال الأمير الشاب فى النهضة والازدهار كان لابد من التجديد فى الأسلوب والأشخاص...، فقد مرت

البلاد طوال نصف قرن بأزمات وصراعات وفتن، وها هي اليوم في إبان نُضوجها، وتوشك أن تقضى على الدولة، فتنهال... إلى الأبد! فهي بحاجة ماسة إلى «مخلص»... يتوفر فيه عناصر الفهم والعلم والحزم.

نظم الإدارة الحكومية تنظيمًا جديدًا، وعُرف كل قائم على أمر من الأمور بـ «الوزير» وجعل له حاجبًا هو بمثابة رئيس الوزراء، يكون صلة الوصل بينه وبين الوزراء، يطلعه في كل يوم على كل كبيرة وصغيرة من شئون البلاد.

واختار لتلك المهمات أكفأ الرجال في عهده وأقدرهم على المناصب.

وبلغ عدد الوزراء ثمانية باختصاصات مختلفة.

أول هموم:

كان أول اهتماماته وهمومه، القضاء على الفتن الداخلية وقطع دابرها، وقد باشر ذلك بنفسه وبقيادته في كثير من الأحيان.

وكان غرضه إعادة اللحمة والتضامن إلى العناصر المتدبرة المتنازعة، وتوحيد الجبهة الداخلية، بعد أن عصفت بها الخلافات الدموية على مدى نصف قرن من الزمان، ولم يستطع أباؤه وأجداده من قبل أن يواجهوها بحزم ويخلصوا الديار من شرورها وآثامها، مما جعل أطماع الممالك النصرانية المحاذية تتفاقم، وتتزعزع بعض المقاطعات.

«ابن حفصون»....!

ومن أشهر الثائرين في تلك الفترة، وأشدّهم خطورة، وأطولهم عهدًا، وأكثرهم إضرارًا بهيبة الدولة، الثائر الشهير «عمر بن حفصون»

ولا يغرنك اسم «عمر»...! أو يخدعك بانتسابه إلى الإسلام...!

فقد كان -كما أجمع المؤرخون- من أسرة ذات أصول «قوطية- نصرانية»، وأن جدهم «جعفر» قد اعتنق الإسلام أيام «الحكم بن هشام» ظاهراً، محتفظاً بولائه للمسيحية في أعماق نفسه، وسرى ذلك إلى ذريته من بعده.

ورث «عمر» مالا كثيرا، وأتباعا...، وكراهية شديدة للإسلام وأهله...! وظهرت فتنته وانشقاقه مبكرين، قبل ولاية «عبدالرحمن»، وأتعب الأمراء والحكام، وأرهق السلطان، وهدد العاصمة «قرطبة» أكثر من مرة...،

واتخذ من جبل «بيشتر» ملاذًا له، في حصن روماني قديم، رمه فأواه هو ومن معه...! وكان هذا الحصن قائمًا على صخرة عالية شديدة الانحدار، يمنع الوصول إليها من ناحية الشرق والغرب...، وكان من مزاياه أنه على مقربة من السهل المنبسط حتى «قرطبة»، والذي تستطيع فيه عصابة «ابن حفصون» أن تشن الغارات لسرقة الماشية، وفرض الضرائب على المزارعين في الأنحاء النائية المنعزلة. كان عندما يشعر بالضعف أو الخذلان أمام عدوة من حكام المقاطعات يُسلم ويهادن، ثم ينقلب بعد ذلك...،

وكان إذا ما وقع في أسر أو حبس تحايل في الهروب، وقد فعل ذلك أكثر من مرة.

كان داهية من الدهاة، يعرف كيف يثير الناس، ويتألفهم، ويتوَدَّد إليهم بالعطاء الجزيل، والقول الجميل.

كانت بداية خروجه سنة (٢٦٧هـ)، أي قبل ولادة «عبدالرحمن» بعشر سنوات...، وظل ثائرًا متمردًا، صاحب سلطان ونفوذ طوال عقود من السنين. وكان من خطورته أن نازع في ثورته الأمراء على بعض المقاطعات والمدن، واستولى عليها، فامتد نفوذه، وأصبح قسيمًا لحكام الأندلس، ولم يُقهر مرة أو يُغلب، إذ كانت الجيوش المركزية أضعف من أن تواجه عصاباته وتدابيراته وخططه، في الدهاء والمكر.

وكان إذا ما هُزم لجأ إلى حصنه المنيع، وراسل عدوه مُعلنًا ولاءه

الأخير الحازم «عبدالرحمن»

اتخذ «عبدالرحمن» -منذ وكى السلطة والإمارة سياسة تختلف تمامًا عما سبقه من آباءه وأجداده في مواجهة الثائرين عامة، «وابن حفصون» خاصة.

فهو لا يتردد ، ولا يتراجع... ، ولا يقتنع بمهادنة مضامينها الحيلة والمكر، ولا يقبل جزية أو ضريبة أو مالا يُهدى إليه... ، أو يرضى من ناثر بنزاع على السلطة أبداً، مهما علا شأنه.

وأعلن أن من جاءه مستسلماً فقد نال العفو

هذه المبادئ لم تكن طفرة شباب بقدر ما كانت عزيمة صادقة...

فقد عرفه الناس جميعاً بقوة الشخصية، وصدق النية؟ فالتفوا من حوله وتكاتفوا، وتعاونوا على الهدف المنشود، وهو الأمن والأمان، ووحدت الأرض والشعب، والقضاء على الشغب، فى أية جهة كان مصدره.

دروس وعظات...!

لم يبدأ «عبدالرحمن» بـ «ابن حفصون»... بل وجّه وجهته إلى صغار الثائرين... ، فى مختلف الأنحاء، حتى التى تحيط بمناطق نفوذ «ابن حفصون»...!

وخرج بنفسه من أجل ذلك، وعلى قيادة الجند، مما أوقع الهيبة فى نفوس أعدائه وخصومه، واستبسال جنده تحت رايته.

ففضى على كثير من الفتن، وأخمدتها... ، وجازى بالعقوبة بعض أصحابها، وعفا عن آخرين.

أنقذ مدينة «رية»، واحتل حصن «المنتلون» وحصن «شمتان» و«متيشة» و«بجيلة» و«سانة» و«بكور» وغيرها

ثم انتقل إلى كورة «البيرة»... ، فبادره أصحاب حصون: «ناجلة» و«بسطة» و«مريبط» و«البراجلة» بالطاعة والولاء.

وتوغل «عبدالرحمن» فى جبل الثلج -«سيارا نيفادا» رغم وعورة وعناء السير فيه، فجاوزه واحتل كل ما هنالك من القلاع والحصون التى كانت تتبع «ابن حفصون»...!

ولما أراد «ابن حفصون» أن يستعيد ما استنفذ فيه، هُزم هزيمة منكرة، وأسر -
حفيداً له اسمه «عمر بن أيوب»...، وارتد على عقبيه.

وهكذا استمر «عبدالرحمن» فى نشاطاته وجهاده، منذ ولى عام «٣٠٠هـ»،
إلى عام «٣٠٥هـ» وهو لا يهدأ ولا يكف، حتى أذعنت له كل المقاطعات،
واستسلمت كل الحصون والقلاع، واعترف له الثائرون -من نجا منهم من الموت-
بالسلطان والولاء.

صوت «ابن حفصون»

وفى سنة «٣٠٥هـ»، مات «ابن حفصون»...

يقول أحد المؤرخين^(١) عنه، وعن قوته:

[وفى هذه السنة هلك «عمر بن حفصون» عميد الكافرين، ورأس المنافقين،
وموقد شعل الفتنة، وملجأ أهل الخلاف والمعصية، فعد هلكه من أسباب الإقبال،
وتباشير الصبح، وانقطاع علق المكروه].

ويموته فقد أبتأوه الذين ورثوه القدرة على الاستمرار والبقاء، فتبعهم
«عبدالرحمن» واحداً بعد الآخر حتى قضى عليهم جميعاً، واستخلص البلاد،
وذلك العباد من أيديهم.

ويوم استيلائه على حصنهم «بيشتر» صام «عبدالرحمن» شكراً لله تعالى على
ما منحه من النصر والظفر.

بعد طول جهاد

واستمر «عبدالرحمن» منذ سنة «٣٠٠هـ» إلى سنة «٣٢٠هـ» فى جهاده
لأعدائه الداخلين وثوراتهم وفتنهم، حتى واثاه توحيد البلاد تحت سلطانه فى غير
عسف ولا قهر، بل بحزم وجراءة وإقدام. وإلا... فإن «الأندلس» فى ذلك الحين
كانت عرضة للضياع، نهبة لذوى الأطماع.

(١) (ابن عذارى) (البيان المغرب) (ج: ٢) (ص: ٢٥٦).

يقول أحد المؤرخين^(١):

(وهكذا استطاع «عبدالرحمن» أن يخضع العرب والبربر والمولدين والمستعربين، ويرغمهم على الطاعة، ويرد للدولة الأموية بالأندلس سلطتها التي عصفت بها عواصف الثورات، وكادت تقتلعها وتعفي عليها...) أ.هـ.

الخليفة الأموي الأندلسي: (الناصر لدين الله)

مع حلول عام ستة عشر وثلاثمائة للهجرة (٣١٦هـ) تغيرت الظروف السياسية والإقليمية في الوطن الإسلامي، ضعفت الخلافة العباسية في بغداد وأصبحت مجرد اسم، إذ تحولت السلطة الفعلية في يد الخليفة إلى الوزراء الذين كان جلهم من عناصر الترك والفرس والسلاجقة، ونشأت بعض الدويلات في الأقاليم النائية.

أضف إلى ذلك وثوب (الفاطمين) على المغرب والشمال الإفريقي، ثم احتلال مصر، وإنشاء الدولة (الفاطمية) نسبة إلى «فاطمة الزهراء» -رضي الله عنها-، وانتزاع الحجاز والشام من أيدي العباسيين، وتعاون هؤلاء الفاطميين مع الرومان الطامعين في بلاد الإسلام.

هذه المتغيرات والتحويلات الخطيرة جعلت «عبدالرحمن» يفكر في إنشاء خلافة إسلامية أموية في «الأندلس»...

وقد كانت حتى حينه لاتنازع الخلافة المركزية في «بغداد»...، حتى إنه كان يخطب على المنابر في الأندلس للخليفة العباسي أمير المؤمنين، رغم استقلال الإمارة.

خصوصاً وأن «عبدالرحمن» كان قد وطّد حكمه، ونشر سلطانه، وقضى على أكثر الفتن والثورات، وأضحت الأندلس - كما دخلها المسلمون لأول مرة - خالية تماماً من الثائرين والطامعين، وخافها أيضاً جيرانها من الممالك النصرانية الضعيفة، وكفّوا عن الغارة عليها.

(١) (على أدمم) (عبدالرحمن الناصر) (ص: ٦٥).

بل على العكس، فقد قام «عبدالرحمن» أكثر من مرة بغزو تلك الممالك لإرهابها، وردعها عن التفكير بأى اعتداء.

وعليه فقد وجه «عبدالرحمن» رسالة إلى «أحمد بن بقى» -القاضى-، صاحب الصلاة بـ «قرطبة» جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذى فضلنا به، وأظهر أثرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعُلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا.

والحمد لله ولىّ الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه،

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بـ «أمير المؤمنين» وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا متحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه.

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله، والله المستعان]

وكتب يوم الخميس لليلتين خلنا من ذى الحجة سنة (٣١٦هـ)

وبعد صدور هذا المنشور أصبح «عبدالرحمن» يلقب بـ «أمير المؤمنين الناصر لدين الله».

«الصائفة»

وهى غزوات الصيف التى كان يجهزها «عبدالرحمن» باتجاه الشرق والشمال، حيث الممالك النصرانية، منذ توليه السلطة سنة ثلاثمائة للهجرة «٣٠٠هـ»،

وأحياناً كثيرة كان يقودها بنفسه ويظهر من السلطان والشوكة، ما ينصر به المسلمين، سكان الأطراف، وليدفع عنهم غائلة العدوان، رغم ما كان يشغله في الداخل من إخماد الفتن والثروات.

ويتضح لك - عزيزي القارئ - أن «الناصر» - رحمه الله - كان يُقاتل على أكثر من جبهة، ولا عجب ولا استغراب أننا نعتبره من «أبطال الفتح»، فهو قد ثبَّت أركان الدولة الإسلامية في الأندلس، وكادت توشك أن تزول، وزلزل الممالك النصرانية المتاخمة...، وضم أجزاء منها إلى رقعة البلاد الأندلسية، حصوناً وقلاعاً ومدناً.

«قرطبة» العاصمة

قل في وصفها الكثير الكثير...، من مؤرخي العصر وما بعده...، وما يعجز القلم عن تداركه ومتابعته، ويضيق المجال عن ذكره.

فعلى الرغم من انشغال «الناصر» - كما قدمنا - بالجهاد الدائم المتواصل، إلا أنه لم يهمل قاعدة مملكته «قرطبة»، فأولاهها اهتمامه، حتى غدت أم المدن في كل القارة الأوروبية بلا منازع، وفاقت «القسطنطينية» وغيرها.

قال أحد المؤرخين^(١):

[كانت «قرطبة» في الدولة المروانية قبة الاسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل «المعدية» و«اليمانية»، وإليها كانت الرحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بدياج المروج المطرّز بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيّار، وتنعر النواعير، ويسم النّوار، وقرطابها: «الزاهرة» و«الزهراء»^(٢) حاضرتا الملك وأفقاه النعماء، والسراء...]

(١) (نفع الطيب) (ج: ١) (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٢) قصراً: (الزاهرة والزهراء).

وقال مؤرخ آخر^(١) :

[قرطبة أم المدائن، وسرّة الأندلس، وقرارة الملك فى القديم والحديث، والجاهلية والإسلام، ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التى هى إحدى غرائب الأرض فى الصنعة والإحكام والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه . . .]

والمسجد الجامع فى قرطبة كان قد بدأ بناؤه عبدالرحمن الداخل . . . واستمر العمل فيه إلى أن تم فى عهد «الناصر» .
يقول عنه الدكتور «حسين مؤنس»^(٢)

[مسجد قرطبة الجامع هو -دون شك- أضخم عمل معمارى قام به العرب فى الشرق والغرب على السواء، فإن مساحة الصحن المسقوف (٤٨٦٨) متراً مربعاً، أى ما يزيد على السفدان، فإذا أضفنا إلى ذلك الفناء غير المسقوف -وهو بقية صحن الجامع يحيط به سور- كانت مساحته (١٢١٨٩) متراً مربعاً أى نحو ثلاثة أفدنة . . ! وعدد السورى -أى الأعمدة- الباقية إلى اليوم يزيد على (١٢٠٠) سارية، ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم . . ، والحلول الهندسية التى وفق إليها المعمارى الأول، الذى وضع تصميم هذا الجامع، والابتكارات المعمارية والزخرفية التى وصل إليها هو ومن جاءوا بعده تقرر -دون أدنى شك- أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا، حتى مطلع العصر الحديث . .]

أما «قصر الزهراء» فيقول عنه «ابن خلدون» :

[بنى «عبدالرحمن» إلى جانب «الزهراء القديم» قصره العظيم وسماه: «دار الروضة»، وجلب الماء من الجبل، واستدعى عُرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من «بغداد» و«القسطنطينية» .

(١) (نفع الطيب) (ج: ٢) (ص: ٧٩).

(٢) (رحلة الأندلس) (ص: ٧٣-٧٤).

ثم أخذ فى بناء المتنزعات، فاتخذ «منية الراعونة» خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل، على أبعد مسافة، ثم اختط مدينة «الزهراء» واتخذها لنزله، وكرسياً للملك، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش (حديقة حيوان) فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلة بالشباك، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والخلى والزينة، وغير ذلك من المهن، وأمر بصنع الظلة (الشمسية) على صحن الجامع بـ «قرطبة» وقاية للناس من حر الشمس [أ.هـ].

وقد قيل على لسان «الناصر» هذه الأبيات، إشادة بما أنجز:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاطم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشأن

ازدهار الثقافة والعلوم

ولا نسل عن مدى ازدهار الثقافة والعلوم فى عهد «الناصر»... فقد كانت «قرطبة» فى أيامه بمثابة جامعة عالمية، لا نظير لها...!

خرجت فحولاً فى مختلف العلوم والفنون، ما يزال تراثهم الفكرى قائماً إلى يومنا هذا، وعلى فئات موائدهم قامت الحضارة الأوروبية المعاصرة.

فمن اللغويين: «التالى» و«ابن القوطية»

ومن المؤرخين: «الرازى» و«ابن عبد البر» و«الكشكشيانى».

ومن الفقهاء: «ابن دليم» - المالكى -، و«الكنانى» و«أسلم بن عبدالعزيز».

ومن أصحاب الفكر الفلسفى: «ابن مسرة»

فضلاً عن العلماء فى الرياضيات والفلك والطب، وقد نبغ فى هذا الميدان أعلام كبار.

وفاة «الناصر»

بعد حياة حافلة بالحركة والعطاء، والجهاد والجلاد، لم يسترح فيها «عبدالرحمن» إلا قليلاً قليلاً، أذنت صفحة حياته بالانتهاء، وقد نيفت على سبعة عقود.

ففى شهر «صفر الخير» سنة تسع وأربعين وثلاثمائة للهجرة (٣٤٩هـ)، كان ابتداء العلة بـ «الناصر»، وكان سببها - كما ذكر المؤرخون - كتاب السير والتراجم: برد شديد أصابه، فأرجف به، وخيف عليه، فأكب الأطباء على معالجته، حتى خفت وطأة المرض قليلاً.

ومن ثم تحامل على نفسه، وتجشم القعود للخاصة فى الأيام العشرة الأولى، من جمادى الأولى، واستبشر الناس بما بدا عليه من تحسن حالته، وسألوا الله تعالى له كمال عافيته.

ولبت بعد ذلك أشهراً، تشتد به العلة حيناً، وتخف حيناً، وهو يُغالب ويُقاوم، حتى ضعفت مقاومته، ووفاه أجله فى نفس الشهر الذى وُلد فيه، وهو شهر «رمضان» سنة خمسين وثلاثمائة للهجرة * (٣٥٠هـ).

ووجد بخطه تاريخ يقول فيه:

[أيام السرور التى صفت لى دون تكدير، يوم كذا من شهر كذا، من سنة كذا]. فعُدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوماً!!!

ونُسب إليه قوله:

ما كل شيء فقدت إلا	عوضنى الله منه شيئاً
إنى إذا ما منعت خيرى	تباعد الخير من يديا
من كان لى نعمة عليه	فإنها نعمة عليا

رحم الله «عبدالرحمن الناصر» وغفر له وأجزل مثوبته جزاء ما أعطى وجاهد وضحي، وجزاء ما أعز الإسلام وأهله.

١٨- يوسف بن تاشفين

ما نزال نعيش تاريخ الوجود الإسلامى فى الأندلس، ذلك الوجود الذى امتد تسعة قرون ونيف، وترك من ورائه آثاراً وحضارة...، آثاراً ما تزال قائمة وشاهدة على عظمة وروعة ذلك الوجود، وحضارة ورثتها أوروبا - كل دولها - فأنجبت من بعد تطورها الهائل فى مختلف الميادين وتقدمها.

وكان لبطلنا «يوسف بن تاشفين» - أمير المسلمين - رحمه الله، دور عظيم ومؤثر فى ذلك الوجود.

فمن هو؟ وكيف نشأ وتربى؟ ومن أين أتى؟ وماذا فعل؟ وما هو هذا الدور الذى أهله لأن يكون فى عداد الأبطال الفاتحين؟ وهل كانت الأندلس بحاجة إلى فتح جديد؟ ومتى كان ذلك؟

ولو أننا تركنا لأنفسنا مجال التساؤل لضيّعنا عليك - عزيزى القارئ - وعلى التاريخ نفسه فائدة استحضار الأحداث، والعبر المستخلصة منها.

ونحن المسلمين فى أمس الحاجة اليوم إلى قيادة توحدنا وتجمعنا، وتضبط انحرافاتنا عن الإسلام، وتنظم مجتمعاتنا وفق تعاليمه السمحة الرائدة، وتنطلق بنا فى آفاق المعرفة كى لا نبقى عالة على الأمم. أو فى ذيلها...!

وما من شك - أبداً - فى أن شرع الله هو الصراط المستقيم، والطريق القويم، وسفينة النجاة...!

وما من شك - أبداً - أن القيادة المرجوة المؤمّلة هى العامل الأول فى النهضة والانبعاث من جديد...!

وصدق من قال: «المسلمون إلى خير ولكن الضعف فى القيادة»

الإسلام وقبائل البربر:

منذ بداية الفتح الإسلامى فى الشمال الإفريقى... منذ «عقبة بن نافع» - رضى الله عنه - إلى أيام «موسى بن نصير»، عانى الفاتحون معاناة شديدة من

ضراوة وشراسة قبائل البربر، على مدى سبعين عاماً -تقريباً- حتى تم استيعابهم في حوزة الإسلام، وفتح الله على قلوبهم، فانضوا تحت لوائه مقاتلين أشداء، يرفعون الراية ويبشرون بكلمة التوحيد.

وكان أكثرهم قد خرج إلى «الأندلس» مع «موسى»، و«طارق»، فكانوا -والحق يقال- جنداً في المقدمة، وعدة في مواجهة العدو لاتفل، وأقاموا في ذلك الربوع، وتكاثروا...، فكان لهم شأن ومكانة، وتثيرهم أحياناً فتنة عصبية قبلية، لاتلبث أن تخمد.

غير أن طائفة من هذه القبائل لم تغادر ديارها، ولم تخرج إلى جهاد، بل اتجهت إلى عمق الشمال الإفريقي جنوباً، إلى الصحراء الكبرى...، الممتدة ما بين «موريتانيا» إلى «السودان»، وهناك كان توزعهم ومعاشهم وحياتهم، كالبدو الرحل تماماً...، ولعل هذا الأسلوب في الحياة هو الذي جعل بعض المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بأن أصول هذه القبائل عربية، انطلقت من شبه الجزيرة في موجات مهاجرة.

وهؤلاء... رغم اعتناقهم الإسلام، فقد ظلوا حيناً من الدهر على ولائهم لتقاليد وعادات جاهلية، ترعرعت ونمت وكثر انحرافها...، بسبب بعدهم، وبسبب انقطاعهم عن ينابيع العلم والمعرفة.

المرابطون:

لكن نفرًا منهم كان قد اتصل بـ «مصر» وعلماؤها في طريقهم إلى الديار المقدسة لأداء فريضة «الحج»، فأدركوا ما عليه قومهم من بُعد وجفوة عن تعاليم الإسلام الصحيحة...!

وحين عادوا أخذوا يثبون في الناس ما تلقوه، ويدعونهم إلى نبذ كل انحراف، وأنشأوا لهم رباطاً -مدرسة- اضطلعت بمهمة الوعظ والإرشاد والدعوة.

وأخذوا في التواصل مع مراكز العلم في الشمال الإفريقي، كـ «القيروان» وغيرها، ونشطوا في ذلك.

وظهر فيهم رجل اسمه «عبدالله بن ياسين» تولى الزعامة الدينية والعلمية، فقد كان فقيها ورعاً، شديد الغيرة على تعاليم الإسلام، وكان قد زار «الأندلس» وأقام فيها بضع سنين، تبلورت فيها شخصيته وازداد علماً وحماساً وحرصاً.

وكان خطيباً موهوباً قوى التأثير...!

لكن شدته في دعوته صرفت عنه الكثيرين...، ونبذوه...!

فانقطع هو عنهم، وأوى إلى رباطه مع بضعة نفر من أصحابه، لكن عزله لم تطل...، فقد بدأ الناس يتوافدون عليه، ويتلقون منه... ويرابطون معه.

من الوعظ والإرشاد إلى الجهاد...!!

كثر أتباعه، واتسع نفوذه، فاتخذ مجلس الشورى، وما لبث أن عوّل على استعمال السيف بدل الكلمة حيث لم تنفع ولم تؤت ثمارها، وتكونت لديه قوات مشحونة بالإيمان الصادق والعزم المتين.

وأوكل أمر قيادة القوات إلى أمير من أتباعه اسمه «يحيى بن عمر»، وكان شجاعاً مقداماً، ورعاً زاهداً، مطيعاً كل الطاعة لشيخه «عبدالله بن ياسين».

وانطلقت قوات «المرابطين» بدعوة من أمراء المقاطعات الذين ألهم ما وصل إليه حال شعوبهم، وكان ذلك سنة (٤٤٥هـ).

خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم في حشد ضخم، وعلى رأسهم الشيخ «عبدالله»، وقائد الجند الأمير «يحيى»...، وتبعوا المناطق واحدة بعد الأخرى، يستولون عليها، ويعيدونها إلى حضن الإسلام القويم، بإقامة الربط والمدارس والمساجد، وتولية من له القدرة على الضبط والربط.

وظلوا في تطوافهم ساعين في كل اتجاه، لا تقف في وجههم عقبة، حتى كان عام (٤٤٧هـ)، وقد توفي القائد «يحيى»، فعين الشيخ «عبدالله» بدلاً منه أخاه «أبا بكر بن عمر»، وكان قائداً جريئاً، لا يقل كفاءة عن أخيه.

«يوسف بن تاشفين»:

ولأول مرة يظهر اسم «يوسف» على مسرح الأحداث، إذ عينه القائد الجديد «أبوبكر» على مقدمة جيشه، وكان ابن عم له.

هذا الاختيار يوحى بمعانٍ ودلائل كثيرة...!

فقد كان «يوسف» أحد التلامذة النابهين للشيخ «عبدالله»، وكان جندياً أظهر كفاءة قتالية عالية، أضف إلى ذلك شدة تدينه، وتلبسه كلية بما تلقاه...!

وكانت سنة إذ ذاك في العقد الخامس من العمر (٤٨) سنة...! رجلاً ناضجاً واعياً، قد استوى عوده، وعظمت مكانته، معروفاً لدى الخاصة والعامة.

وسعى «يوسف» سعيه في الجهاد والكفاح حتى خضعت أكثر بلاد المغرب للمرابطين.

وتوفي الشيخ «ابن ياسين»، فانتقلت الزعامة الدينية والسياسية والعسكرية إلى «أبي بكر» - القائد -، ومن ثم تكونت دولة المرابطين، بكل عناصرها...، وغدت صاحبة الصولة والجولة...، ونمت لها السيطرة الكاملة على بلاد المغرب كلها، مع عمقها الصحراوي...، حتى حدود «السودان».

«مراكش»:

وفي سنة (٤٥٤هـ)، وكان «يوسف» قد أخضع الساحل الأقصى من المغرب، ووسط سلطانه عليه، وقد كثرت جيوشه...، فكر في إقامة قاعدة له يخطتها بجيشه، وتكون عاصمة له.

فاختار قطعة أرض، ابنتى بها دوراً، ومسجداً - فكان يعمل بنفسه مع العمال في بناء المسجد-، وكان اسم تلك الأرض: «مراكش»... وهي بلغة البربر تعنى: «امش مسرعاً»

وأصبح «يوسف» بمكانة السلطان في تلك الديار، وهذا ما حدا بابن عمه «أبي بكر» الذي كان القائد العام، والوارث للزعامة، والذي كان يصول ويجول في

أنحاء بعيدة، يفكر بالعودة، وقد تطايرت الأنباء بانتصارات «يوسف»، وامتداد رقعة سلطانه...، رغبة بالتأكد، أو خشية على النفوذ...!

فلما وصلت طلائعه إلى «مراكش» استقبلها «يوسف» أحسن استقبال، وأغدق على الجند العطايا والهدايا.

وبعد لقاء الرجلين، أدرك «أبويكر» ما وصل إليه نفوذ ابن عمه، ولم يكن راغباً في قتال أو منازعة أو خصومة، فاكتمى ثأ أهدى إليه، ووصى «يوسف» بوصايا، وعاد بقواته يتابع رسالة جهاده.

وكانت وفاة «أبي بكر» سنة «٤٨٠» هـ، شهيداً في إحدى المعارك.

وهكذا تم لـ «يوسف» السلطان المطلق

وقد قيل :

(وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، أقامتها عبقرية رجل واحد، هو: «يوسف بن تاشفين»، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متشدد ملتزم هو: «عبدالله ابن ياسين»، واستحالت بسرعة على يد «أبي بكر»، ثم «يوسف» من بعده، من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسى ضخم...^(١))

«يوسف» أمير المسلمين

مع اتساع السلطان، وتوحد الشمال الإفريقي -وعمقه الصحراوي-، تراءى للكثيرين من خاصة «يوسف» أن يبوّء منصب الخلافة، وإمارة المؤمنين، خصوصاً وقد آذن غروب دولة «الفاطميين -العبيديين» بالأفول...، مع ضعف مركز الخليفة العباسي -الرمزي-، وتشتت الوجود الإسلامى فى الأندلس إلى دويلات هزيلة ضعيفة، يحكم بعض مدنها ومقاطعاتها ملوك الطوائف المهددين فى كل لحظة وحين بغارات الفرنجة عليهم، بقيادة الملك «ألفونسو»، وقد انتزع من أيديهم كثيراً من المدن الهامة، وعلى رأسها «طليطلة»...!

(١) (محمد عبد الله عنان) (دولة الإسلام فى الأندلس) - العصر الثانى - (ص: ٣١٣).

أراد هؤلاء الخاصة، من رجال إدارة وعلماء أن يقلدوا «يوسف» منصب الخلافة...! وقد رأوا فيه كل الجوانب التي تؤهله لذلك...، فأبى عليهم...، وكان بعيد النظر...، واكتفى بلقب «أمير المسلمين»، وكان ذلك سنة (٤٦٦هـ).

إلى الأندلس!

بعد استفحال الخطر الفرنجي على ممالك الأندلس، ودول الطوائف، وشعور أصحابها أنهم قاب قوسين أو أدنى من زوال سلطانهم وأنهم أصبحوا لقمة سائغة في أفواه عدوهم...!

وبعد أن ترامت إليهم أنباء انتصارات «يوسف بن تاشفين» وتوحد الشمال الإفريقي - وعمقه الصحراوي - تحت راية المرابطين، وقوة نفوذهم، وعظمة جيوشهم، راسلوه... يستدعونه لإنقاذ الأندلس، ويضعون أنفسهم وما يملكون تحت تصرفه، ورهن مشيئته.

وقد تكرر ذلك منهم مرات عدة...!

وأخيراً أرسلوا سُفراءهم ووفودهم...!

وكانوا في حالة من الذل والاستعطاف، يرجونه القوت والمدد.

أما لماذا تأخر «يوسف» في الاستجابة، فإن مرد ذلك إلى أسباب كثيرة، أهمها خشيته من تأمرهم مع العدو عليه، فقد كان أكثرهم قد هانت منهم النفوس حتى أصبحوا العوبة في يد عدوهم الملك «ألفونسو» ملك «قشتالة»^(١)، الذي يتهددهم، ويفرض عليهم الجزية.

وأخيراً جمع «يوسف» مجلس شوره من كبار معاونيه والفقهاء، فأيدوه في مسعاه بتلبية النجدة، وضرورته...

لكنه اشترط على سُفراء ملوك الطوائف أن يكونوا معه يداً واحدة، كل بما يقدر عليه من تعبئة ومدد، وأن يتنازل له زعيمهم «المعتمد بن عباد» صاحب «إشبيلية» عن «الجزيرة الخضراء» لتكون قاعدة لجند «يوسف» بعد العبور، فوافقوه على كل مطالبه، وتعهدوا بها.

(١) قشتالة: تحريف لكلمة: «كاسل»، أى: القلمة باللغة الأجنبية

وكان أول ما عبر من قواته قوة من الفرسان بقيادة «داود بن عائشة»، إلى ثغر «الجزيرة الخضراء»، وتركزت فيها، ثم تتابعت الجيوش المربطة...، حتى تم عبورها جميعاً.

وفي ضحى يوم الخميس، منتصف شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٤٧٩هـ)، عبر البطل الشيخ في بقية قواته...!

وهنا يجدر بنا أن نسجل موقفاً لـ «يوسف» -رحمه الله-

فما كادت السفن التى تحملها ومن معه تمخر عباب البحر، حتى اضطربت الأمواج وتعلت...، فنهض الزعيم... ويسط يديه بالدعاء إلى السماء، وقال:

[اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى أجوزه...]

وما كاد يتم كلامه حتى [سهل الله المركب، وقرب المطلب]

وتم العبور، فى ربح طيبة، وبحر هادئ.

معركة «الزلاقة»:

كما كانت «البرموك» مفتاح النصر فى الشام...!

وكما كانت «القادسية» مفتاح النصر فى العراق...!

وكما كانت معركة حصن «ببليون» مفتاح النصر فى مصر...!

وكما كانت معركة وادى «لكة» مفتاح النصر لـ «طارق» فى الأندلس...!

كانت أيضاً - معركة «الزلاقة» مفتاح النصر لـ «يوسف» فى الأندلس ثانية...!

ولقد ترتب على هذه المعركة ونتائجها استعادة الهيئة الإسلامية فى الأندلس، وتجديد الوجود الإسلامى بقوة على مدى أربعة قرون -تقريباً-، وتلك هى أهميتها!!!

إلى «أشبيلية»:

ومن «الجزيرة الخضراء» انطلقت جيوش «يوسف» باتجاه «إشبيلية»، وفى الطريق

كانت تقدم له المؤن والأطعمة والضيافات، التى بعث بها «المعتمد بن عباد».

فلما اقترب وصوله، خرج إليه المعتمد وتلقاه، وتعانقا. . ، وتعاهدا على الجهاد والوفاء والنصر.

كما راسل «يوسف» بقية ملوك وأمراء الطوائف داعياً إياهم إلى التعاون والتكاتف والموافاة، من أجل أن تتكامل الجيوش وتتوحد، فى مواجهة العدو. . ! فلبى بعضهم النداء، وتقايس أكثرهم لانشغالهم بالمدافعة عن ديارهم.

بين «بطلْيوس» و«قورية» فى سهل «الزلاقة»:

وسارت الجيوش - شمالاً غرباً - تتقدمها وحدات قوات «إشبيلية» بقيادة «المعتمد بن عباد»، وفى المؤخرة الجيوش «المرابطة» يقودها «يوسف».

حتى انتهوا إلى سهل يقع بين مدينتي «بطلْيوس» و«قورية» يُعرف بسهل «الزلاقة»، ويمر به نهر «تاجه».

وكانت أنباء ذلك قد وصلت إلى الملك «ألفونسو» - السادس - ملك «قشتالة» . . ، فترك حصار «سرقطة»، واستدعى على الفور جنوده وحشوده من كل مكان، واستنجد بحلفائه من ملوك وأمراء النصارى فيما وراء «الپيرنيه»، وتقاطر إليه الفرسان والجنود والعصابات من «فرنسا» و«إيطاليا» وغيرهما.

واتجه بحشده الهائل هذا جنوباً لملاقاة جيوش المسلمين.

ويقدر المؤرخون عدد جنود «ألفونسو» بثمانين ألفاً، بينما بلغت قوات الجيش الإسلامى نحو ثمانية وأربعين ألفاً.

ونزل «ألفونسو» بقواته فى عدوة نهر «تاجه»، يفصله عن جيش المسلمين معسكرهم،

ومضت ثلاثة أيام . . . !

فكتب «يوسف» إلى «ألفونسو» كتاباً - وفق السنة - يعرض عليه الدخول فى الإسلام، أو الجزية أو الحرب ومما جاء فيه - أيضاً - :

[بلغنا يا «أدفونش» - ألفونسو- أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دُعائك...، وما دُعاء الكافرين إلا في ضلال]

حيلة مكشوفة:

حاول «ألفونسو» خديعة المسلمين في تحديد يوم المعركة، فكتب إلى «المعتمد بن عباد» يوم الخميس يقول: (إن غداً يوم الجمعة، وهو عيدكم، وبعده السبت يوم اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا، فيكون اللقاء يوم الاثنين) وكان كتاب «ألفونسو» خديعة مكشوفة، لأنه يريد الغدر، وقد أدرك «يوسف» و«المعتمد» ذلك.

وقد جاءتهما الطلائع في الليل تنبئ عن حركات الاستعداد في المعسكر النصراني...، والضوضاء والجلبة، وقعقة السلاح، فأخذوا أهبتهم واستعدوا للمفاجأة.

المعركة...!

ما كاد صبح يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب سنة (٤٧٩هـ) يتنفس، حتى حدث ما كان يتوقعه المسلمون، وقد استعدوا له.

ويصف المؤرخون وقائع المعركة، فيقولون:

(زحف النصارى، وابتدأ القتال، واشتبك الجيشان في معركة عامة، فهجمت مقدمة «القشتاليين»، و«الأرجونيين» التي يقودها -القائد- «ألبير هانيس» على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية، والتي يقودها «المعتمد بن عباد»، وكان هجوماً عنيفاً ردّها عن مواقعها، واختلّ نظامها، فارتد معظمها نحو «بطليوس»، ولم يثبت في وجه المهاجمين سوى «المعتمد» وفرسان «إشبيلية»، فقاتلوا النصارى بشدة، وأثنى أميرهم الباسل جراحاً، وتفرّق معظمهم من حوله، وكثر القتل في جنود الأندلس، وكادت تدور عليهم الدائرة، دون أن يتقدم أحد لإنقاذهم.

وفى الوقت نفسه كان «ألفونسو» قد هاجم مقدمة المرابطين، التى يقودها «داود ابن عائشة»، وردّها أيضاً عن مواقعها. .!

ففى تلك الآونة العنيفة دفع «يوسف» بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده، وهو: «سير بن أبى بكر» لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً. .، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة. .، وسرعان ما تغير وجه المعركة واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم، وعاد الفارّون إلى صفوفهم، واضطربت المعركة فى هذا الجناح رائعة، ترجح بها كفة المسلمين. .!

وكان «ألفونسو» فى ذلك الوقت قد تقدّم فى هجومه، حتى صار أمام خيام المرابطين، واقتحم الخندق الذى يحميها. .، ولكن حدث فى نفس الوقت أن لجأ «يوسف» إلى خطة مبتكرة، إذ تقدّم من قواته الاحتياطية من «لتوخة»، و«صنهاجة»، وتجاوز النصارى المهاجمين، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته، وهاجمه بشدة، وكانت تحرسه قوة ضعيفة، ففتك بها، ووثب إلى مؤخرة «القشتاليين»، وأثخن فيهم من وراء، وطبولة تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء. .، ثم أضرم النار فى محلّة «القشتاليين»، فارتفعت ألسنتها فى الهواء، فلما علم «ألفونسو» ما حلّ بمعسكره، ارتد من فوره لينقذ محلّته من الهلاك، فاصطدم بمؤخرة المرابطين، ووقعت بين العاهلين معركة هائلة، مزقت فيها صفوف «القشتاليين» ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلّه إلا بعد خسائر فادحة، وهنالك استؤنفت المعركة، و«يوسف» فوق فرسه يصول ويجول، ويبحث جنده على الثبات، ويرغبهم فى الاستشهاد. .، ودوى الطبول من حوله يصم الأذان. ..

ولم يسبق أن عرفت الجيوش الإسبانية مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض. .!

ومن جهة أخرى فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة. . متناسقة. . ثابتة، وهى أيضاً خطة جديدة غير مألوفة لدى «القشتاليين» خاصة، والفرنجية عامة.

واشتد هجوم المرابطين بقيادة «سير بن أبى بكر» على مقدمة «القشتاليين» التى يقودها: «ألبير هانيس» واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها. . !

وكانت الضربة الأخيرة القاتلة أن دفع «يوسف» بحرسه الخاص «الحرس الأسود»، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعركة. . ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى «ألفونسو» ويطعنه بخنجر فى فخذه طعنة نافذة. . !

وكانت الشمس قد آذنت على المغيب. . ، وأدرك «ألفونسو» ومن معه أنهم يواجهون الموت إذا استمروا فى القتال، عندئذ بادر مع خلّ من صحبه إلى التراجع والاعتصام بتل قريب، حتى دخل الليل، وتحت جنح الظلام، بادروا إلى الفرار. . ، وانتهت معركة «الزلاقة». . !

ومع نهايتها، عادت الهيئة إلى ملوك الطوائف، وقويت شوكتهم فى مدنهم وأقطارهم.

إلى المغرب...

ترى .. هل انتهت مهمة الفتح عند هذا الحد...؟! .

لقد طلب ملوك الطوائف إلى «يوسف» أن يتابع الزحف وراء العدو، وتطهير البلاد من رجسه ويطشه وتهديده، فاستمهلهم قليلاً. . ، ذلك أنه كان لا يقدم على أمر إلا بعد تفكير وروية، وتشاور.

وبينما هو على ذلك جاءت الأنباء من المغرب بوفاة ولده «أبى بكر» الذى ولاه على البلاد أثناء غيابه، فعز عليه النبأ، وقرر العودة إلى المغرب على الفور، كي لا يترك الساحة خالية.

واعتذر للملك الطوائف، ثم عاد إلى المغرب ليتدبر أمره فيه، ويحميه من الاطماع والتفرق.

وأبقى ثلاثة آلاف من جنده لدى «المعتمد بن عباد» - صاحب «إشبيلية» - ليكونوا له عونًا وسندًا.

العبور الثاني:

أمضى «يوسف بن تاشفين» في المغرب قرابة العامين، وهو يتفقد شئون البلاد، من أقصاها إلى أقصاها، فما ترك ولاية ولا قسبة ولا مدينة إلا زارها واطلع على أحوالها، واطمأن على حسن سير الأمور فيها.

في أثناء ذلك عادت الأندلس مسرحاً لصراعات ملوك الطوائف بعضهم ببعض، مما أعزى «ألفونسو» السادس ملك «قشتالة» على مهاجمتهم والاستيلاء على بعض مدنها وأقاليمهم، وفرض الجزية عليهم.

خصوصاً المناطق الواقعة بين «مُرسية» و«لورقة»...، وقد أقام «ألفونسو» هناك حصناً ضخماً، على الأسوار والأبراج، وحشد في داخله ألوف المقاتلين، ليكون قاعدة عسكرية، تُرهب أعداءه، وتقسرهم على طاعته...، وكان يُعرف بحصن: «أليدو»، ويسميه العرب: «ليط».

ساء هذا الوضع «المعتمد بن عباد» - صاحب «إشبيلية» - فقصد إلى «المغرب» لمقابلة «يوسف»، وعرض الأمر عليه، وطلب معونته...!

وكانت رسائل وكتب الفقهاء وذوى الشأن، والمخلصين من أهل الأندلس لاتنفك تترى على «يوسف» تستنجد به، وتستدعيه...!

فلم يجد «أمير المسلمين» بداً من تلبية طلبهم، ووعدهم خيراً.

ثم إنه جهز نفسه وقواته وعبر إلى «الجزيرة الخضراء» في ربيع الأول عام (٤٨١هـ) حيث تلقاه «المعتمد بن عباد» مرحباً، وقدم له المؤن، وانضم إليه بقواته.

ومن «الجزيرة الخضراء» أرسل «يوسف» إلى ملوك الطوائف يبشرهم بقدومه لمعاونتهم، ويطلب إليهم موافاته والانضمام إليه، ليكونوا يداً واحدة على عدوهم «ألفونسو»، والقضاء عليه والخلاص منه. فاتوه واحداً بعد الآخر بقواتهم وجنودهم.

ومن ثم زحف الجيش الإسلامى بانجاء حصن «أليدو»، الذى يُشكل العقبة الرئيسية، فاستولوا عليه، وأمكن تحرير المدن الواقعة حوله.

فلما وافوه ... حاصرهم حصاراً شديداً، ومنعوا عنه المؤن والذخيرة، وقذفوه بكل آلة حربية، وهاجموه من بعض نواحيه المرة تلو المرة...، ولكن كل ذلك لم يُفلح، فقد ظل متمتعاً، قوياً راسخاً.

وطال أمد الحصار فترة أربعة أشهر ولكن على غير طائل...!

فشل .. وعودة...!

خلال تلك المدة عانى «يوسف» من خلافات ملوك الطوائف وتناوبهم واتهاماتهم...، وشعر بأن وضعه وقواته عرضة للغزو والضياع فى أية لحظة...!

فما كان يخلد إلى خيمته فى ليلة إلا ويأتيه أمير يشكو ويدس على صاحبه...، كلُّ يُريد أن يستأثر...، حتى إن الخيانة ظهرت فى بعض صفوفهم...، وهذا ما جعل «يوسف» يأس، ويندم على مغامرته تلك..،

ومن ثم قرر العودة إلى المغرب، وترك الأمور تأخذ مجراها...،

ولكنه قرر فى نفسه أمراً، وعقد عزمًا.

ضم الأندلس إلى المغرب...!

وبغير هذا لن يتصلح الحال.

لابد من القضاء على بؤر الفساد، والإحاطة بهذه الدويلات المصطنعة، وتوحيد البلاد. لقد كان فى عبوره الأول والثانى إنما يرجو أن يقدم خدمة، ويخوض جهاداً فى سبيل الله، أما اليوم فإنه يرجو أن يكون العبور فتحاً...، لأنه لو ترك «الأندلس» من غير ما اعتزم عليه، فإنه يكون قد قدمها لقمة سائغة لـ «ألفونسو» الطامع...، وأضاعها بعد أن تل ثراها بدماء الشهداء الأبرار، ونهض بها المخلصون من القادة والملوك والحكام فجعلوها درّة حضارية وعلمية، فأتى لرجل «مربطى» فى همة «يوسف» وبطولته أن يتخلى...!!!

لم ينتظر فى هذه المرة طلباً، ولا كُتُباً، ولا رسائل ولا استدعاء، فقد كان العامل النفسى والحافز الإيجابى يضطرم بين جوانحه ويثيره إلى العمل السريع الجاد...!

ولم يتخذ القرار عفواً، بل عمد إلى دراسته بعمق من كل الوجوه الدينية والاستراتيجية والعسكرية، وتشاور مع القادة والزعماء والفقهاء، وقد تلقى فتاوى فى ذلك تؤيد مسعاه.

ولقد آلم «يوسف» أن عاد ملوك الطوائف إلى مُصانعة ومداينة «ألفونسو» والتحالف والتعاون معه، لذا كانت الجبهة التى يُريد مواجهتها واسعة... وقوية...!

عبر «يوسف» بقوات المرابطين فى مطلع عام (٤٨٣هـ)، وفى نيته أن يجتاح الأندلس كلها، يقضى على دول الطوائف واحدة بعد الأخرى، ثم يوجه همته إلى العدو اللدود والخصم العنيد «ألفونسو».

وهكذا كان...!

فقد توجه إلى «طليطلة» أولاً... فعاث فيها، ولكنها تحصنت فى وجهه... وامتنعت...، فتركها بعد أن زلزل مقوماتها، وأفسد ما حولها من أراضٍ وقُرى وزروع.

ثم اتجه إلى «غرناطة» التى كان يحكمها «عبدالله بن بلقين» أحد ملوك الطوائف، والذى كان على صلة وطيدة بـ«ألفونسو»...!

فلما علم «ابن بلقين» بقدوم «يوسف» جهَّز نفسه للدفاع عن «غرناطة» تجهيزاً لم يسبق له مثيل، كما أرسل إلى حليفه «ألفونسو» يستجده...،

لكن «يوسف» استطاع أن يستولى عليها، بعد كفاح مرير، ويستخرج مدخراتها وكنوزها، وقد استسلم «ابن بلقين» فأمنه «يوسف» على أهله وولده ونفسه فقط...!

ويسقوط «غرناطة» دبّ الذُّعر إلى قلوب الآخرين من ملوك الطوائف، وحاول «المعتمد بن عباد» أن يُداهن «يوسف»، فزاره في «غرناطة» مهتئاً...، فقابله «يوسف» بجفاء وغلظة، إذ علم علم اليقين ما كان من تحالف «ابن عباد» مع «ألفونسو»...، فلم تطب نفسه له.

وشعر «يوسف» بقوة موقفه وموقعه من البلاد، فترك جيشه بقيادة قائده الفذ «سير بن أبي بكر» يتابع الفتح هنا وهناك، وعاد هو إلى المغرب...، ليكون في قاعدة مُلكه، ويمدّ عبر العدو قواته الضاربة بما يلزم.

وراحت جيوش «يوسف» تخوض المعارك وتفتح البلاد وتبسط سلطانها...

«قرطبة» و«رندة» و«جيان» و«إشبيلية» وغيرها، حتى تم الفتح المبين... وخضعت أكثر بلاد الوادي الكبير لسلطان المرابطين، وكان ذلك عام (٤٨٤هـ).

وسير «ابن عباد» الأسير، وحاشيته إلى المغرب، إلى بلدة «أغمات»...، كما سير «ابن بلقين» أيضاً أسيراً...!

وفي العام التالي (٤٨٥هـ) استولى المرابطون على «شاطبة» و«شقورة» و«دانية»...، واستمروا في زحفهم نحو «بلنسية»، فاستولوا على إمارة «سانتا ماريا» في رجب سنة (٤٩٧هـ)،

وآلت إسبانيا المسلمة (الأندلس) في سنوات قلائل إلى سلطان المرابطين، وجُعِلت ولاية مغربية، وانهار سلطان العصيات والأسر الأندلسية...، ولكن إلى حين.

وكان «يوسف» قد عبر بنفسه إلى الأندلس عام (٤٩٥هـ)، قاصداً من جديد «طليطلة»، فالتقى بقوات «القشتاليين» بقيادة «ألفونسو»، فهزمهم هزيمة منكرة...، ثم قصد «يوسف» إلى «قرطبة»...، فدخلها...، وجمع الكبراء والزعماء، والقادة والفقهاء، وأخذ العهد عليهم لولده «عليّ» من بعده، سلطاناً على المغرب والأندلس معاً.

وفى أواخر سنة (١٤٩٨هـ)، مرض الشيخ المجاهد الفاتح. . ، فأقام فى قصره فى «مراكش» التى عاد إليها، واستمر عليلًا زهاء عام، حتى وافته المنية، وانتقل إلى جوار ربه الكريم.

رحم الله «يوسف بن تاشفين» قائد المرابطين، وأمير المسلمين، وجزاه عن جهاده وإخلاصه وتفانيه، خير الجزاء.

١٩- السلطان محمد الفاتح

نحن اليوم مع شاب تحققت له البشرية، بُشِّرَ رسول الله ﷺ، بفتح «القُسطنطينية»، هو السلطان «محمد الثاني»، -الفاتح- الذى غلب لقبه على اسمه، فاشتهر به لدى المؤرخين عامة، فى الغرب والشرق على السواء.

لقد كان لحديث رسول الله ﷺ: [لتُفتح «القُسطنطينية»، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش] أثره فى نفوس الخلفاء والأمراء والقادة، مُنذ أيام «معاوية بن أبى سفيان» وامتداداً إلى العصر العباسى، والأيوبي والمملوكى.. ثم التركى-العثمانى.

كل واحد يتمنى فى قرارة نفسه، عن جهزوا لغزوها أو خاضوا المعارك عندها، أن ينال هذا الشرف العظيم، ويفوز بالبشرى.

ومما هو جدير بالذكر -فى هذا المجال- أن قبر الصحابى الجليل «أبى أيوب الأنصارى»، مضيف رسول الله -يوم الهجرة، موجود فيها إلى اليوم- أى «استانبول»! (القُسطنطينية)

وسبب ذلك أنه -رضى الله عنه- كان فى الجيش الذى غزاها بقيادة «يزيد بن معاوية»، وكان قد شاخ وكبر وتقدمت به السن، وجرح فى إحدى معارك هذه الغزوة.. جراحاً بالغة.. فأراد القائد أن يكفَّ عن الغزو ويعود بالجريح الجليل، ولكن «أبا أيوب» أبى، وطلب إلى القائد أن يحملوه على محفة، ويمضوا فى جهادهم.. وإذا مات دفنوه حيث انتهوا..!

فأطاعوه، واستجابوا لطلبه..، ثم توفاه الله تعالى عند أسوار «القُسطنطينية» وهم محاصرون لها، وهناك كان دفنه.

وهو اليوم عند الأتراك من معالم مدينة «استانبول»، ثم بُنى إلى جانب المقام مسجد رائع البنيان، عظيم الشأن، يُقصد من كل مكان، ويُعرف عند العامة بمسجد «السلطان أيوب».

وفى قبلة المسجد لوحه رخامية تحمل اسم «أبى أيوب» - خالد بن زيد -
الأنصارى- رضى الله عنه- مع تعريف به موجز.

لقد أردت من خلال ما سردت أن أبين لك - عزيزى القارئ - أن منطلق
الاهتمام بفتح «القسطنطينية» هو حديث رسول الله ﷺ، وقد نشأ هذا الاهتمام
مبكراً ثم استمر أجالاً وأماداً طوالاً.

ولقد عُرِفَت الغزوات التى كانت تُجهز من أجل ذلك بـ «الصوائف»، حيث
يكون الجو الصيفى مناسباً للحركة والسعى، فى تلك الديار، التى تشتد فيها
الأمطار والثلوج والرياح العاتية، فى فصل الشتاء الطويل.

والآن هيا معاً نتابع حياة هذا الشاب الطموح وقُتُوحه...

واعلم بأن مؤرخى الغرب يعتمدون يوم الفتح وسنته (١٤٥٣م) الموافق لسنة
(٨٥٧هـ)، مفصلاً تاريخياً... بل ويؤرخون به أحياناً!!!

نسبه:

هو ابن السلطان «مراد الثانى» سليل الأمير «عثمان بن أرطغرل» مؤسس الدولة
العثمانية فى آسيا الصغرى (الأناضول).

ويُعتبر «مراد الثانى» من أعظم سلاطين «بنى عثمان» ترسيخاً لركائز الدولة،
واتساع قُتُوحاتها فى «أوروبا» - عدا القسطنطينية- التى تقع على تلال مرتفعة عند
«البسفور»، المدخل إلى البحر الأسود، وتحيط بها الأسوار العالية، ذات الأبراج
الشاهقة، وتطل على خليج «القرن الذهبى»، حيث تحتمى سُفُنُها، ويسد منفذ
الخليج بسلسلة ذات حلقات حديدية ضخمة، إن أرادت السفن المعادية اجتيازها
تخطمت واندثرت.

لقد توغل «مراد الثانى» فى البلاد الأوروبية غازياً فاتحاً حتى نهر «الدانوب» سنة
(٨٢٩هـ) - (١٤٢٦م) وهزم الجيش المجرى، وعقد معاهدة مع ملك المجر.

وكذلك تم له فتح «سلانيك» و«يانيا» من بلاد «اليونان»، كما استولى على
بلاد «الصرب» وألغى إمارتها، وجعلها لواءً تابعاً للدولة العثمانية، وأطلق عليها

اسم «سمندرة»، كما أخضع «ألبانيا»...، وعقدت مدينة «البندقية» -الإيطالية- «فينيسيا» معاهدة معه.

كما التقى الجيوش الأوروبية مجتمعة عند «فارنا» من بلاد «بلغار» وهزمهم شر هزيمة، واتخذ من إحدى الأميرات النصرى زوجة له...، هى أم السلطان «محمد الفاتح».

مولد الفاتح ونشأته:

ولد السلطان «محمد الفاتح» فى السابع والعشرين من شهر رجب (٢٧) سنة خمسة وثلاثين وثمانائة للهجرة (٨٣٥) هـ الموافق للثلاثين من شهر مارس (آزار) سنة (١٤٣٢) م.

ومنذ طفولته الأولى خضع الأمير الصغير لنظام تربوى صارم، شأنه كغيره من أمراء «بنى عثمان»، وكان ذلك تحت إشراف مجموعة مختارة من العلماء المعروفين، ذوى الشهرة فى عصره.

وكان القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه أول ما لُقن وتعلم، وقد اتقن ذلك إتقاناً عظيماً.

أضف إلى ذلك العلوم المدنية الأخرى من رياضيات وفلك وتاريخ، ودراسات عسكرية، نظرية وتطبيقية.

أشهر أساتذته:

تعلم وتثقف الأمير الصغير على يد طائفة من جهابذة المربين والمعلمين، وكان أشهرهم اثنان تركا فى شخصيته أعظم الأثر، هما: «أمّد شمس الدين» و«المُلاّ الكوراني».

وقد أثرت هذه المجموعة المختارة فى تكوين شخصيته، وتشكيل تلك الشخصية مبناها الثقافى والسياسى والفنون العسكرية...!

وكان أكثرهم صرامة معه وتأثيراً فيه هو الشيخ «أمّد شمس الدين».

يحدثنا عن ذلك فيقول - وقد تقلد السلطنة - :

(إذ احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسي، وأنا ماثل في حضرته مضطرباً ويداي ترتعشان..)

بين الإدارة والعلم:

هذا التحصيل العلمي رافقه حتى استوى عوده...

رافقه حتى عندما كان أميراً يتولى السلطة، وهو غض الإهاب!..

إذ كان من عادة «آل عثمان» أن يُسندوا إدارة ولاية لكل أمير - وهو صغير - كي يؤهل لقيادة الدولة من بعد.

وقد اختار له أبوه الولاية على «مغنيسيا» وهو في سن مبكرة، لم يبلغ الحُكم بعد، وقد انتقل معه معلموه ومربوه إليها... ورافقوه في إقامته فيها، يُولونه عنايتهم ورعايتهم وتوجيههم.

أما النظام الذي اتبع معه في التعليم فقد كان (أكاديمياً) -مرحلياً منظماً، ابتدائياً وإعدادياً وثانوياً، ثم جامعيًا...!

وقد أثر ذلك كُلّ التأثير في منهجيته الإصلاحية، حين تولى السلطنة العثمانية العامة بعد وفاة أبيه، إذ أحدث انقلاباً في نظام التعليم على مستوى الدولة.

ثقافته:

ونتيجة لما تلقاه فقد كانت ثقافته واسعة..

إذ أتقن اللغات: العربية والفارسية فضلاً عن التركية...! وكانت عنايته بالأدب والشعر خاصة وأثر عنه قول الشعر ونظمه، وله ديوان باللغة التركية...

وكثيراً ما كان يردد هذين البيتين من نظمته:

نيتي هي الامتثال للأمر الإلهي «جاهدوا في سبيل الله»

وحماسي إنما هو حماس في سبيل دين الله

كما أتقن الأمير «محمد» اللغات اللاتينية، واليونانية، والصربية (لغة أمه) . . . ! ولا يخفى أهمية التوسع في إتقان تلك اللغات لأمر في طريقه إلى تولي أمور وشئون الدولة العثمانية، التي كانت تعتبر في حينها أعظم دولة في المشرق والمغرب -على السواء-.

دور فترة الإمارة:

لقد أثرت فترة الإمارة في شخصية «محمد»، فجعلته -بفضل توعية أساتذته- من أكثر الأمراء العثمانيين وعياً في دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، وبخاصة أن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الكبيرة، ذات الدوى، والتي أثرت في مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب العظمة في تلك الشخصيات، كما وضحو له نقاط الضعف فيها. . . ، أملاً أن يكون أميرهم ذات يوم من أكثر الحكام خبرة وحكمة وعبقرية.

ولا شك أن الشيخ «آمد شمس الدين» لعب دوراً كبيراً في تكوين شخصية الأمير «محمد»، وأن يث فيه منذ صغره أمرين جعلاً منه فائحاً. . . ، وهما:

- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

- الإيماء دوماً لـ «محمد» -منذ صغره- بأنه هو الأمير المنتظر، المقصود بالحديث النبوي الشريف: [تفتحن «القسطنطينية»، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش].

فكان هذا الحديث الشريف لا يفارق وجدان الأمير وتطلعاته. . . وآماله.

السلطان:

كان «محمد» قد شارك والده السلطان «مراد الثاني» بعض حروبه، وتدرّب على فنون القتال، وطبق النظريات العسكرية التي تعلمها، وأبدى فنوناً وشجاعة وقوة. . . ، وهو يدرج نحو الثالثة عشرة من عمره. . . ، ولقد شعر السلطان «مراد» ببعض التعب والإرهاق من جرّاء ما قام به من إخماد فتن أو ملاقات أعداء،

وتوسعات فى الفتوح، فأثر أن يستريح وقد رأى فى ولده «محمد» الكفاءة التامة...، فتنازل له عن العرش لىستريح...!

عندئذ شكل الأوروبيون حملة عسكرية على الدولة العثمانية، شاركت فيها قوات من «المجر»، و«تولونية» و«ألمانيا» و«فرنسا» و«البندقية»...، واتجهت جحافلها الجرارة تكتسح كل شىء أمامها.

وتأهبت الدولة العثمانية لرد العدوان، فاجتمع مجلس شورى السلطان، وقرر طلب العودة من «مراد» إلى القيادة...، فترل عند رغبتها، وقاد الجيوش العثمانية -ومعه «محمد»-، وتقابل الطرفان فى سهل «فارنا» من أرض «بلغاريا» -على البحر الأسود-، واستطاع «مراد» بحنكته ودرايته وشجاعته أن يهزم جموع الأوروبيين، هزيمة ساحقة ماحقة، ويشتت جموعهم، ويلاحقهم... إلى ما وراء حدود سلطانه فى بلاد «البلقان»، وكان ذلك فى عام (٨٤٨هـ) -الثامن والعشرين (٢٨) من شهر «رجب».

وترك هذا الانتصار العظيم صدهاء فى كل أرجاء العالم الإسلامى، حتى إن السلطان المملوكى «جقمق» -حاكم مصر- أمر أن يذكر اسم السلطان «مراد الثانى» فى خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة العباسى!

وفاة السلطان «مراد» وتولى «محمد» - الفاتح - :

بعد حياة حافلة بالجهاد والعطاء توفى السلطان «مراد الثانى» فى الخامس من «المحرم» عام خمسة وخمسين وثمانمائة (٨٥٥هـ). والموافق للسابع من شهر فبراير «شباط» عام (١٤٥١م).

فتولى «محمد» السلطنة ومقاليدها ومسئولياتها، بمبايعة أهل الحل والعقد فى الدولة العثمانية، وله من العمر عشرون سنة.

أول الاهتمامات:

كان فتح «القسطنطينية» أول اهتمامات السلطان «محمد» عندما تولى عرش البلاد، وتسبب المسئولية، لىس بدافع من مغامرة عسكرية، أو رعونة شباب، ولكن من خلال نظرة موضوعية.

لقد سبقه إلى محاولة الفتح آباؤه وأجداده، ومن سبقهم فى التاريخ القريب والبعيد، وكلهم حاصرها وشدد عليها، ولكنها ظلت ممتعة، وعقبة كؤود فى الطريق إلى «أوروبا»، وتشكل خلفية عسكرية خطيرة وراء الجيوش الإسلامية الزاحفة هنا وهناك فى «أوروبا» حتى «فيينا» . . . وقلب القارة، فلا بد من فتحها، ومهما كان الثمن، وبخطة عسكرية مدروسة، ومفاجآت لم تعهدها من قبل.

كان يرى أن فتح «القسطنطينية»، فضلاً عن أنه يحقق أملاً عقائدياً عنده، فإنه أيضاً يسهل للدولة العثمانية فتوحاتها فى منطقة البلقان وشرق أوروبا، ويجعل رقعة بلاده متصلة لا يتخللها عدو، ولا يهدد أمنها، وكما قلنا فإن «القسطنطينية» كانت تمثل المانع الذى يعترض طريق الفتوحات فى أوروبا!!! فلا بد من فتحها والاستيلاء عليها، وإزاحتها من الطريق.

«أدرنة» - العاصمة:

كانت «أدرنة» تقع فى الشمال الشرقى من «القسطنطينية»، وقد اتخذها سلفه عاصمة للدولة العثمانية، ومشى هو على نهجهم، مع أنها - فى موقعها الجغرافى - غير آمنة، لكنها كانت القاعدة التى ينطلق منها إلى قلب «أوروبا»، فكان تجهيزها وتحصينها على مستوى عالٍ.

المدفع السلطانى:

كان أحد المهندسين «البلغار» قد فكر فى اختراع المدفع، وعرض الأمر على المسئولين فى بلاده، فأروا أن تكاليفه باهظة، وليس فى مقدورهم الإنفاق عليه. فجاء إلى السلطان «محمد» وعرض عليه فكرته. . . . فوافقه على الفور، وبدأ العمل فى صب العدد العديد من المدافع. . . . وجربت فنجحت.

رومللى حصار:

وتعنى باللغة العربية -قلعة الروم-!

وكان جده «بايزيد الصاعقة» قد بنى أثناء محاولته فتح «القسطنطينية» قلعة على الضفة الآسيوية من مضيق «البوسفور» سماها «أناضولى حصار» - أى: قلعة

«الأناضول»، وكان موقعها على أضيق نقطة من المضيق، فقرر السلطان «محمد» بناء قلعة في الجانب الأوروبى فى المضيق تُقابل الأولى.

وكان القصد من هذا العمل العسكرى التحكم فى المضيق من كلا طرفيه...، وبحكم دراسته الرياضه الهندسية، فقد وضع السلطان «محمد» بنفسه تصميم القلعة وتخطيطها واختيار موقعها.

ونفذها المهندس المعمارى «مصلح الدين أنما»، وقد حشد للعمل فيها سبعة آلاف «٧٠٠٠» عامل، فأتموها فى أربعة أشهر.

ولو قدر لك بإذن الله - عزيزى القارئ- زيارة «استانبول» ومشاهدة آثار هذه القلعة الباقية إلى اليوم، فإنك سترى عجباً...، للارتفاع الشاهق فى الموقع والأسوار والأبراج...، وستتهك فى الوصول إلى أعلاها.

وبعد أن تم البناء، وحشدت القلعة بالجنود والعتاد، خرج بعضهم لمشاهدة القسطنطينية عن كثب، ف وقعت بينهم وبين أهل الضاحية من «البيزنطيين» مشادات وشغب، مما اضطر الملك «قسطنطين» أن يأمر بإخلاء تلك الأماكن من ساكنيها وإدخالهم إلى «القسطنطينية»، وإيوائهم فيها حرصاً على حياتهم، وإغلاق الأبواب الضخمة، وإحكام رتاجها.

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن «القسطنطينية» كانت تحتمى وراء ثلاثة أسوار، الواحد تلو الآخر، وبين كل منها مسافة...!

بدء الحملة:

فى ربيع عام (٨٥٧هـ) (١٤٥٣م) بدأت حملة الفتح، وقد حشد لها السلطان «محمد» عشرين ألف جندى على أربعمائة «٤٠٠» سفينة، وثمانين ألف جندى بين فارس وراجل...، فكان مجموع قواته مائة ألف جندى، يدعمها مائتى مدفع. وحوصرت «القسطنطينية» براً وبحراً، استعداداً للزحف.

وكانت سفن البحرية العثمانية -على كثرتها- ضعيفة الإعداد والاستعداد، فوقفت فى مقابلة خليج القرن الذهبى عاجزة عن الدخول إليه، إذ كانت تسده

سلسلة حديدية، غليظة الحلقات...، تتحطم السفن إذا حاولت الاقتحام، فاكفى قائد البحرية العثمانية «بلطة أوغلو سليمان بك» بمراقبة الموقف...! عاجزاً عن فعل أى شىء.

فى أثناء ذلك، وصلت سفن قادمة من «جنوا»، أرسلها «البابا» لنجدة «القسطنطينية»، واستطاعت أن تشق طريقها إلى «الخليج» الذى رفعت سلسلته الحاجزة، بعد معركة بحرية، لم يصمد لها الأسطول العثمانى،

القائد العسكرى العبقري...! السلطان «محمد» الفائع...!

لم يأس السلطان لما حدث، بل شحذ ذهنه الوقاد، مختلياً بنفسه فى خيمته، حتى برقت له بارقة أمل...!

ثم جمع قواده، وأوحى إليهم بالفكرة، التى كانت رغم صعوبتها خطة مفاجأة مبتكرة، لم يعرفها قائد عسكرى فى التاريخ.

فقد نُقلت السفن برّاً من فوق رؤوس التلال العالية زحفاً على ألواح خشبية مطلية بالزيت...، متجاوزة منطقة «غلاطة»،

وكان الوقت ليلاً...، وأبدى الجنود منتهى القوة والحزم، وأنزلت السفن، وعددها (٦٧) سفينة فى مياه الخليج -القرن الذهبى-، وفوجئ «البيزنطيون» بتلك القوة البحرية ماثلة أمام أعينهم، وقد رُصت واحدة بإزاء الأخرى لتصل بين ضفتى الخليج، وكأنها الجسر، ليسهل على الجنود العبور عليها...!

ويقول المؤرخ «دوكاس» - الذى عاصر ذلك وشاهده -:

(إنها لمعجزة... لم يسمع أحد بمثلها من قبل، ولم ير أحد مثلها من قبل...).

قبل الهجوم العام:

أرسل السلطان «محمد» -إلى الإمبراطور «قسطنطين» يطلب منه تسليم المدينة حقناً للدماء، ومن حق الإمبراطور أن ينسحب إلى أى مكان يريد، بكل أمواله وخزائنه، وتعهده له السلطان بتأمين أهل «القسطنطينية» على أموالهم وممتلكاتهم وأرواحهم... إن فعل ذلك، وكان هذا الإنذار هو الإنذار الثانى.

ولكن «الجنوئين» - رفضوا ذلك، وطلبوا من الإمبراطور أن يرد بالرفض - أيضاً.. ، وقد كان.

الهجوم العام:

عند فجر يوم الثامن والعشرين من شهر مايو (آيار)، وبعد الصلاة، اتجه السلطان «محمد» إلى مواقع الهجوم... ، وأخذت المدافع الضخمة ترمى بقذائفها، وهى كرات من الصخر... ، تلك الأسوار، ويسمع لها دوى من أماكن بعيدة. وصدر الأمر السلطانى بإخراج ونشر العلم العثمانى من محفظته... ، وهذا يعنى بداية الهجوم العام.

ثلاث خطط مبتكرة:

لم تفلح المدفعية فى فتح ثغرات فى الأسوار، لضخامتها... . ففكر القائد العبقرى فى إقامة أبراج من الخشب، تساوى فى علوها الأسوار، وتغطى بالجلود، وتحشد بالجنود، وتجربها عجالات، لتكون قاب قوسين أو أدنى من الأسوار، ويسهل من خلالها اصطياذ جنود العدو... ، وقد تم ذلك فى ليلة واحدة... ، وفوجئ «البيزنطيون» بهذه الأبراج ماثلة أمامهم، لايفصلهم عنها إلا بضعة أمتار... !

ومن ثم قذفوها بالنيران، بالكتل المبللة بالنفط المشتعل... ، فتهافت وسقطت... !

ثم عول القائد العبقرى على حفر خنادق تمر من تحت الأسوار الثلاثة... ، ورغم الانتهاء منها فى مدة قصيرة وتسلسل الجند العثمانيين من خلالها، إلا أنهم صدّوا وتراجعوا... !

وأخيراً كان لابد من استخدام المدفع السلطانى الجبار... !

والمدفع السلطانى كان يزن الأطنان، ويجره ثمانون ثوراً من الجاموس، ويعمل عليه أربعمئة جندى، مثنان عن اليمين ومثنان على الشمال، ووزن قذيفته ألف

وخمسمائة كيلوجرام «١٥٠٠» كلغ، ويصل مدى القذيفة إلى كيلومتر ونصف تقريباً «١٦٥٠»م، ويسمع لدوى قذيفته هذه صدى يصل إلى خمسين كيلومتراً!.

وقد وُضع على تل مرتفع، يعرف اليوم بـ«توب كابو» أى: تلة المدفع، وهي حتى من أحياء «استانبول».

وبدأت قذائف المدفع السلطاني تلك الأسوار، وأحدثت فيها ثغرات... ثم تقدم الجنود العثمانيون ببسالة متقطعة النظير يرمون بالسلاسل من الحبال على الأسوار، ثم يعتلونها... موجة إثر موجة...

واستطاع جندى عثماني أن يرمى قائد البيزنطيين «جوستنيان» بسهم فيصيبه إصابة بالغة... فانسحب «جوستنيان» من الميدان، رغم ترجى الإمبراطور «قسطنطين» له بالبقاء...

وكان أول شهداء الأبطال العثمانيين المهاجمين الأمير «ولى الدين سليمان»، الذى رفع العلم العثماني فوق الأسوار... وقبل أن يسقط العلم من يده اندفعت ثلة من الجند تتلفقه وترفعه ثانية...!

وراحت أرتال الجنود العثمانيين تتدفق إلى داخل المدينة، وقد فتحت بعض أبوابها، أو من خلال الثغرات التى أحدثتها قذائف المدفع السلطاني...!

كما شدت السلسلة الحديدية التى تحجز وتحمى مدخل «القرن الذهبى»... فما برحت سفن الأسطول العثماني تمخر عُبَاب اليم حتى أحاطت بسفن البيزنطيين وقضت عليها وعلى من فيها...!

محمد الفاتح...!

ودخل السلطان «محمد الفاتح» إلى المدينة... وقد شلت حركة المقاومة فيها، بل تلاشت...! دخل ممتطياً سهوة جواده الأبيض، يتلو آيات من القرآن الكريم، واتجه إلى كنسية «آيا صوفيا»... التى ازدحمت بالناس، شبيهاً وشباناً وشيوخاً وأطفالاً ونساءً ورهباناً وقسا...!

فلما رأوه خروا سجداً ويكباً..، مولولين صارخين ضارعين...!

نزل الفاتح عن حصانه، وصلى ركعتين لله تعالى شكراً على ما أنعم عليه من
الفتح المبين...!

فلما انتهى نظر إلى القوم فإذا هم مازالوا ساجدين، فأنزعج.. وقال لرهبانهم:
(كفوا.. واستقيموا، فأنا السلطان «محمد» أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل
الموجودين هنا، إنكم منذ اليوم فى أمان من حياتكم وحریاتكم...)
بهذا الأمان أعطى الفاتح حرية العودة للفارين والهاربين من أهل المدينة، كما
أعطى أوامره بعدم التعرض للشعب «البيزنطى» بأى أذى.

مسجد «آيا صوفيا»:

ثم أمر الفاتح بتحويل كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد، على أن تُصلى فيه أول
جمعة بعد الفتح^(١).

و«آيا صوفيا» تعتبر أكبر كنيسة فى العالم -يومذاك- وأقدم مبنى دينى فى أوروبا
كلها،

ورفعت المآذن فوقها، ونودى بالأذان، وسميت المدينة «إسلام بول»، أى مدينة
الإسلام، بدلاً من «القسطنطينية»، ثم حُرِفَتْ إلى «استانبول»، بعد أن حول اسمها
أيضاً إلى «الآستانة».

سلوك الفاتح^(٢)

كان سلوك «الفاتح» عندما دخل «القسطنطينية» ظافراً سلوكاً مختلفاً تماماً عما
تقول به شريعة الحروب فى العصور الوسطى، وهو نفى شعب المدينة المفتوحة إلى
مكان آخر، أو بيعه فى أسواق النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر
الغربى المعاصر له، من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتى:

(١) كان الفتح يوم الثلاثاء.

(٢) نقلاً عن (الدولة العثمانية) - مجموعة سفير (ج: ٨) (ص: ٢٥).

- أطلق سراح الأسرى فوراً نظير مقابل مادي قليل، يسدد على أقساط طويلة المدى.

- وأسكن الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغام من المنازل الواقعة على ساحل الخليج.

- وعندما أبيحت «القسطنطينية» للجنود ولمدة ثلاثة أيام -عقب الفتح-، كان هذا الإذن مقتصرًا على الأشياء غير المعنوية، فلم تُغتصب امرأة، ولم يمس شيخ ولا عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى...، ولم تهدم كنيسة ولا دير ولا بيعة، مع أن المدينة أخذت بالحرب، ورفضت التسليم.

وكان من حق «الفتاح» قانونًا -مادامت المدينة قد أخذت عنوة- أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالكًا لكل ما في المدينة، وأن يحوّل نصف الكنائس والبيع على مدى زمني طويل إلى جوامع ومساجد، وأن يترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه...!

وفي وقفيات السلطان «محمد الفاتح» بنود كثيرة على إبقاء بعض الأديرة في أيدي البيزنطيين.

(واعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على حاخام «موسى كاتالي».

وعين في سنة (١٤٦١م) - (٨٦٥هـ) للجماعات الأرمنية بطريقًا يدعى «يواكيم» ليشرف على مصالح الأرمن).

واهتم الفاتح بالمدينة المفتوحة اهتمامًا عظيمًا، فاستقدم إليها العديد من العمال والمهندسين، لإعادة ترميمها، وإبرازها أحسن مما كانت...!

وجعل أمور الأحوال الشخصية لرعاياه من غير المسلمين، متعلقة بأديانهم وتقاليدهم، وما تعارفوا عليه، وهذه ظاهرة حضارية سبق بها عصره.

بين الحروب والأعجاد العسكرية وبين البناء الاجتماعى...!

بعد فتح «القسطنطينية» سنة (١٤٥٣م)، وكانت سن الفاتح إذ ذاك إحدى وعشرين سنة، اتجهت همته إلى القيام بحملات عسكرية، متتابعة، فى أوروبا...!

ففى سنة (١٤٥٩) فتح بلاد «الصرب»...!

وفى عام (١٤٦٠) فتح بلاد «المورة»...!

وفى عام (١٤٦٢) فتح بلاد «الأفلاق» وضمها إلى سلطانه.

وفى ما بين عامى (١٤٦٣ - ١٤٦٥) فتح بلاد «البوسنة والهرسك».

وفى ما بين عامى (١٤٦٣ - ١٤٧٩) فتح «ألبانيا».

تلك الحروب الطاحنة، والاستحواذ على تلك الدول، وضمها إلى سلطان الدولة العثمانية، لم تشغل «الفاتح» عن التنظيم الداخلى للدولة.

ومن يظن أو يعتقد بأن هم الفاتح كان منصباً على المجد العسكرى وحده فهو واهم...، ذلك أنه -رحمه الله- كان من رواد العلم والمعرفة والتحديث.

ويكفى أن نذكر طرقاً واحداً من أعماله الإصلاحية لنذكر أن الرجل قد بنى دولة عصرية، بل سابقة لعصرها، بكل ما فى الكلمة من معنى.

هذا الطرف كان فى مجال التعليم...!

ولأول مرة فى تاريخ العالم ينظم الفاتح مراحل الدراسة: ابتدائية، ومتوسطة، وثانوية، وجامعية تخصصية.

والشاهد على ذلك ما يزال قائماً إلى يومنا هذا...!

ففى المسجد المسمى باسمه فى «استانبول» تجد أبنية تحيط بصحنه، قد خصصت قاعاتها للمراحل التى سبق لنا ذكرها.

وقس على ذلك بقية الأتحاء فى الدولة العثمانية، إذ عم هذا النظام كل الديار. وما من شك -أبدًا- فى أن التعليم من أعظم ما تبنى عليه شخصية المواطن المعرفية.

وهذا ما عُرف من بعدُ بالنظام «الأكاديمى».

وفاته:

ما كاد الفاتح يبلغ الحادية والخمسين من عمره حتى دب إليه الكلل، ووهن الجسم، ذلك أنه منذ بلوغه الثانية عشرة وهو فى خضم الأحداث...، وأى أحداث، وأية مسؤوليات جسام!!!

وقع فريسة المرض، ثم توفاه الله تعالى إليه.

رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأوفاه.

«الفاتح» فى التاريخ:

يكفيه فخراً ومجداً وعزاً أنه تحققت فيه نبوءة سيدنا رسول الله ﷺ...!

ويكفيه فسخراً ومجداً وعزاً أنه إذا ما ذكر لقب «الفاتح» انصرف إلى «السلطان محمد الثانى» -العثمانى.

ويكفيه فخراً ومجداً وعزاً أن سنة (١٤٥٣)م - سنة فتح «القسطنطينية» -يؤرخ بها لدى الغربيين.

ويكفيه فخراً ومجداً وعزاً أن المؤرخين الغربيين يحترمونه ويقدرونه ويعظمونه، سواء من أحبه فأنصفه، أو كرهه فأجبر على احترامه.

ويكفيه فخراً وعزاً ومجداً أنه يحمل أكرم الأسماء وأجلها، اسم «محمد»...!

ويسوءنا نحن المسلمين، أن تطوى صفحة الفتوح من بعده...

(ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)

٢٠- حذيفة بن اليمان

لم يبلغ أحد من الصحابة -رضوان الله عليهم-، مع كسرتهم وقربهم وإخلاصهم لله ورسوله ﷺ... هذه المرتبة سوى «حذيفة»، وهذا شرف عظيم وثقة بالغة.

ولقد اشتهر بها بين أقرانه الذين عرفوا له تلك المنزلة من رسول الله ﷺ، وقدروها واحترموها، سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد لحوقه بالرفيق الأعلى.

وكان النبي -صلوات الله وسلامه عليه- يقدر الأمور والأحداث والأشخاص بحكمة أوتيها من لدن المولى سبحانه وتعالى، ويختار لكل ما يتفق مع الضرورات، ويتلائم مع المتطلبات.

ففي ليلة هجرته -عليه الصلاة والسلام- من «مكة» إلى «المدينة» اختار علياً «كرم الله وجهه» ليكون في فراشه بدلاً عنه، إيهاماً وتضليلاً للمشركين من قريش، مع ثقته ﷺ أنهم لن يضروا علياً بسوء، ولن يخلصوا إليه بمكرهه، وقد قال له ذلك...

وليكون أيضاً أميناً على المدخرات والمستودعات التي كانت عنده، فيعيدها إلى أصحابها تامة غير منقوصة،...!

وكذلك -أيضاً- لمرافقة أهله وحمايتهم من الأذى في هجرتهم، لأنه ابن عمه ومن ذوى رحمه.

كما اختار «أبا بكر الصديق» -رضي الله عنه- ليكون الرفيق له -ﷺ- في الهجرة...!

فمن بيت «أبي بكر» كان المنطلق، وفي الغار -غار ثور- كانت الصحبة، وفي الرحلة العظيمة كان نعم الرفيق...!

كما كان «الفاروق» - «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - وزيراً ومشيراً، صادق اللهجة، شديد النظرة، شديد الحب...

إذا...

كان لكل من كبار الصحابة، من المهاجرين والأنصار، موقعه ومكانته فى قلب النبى ﷺ ومنزلته فى العمل الجهادى!

وعليه فقد اختار «حذيفة بن اليمان» - رضى الله عنه - ليكون كاتباً لسره...

ولم يأت هذا الاختيار من فراغ، فإن لذلك أسبابه ودواعيه، وأحداثه ووقائعه، سنعرفها - إن شاء الله تعالى - ونحن نعرض لسيرة هذا الصحابى الجليل.

أما كونه من أبطال الفتح فتلك حقيقة تاريخية تشهد بها أرض «العراق» و«فارس»، ولم يكن بطلاً فحسب، بل كان أيضاً قائداً...

والآن هيا معنا - عزيزى القارئ - نجوب أنباء تلك الشخصية الفذة...

النسب:

يتنسب «حذيفة» - رضى الله عنه - إلى «بنى عبس»، القبيلة العربية المشهورة بأسرها، وكثرة عدد أفرادها، وإغراقها فى جاهليتها، فلذلك يقال فى نسبه: «حذيفة بن اليمان العبسى».

وكان والده «حُسيل» قد حل بـ «المدينة» قبل الهجرة، وحالف «بنى عبد الأشهل»، وحين دخلوا فى الإسلام أسلم معهم فى عشرة من بنى عبس.

مهاجرى أم أنصاري؟؟

ولقد خير النبى ﷺ «حذيفة» بين أن يكون مهاجرياً أو أنصارياً، قائلاً له:

- [إن شئت كنت من المهاجرين، وإن شئت كنت من الأنصار...!]

فاختار «حذيفة» النصرة على الهجرة، وفاءً منه لحلفائه «بنى عبد الأشهل»...

وحين آخى النبى ﷺ بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار، كان «حذيفة» و«عمار بن ياسر» أخوين فى الله.

من نبع النبوة:

وعاش «حذيفة» -رضى الله عنه- فى المدينة المنورة وقد استضأت بنور الإسلام، ينهل من نبع النبوة الصافى أعذب السقى، فيسرى فى كيانه وعروقه دماء تلتهب بحرارة الإيمان، وتشع بضياء الإسلام.

وأقام دينًا على العهد، صادق الوعد، يترقى صُعدًا...، فاكسب ثقة النبي ﷺ، وجهه .

لم يحضر بدرًا...؟!

بل حضر وقائعها...! ولكنه لم يقاتل...! كيف؟؟ ولماذا؟؟

علم المسلمون بقافلة قريش يقودها «أبوسفيان» -صخر بن حرب بن أمية-، العائدة من الشام، المحملة بمختلف البضائع الباهظة الثمن، فخرجوا لها...!

وعلمت «قريش» بخروج المسلمين، فخشيت على مالها ونفوذها، فخرجت بخيلها وخيلائها إلى «بدر» لتمنع المسلمين، وتحمى أموالها وسلطانها وهيبتها.

وما كانت غزوة «بدر» لتفوت «حذيفة»، المؤمن الصادق، فخرج مع والده «حُسيل» فى جيش المسلمين...، غير أنهما وقعا أسيرين فى أيدي «القرشيين»، فاحتجزوهما ثم أطلقوهما بعد أن أخذوا عليهما العهد أن لا يقاتلا إلى جانب «محمد»...!

فجاء «حذيفة» مع والده إلى رسول الله ﷺ يخبرانه بما وقع لهما، ويسألانه:

- هل نقاتل أم لا؟!

فقال لهما - ﷺ -:

- [بل نفى لهم، ونستعين الله عليهم...]

وهكذا ، لم يقاتل «حذيفة» -رضى الله عنه- يوم «بدر».

يوم «أحد» والفاجعة المضاعفة:

لكن «أحدًا» لم تفته...!

وكان له فيها أكثر من موقف مشهود !!

وتفصيل ذلك:

أن النبي ﷺ لما خرج بالمسلمين إلى «أحد» جعل كبار السن والنساء والذراري في الأكام والمرتفعات من «المدينة»، حماية لهم وتحصينًا.

فكان «حُسيل بن جابر» -والد «حذيفة»- و«ثابت بن وقش» ممن أعفوا من القتال.

وفي إبان المعركة واحتدام القتال قال أحدهما للآخر:

- لا أبًا لك!!! ماذا ننتظر؟ إنما نحن هامة -جثة هامة- اليوم أو غدا...

هيا نحوز شرف الشهادة أو النصر.

فقاما ولحقا بالمسلمين، وانخرطا في الصفوف...

وسقط «ثابت بن وقش» -الأنصاري- شهيدًا...

كما التقت سيوف المسلمين -عن غير قصد أو تمييز- على «حُسيل» -والد

«حذيفة»، فسقط هو الآخر قتيلًا، وهنا صرخ «حذيفة»:

- أبى... أبى... يغفر الله لكم...!

وبكاه بحرقة وآلم، وترحم عليه رسول الله ﷺ، كما دفع لـ «حذيفة» دية

والده...! ترى ماذا يفعل «حذيفة» بهذا المال...؟!

لقد تصدَّق به على فقراء المسلمين ومعوزيهم...! مما رفع شأنه وزاده مكانته

عند رسول الله ﷺ.

يوم «الأحزاب» أو «الخنندق»:

ما كاد المسلمون يفرغون من حفر «الخنديق» حول المدينة^(١) ليدفعوا عنهم أذى

الأحزاب من قريش وحلفائها، واليهود...، حتى داخلهم خوف شديد، وعانوا

(١) كان الخندق بين جبلى: «أحد» و«معل».

أشد الضيق، لتظاهر عدوهم عليهم، ونقض «بنى قريظة» اليهود عهدهم مع النبي ﷺ...! إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكان الفصل شتاءً، قارس البرد...!

إلا أن الله تعالى آمنهم من خوفهم، وأيدهم على عدوهم، ونجاهم من ضيعتهم هذه بتخذيّل المشركين عنهم، وكان للصحابي الجليل «نعيم بن مسعود» - الغطفاني الأشجعي - دور عظيم وفضل كبير سخره الله تعالى إليه.

إذ جاء «نعيم» إلى معسكر المسلمين، وقد هداه الله، ودخل على رسول الله ﷺ وقال: - يارسول الله... إني قد أسلمت، وإن قومي -والأحزاب- لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت مما يعينك على عدوك. فقال له رسول الله ﷺ:

- إنما أنت رجل واحد... ماذا عسى أن تفعل، ولكن خذك^(١) عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة!

فخرج «نعيم» حتى أتى «بنى قريظة»، وكان نديماً لهم في الجاهلية وصاحباً، وقال لسيدهم «كعب بن أسد»:

- قد عرفتم ما بيني وبينكم من الود...!

فقال له «كعب»:

- صدقت... ولست عندنا بمتهم... فماذا في الأمر؟!

فقال «نعيم»:

- إن «قريشاً» و«غطفان» ليسوا مثلكم، فهذا البلد (المدينة) بلدكم، وفيها أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا عنه إلى غيره، وإن «قريشاً» و«غطفان» قد جاؤوا لحرب «محمد» وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه...، ورأيتم من قبل ما وقع لإخوانكم «بنى قينقاع» و«بنى النضير» من إجلالهم وأخذ أموالهم وديارهم.

(١) خذل عنا: أدخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً.

و«قريش» و«غطفان» ليسوا مثلكم، فهم إذ رأوا فرصة انتهزوها، وإلا انصرفوا إلى بلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل (يعنى رسول الله ﷺ)، ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من «قريش» و«غطفان» أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا رهائن من أشرف أبنائهم عندكم، فتضمنوا بقاءهم وصدقهم فى حريهم...!

فاستحسنوا رأيه، واستجابوا له.

ثم أتى معسكر الأحزاب، واجتمع إلى قائدهم «أبى سفيان» على انفراد لأمر هام وعاجل، وقال له:

- تعرفون وُدَى لكم ومحبتى إياكم، وإنى محدثك بحديث فاكتمه عني...!

فقال أبو سفيان باهتمام :

- نفعل ... ، وما ذاك الحديث يا «نعيم» ؟؟

قال «نعيم» :

- إننى آتيك الآن من عند «بنو قريظة»... ، وقد عرفت أنهم قد ندموا على ما فعلوه مع «محمد»، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، وأرسلوا إليه:

- أيرضيك يا «محمد» أن نأخذ جمعاً من أشرف «قريش» و«غطفان» ونقدمهم لك، وترد إلينا جناحنا الذى كُسر، فتعيد «بنى النضير» إخواننا إلى «المدينة»...!

فرضى منه بذلك...

وهاهم الآن مرسلون إليكم فاحذروهم...!

فأرسل «أبوسفيان» وفداً إلى «قريظة» يدعوهم للقتال فى اليوم التالى... ليرى رد فعلهم إلى طلبه، فأجابوه:

- لا يمكننا أن نقاتل غداً، لأنه يوم سبت... ، ونحن لانقاتل فيه ولا نتعدى... ، وأيضاً لن نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم، ولا تتركونا فريسة وحدنا...!

وبهذا -عزيزى القارئ- بدا لـ «قريش» و«غطفان» - والأحزاب - صدق «نعيم»... ، وتفرقت قلوبهم ، وخاف بعضهم بعضاً...

وكان رسول الله ﷺ قد ابتهل إلى الله تعالى الذى لا ملجأ إلا إليه ، :

(اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب ... اهزم الأحزاب... اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)،

وقد استجاب الله -عز وجل- لدعاء رسوله ﷺ ، فأرسل على الأعداء ريحاً عاتية باردة فى ليلة مظلمة حالكة... !

وخاف الأحزاب أن تتفق اليهود مع المسلمين عليهم ، ويهاجموهم فى تلك الليلة المدلهمة... ! وقلقوا... ، وقد صمموا على فك الحصار والرحيل .

كاتم السر «حذيفة»:

وكان لـ «حذيفة» فى ذلك اليوم دور عظيم ومغامرة جريئة، لا تقل شأنًا عن دور «نعيم بن مسعود» وقد استحق بجدارة أن يكون صاحب سر رسول الله ﷺ . يحدثنا بنفسه عن ذلك...

قال -رضى الله عنه- :

- (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وقد صلى رسول الله ﷺ هويًا (جزءًا) من الليل، ثم التفت إلينا فقال:

- من رجل يقوم ويدخل معسكرهم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟

فما قام رجل من القوم من شدة البرد، وشدة الجوع، وشدة الخوف... !

فلما لم يقوم أحد دعانى رسول الله ﷺ، فلم يكن لى بدًا من القيام حين دعانى، فقال:

- «يا حذيفة» اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يصنعون، ولا تحدثن شيئًا حتى

تأتينا...)

وهنا - أرجو القارئ العزيز أن يلاحظ معي أن رسول الله ﷺ قد اختار «حذيفة» دون غيره... ، وأنه أمره أن يحاذر من إحداث شيء يلفت النظر إليه... فينكشف، وأنه ﷺ قد اشترط عليه الرجوع...!

وكلها مهام صعبة، وفي ظروف غاية في الصعوبة!!!
ونعود إلى «حذيفة» -رضى الله عنه- لنستمع إليه وهو يتابع حديثه،
فيقول:

(فذهبتُ فدخلتُ في القوم، والريح وجنود الله (الملائكة) تفعل بهم ما تفعل،
لا يقر لهم قدر ولا نار ولا بناء... ، فقام «أبوسفيان» فقال:
- يا معشر «قريش» لينظر امرؤ من جلسه...!؟

فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ فقال: فلان بن
فلان...!

ثم قال «أبوسفيان» :

- يا معشر قريش... إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك
الكراع^(١) والخلف^(٢) وأخلفتنا «بنو قريظة» وبلغنا عنهم الذي نكره، وتعبنا من شدة
الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء
(الخيام)، فارتحلوا... فإني مُرتحل.

ثم قام إلى جملة وهو معقول، عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله
ما أطلق عقاله إلا وهو قائم. (يعني بذلك سرعة الحركة في الرحيل خوفاً)

ولما أراد الرحيل قال له «صفوان بن أمية»:

- إنك رئيس القوم ، فلا تتركهم وتمضي...!

لكن «أبا سفيان» لم يستمع إليه، وأذن بالرحيل... وترك «خالد بن الوليد»
في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين، حتى لا يدهموا من ورائهم.

(١) الكراع: الخيل.

(٢) الخلف: الجمال.

وسمعت «غطفان»، بما فعلت «قريش»، فانشمروا راجعين إلى بلادهم.)
ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى: [أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني] لقتلته
بسهم...! (أى أباسفيان) فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى، فلما
رأى ركع وسجد، فلما سلم أخبرته الخبر) أ.هـ.

ويحدثنا «حذيفة» أن رسول الله ﷺ وهو فى صلاته كاد يلتحف بمرط لإحدى
زوجاته من شدة البرد فى تلك الليلة، وأنه ﷺ قد لف «حذيفة» بهذا المرط... إذ
كان يرتجف وترتعش أعضاؤه وأوصاله... حتى دفى، ثم استمع إليه.
ويتابع حديثه -رضى الله عنه- فيقول :

(ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن «الخنق» راجعاً إلى المدينة مع
المسلمين، ووضعوا السلاح) أ.هـ.

وهكذا - عزيزى القارئ- أراح الله تعالى عن المسلمين يوم الأحزاب -أو
الخنق- تلك الغمة التى اجتمع فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين،
ولولا لطف الله -عز وجل- بهذا الدين الخفيف منه وفضلاً لتفاقم الأمر،
وراءت الحال، ولكن الله سلم.

رام تكن هذه هى المهمة الوحيدة التى قام بها «حذيفة» -رضى الله عنه-...!

لقد كان المجتمع المكى عند ظهور الإسلام ينقسم إلى فريقين، فريق هداه الله
تعالى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وفريق أقام على ولائه للأوثان والأصنام،
وأصر على الكفر والشرك، واستكبر استكباراً. أما مجتمع المدينة المنورة بعد
الهجرة الشريفة فقد نجم فيه فريق ثالث، هم فريق المنافقين، الذين إذا اجتمعوا
بالمسلمين قالوا إنا معكم، وعلى رأسهم «عبدالله بن أبى بن سلول»، وإذا خلوا
إلى شياطينهم وعادوا إلى ذواتهم قالوا إنما نحن مستهزون... يُبطن الكفر ويظهر
الإسلام.

هذا الفريق كان من أشد الأخطار على الإسلام والمسلمين، ولقد عانى منه
رسول الله ﷺ وأصحابه أشد المعاناة...، وكان لابد من مراقبته من طرف

خفى، والاطلاع على مؤامراته وتدبيراته ومكره، فكان سيدنا «حذيفة» -رضى الله عنه- خير من يقوم بهذه المهمة، فكان عيناً متيقظة واعية تتابع بسرية بالغة تصرفات هؤلاء، ثم ينقلها إلى رسول الله ﷺ، ليكون على بينة منها... دون أن يدري به أحد.

فى تبوك...!

ويوم غزوة «تبوك» وقد خرج رسول الله ﷺ بثلاثين ألفاً من الصحابة إلى تخوم الشام، حيث جاءتته الأنباء أن هناك تجمعات للروم تريد غزو الحجاز...! وقد خرج معه يومئذ بعض المنافقين، ليس حباً فى الغزو والجهاد، ولكن تبيئاً لأمر بالغ الخطورة، إذ أضمرُوا الغدر برسول الله ﷺ والفتك به.

وفى طريق العودة كشفت تلك العصابة عن وجهها الأسود، وغايتها الدنيئة الحقيرة... وحاولت القيام بالغدر، لكن «حذيفة» تابعهم وأفشل خطتهم، ونقل إلى رسول الله ﷺ أسماءهم، وكانوا أربعة عشر نفساً... ولم يعلم أحد من الصحابة رضوان الله عليهم بالأمر، فقد ظل محصوراً بين رسول الله ﷺ وبين «حذيفة» -رضى الله عنه-.

التلميذ النجيب فى مدرسة النبوة:

والجدير بالذكر عن شخصية «حذيفة» -رضى الله عنه- أنه كان كثيراً ما يستمتع ويشعر بالسعادة البالغة والرضى حين يحضر مجلس رسول الله ﷺ ويستمع إلى مواعظه من تلاوة لما أوحى إليه، وتوجيه وتهذيب وتطهير... وما ينطق به فمه الشريف من حكم ومواعظ... فيتلقاها «حذيفة» فى قلبه، ويستوعبها فى فؤاده، ثم يتأسى بها.

ولذا اعتُبر -رضى الله عنه- أحد أعلام تلامذة مدرسة النبوة... الحافظين لكتاب الله وحدوده، وأوامره ونواهيه، المقتدين بسنة المصطفى ﷺ، والعاملين بها. يحدثنا عن ذلك سيدنا «عبد الله بن عمر بن الخطاب» -رضى الله عنهما- فيقول:

[سألني رجل من أهل «البصرة» عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتم، فقلت: سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم:]

- كنت عاشر عشرة رهط من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وأبوسعيد الخدري، وأنا، مع رسول الله ﷺ، إذ أقبل فتى من الأنصار، فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس فقال:

- يارسول الله - صلى الله عليك - أى المؤمنين أفضل؟ فقال: أحسنهم خلقًا... قال: فأى المؤمنين أكيس^(١)، قال: أكثرهم ذكرًا للموت، وأحسنهم استعدادًا له قبل أن ينزل به، أولئك الأكياس. ثم سكت الفتى، وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

- [يامعشر المهاجرين: خمس خصال إذا نزلن بكم - وأعوذ بالله أن تدركوهن- إنه لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها^(٢) إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذى مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يمطروا، وما نقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم، فأخذ بعض ما كان فى أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتجبروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم]

بمثل هذه الدروس والمواعظ سمت نفس «حذيفة» وسمت نفوس الصحابة جميعًا -رضوان الله عليهم- حتى بلغت الذروة من مكارم الأخلاق والاستقامة على الحق، والبطولات فى مقارعة الظلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله.

بعد رسول الله ﷺ :

انطلق «حذيفة» -رضى الله عنه- من المدينة غازيًا ومجاهدًا فى سبيل الله مع كل جيش، مشرقًا ومغربًا...، فى أيام «أبى بكر» و«عمر» و«عثمان»...

(١) أكيس: من الكياسة، وهى توقد الذهن.

(٢) يعلنوا: يجهروا.

وكان على الدوام فى مقدمة الصفوف، إذ تكاملت فى شخصيته -رضى الله عنه- كل أسباب ومزايا المسلم، الصحابى، المجاهد، القائد...! الحافظ لحدود الله.

البطل الفاتح:

وقدر لـ «حذيفة» -رضى الله عنه- أن يكون فى «الكوفة»، التى كانت فى عهد «الفاروق» -رضى الله عنه- منطلق الجيوش الإسلامية فى أرض «فارس» وأطراف «العراق» و«الجزيرة»

وكان دائم الغزو والجهاد، لا يفتر عن جهاد أو قتال.

لقد شهد مع «سعد بن أبى وقاص» فتح «القادسية»...

وشهد مع غيره معارك «الجزيرة ونصيبين» وأبلى فى كل منها بلاءً حسناً...

ولكن أعظم مشاهده وأولاها بالتقدير والذكر، والتى جعلته قائداً فاتحاً وبطلاً إسلامياً مجاهداً، هى معركة «نهاوند» فى أرض «فارس».

وتعتبر معركة «نهاوند» من أعظم المعارك، ولا تقل شهرة عن «القادسية» و«اليرموك»^(١).

لقد كان «حذيفة» -رضى الله عنه- يومئذ قائداً لجناح جيش المسلمين، على رأس قوات المؤمنين، وعندما سقط «النعمان بن مقرن» شهيداً عند حصون «نهاوند»، ولم تحسم المعركة بعد، تولى «حذيفة» القيادة العامة، بإجماع القادة، استمر فى القتال طيلة الليل، وكتب الله على يديه النصر على الأعداء، وفتح «نهاوند» والدخول إليها...! منتصراً فاتحاً.

وكان من حكمته ويُعدُّ نظره أنه «كتم» عن الجند استشهاد «النعمان» كى لا يهنوا ولا يحزنوا ولا يضعفوا...!

واستمر من بعد فى السباحة والعيث فى أرض «فارس» وبلادها، تحت قيادة «أبى موسى الأشعرى» -رضى الله عنه-.

(١) يرجى مراجعة ما كتبه عن «النعمان بن مقرن» - المزنى - رضى الله عنه.

فتفتحوا «الدينور» و«الرى» و«أذريجان».

كما غزا بقواته وحدها «أرمينية» ثلاث غزوات، وقد فتح الله عليه يومئذ فتوحاً عظيمة عديدة.

وقد تواصلت أعماله الجهادية فى عهدى «الفاروق» و«ذى النورين» -رضى الله عنهما-.

الضيور على وحدة المسلمين:

فى أثناء إقامة «حذيفة» -رضى الله عنه- فى «الكوفة» سمع أناساً من المسلمين يروجون أموراً تدعو إلى الفرقة...!

لقد سمع أهل «الكوفة» يتمسكون بقراءة «عبدالله بن مسعود» للقرآن الكريم...، وأهل «البصرة» يتمسكون بقراءة «أبى موسى الأشعرى»...

فأحس «حذيفة» -بعمق إيمانه- خطورة الأمر إن ترك الجبل على غاربه، فقال:

- (لئن ترك الناس ليختلفن فى القرآن، ثم لا يقومون عليه أبداً، لقد رأيت أناساً من أهل «حمص» يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن على «المقداد بن عمرو»، ورأيت أهل «دمشق» يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم...، ورأيت أهل «الكوفة» يقولون مثل ذلك، وأن قراءتهم على «ابن مسعود»، وأهل «البصرة» يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على «أبى موسى»، ويسمون مصحفه: «لُبَاب القلوب»...!

والله لئن عشت لأتبن أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك) أ.هـ.

ثم شد الرحال إلى المدينة...!

فاتى «عثمان» -رضى الله عنه- وحده وشرح له ويين، وأنذره بالخطر، وكان مما قال:

- أنا النذير العريان... أدركوا الأمة...!

فكان له «حذيفة» -رضى الله عنه- فضل وأى فضل فيما تحرك له، وسعى إليه.

جمع الخليفة «ذو النورين» صحابة رسول الله ﷺ وأخبرهم الخبر، فأعظموه جميعاً، ورأوا ما رأى «حذيفة»،

عندئذ استفرغ «عثمان» -رضى الله عنه- جهده ووسعه، وجمع القرآن على تلاوة قراءة واحدة، ونسخ منه نسخاً بعث بها إلى الأمصار، وأتلف ما عدا ذلك.

«حذيفة» والفتنة على «عثمان»:

عندما اشتدت الفتنة على «عثمان» -رضى الله عنه-، وكان وراءها «ابن السوداء» «عبدالله بن سبأ» -اليهودى المتافق-...، وقد هيج الناس فى «الشام» و«مصر»... اعتزلها «حذيفة» ولم يناصر فئة على أخرى... بل سعى فى الدعوة إلى الوحدة والألفة والمحبة وهو يعلم تماماً «فتنة النفاق» وأساليبها وغاياتها...

لكن صوته وأفعاله فى تلك الفتنة الهوجاء كان ضعيفاً، أو غير مسموع...! وعندما بلغه مقتل «عثمان» واستشهاده، وهو يقرأ كتاب الله تعالى... بكى وتأثر، ثم دعا: (اللهم العن قتلته وشُتامه).

اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا... فاتخذوا ذلك سلماً إلى الفتنة...!

اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف).

وأقام «حذيفة» فى «المدائن» إلى أن أدركه الأجل، فتوفى فيها عام ست وثلاثين للهجرة (٣٦هـ)، ودُفن فيها إلى جانب «سلمان الفارسى» -رضى الله عنهما-.

وكان فيما قاله عندما حضرته الوفاة:

(هذه آخر ساعة من الدنيا... اللهم إنك تعلم أنى أحبك فبارك لى فى لقائك)

رضى الله عن الصحابى الجليل «حذيفة بن اليمان»...

تلميذ النبوة النجيب...

وكنتم سر رسول الله ﷺ ...

والمجاهد في سبيل الله ...

والبطل الفاتح ...

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... !

الداعي إلى الحق والوحدة والعدل والصلح بين الناس .

واحشرنا معه تحت لواء المصطفى ﷺ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	النعمان بن مقرن
٢٨	حسان بن النعمان
٤٧	معاوية بن حديج
٦٤	عقبة بن نافع
٨٢	عبد الله بن سعد بن أبي النهرج
١٠١	نور الدين محمود
١٤٢	الناصر صلاح الدين
١٨٠	سيف الدين قطز
٢١٠	الظاهر بيبرس
٢٣٤	عبد الرحمن الداخل
٢٦٠	محمد بن القاسم
٢٨٠	قتيبة بن مسلم
٣٠٣	موسى بن نصير
٣٢٣	طارق بن زياد
٢٣٦	عبد الرحمن الغافقي
٣٥١	السمح بن مالك
٣٦٠	عبد الرحمن الناصر
٣٧٣	يوسف بن تاشفين
٣٨٩	السلطان محمد الفاتح